حدتو

سيرة ذاتية لمنظمة شيوعية

محمود الورداني

دار الهلال

تصميم الغلاف :

علـى حامـد

الغلاف للفنان :

محمد العيسوى

تقديم

محمد يوسف الجندى

هذه الدراسة التى قام بها الأستاذ محمود الوردانى تمثل جهدا هاما فى تاريخ مصر وفى تاريخ الحركة الشيوعية والحركة الوطنية المصرية، وتمثل إبرازا لجزء هام من التاريخ الوطنى المصرى، عمل البعض على تجاهله لفترة طويلة، وهو دور الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى التى تنتمى إلى الحركات الماركسية التى وجدت فى مصر منذ الأربعينات وكان لها تأثير كبير ومازال تأثيرها حتى الآن .

ومن الملاحظ أن الأستاذ محمود الوردانى ارتبط فى شبابه بالفكر الماركسى والتيارات التى تدعو إلى هذا الفكر والتوجه وبأحدى الحركات التى مارست النشاط فى ارتباط بهذه التيارات منذ الخمسينات، ولكنه توصل بتجربته إلى تقدير للدور الرائد للحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى (حدتو) فى هذه الحركة، وتأثيرها الكبير فى تاريخ مصر والحركة الوطنية المصرية وفى حركة التقدم فى مصر والعالم الثالث، وكان لها دور مؤثر وبارز فى الحركة.

وقد مررت أنا نفسى بهذه التجربة ، فقد

ارتبطت منذ شبابى بالحركة الشيوعية، وبدأت بالارتباط بلجنة نشر الثقافة الجديدة (تحرير الشعب) وأقمت علاقات مع الفجر الجديد (د. ش) ثم انضممت إلى اسكرا . وعندما تمت الوحدة بين اسكرا والحركة المصرية وتكونت الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى (حدتو) بقيت فى حدتو حتى النهاية اقتناعا بدورها وبعدم الانقسام.

ولا يعنى ذلك أننى أنكر دور الآخرين ، وكنت حتى النهاية أتحمل من أجل الوحدة. وعندما تأسس حزب التجمع انضممت إليه ، وأعتبر أنه لعب ومازال يلعب دورا هاما خصوصا وأنه يجمع ويوحد أغلب الاتجاهات التقدمية واليسارية ويمكن أن يلعب دورا هاما فى تاريخ مصر والمنطقة العربية.

وقد قام الاستاذ محمود الوردانى إلى جانب ذلك بإبراز قوى اليسار ودوره والتضحيات التى قام بها، وأبرز البطولات المختلفة للحركة اليسارية المصرية، خصوصا فى فترة العمل السرى وتأثير اليسار وبالذات حدتو فى تاريخ مصر والتحولات الكبرى التى حدثت وآفاق هذا التطور .

الجهد الكبير الذى بذله الاستاذ الوردانى وبالذات أبراز الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى فى تاريخ مصر يحتاج للتنويه والتقدير .

أما قبل

لمْ يكن فى نيتى أن أخوض مثل هذه التجربة . فالسنين تمضى وأشعر بثقلها، وكل ما أطمح إليه أن أنتزع وقتا لأكتب ما أحلم به من روايات وقصص . وليس مصادفة أن من بين ما صدر لى من كتب ، كتاب واحد خارج عن هذا المجال هو «ثمن الحرية» ، والحقيقة أنه لا يتجاوز كثيرا أن يكون روايات وقصص ، فهو حكايات الحرية على مدى مائة عام ! لذلك لم يكن فى نيتى أن أخوض التجربة .

وعندما اتصل بى الصديق الذى تشرفت بمعرفته للمرة الأولى حسين أشرف، ليرتب موعدا بينى وبين الصديق الذى تشرفت بمعرفة للمرة الأولى أيضا الدكتور حازم الرفاعى، اكتشفت أن الأخير هو ابن المناضل الكبير الراحل أحمد الرفاعى ، وأنه قرأ لى بعض القصص والروايات ، ويكن إعجابا خاصا لرواية لى اسمها «أوان القطاف» ، إحدى ركائزها الأساسية فصل قتل الشهيد شهدى عطية الشافعى أثناء تعذيبه . وسرعان ما توثقت علاقتنا حتى أنه اقترح على أن أكتب حكاية «حدتو» - الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى - والتى يمر على تأسيسها ٦٠ عاما .

ومن المفارقات أن كاتب هذه السطور انتمى تاريخيا لتيار ماركسى يمكن اعتباره التيار الرئيسى فى عدائه الايديولوجى لحدتو وامتداداتها ، وفى تلك الأيام ، كانت المعارك الأشد،

والتى كانت صغيرة واعتبرناها كبيرة، بين التيارات والمنظمات الماركسية وبعضها البعض، وليس بينها وبين الحلف الطبقى المعادى !!

لكن كلا من الصديقين - حازم الرفاعى وحسين أشرف - أكد لى أن هذا أدعى لأن أخوض التجربة ، بل أن حيادى يكاد يكون مضمونا، وأن المطلوب هو نقد التجربة وليس مجرد تحيتها .

من جانب آخر ، كان ما دعانى للقبول يعود لأسباب «فنية» فى جوهرها - إلى جانب أفكارى ومواقفى السياسية بطبيعة الحال - فبعد إعادة قراءة بعض السير الذاتية التى أعشق قراءتها ، تم استدراجى وشعرت بالانجذاب نحو حكايات نساء ورجال «حدتو» الودعاء الطيبين والمناضلين الأشداء فى الوقت نفسه، وبادرت بلقاء بعضهم مثل عم عريان نصيف والأساتذة محمد يوسف الجندى وأحمد حمروش وأحمد القصير ، إلى جانب مكالمات هاتفية مع عدد كبير من الأساتذة من بينهم د. فخرى لبيب ود. شريف حتاتة وصنع الله ابراهيم ورمسيس لبيب .

كذلك استغرقت فترة ليست بالقصيرة فى قراءة أغلب الكتب الصادرة بالعربية - سواء المكتوبة بالعربية أو المترجمة - حول الحركة الشيوعية واليسارية عموما، وخصوصا السير الذاتية، وسلسلة «شهادات ورؤى» التى أصدرتها لجنة توثيق

الحركة الشيوعية المصرية حتى ١٩٦٥، إلى جانب أعمال د. رفعت السعيد التى لا يمكن الاستغناء عنها على الرغم من الخلاف مع الكثير من منطلقاتها واستنتاجاتها ، وغيرها من الكتب والدراسات والسير والدوريات .. إلخ التى لا أستطيع أن أحصرها . ولا حاجة فيما أظن لإقرارى لمسئوليتى عن كامل النص الذى كتبته، وأن ما قرأته لم يكن سوى المادة الخام .

□□□

وإذا كان تأسيس «حدتو» فى صيف ١٩٤٧ نقطة تحول فاصلة فى تاريخ الحركة اليسارية ، إلا أنه سبق هذا التأسيس سلسلة طويلة من المحاولات من جانب فصائل وتيارات مختلفة لبناء منظمات شيوعية، واندماج أو اتحاد بين بعضها البعض فى سياق - سأحاول أن أوضحه بعد قليل - طبع هذه الحركة بطابع الانقسام والحلقية والشرذمة ، على نحو أطنب الكثيرون فى اعتباره مرضا «جينيا» ، إن صح التعبير ، وما لبث أن امتد بدوره إلى الحلقة الشيوعية الثالثة بعد مأساة الحل بعدة سنوات .

ولابد أن أشير هنا إلى أن «التأريخ» ليس مهمة الصفحات التالية، كما أن التقويم أو تبنى احدى وجهات النظر المتعارضة أو اتخاذ موقف القاضى للفصل والحكم بين تيارات وفصائل الحركة ليس أيضا مهمة هذه الصفحات .

ربما كانت المهمة الأساسية هى استعادة ذلك الزخم الهائل منذ أواخر الثلاثينات بعد انهيار الحزب الشيوعى القديم - حزب ١٩٢٣ - ومحاولة الاقتراب من نبض حركة دفع المئات وربما الآلاف من النساء والرجال سنوات عمرهم، وفى بعض الأحيان حياتهم ، من أجل مبادئ آمنوا بها وقناعات دافعوا عنها حتى اللحظات الأخيرة .

وإذا كنت أنوى التوقف عند عام ١٩٦٥ فى رواية وقائع ومصائر الحركة فى أعقاب حل المنظمات الشيوعية بعد خروج مناضليها من اعتقال دام استمر خمس سنوات ويعد أحد أبشع أخطاء نظام عبدالناصر، فإن استعادة الزخم الذى سبق أن أشرت إليه سيظل على مدى صفحات هذه المحاولة هدفاً أساسياً ، وربما فنيا وروائيا، لأن استغراقى فى قراءة وتأمل ركام هائل من الصفحات لعشرات من المؤرخين والمشتغلين بالسياسة والمناضلين ، فضلا عما توافر من وثائق الحركة ، وشهادات نسائها ورجالها ، والمقابلات التى قمت باجرائها .. كل هذا الاستغراق جعلنى أشعر بأننى أمام دراما هائلة ، بل أمام ملحمة فنية تبدو عصية على التصديق فى أحيان كثيرة ، فلقد شغلنى على سبيل المثال، لماذا انتهت حركة بهذا الحجم وتلك التضحيات الجسام على ذلك النحو المأساوى والعبثى فى الوقت نفسه ؟!

على أى حال ، وقبل أن أطرح مثل هذه الأسئلة ، أود أن

أؤكد مرة أخرى أن هدفى فى المحل الأول من هذه الصفحات هو استعادة الزخم والمشاعر والمصائر والتضحيات . وإذا كنت قد اخترت أن أروى - ولا أؤرخ - وقائع بناء وتشييد وازدهار ثم سقوط الحركة الديمقراطية للتحرير الوطنى بعد مأساة الحل ، فإن هذا لا يعنى استبعاد الفصائل والمنظمات الأخرى مثل طليعة العمال والراية والانشقاقات المختلفة لهما .

فى بداية هذا المشروع التقيت بصديقى الكبير سعد زهران - وهو أحد القادة التاريخيين لتنظيم الراية كما هو معروف - وعندما أخبرته بمشروعى كانت المفاجأة أنه سبقنى بالشروع فى كتابة عمل جديد اختار له اسم «حدتو والراية» .. لا أعرف هل أنجز كتابه أم لا ، لكن مجرد تفكيره ثم شروعه فى عمل كهذا ، وهو أحد قادة التنظيم المناوئ الأكبر لحدتو ، كان معناه الاعتراف بتأثير وأهمية حدتو .

والحقيقة أن حدتو لم تكن المنظمة الأكبر عددا والأكثر تأثيرا فحسب ، بل إن معظم الانشقاقات - ومن بينها انشقاق سعد زهران نفسه - خرجت من معطف حدتو ، وهى انشقاقات من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار فى الحركة الشيوعية، مما يدل على أن حدتو كانت بوتقة على نحو ما انصهرت فيها كل التيارات والاتجاهات تقريبا ، حتى على الرغم من أن الانشقاق كان مرضا «چينيا» شأنه شأن

الانقسام والحلقية والتشرذم كما سبقت الإشارة .

حدتو أخيرا واحدة من «سرديات» الشعب المصرى الكبرى، ولعلها الأكثر تمثيلا للحركة العمالية المصرية . حدتو رواية أبطالها رجال ونساء اختاروا أن يقدموا تضحيات رائعة من أجل معان نبيلة . عن العدل والحرية . هم يهود مصريون قبل الاستعمار الصهيونى لفلسطين ، وأبناء وبنات الارستقراطية المصرية (هناك عدد كبير منهم أبناء مباشرين لرؤساء وزارات ووزراء واقطاعيون ورأسماليون كبار) ، وصفوة الانتلجنتسيا وعدد كبير من الروائيين (أليس من بينهم يوسف إدريس وصنع الله ابراهيم ومحمد خليل قاسم ؟!) وفلاحون بسطاء وأزهريون ونوبيون وسودانيون وضباط لعب بعضهم أدوارا أساسية فى تنظيم الضباط الأحرار وانقلاب الحركة المباركة ، وفنانون تشكيليون وممثلون وفنانو سينما وقادة للحركة العمالية .. لكل هذا فإن حدتو واحدة من السرديات الكبرى فى تاريخنا الحديث .

أظن أنه لا حاجة للإشارة إلى أننى لا استبعد وقائع وأحداث الفصيلين الكبيرين المناوئين لحدتو وهما الراية وطليعة العمال، وكذلك المنظمات الصغيرة مثل وحدة الشيوعيين وطليعة الشيوعيين وغيرهما . وبدون تناول العلاقة بين حدتو وغيرها من التنظيمات ، لا يمكن فهم الحركة اليسارية بوجه عام ، وهو أحد الأهداف الأساسية لهذا

الكتاب . الحركة اليسارية فيما أتصور أسهمت على نحو لا يحتاج إلى بيان فى صياغة والتأثير فى الصراع الاجتماعى والسياسى فى بلادنا فى أكثر الحقب التاريخية توترا . ولا أنوى أن استغرق كثيرا فى هذه التفصيلة . هل أعيد سرد الوقائع المعروفة للكافة ، مثل تاريخ أول إضراب قادته «جمعية لفافى السجائر» عام ١٨٩٩ ، والدور الذى لعبه الحزب الشيوعى المصرى عام ١٩٢٣ وعضويته في الكومنترن ؟ وهل أكرر ما هو معروف عن عداء سعد باشا زغلول - زعيم الأمة - للحزب الشيوعى والشيوعية ، وهو عداء فاق عداؤه للاحتلال الانجليزى . باختصار وقفت الدولة منذ اللحظة الأولى ضد حزب ١٩٢٣ بأجهزتها القمعية المباشرة وغير المباشرة . إلا أن الحزب والحركة ظلا مثل العنقاء التى تنبعث من جديد . لا أريد أن أستطرد ، فلا حاجة لإثبات أن الحركة اليسارية أثرت فى الفكر والسياسة والعمران والآداب والفنون ، وهو تأثير دفع اليساريون (ومن بينهم عدد كبير من أبناء حدتو) ثمنه بدمائهم ، حيث سقط الكثيرون منهم فى ساحة الوغى حقا - كما يقال - على يد الجلادين .

من جانب آخر ، يدرك كاتب هذه السطور ، أنه يدخل بإرادته حقل ألغام كان من الأفضل تجنبه ، فما زال الانقسام والحلقية يفعلان فعلهما ، ومازال الانتماء القبلى لأحد التيارين الرئيسيين بامتداداتهما يمارس تأثيره . لكننى أدرك فى

الوقت نفسه أن تجربة حدتو صنعها الناس ، وأصاب هؤلاء الناس وأخطأوا ، وسعيي ليس نحو «الحقيقة» ، بل نحو هذه الإرادة الحديدية التى صمدت أمام أحط أنواع الجلادين وأكثرهم تجردا من الإنسانية ، وإعادة سرد ملامح وتفاصيل وتجليات هذه الارادة يحتل بؤرة اهتمامى .

والأمر المؤكد أن حدتو لم تخطئ وحدها ، بل أن كل المنظمات - صغيرها وكبيرها - أخطأت إلى هذا الحد أو ذاك وأصابت إلى هذا الحد أو ذاك ، وانتهى الأمر كله بمأساة الحل التى كانت إحدى نتائج الحلقية والانقسام والتشرذم ، وأكرر أننى لست قاضيا ، ولست أيضا من «الفرقة الناجية» التى ترى أن الآخرين خونة وباعوا القضية ، بل أن الجميع مسئولون ! .

نعم .. كان يمكن تجنب حقل الألغام ، إلا أننى أثق أن تسجيل هذه التجربة الفريدة أمر يستحق أن أواجه ما سوف أواجهه !

وأخيرا أكرر أن التاريخ ليس مهمة هذه الصفحات ، ولذلك تخليت عامدا عن تقاليد البحث العلمى الرصينة ، لكننى - مع ذلك - لا ألقى بفزاعة فى وجه القارئ لأبرر ما قد أكون قد أخطأت فيه من حيث الوقائع أو التواريخ أو الأشخاص ، فأنا أتحمل دون شك مسئولية كل كلمة فى الصفحات التالية .

قذلكة تاريخية

تعرض الحزب الشيوعى المصرى منذ تأسيسه عام ١٩٢٣ لأعنف اضطهاد وتنكيل واسعين عكس حجم العداء الذى يكنه سعد زغلول ممثل التحالف الطبقي القائم وقتذاك من الاقطاع والرأسمالية بأجنحتهما المختلفة ، للحركة الاشتراكية الوليدة .

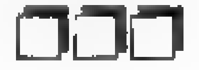
وعلى الرغم من السجن والمحاكمة والتشريد والفصل الذى لقيه أعضاء الحزب (مات انطون مارون مثلا فى السجن) إلا أن الأفكار الاشتراكية وممارسات الحزب الوليد تركت تأثيرا لم يكن ممكنا محوه فى صفوف القطاعات المدينية خصوصا ، كان الحزب قد حصل على عضوية الكومنترن وسافر عدد من أعضائه للدراسة في جامعة كادحى الشرق التى كان الحزب الشيوعى السوفييتى قد أسسها لدراسة كادحى العالم لأسس الماركسية اللينينية وما يرتبط بها من علوم ، ويتخرجون كوادر ماركسية ويسهمون فى قيادة النضال فى بلدانهم .

ومع استمرار الاضطهاد والتنكيل وسجن أغلب اعضائه ، بدأ الحزب يفقد نفوذه ثم خرج منه كثيرون ، غير أن أسوأ ما

تعرض له هو تولى شخصيتين منصب السكرتير العام أجهزا على البقية الباقية . الأول هو محمود حسنى العرابى الذى انتهى به الأمر إلى أن أصبح نصف نازى ونصف مجنون ، والثانى محمد عبدالعزيز الذى كان عميلا لأجهزة الأمن المصرية ، وقام بتسليم باقى الأعضاء ، بل وكان يستقبل مبعوثى الكومنترن ويسلمهم أيضا للأمن ، أى أنه قام بدوره على خير ما يرام !

ومع كل ذلك ، فإن الحزب والحركة العمالية قاما بنضالات واسعة من أجل انتزاع مكاسب كان نيلها صعبا عبر الاضرابات والتظاهرات والاعتصامات مما لا مجال لحصره هنا، لكن سكرتيرين عامين متواليين هكذا حالهما، مع مقاومة ضارية من جانب أجهزة الدولة والحلف الطبقى .. كل ذلك وجه ضربة عنيفة بلاشك .

وهكذا أجهز الخائن محمد عبدالعزيز - وهو شخصية بالغة التعقيد ومن المؤسف أنه كان أحد الدارسين فى جامعة كادحى الشرق عام ١٩٣٢ أو ١٩٣٣ على الأكثر - على الحزب لعدة سنوات قبل أن تظهر البدايات الجنينية للحلقة الثانية من الحركة الشيوعية المصرية .



(١)

سوف أتوقف هنا عند من يمكن اعتبارهم البدايات الجنينية للحلقة الثانية للحركة الشيوعية وهما چاكودى كومب ومارسيل اسرائيل ، إلى جانب الدور الذى لعبته جماعة «الفن والحرية» .

بول چاكودى كومب ومارسيل اسرائيل وريمون أجيون وراؤول كورييل .. هذه مجرد أمثلة لأسماء مجموعة من الشباب كلهم يهود باستثناء چاكودى كومب ، وقد لعبوا دوراً ريادياً فى تأسيس الحلقة الثانية ..

وفي الوقت نفسه كان هناك مجموعة من شيوعيى الحرس القديم ، ومجموعة أخرى التفت حول سلامة موسى الذى كان يلقى محاضرات عن الاشتراكية الفابية في جمعية الشبان المسيحيين . حسبما أشار مارسيل اسرائيل، فإن هناك مجموعة من الشباب الوفديين المهتمين بالاشتراكية من بينهم أسعد حليم ، ومجموعة داخل اتحاد خريجى الجامعات ، ومجموعة داخل استوديو مصر من بينهم صلاح أبوسيف وحلمى حليم وسعد نديم وثلاثتهم عملوا بالإخراج السينمائى وقدموا أعمالاً هامة ، إلى جانب جماعة الفن والحرية التى ضمت مثلاً چورچ حنين وأنور كامل ورمسيس يونان وكامل

التلمساني وفؤاد كامل وغيرهم ..

وعلى الرغم من اسماء المصريين السابق ذكرهم ، إلا أنهم كانوا جزراً منعزلة وأغلبهم ينتمى للأنتلجنتسيا ذات المسحة اليسارية العامة ، بينما كان الدور الأساسى لبدء ظهور بواكير تلك الحلقة لعبه الأجانب الذين كان أغلبهم يهوداً .

ولكن لماذا الأجانب واليهود ؟

الواقع أننى مدرك أن تأثير الأجانب الطاغى فى تلك المرحلة لم تكن نتائجه طيبة ، إلا أنه يجب فهم الأمر فى سياقه التاريخى ، حتى على الرغم من أن أحد أسباب مرض الأنقسام والحلقية الذى أصاب الحلقتين الثانية والثالثة فى الحركة الشيوعية يعود إلى هذه الولادة المتعسرة ، أى تصدى الأجانب واليهود لقيادة المنظمات الشيوعية .

فيما يتعلق بالأجانب يجب أن نضع فى اعتبارنا أن مصر ومنذ عام ١٨٨٢ كانت ترزح تحت ثقل جيش احتلال الامبراطورية التى لم تكن تغيب الشمس عن أملاكها ، الامبراطورية البريطانية . وكان ذلك الاحتلال الكولونيالى يسمح بطبيعة الحال ، وربما يدعو ويرحب بتواجد جاليات أجنبية ضخمة ، فقد بلغ عددهم مثلاً نصف مليون فى بدايات القرن الماضى ، بينما كان عدد السكان فى مصر لا يتجاوز

١٦ مليوناً ، ولهم حياتهم الإجتماعية الخاصة ونواديهم ومدارسهم وصحفهم من اليونانيين والإيطاليين والأرمن إلى جانب رعايا الدولة العثمانية ذوى الأصول الأوربية . ورغم ميلاد أجيال عديدة منهم فى مصر، إلا أن الامتيازات الأجنبية الضخمة التى كانت توفرها لهم جنسياتهم الأجنبية دفعتهم بطبيعة الحال للاحتفاظ بها .

وقد أدى ذلك إلى هيمنتهم وتوليهم لأفضل المناصب ، وكانت أغلب الشركات المساهمة والتجارية مملوكة للأجانب ، بل وظل أغلبها يستخدم اللغات الأجنبية فى المراسلات والحسابات . وفى الوقت نفسه ، وكما تشير أغلب المصادر ، فإن هناك جاليات أجنبية عديدة تشكلت أساساً من العمال والحرفيين . فالإيطاليون مثلاً أسهموا فى تأسيس عدد من النقابات العمالية مثل نقابة لفافى السجائر وعمال المطابع والخياطين . وفى أوائل القرن الماضى كان هناك مد يسارى فى أوربا ونشطت الحركة العمالية إلى هذا الحد أو ذاك ، وقبل أن يصل العالم إلى ثلث هذا القرن ، كان الحزب الاشتراكى الديمقراطى الروسى بقيادة لينين قد وصل إلى السلطة . لذلك كان من الطبيعى أن يتأثر العمال والمثقفون من الأجانب الذين يقرأون باللغات الأجنبية ، بهذا المد اليسارى

النشط، وفى هذا السياق أسس الحزب الاشتراكى الإيطالى للعمال الإيطاليين فى مصر الجامعة الشعبية الحرة . وفى الثلاثينات تصاعد هذا النشاط حتى استطاع أن يواجه الدعاية الفاشية ويدحضها . وإذا أضفنا إلى ذلك أن اليساريين الأرمن واليونانيين كانوا يصدرون نشرات شيوعية دورية ، كما أن المهاجرين الروس عشية الثورة الروسية ممن كانوا أعضاء في الحزب الاشتراكى الديمقراطى كانوا يصدرون نشرة شيوعية باللغة الروسية ، لأدركنا إلى أى حد أثر هذا المد اليسارى ، فالعمال المصريون والأجانب كانوا يعملون جنباً إلى جنب فى المصانع !

أما فيما يتعلق باليهود ، فأولاً لم تكن خطيئة اسرائيل قد ظهرت إلى الوجود واستوطن الصهانية بالقتل والابادة أرض الفلسطينيين ، بل كان جانب كبير من اليهود الذين يعيشون فى مصر يهوداً مصريين ، وهو أمر ربما يبدو غريباً الآن بعد كل ما ارتكبته الصهيونية من جرائم ضد الشعوب العربية . وقراءة التاريخ حتى لو كانت قراءة عابرة ، تكشف عن أن اليهود ، سواء من كانوا من أصول مصرية – أى ولدوا وعاشوا وتربوا في مصر ، أو أؤلئك المتمصرون ذوو الأصول الأجنبية، ذابوا إلي هذا الحد أو ذاك فى النسيج المصرى

شديد الخصوصية ، والقادر على هضم وتمثل الغرباء . هل أذكر يعقوب صنوع وداود حسنى وتوجو مزراحى وزكى مراد وغيرهم ؟ هل أذكر الشخصيات والأسر اليهودية السياسية العديدة مثل قطاوى باشا ؟ هل أذكر «الرابطة الاسرائيلية لمكافحة الصهيونية» والتى عملت فى صفوف اليهود عام ١٩٤٦ ، ١٩٤٧ وحلّها النقراشى باشا رئيس الوزراء (وهو ما سوف يأتى بالتفصيل فى موضع آخر) ؟

وإذا كنت لا أدافع عن اليهود ولا أشبب بدورهم فى قيادة منظمات الحلقة الثانية ، إلا أننى فى الوقت ذاته أربأ بنفسى عن اتخاذ موقف عنصرى تجاه اليهود كيهود ، وكل ما أسعى إليه هو محاولة استعادة الظروف التى أسس فيها عدد من اليهود منظمات شيوعية ، فى هذا السياق أؤكد أن قناعتى الشخصية أن هؤلاء الآخيرين لم يكونوا جزءاً من مؤامرة صهيونية عالمية مزعومة . ومن دواعى أسفى أن عدداً من المؤرخين والمفكرين الوطنيين وقعوا فى هذه الخطيئة بل ووصلوا إلى حد القول إن الصهيونية العالمية هى التى مولت وزرعت الشيوعية فى مصر !

على أى حال ، أعود إلى المناخ الفكرى والسياسى العام فى صفوف الجاليات الأجنبية ، والذى تأثر بالطبع بمثيله فى

أوربا عشية وأثناء الحرب العالمية الأولى ، وهو مناخ شهد موجات من النهوض اليسارى الذى غضت سلطات الأمن المهيمن عليها من جانب الاحتلال البريطانى الطرف عنه لمناهضته للفاشية .

فى اوائل الثلاثينات أسس مثقف ومحام ايطالى يدعى ليون كاسترو ذو ميول صهيونية جماعة «المحاولون» ، وأغلب اعضائها من الإيطاليين واليونانيين والشوام وقلة قليلة من المصريين ، ونما داخلها اتجاه يسارى تبدى واضحاً عندما أصدرت مجلة «الحزمة» فى بداية الثلاثينات ، وما لبث كاسترو أن أسس جماعة «مكافحة العداء للسامية» بعد تصاعد المد الفاشى فى أوربا ، وكان مجال نشاطها الرئيسى مدارس الليسيه التى كان يدرس فيها غالبية الشباب من الجاليات الأجنبية ، ومن بينهم اليهود .

وفى عام ١٩٣٤ انتقل ذلك النشاط إلى مرحلة جديدة بتأسيس بول جاكو دى كومب لـ «اتحاد أنصار السلام» . ودى كومب شخصية تستحق التوقف أمامها طويلاً . ووفقاً لمحضر النقاش الذى أجراه معه د. رفعت السعيد ، وما كتبه مارسيل اسرائيل عنه ، فإن الرجل لم يملّ من تأكيد أنه لم يؤسس تنظيماً شيوعياً بل ويرى خطل هذه الفكرة من

أساسها ، ودافع عن موقفه بوضوح ، على الرغم من أن المؤسسين الثلاثة ريمون دويك وصادق سعد ويوسف درويش ينتسبون إليه على نحو أو آخر ، أو على الأقل تأثروا به .

دى كومب من أصل سويسرى - وبالمناسبة هو مسيحى وليس يهودياً - وولد فى القاهرة ، فأبوه كان مهندساً مشهوراً ويمتلك شركة كبيرة للمصاعد والمقاولات الكهربائية . تعلم بالطبع فى مدارس أجنبية ، ولم يكن يعرف كلمة عربية ، لأن التحدث بالعربية كان أمراً مشيناً - على حد تعبيره - بالنسبة للأجانب المقيمين بالقاهرة فى تلك الفترة . وفى اوائل الثلاثينات غادر مصر إلى ألمانيا لدراسة الموسيقى ، حيث تعرف على عدد من أعضاء الحزب الشيوعى الألمانى ، واشترك معهم فى الدعاية لأفكار الحزب ، وكان يذهب معهم إلى المقاهى ليخطب ويغنى الأناشيد الشيوعية ، غير أنه لم يلتحق بصفوف الحزب .

ولما عاد إلى القاهرة ، أرسله أبوه إلى أدفو للعمل مع المشروع الذى كانت تقيمه الشركة فى كهربة خزان أسوان . وهنا يعترف جاكومب أن هذه كانت المرة الأولى التى يفتح عينيه فيها على كل هذا البؤس الذى يعانى منه العمال والفلاحون المصريون ، فأدرك أن الاشتراكية هى الحل لكل ذلك الهوان .

بوصول هتلر إلى حكم ألمانيا ، قرر البقاء في مصر ، وقرر أيضا البحث عن الشيوعيين المصريين ، لكنه لم يعثر إلا على مجموعة من الشيوعيين اليونانيين ، وعمل معهم فترة قصيرة حتى أنها وثقوا به وعرفوه على زعيمهم ياناكا كيس. وبمرور الوقت تبين له أن هذه المجموعة لا علاقة لها بالمصريين، وطالب بسياسة جديدة لنشر الشيوعية وسط المصريين ، وحدث خلاف أدى لأنقسام خرج فيه دى كومب وآخرون كان من بينهم الشاعر القبرصى الشهير وأحد زعماء الشيوعيين اليونانيين في مصر «بيريدس» ورفائيل دويك وسامى حنوكة وراؤل كورييل ويوسف درويش وچورچ حنين ومارسيل اسرائيل وعدد من التروتسكيين .

وفى عام ١٩٣٦ نشطت هذه المجموعة لمساندة الجمهوريين الأسبان ، شأنهم شأن كثير من اليساريين فى الجاليات الأجنبية للنضال ضد الفاشية مع القوى الديمقراطية الأخرى. والتاريخ يذكر عدداً من الأسماء مثل أبى ستوليار وچورچ بوانتيه وكارليتو مندل من الشيوعيين الذين تطوعوا فى معارك الجبهة الايطالية واستشهد بعضهم وهم يحاربون الفاشست .

يؤكد مارسيل اسرائيل أن مجموعة دى كومب بذلت مجهوداً هائلاً منذ عام ١٩٣٤ وحتى ١٩٣٨ من خلال رابطة انصار السلام التى نظمت عشرات المؤتمرات فى القاهرة والاسكندرية - وأغلب الحاضرين فى تلك المؤتمرات - إن لم يكن كلهم - كانوا من الأجانب ، كما اصدرت الرابطة نشرة شبه منتظمة باللغتين اليونانية والفرنسية ، وبين الحين والآخر تنشر مقالاً بالعربية بين صفحات النشرة .

أما دى كومب الذى ظل شخصاً شديدة الحذر لدرجة التوجس ، فقد كان يتحرك وفى ذهنه أن الاعتبارات الأمنية أمور مقدسة لا يجوز التفريط فى ضوابطها وإلا تعرضت الرابطة لاختراق الأمن (فيما بعد ، وبعد تأسيس منظمة طليعة العمال سيكون الهاجس الأمني أحد ثوابتها ، وهو ما جعلها تنجو لفترة طويلة من اختراق الأمن لها) . وهكذا أسس دى كومب اتحاد انصار السلام كمنبر علنى ضد الفاشية حتى لا تعترض عليه سلطات الاحتلال .

وفي عام ١٩٣٨ سافر إلى أوربا لحضور اجتماع التجمع العالمى للسلام ، ورتب زيارة لنهرو للقاهرة ولقائه بالنحاس باشا زعيم الوفد ، وكان هذا أحد أسباب الخلاف الذى أدى لانقسام المجموعة (وهى نفسها كانت انقساماً عن مجموعة

الشيوعيين اليونانيين التي بدأ دي كومب نشاطه من خلالها) ، حيث هاجمه چورج حنين وراؤول كوربيل لأنه لعب دوراً في لقاء نهرو بعناصر بورجوازية (!) ، وكان الاجدر به أن يقابله الشيوعيون . ومن بين أسباب الانقسام الأخير كما يقرر دي كومب أن هذه المجموعة كانت قد بدأت تنشط نشاطاً واسعاً ، مما أيقظ الهواجس الأمنية لديه ، وخاف أن يهدد ذلك النشاط رابطة أنصار السلام .

وهنا لابد أن أورد نص إجابته على سؤال لرفعت السعيد في محضر نقاش امتد لجلستين في باريس عامي ١٩٦٨ - ١٩٧٠ .

سأله رفعت : لماذا لم تحاول تكوين تنظيم ماركسي؟

أجاب دي كومب :

كنت أرى أن الأجانب لا يمكن أن يؤسسوا حركة شيوعية مصرية . وأن هذه المهمة يجب أن يقوم بها مصريون وأن مهمتنا الأساسية هي دراسة الواقع المصري وأن نبحث في حذر عن مصريين قادرين على قيادة العمل ثم نترك لهم مهمة تأسيس التنظيم ..

ويضيف :

أنا مصمم على أنني لم أؤسس تنظيماً . أنا وضعت

البذور ثم تركتها . أنا كنت من الناحية المبدئية ضد أن يقوم أجانب بتأسيس تنظيم .. أننى أقرر بوضوح أن تاريخ الحركة الشيوعية قد بدأ ، بعد أن تنحيت أنا عن العمل . لقد عملت فى مصر عشر سنوات من النضال الديمقراطى الماركسى بهدف نقل الفكر الماركسى إلى عدد من المصريين . وهذا هو كل دورى وبعد ذلك تركتهم يفعلون ما يشاءون» .

والحقيقة أن د. رفعت السعيد بغض النظر عن أى خلاف معه أو حول مواقفه، أسدى لتاريخ الحركة الشيوعية خدمة جليلة ، من خلال محاضر النقاش التى أجراها ونشرها مع عدد كبير من شيوعيي الثلاثينات والاربعينات قبل وفاتهم مثل ايلى ميزان شقيق زوجة دى كومب الذى كان يعمل موظفاً فى شركة الإعلانات الشرقية ، ثم اعتقل عام ١٩٤٨ وطرد فى العام التالى من مصر . ميزان - أحد مؤسسى تنظيم ايسكرا - يقرر أنه أسس عام ١٩٣٣ فرعاً لرابطة مكافحة العداء للسامية في مدرسة الليسيه التي كانت تضم أكبر التجمعات من الشباب الأجانب ممن تحولوا إلى الشيوعية، وكانت الرابطة التى أسسها كاسترو ذو الميول الصهيونية تستهدف أساساً الوقوف ضد النازية فى أعقاب وصول هتلر إلى الحكم ، مع ما يعنيه ذلك من اقتراب الخطر من أى

يهودى من العالم ، وهو ما يقرره ريمون أجيون اليهودى السكندرى الذى غادر مصر عام ١٩٤٥ .

أجيون كان من أسرة ثرية ، إلا أنه تمرد عليها . وفى المدرسة اليهودية بالاسكندرية تعرف على معلمته مدام آنا طوبى ، ولحسن حظه أنها كانت تدرس له مادة التاريخ وجذبته إلى الأفكار اليسارية الجديدة ، وسرعان ما ارتبط باتحاد أنصار السلام ، لكنه أحس «أن هؤلاء العاملين فى اتحاد أنصار السلام كانوا حذرين أكثر من اللازم ، خائفون دوماً ، يخشون أى تحرك ، وكانوا يتحدثون حتى فيما بينهم بحذر شديد وخوف شديد ، وقلت فى نفسى إذا كانت هذه الشيوعية فأنا لست شيوعياً » حسبما ذكر لرفعت السعيد فى محضر النقاش .

وفى عام ١٩٣٩ خرج أجيون مع مارسيل اسرائيل وراؤول كورييل وفتاة لا يتذكر اسمها (فى انقسام آخر) ليؤسسوا صحيفة «دون كيشوت» التى صدرت بالفرنسية وبجوارها حزب شيوعى يتألف من هؤلاء الأربعة!!

حكايات الأجانب - وأغلبهم من اليهود - يجمع بينها تلك الرغبة الصادقة فى التمرد والتغيير ، ليس فقط بسبب طبيعة الشباب والسن ، بل لأن هناك ظروفاً موضوعية تمثلت فى

انتصار هتلر بعدائه العنصرى لليهود ، كما تمثلت أيضا فى البؤس والفقر الفظيع الذى انتهك آدمية الفلاحين والعمال المصريين ، وفى الوقت نفسه تعاطف معهم عدد من الشباب أبناء الاستقراطية ، حتى لو كان بعضهم أجانب أو يهود . أكرر أن الجاليات الأجنبية كانت قد استقرت فى مصر منذ أجيال ، واليهودية كانت قبل الاستيطان الصهيونى فلسطين ديانة شأن أى ديانة ، وبالاضافة إلى كل ذلك كان هناك مد يسارى فى العالم بعد انتصار ثورة اكتوبر ١٩١٧ .

نعود لايلى ميزان الذى اتصل مع مجموعته بمجموعة الفنانين السرياليين «جماعة الفن والحرية» ومنهم چورچ حنين ورمسيس يونان وكامل التلمسانى. أصدروا أولاً مجلة «دون كيشوت» ثم اشترى ايلى ميزان من سلامة موسى «المجلة الجديدة» وكتبها باسم رمسيس يونان ، وعندما انقسمت مجموعة ايلى ميزان على جماعة رمسيس يونان ، استولى الأخير على المجلة ، إلا أنها سرعان ما توقفت !! .

على أى حال إتجه نشاط المجموعات الأجنبية إلى أمور تتفق مع توجهاتهم المثالية ، مثل مساعدة المهاجرين اليوغوسلاف ، وكان عددهم ٢٨٠٠٠ تكدسوا فى منطقة القناة ، وشكلت زوجة ايلى ميزان مثلا لجنة للاهتمام بهم

وجمع تبرعات مالية لمساعدتهم ، إلى جانب إقامة جسور بين الشيوعيين في صفوفهم وبين المجموعات اليسارية فى مصر ، وهو الأمر الذى أولاه ايلى ميزان جل عنايته !!

كما اهتمت تلك المجموعات بالتشكيلات العسكرية اليونانية التى كانت تقاوم سياسة الانجليز بتصفيتهم من خلال الزج بهم فى معارك غير متكافئة مع العدو فى جبهات بعيدة عن الجبهة اليونانية أثناء الحرب العالمية الثانية . وقام هؤلاء الجنود بعدد من الانتفاضات ضد تآمر الانجليز الذين كانوا يحاصرونهم ويمنعون عنهم الطعام ، فكانت المجموعات اليسارية تقوم بمساعدتهم ، وفى أحد هذه الانتفاضات اشتروا لهم طعاماً واتصلوا بعدد من الجنود الانجليز الشيوعيين وعن طريقهم تم توصيل الطعام إلى اليونانيين.

أما دينا فورتى ، وهى شيوعية ايطالية لعبت دوراً فى صفوف يساريى الجالية الايطالية ، فقد غادرت مصر فى اوائل الاربعينات ، وتتذكر - طبقاً لمحضر النقاش الذى أجراه معها رفعت السعيد أيضاً - أن هناك شخصاً اسمه صبحى - غاب عنها بقية الاسم وكان يعمل مدرساً ، هو المصرى الوحيد فى اتحاد أنصار السلام خلال الفترة التى كانت هى عضوا فيه . إلا أنها تؤكد أنهم كانوا على علاقة

بالحزب الشيوعى الإيطالى ، ولعل هذا يفسر جانباً من هذه الانقسامات المتتالية التى لم تكن تنقطع ، فكثير من هذه المجموعات كانت ترتبط بأحزاب الموطن الأصلى . كما أن هناك ظروفاً عالمية لعبت دوراً مفاجئاً ، فمثلاً كلف الحزب الشيوعى الإيطالى أحد قادته - وهو الرفيق سبانو - بالتوجه إلى بورسعيد أثناء معارك الفاشيين الايطاليين ضد الحبشة ، وتنظيم الاتصال والقيام بالدعاية وسط الجنود الإيطاليين المتجهين إلى الحبشة عبر بورسعيد . ودينافورتى تجيب أجابة صادقة للغاية عندما يسألها رفعت السعيد بعد أن غادرت مصر بأكثر من ثلاثين عاماً (غادرت مصر فى اوائل الاربعينات) :

- ماذا كان موقفكم تجاه قضايا الشعب المصرى ؟

- كان خطؤنا الأساسى أننا حصرنا أنفسنا فى الاهتمام بالأوضاع الإيطالية كنا نناضل من أجل ايطاليا ونتتبع أخبارها ، وكنا نوزع نشراتنا على الايطاليين ونعمل بينهم وأنا مثلاً لم أهتم بدراسة اللغة العربية إلا بعد أن وعيت سياسياً ، فحاولت أن أتلقى دروساً فى اللغة العربية على يد صبحى ولكن لم استمر طويلا ..!

سوف أنتقل الآن إلى شخصية هامة أخرى أشعر تجاهها

باحترام خاص ، وكنت أتمنى أن ألتقى به قبل رحيله ، وهو الرفيق مرسى أو مارسيل اسرائيل . ليس فقط بسبب الدور الذى لعبه فى تأسيس أول منظمة شيوعية بعد انهيار الحزب القديم ، بل أيضاً لأنه كان «نموذج الشيوعى الذى تتحدث عنه الكتب» ، أو حتى الذى يتجاوزه !

فى صورة فوتوغرافية التقطها له المخرج صلاح أبو سيف عام ١٩٣٨ تبدو ملامحه مصرية بحاجبيه الثقيلين وشعره الأسود الغزير يتوج رأسه ، كما تكشف نظرة عينيه الواسعتين اللتين لا تواجهان الكاميرا عن طيبة متناهية تخفى تلك الارادة الحديدية التى كشفت عن سيرة حياته على مدى قرابة تسعين عاماً . كان اسمه مارسيل اسرائيل ، إلا أنه بعد طرده من مصر ، استرجع بأمر من رئيس الجمهورية الايطالية اسم العائلة الاصلى «شيريزى لاستبعاد أى اختلاط أو صلة بينى وبين دولة اسرائيل - حتى ولو اسمياً - لأننى قد كافحت ومازلت أكافح ضد سياستها العدوانية» على حد تعبيره.

ولد الرفيق مرسى فى القاهرة ، وبالتحديد فى شارع طور سينا بحي الظاهر الذى كان يتركز فيه كثير من اليهود متوسطى الحال ، وينتمى عن طريق والده إلى عائلة ايطالية

هاجرت إلى مصر في أوائل القرن التاسع عشر ، وجده الأكبر جاء إلى مصر بموجب فرمان من السلطان العثماني لتعيينه رئيسا للطائفة اليهودية في مصر ، وقد أيد فيما بعد عرابي في انتفاضته ضد الخديو توفيق . يتذكر مارسيل أيضاً (من مواليد عام ١٩١٣) أن معظم أصدقاء والده الذي كان من كبار الاقطاعيين في ميت غمر مصريين مثل يوسف الجندي رئيس جمهورية زفتى إبان ثورة ١٩١٩ ، كما كان يرتدي الطربوش ولم يتخلف مرة واحدة عن حفلات المطرب صالح عبد الحي ، إلا أنه فقد كل ثروته في نهاية الحرب الأولى ، وعمل فرازاً للقطن في شركة للحليج . أما أمه فمن أصول ايرانية ، ويتذكر مارسيل أيضاً أن جدته لأمه كانت تتحدث العربية وترتدي الملاءة الشعبية التي كانت النسوة المصريات في الاحياء البلدية يرتدينها .

وإذا كان قد اختلط في طفولته الباكرة بالفلاحين في ميت غمر وميت برة وطلخا وغيرها من مراكز وقرى الدلتا ، إلا أنه تلقى تعليمه في مدرسة الفرير المسيحية في حي الظاهر حيث كان ممنوعا التحدث بالعربية ! وعندما حصل على دبلوم عال في التجارة والاقتصاد عمل في أحد البنوك ، وفي الوقت نفسه انتسب إلى كلية الحقوق الفرنسية ليدرس القانون

والعلوم الاجتماعية ، لكنه كان قد التقى بالماركسية فترك الدراسة قبيل الامتحان النهائى لأن «الحصول على شهادة عالية وخاصة من جامعة استعمارية أنحراف بورجوازى» ! على حد تعبيره . اللافت للنظر أن قراءته لتولستوى قادته إلى الشيوعية ، بينما قادت شقيقته لاعتناق المسيحية وتحولت إلى راهبة !

فى طفولته وصباه شاهد بعينه بؤساً فظيعاً . فآلاف الأطفال بين سن ٧ و ١٢ سنة كان يتم جمعهم وشحنهم من القرى إلى مصانع الحليج حيث يعملون ١٥ ساعة يومياً . وعندما زار والده فى المصنع شاهد الأطفال وهم يضربون بالكرابيج ، فازداد ارتباطه بالماركسية خصوصاً بعد أن قرأ كتاب بوخارين عن المادية التاريخية ثم البيان الشيوعى ، وما لبث أن شارك فى المظاهرات الوفدية التى اشتعلت ضد ديكتاتورية الملك فؤاد ورئيس وزرائه اسماعيل صدقى.

وفى عام ١٩٣٤ أصيب مارسيل بالربو ، حتى أنه اضطر للاستقالة من عمله فى البنك الإيطالى ، مارسيل يدين للربو مرتين . الأولى لأنه منعه من العمل ثلاث سنوات متصلة مما أتاح له دراسة الماركسية بعمق ، والمرة الثانية لأن الأطباء أمروه بالتوجه إلى لبنان فجوها مناسب لحالته الصحية ليلتقى

بشيوعيى الشام ، وفى عام ١٩٣٦ أثناء وجوده فى لبنان رأى شابا يعتدى بالضرب على بائع حلوى فاقد لاحدى ذراعيه ، فاندفع يحمى البائع واشتبك مع المعتدى الذى كان أحد أبناء حاكم لبنان ، دون أن يعلم مارسيل بهذا الأمر إلا بعد يومين عندما ذهبت الشرطة إلى فندقه وطلبوا منه تقديم اعتذار لابن الحاكم ، فرفض ووصلت تلك الحادثة إلى الصحف ، وطالبت احدى الصحف بإبعاده عن لبنان ، ودافعت عنه صحيفة ديمقراطية حتى تدخل السفير الايطالى وأنهى المشكلة . فوجئ مارسيل بفرج الله الحلو (الذى سيتم تذويب جسده كيميائياً فيما بعد على يد جلادى الأمن وهو سكرتير عام للحزب الشيوعى) يتصل به ويعرفه بنفسه ثم يقدمه إلى نيقولا شاوى - وهو شيوعى آخر فى الحزب - وما لبث الأخير أن قدمه لخالد بكداش ورفيق أرمنى اسمه ميدويان.

ناقشه الرفاق اللبنانيون حول الأوضاع فى مصر ، وطلبوا منه أن يرسل لمجلة صوت الشعب اليسارية مقالات عن الواقع المصرى بعد عودته ، وهو ما فعله مارسيل إلى جانب اتصاله برابطة أنصار السلام التى كان چاكودى كومب قد أسسها - كما سبقت الاشارة - كما شارك فى نشاط الحركة المعادية للفاشية فى مصر.

ونتيجة لهذا النشاط هاجمه المرض مرة أخرى ، فعاد إلى لبنان فى صيف ١٩٣٧ ، والتقى بالرفاق اللبنانيين ودار حوار بينهم وبينه حول نشاط رابطة انصار السلام ، وفتحت تلك الحوارات عينيه على تلك الحقيقة التى كانت غائبة عنه : أن هذه الرابطة تقصر نشاطها على الأجانب ولا علاقة لها بالواقع المصرى ، كما أن أى حديث عن نشاط يسارى يقوم به الأجانب وسط الأجانب هو أمر يخص الأجانب ، والسعى نحو القيام بعمل وسط المصريين يقتضى العمل على «تكوين ماركسيين من العمال والمثقفين المصريين» على حد تعبيره .

وهكذا ، عندما عاد الرفيق مرسى إلى مصر حاول أن ينقل هذا الرأى إلى الرابطة (أنصار السلام) إلا أن چاكودى كومب رفض تماماً مجرد فتح الموضوع ، فلا نشاط إلا الدفاع عن السلام ، فحاول تشكيل تيار داخل الرابطة ينادى بتمصير نشاطها ، وكانت النتيجة ابعاده عنها بعد أن كان سكرتيراً لها. لم يتوقف مارسيل واتجه على الفور ، عام ١٩٣٨ - إلى تشكيل مجموعة أخرى تكونت من جورج بواتيه وراؤول كورييل وفؤاد الاهوانى ومحمد نصر الدين المدرس بكلية البوليس وچانيت فايس زوجة مارسيل ، واطلق على التجمع الجديد اسم الاتحاد الديمقراطى واستأجر شقة لهذا الغرض ، فى شارع الفضل بين شارعى قصر النيل وسليمان

باشا ، وفى اجتماع ترأسه عصام الدين حفنى ناصف من الحرس القديم (كان عضواً فى الحزب الشيوعى المصرى عام ١٩٢٣) وفى حضور نحو ٤٠٠ شخص أعلن تكوين الأتحاد الديمقراطى .

كان مارسيل حريصا على أن يعلن مصرى تكوين الأتحاد، وحريصاً أيضاً على أن تكون أغلبية قيادة الاتحاد من المصريين ، وفى الوقت نفسه واصل نشاطه حيث جند عدداً من أعضاء جماعة الفن والحرية مثل أسعد حليم وفتحى الرملى وعبد العزيز هيكل ومرسى الكاظم ونوبى أسمه صالح عرابى.

بلغ نشاط الرفيق مرسى نقطة حاسمة فى أواخر عام ١٩٣٩ حين تقرر تأسيس أول منظمة شيوعية فى مصر بعد ضرب وتصفية حزب ١٩٢٣ باسم «تحرير الشعب» . يقول مرسى : «من الخطأ القول إن مارسيل شيريزى هو مؤسس هذه المنظمة . إنه فى الواقع واحد من المؤسسين فالذين أسسوها هم تحسين المصرى الذى كان عضواً فى الحزب الشيوعى الفرنسى وأسعد حليم وعبد العزيز هيكل وفتحى الرملى وأنور كامل وصلاح أبو سيف والرملى خضر وحسين كاظم ووفيقة أبو جبل زوجة صلاح أبو سيف وأبو بكر سيف النصر وفوزى جرجس وثلاثة من عمال المطابع ومارسيل

شيريزى وچانيت ڤايس زوجته وخورشيد المصرى وراؤول مكاريوس حسبما ذكر في حوار مع رمسيس لبيب وخالد حمزة دار في القاهرة عام ١٩٩٥ .

وفى مؤتمر تأسيس «تحرير الشعب» نوقش برنامج المنظمة ولائحتها الداخلية وتقرير عن الوضع الاقتصادى والاجتماعي والسياسى ، ثم تقرير تكوين منظمتين علنيتين هما «الخبز والحرية» للعمل في صفوف العمال التى تمكنت من جذب عدد من عمال المطابع وبعض عمال شركة سيجوارت التى كان يعمل بها مارسيل «مخزنجى» والمنظمة الثانية هى «الثقافة والفراغ» التى عملت فى صفوف المثقفين الأجانب.

فى تلك الفترة نجح مارسيل فى تجنيد بعض العمال فى شركة سيجوارت ، وكذلك شركة السكر بالحوامدية ، بل ونجح أيضا فى تنظيم إضراب فى الشركة الأخيرة ، وكان يجتمع مع العمال فى بيوتهم فى حى «المعصرة» حتى كشفته ادارة الشركة وفصلته من العمل ، فتفرغ للعمل السرى وتأسيس أول مدرسة كادر لتدريس الماركسية..

وما لبثت سلطات الأمن أن قامت بحل المنظمتين العلينتين (الخبز والحرية والثقافة والفراغ) . وفى أكتوبر١٩٢١ تم القاء القبض على مارسيل وأنور كامل وأسعد حليم وفتحى الرملى

وحسين كاظم وعبد العزيز هيكل وحلمى حليم وحسنى العرابى ، وأفلت المخرج صلاح ابو سيف لسبب بسيط وهو أنه كان مشغولاً بعمله فى استوديو مصر . بعد شهرين ونظراً للتحالف الانجليزى السوفيتى أثناء الحرب العالمية الثانية أفرج عن الجميع باستثناء مارسيل الذى أرسل إلى المعتقل بوصفه ايطالياً خطراً على الأمن العام ، وظل فى المعتقل مع الفاشيين الايطاليين ، وهو أسوأ سجن تعرض له ، فقد كان سجناً مزدوجاً من جهاز الأمن المصرى من ناحية ، ومن الفاشيين الايطاليين من ناحية أخرى ، غير أن رفيقه فى التنظيم أبو بكر سيف النصر ابن وزير الحربية ، بذل جهودا مضنية للافراج عنه ، وفى ٣ يوليو ١٩٤٢ أفرج عنه ليلاً واصطحبه البوليس السياسى إلى خارج الحدود المصرية.. إلى فلسطين..

وكالعادة ، لم يهدأ مرسى وكان يتحين الفرصة للعودة إلى مصر بأى طريقة وأخيراً لعبت الوساطة دورها ، لكنها هذه المرة كانت عن طريق فؤاد باشا سراج الدين الذى كان صديقاً لعم والدة مارسيل (أصلان بك عجمى) رئيس بورصة الاوراق المالية بالاسكندرية وله صلات واسعة بباشوات مصر الذين كانوا يضاربون فى البورصة !

المهم أنه نجح فى العودة عام ١٩٤٤ وعاود اتصاله برفاقه لإعادة تأسيس تحرير الشعب بعد الضربة الأمنية الموجعة التى تعرضت لها المنظمة ، وعقد اجتماع فى القناطر الخيرية حضره اكثر من ٣٥ عضواً من بينهم مصطفى كامل منيب وعبد الرحمن الشرقاوى ونعمان عاشور وسعيد خيال وأسما حليم وأسعد حليم وأبو بكر سيف النصر وصلاح أبو سيف وابراهيم سعد الدين ، وكان أهم ما أسفر عنه الاجتماع ما نصت عليه اللائحة الجديدة بألا يتولى أى أجنبى مسئولية قيادية فى المنظمة.

وبمعاونة رفاق لبنانيين وفلسطينيين وانجليز قام بدور فى الجهود المبذولة لتوحيد المنظمات الماركسية ، فتمت الوحدة أولاً بين تحرير الشعب ايسكرا فى «الطليعة المتحدة» ، ثم وحدة الأخير مع الحركة المصرية للتحرر الوطنى ، لتخرج أخيراً إلى النور «الحركة الديمقراطية» للتحرر الوطنى» ، وهو ما سوف أعود إليه فيما بعد.

ولأن مارسيل لا يهدأ مطلقاً ، قام عام ١٩٤٧ ، وفى ذروة النشاط الصهيونى فى مصر ، بتشكيل الرابطة اليهودية لمكافحة الصهيونية وكان سكرتيرها مصرى هو عزرا هرارى، وكان أول نشاط لها فى صفوف اليهود المصريين والأجانب

توزيع ٦٠ ألف نسخة من بيان كتبه مارسيل فى شوارع القاهرة ضد الصهيونية ، وتعرض موزعو البيان للضرب من الصهاينة كما قبضت سلطات الأمن المصرية عليهم (!!) وأودعوا السجن ثم قام النقراش باشا بحل الرابطة أيضاً(!!).

أما داخل حدتو ، فقد رفض مارسيل أى منصب قيادى فيما عدا مسئوليته لشهور قليلة عن قسم الأجانب ، وظل يلعب أدواراً مختلفة داخل حدتو ، فعمل لفترة فى مكتب الدعاية المركزى تحت اشراف شهدى عطية الشافعى ، وعندما خرج الأخير فى تكتل العمالية الثورية (وهو ما سوف أعود إليه فيما بعد أيضاً) طلب من مارسيل الانضمام إليه ، وبعد مناقشات عديدة ومطولة بينهما أقتنع شهدى بخطأ نظرية التكتل وخطرها على الوحدة بين الشيوعيين ، بل وكتب مقالاً يستنكر فيه نظرية التكتلات.

وأخيراً ، وفى عام ١٩٤٩ قبض على مارسيل ومعه مجموعة من الرفاق فى الاسكندرية ، وقدموا للمحكمة العسكرية فى القضية المعروفة بقضية «اللجنة التحضيرية لمؤتمر تأسيس الحزب» وكان ضابط المباحث ممدوح سالم (الذى وصل إلى منصب رئيس وزراء مصر أيام السادات)

من بين من حاولوا الضغط على مارسيل لافشاء بعض الاسرار في مقابل الافراج عنه ، وعندما رفض أصدرت المحكمة العسكرية حكماً بالسجن ٥ سنوات ، وبعد أن أمضى فترة العقوبة تم نقله لسجن الاجانب ثلاثة شهورر ، ثم صدر قرار بإبعاده عن مصر ، وتم شحنه بالفعل على ظهر احدى السفن رغماً عنه ، ولم يتمكن من رؤية الوطن الذى ارتبط به وقدم له الكثير إلا فيما بعد فى التسعينات ، وبعد أن كان قد مضى على إبعاده قرابة نصف قرن!

وحتى استكمل المشهد السياسي والتنظيمي وقتذاك ، لابد من الاشارة إلى تأسيس جماعة «الفن والحرية» التى يراها البعض امتداداً متمصراً لجماعة المحاولين التى أسسها - كما سبق الاشارة - محام ذو ميول صهيونية وكان صديقاً لسعد زغلول اسمه ليون كاسترو) .

هذه الجماعة تحديداً تشير إلى جانب آخر من لوحة الفسيفساء التى ميزت نشأة الحلقة الثانية.

في «بيت الفن» ٥ شارع درب الحبالة بالحلمية الجديدة انطلقت مجموعة من الشعراء والفنانين التشكيليين من بينهم جورج حنين ذو الميول التروتسكية ، والذى عرف فيما بعد كواحد من كبار الشعراء السرياليين باللغة الفرنسية على المستوى العالمى، وهو أيضاً أحد أبناء الارستقراطية الكبار ، فأبوه صادق باشا حنين من كبار اثرياء مصر ، وتزوج من بولا العلايلي حفيدة أحمد شوقى بك أمير الشعراء .. وفى ذلك الوقت ، أى عام ١٩٣٩ ، كان يخطو خطواته الأولى مع عدد من الفنانين مثل أنور كامل ويوسف العفيفى ورمسيس يونان وكامل التلمسانى وغيرهم..

أغلب هؤلاء ينتمون - طبقياً - للبورجوازية الكبيرة والإقطاع ، مثقفون ثقافة أجنبية - فرنسية فى الغالب -

ودافعهم التمرد الفنى والجمالى أساساً ، وتعد مجلتهم «التطور» لسان الحال النظرى لأفكارهم ورؤاهم ، وقد صدر منها سبعة أعداد بين يناير وسبتمبر ١٩٤٠ قبل أن تحتجب (لحسن الحظ اعادت مطبوعات «الكتابة الأخرى» طباعتها كاملة فى مجلد واحد فى التسعينات).

ومن بين انشطة الجماعة المتمردة إقامة أول معرض تشكيلى سريالى فى القاهرة ، كما أصدرت نداءها الشهير «يحيا الفن المنحط» المطبوع بالفرنسية ، وحتى نعرف إلى أى حد كانوا معزولين نقرأ السطور التالية من البيان المشار إليه..

«نحن نعرف مدى عداء المجتمع البورجوازى لكل خلق أدبى أو فنى يهدد بشكل مباشر أو غير مباشر النظم الفكرية والقيم المعنوية التى يرجع الكثير من بقائه وحياته لاستمرارها، ويتجلى هذا العداء اليوم فى الدول ذات النظام الواحد وخاصة فى ألمانيا الهتلرية حيث يشن إعتداء فظ عن الفن الذى يصفه العسكريون بأنه منحط . إن كل ما قدمه النبوغ المعاصر ابتداء من سيزان إلى بيكاسو وكل ما أبدعه الفنان الحديث من نتاج حر ذا قيمة انسانية يسب ويداس بالأقدام ويمنع من التداول».

ومع ذلك فإن مجلة التطور كانت تضم في الوقت نفسه مقالات وموضوعات اجتماعية وسياسية ذات طابع تحريضي، وفي مقدمة العدد الأول نقرأ :

«نحن نؤمن بالتطور الدائم والتغير المستمر . نحن نقاوم الأساطير والخرافات ونكافح القيم المتوارثة التي وضعت لاستغلال قوى الفرد في حياته المادية والروحية . نحن نعتقد أن المجتمع المصري بحالته الراهنة مجتمع مريض فاقد للاتزان . فمقاييسه الخلقية مختلة . وأوضاعه الاجتماعية والاقتصادية مختلة ، وأثر هذا الاختلال نراه واضحاً في أعراض الانحلال المتفشية في عناصر القوة فيه : فالشباب المتعلم من جهة يقضي وقته في الاحلام العريضة نتيجة لما يعانيه من كبت لميوله ونزعاته ، وسواد الشعب من جهة أخرى يعيش في أشنع حالات الفقر والبؤس نتيجة لانعدام روح العدالة في النظم التي يخضع لها».

من جانب آخر ، تشكلت أيضاً جماعة «الخبز والحرية» ، وأصدرت بعض الدراسات مثل «مشاكل العمال في مصر» وطبع منها ١٠٠٠ نسخة كما يقول أنور كامل الذي شارك في تأسيس الجماعة مع فتحي الرملي وأسعد حليم وصالح عرابي وعبد العزيز هيكل . واستطاعت الخبز والحرية أن تجتذب

عدداً كبيراً من العمال لحضور ندواتها ولقاءاتها ، وكان طبيعياً أن يغلقها البوليس فضلاً عن أن الخلافات كانت قد بدأت تعرف طريقها إلى المؤسسين - كالعادة - وخرج أسعد حليم وعبد العزيز هيكل ليشاركوا مارسيل اسرائيل فى منظمة تحرير الشعب الشيوعية.

لوحة الفسيفساء مازالت تضم ألواناً أخرى من الطيف اليسارى الواسع . ففى عام ١٩٤٤ / ١٩٤٥ وفى ظل الاحكام العرفية أرتدى فتحى الرملى سترة العمال الزرقاء ونزل إلى دائرة السيدة زينب مرشحاً فى انتخابات البرلمان عن مجموعة - علنية فى النالب - أطلقت على نفسها اسم «الجبهة الاشتراكية» .. كما أن رابطة أو اتحاد أنصار السلام الذى سبقت الاشارة إليه ، كان أعضاؤه قد اجتمعوا فى أحد أيام عام ١٩٣٩ واتفقوا على حله بعد أن اشتعلت نيران الحرب العالمية الثانية ، واسسوا بدلاً منه «جماعة الدراسات» فى شارع عدلى بالقاهرة . ومن المثير للدهشة أن هؤلاء الأجانب اتجهوا للقيام بدراسات عن الواقع المصرى . والأكثر أثارة هو أن الهدف من هذه الدراسات - حسبما عبر چاكو دى كومب -- تعريف الاوربيين بالواقع المصرى بعد قيام الحرب واغلاق الحدود (!!) فعلى سبيل المثال أصدرت

الجماعة كتاب «مصر الآن» لهيلارى وانيت الموجه أساساً لجنود الحلفاء (!!).

على أى حال ، ما لبث چاكودى كومب أن ركز جهوده وعلاقته مع كل من صادق سعد ويوسف درويش وريمون دويك الذين لعبوا الدور الأساسى فى تأسيس منظمة طليعة العمال، ونجحوا بالفعل فى العمل بين المصريين ، وتحول بيت يوسف درويش (٧ سكة جلالة الملك أمام حوش قايد فى حى بولاق) إلى مقر لجماعة تستهدف محو الأمية بين العمال والفلاحين ، وافتتحت لها فرعين فى ميت عقبة والسبتية بالقاهرة ، كما عقد يوسف درويش ، وهو مناضل من طراز نادر - صلة مع الزعيم العمالى الشهير الراحل محمود العسكرى . وفى هذا السياق تأسست مجلتا « الفجر الجديد» و «الضمير» و«لجنة العمال للتحرير القومى» و «لجنة نشر الثقافة الحديثة».

أما المجموعة الأخرى التى لعب مارسيل دوراً أساسياً فى تشكيلها فقد ضمت أنصار التمصير ، أولئك الذين كانوا يرون أنه لا معنى لتبنى الأفكار الماركسية بمعزل عن صفوف المصريين ، وهكذا بدأ شعار التمصير يعرف طريقه إلى الشباب اليسارى ، سواء من خلال المجموعة التى أسست منظمة طليعة العمال ، أو المجموعة الأخرى التى نحن

بصددها الآن ، لكن كلاً من المجموعتين سارت على نحو منفرد ، فالأولى رأت التحرك بحذر متوجسة من الاختراق الأمني وفقاً لهواجس چاكودى كومب وتأثيره ، والثانية بدأت تتلمس طريقها دون سيطرة تلك الهواجس ، أى أنه لم تكن هناك خلافات «ايديولوجية» مثلا تسبب ذلك التشرذم الذى كان ملمحاً أساسياً - وسيظل - كأنه لعنة قدرية لا يمكن الفكاك منها !!

المجموعة السابقة أسست فى نهاية المطاف «الحركة المصرية للتحرر الوطنى» ، وجذورها ترجع إلى بداية عام ١٩٣٩ كما يقرر مارسيل ، حين تشكل فى القاهرة والاسكندرية «الاتحاد الديمقراطى» وكانت لوائحه تنص بوضوح على أن تكون غالبية لجنته القيادية من المصريين ، غير أن المثير للدهشة - مرة ثانية وثالثة - أن مجموعة سرية ماركسية من الأجانب وحدهم تكونت خلف الاتحاد الديمقراطى ! وحددت هدفها فى الاتصال بالشباب المصرى داخل الاتحاد الديمقراطى لتجنيدهم فى المنظمة الجديدة!..

ضمت تلك المجموعة أسماء أجانب ويهود كثيرين مثل مارسيل اسرائيل وهنرى كورييل وشقيقه راؤول كورييل وريمون أجيون ومدموازيل استرسعون ومدموازيل هنريت

أريين ، إلى جانب فؤاد الأهواني ومحمد نصر الدين وعبده دهب ، والأخير تحديداً سيلعب دوراً هاماً في تأسيس الحركة السودانية للتحرر الوطني شقيقة الحركة المصرية .

ولأن مرض الانقسام والحلقية بات مرضا مزمناً ، فقد ظهرت الخلافات سريعاً بين أفراد هذه المجموعة . فمثلاً نادى مارسيل اسرائيل بالتمصير إلى الحد الذى تمنع فيه العناصر الأجنبية من لعب أى دور قيادى ، بينما رأى هليل شوارتز أن الحركة أممية ولا معنى أصلا لهذا الشعور الشوفينى ، فى حين اتجه هنرى كورييل لتأسيس منظمة شيوعية فوراً مع رفع شعار التمصير فى الوقت نفسه.

ومنذ عام ١٩٤٠ وجدت معاً عدة منظمات منفردة : «تحرير الشعب» التى لعب الدور الأساسى فيها مارسيل اسرائيل ، وفى العام نفسه تشكلت مجموعة تروتسكية محدودة . أما عام ١٩٤٣ فقد شهد تأسيس عدة منظمات : الحركة المصرية للتحرر الوطنى ، منظمة ايسكرا التى أسسها هليل شوارتز ، ومنظمة القلعة – من مؤسسيها مصطفى هيكل وعبد العزيز بيومي وأحمد حمروش وأحمد الرفاعى وفؤاد عبد الحليم وحمدى عبد الجواد ، وفى عام ١٩٤٦ انقسم عن الحركة المصرية تنظيم ماركسى اسلامى باسم اتحاد شعوب وادى النيل» أسسه عبد الفتاح الشرقاوى . وفى

العام نفسه تأسست «الطليعة الشعبية للتحرر» السابق الاشارة إليها ومن مؤسسيها يوسف درويش وصادق سعد وريمون دويك هذا إلى جانب منظمات صغيرة أخرى مثل طليعة الاسكندرية والعصبة الماركسية ، والأخيرة كانت انقساما آخر من الحركة المصرية.

وهكذا .. لم يكن الأمر فيما يبدو يدعو للتفاؤل ، إلا أنه كان يعني أيضاً أن شباب مصر كان يموج بالافكار اليسارية وفي الوقت نفسه تشكلت العديد من الروابط والجمعيات التي عملت بشكل علني مثل جماعة الشباب للثقافة الشعبية والمركز الثقافي الاجتماعي وثقافة وفراغ ولجنة نشر الثقافة الحديثة وجماعة أصدقاء الثقافة وحركة طرابلس ودار الأبحاث العلمية والجامعة الشعبية (التي أسستها ايسكرا بهدف تثقيف العمال الذين كانوا يتلقون دروساً في القراءة والحساب والتاريخ واللغة الانجليزية وكان يقوم بالتدريس فيها كوادر المنظمة مثل منير ملطي وزاهر اسكاروس وأنور عبد الملك) والرابطة الاسرائيلية لمكافحة الصهيونية وحركة الجيل الجديد ، هذا إلى جانب عدد كبير من المجلات والصحف السابق الاشارة إلى أغلبها فيما سبق.

□□□

- ٢ -

كان هذا.. بإيجاز شديد - المشهد البانورامي للحركة اليسارية في أواخر الثلاثينات وحتى منتصف الأربعينات. وإذا كانت الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني قد تأسست - وفقا لأغلب المصادر المتاحة في سبتمبر ١٩٤٧ من خلال الاتحاد بين الحركة المصرية للتحرر الوطني وايسكرا والقلعة (كانت الأخيرة قد انقسمت قبل الوحدة إلى مجموعتين إحداهما انضمت لايسكرا والثانية انضمت إلى (ح.م)، إذا كان ذلك كذلك، فإن مياها لا حصر لها كانت قد مرت تحت الجسر قبل ذلك، ليس فقط من زاوية ما جرى داخل هذه المنظمات ذاتها، بل أيضا وقبل كل شيء ما جرى في واقع النضال العملي، وبالتحديد انتفاضة ١٩٤٦، التي يمكن اعتبارها نقطة تحول حاسمة.

كانت مصر المحتلة يئن فقراؤها تحت ظروف لا إنسانية، ومثقفوها يتطلعون باحثين عن طريق للخلاص، وأحزابها العلنية تهرأت تقريبا فيما عدا أجنحة من الوفد مثل الطليعة الوفدية، وملكها فقد كل مبرر لاستمراره بسبب فساده واختلال العلاقة بينه وبين مؤسسات الحكم، وجيش يعاني من سيطرة الاحتلال من جانب، وفساد الملك من جانب آخر. وعلى

المستوى الدولي كانت المدافع قد سكتت بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وهزيمة النازية وصعود نجم الاشتراكية فى العالم، وعاد الوفد يطالب الاستقلال وانهاء الاحتلال بعد أن وضعت الحرب أوزارها.

سألقى فى البداية نظرة عامة على المنظمات الشيوعية حتى اللحظات التى سبقت تأسيس حدتو، وفي هذا السياق يمكن المرور سريعا على انتفاضة ١٩٤٦ المجيدة حقا، والتى لم تنل ما تستحقه من توثيق، بل إن الكثير من المحللين وكتاب التاريخ إما أنهم يمرون عليها مر الكرام، أو تسقط من ذاكرتهم نهائيا، على الرغم من أنها تعد من ناحية تتويجا لكفاح وخبرة المنظمات الشيوعية وقتذاك، ومن ناحية أخرى أدت إلى عدد من التطورات الداخلية فى تلك المنظمات وما أعقبها من اندماج واتحاد بينها على النحو الذى سأحاول توضيحه.

يمكن بسهولة شديدة اللجوء إلى المصادر شبه المدرسية المتوافرة، ونقل ما هو مذكور حول المجموعات والمنظمات المختلفة التى سبقت الوحدة فى سبتمبر ١٩٤٧، وهى طليعة العمال أو د. ش أو الفجر الجديد، فكلها تشير إلى تنظيم واحد يقوده الثلاثي المعروف صادق سعد ويوسف درويش

وريمون دويك، وقد رفض الوحدة تارة باعتباره التنظيم الشيوعى الوحيد وتارة أخرى بحجة قواعد الأمان، ولم يقبل الوحدة إلا عام ١٩٥٨ . إلى جانب تنظيم إيسكرا الذى اتحد أولا مع تنظيم القلعة وتحرير الشعب (التنظيم الأخير كان قد انقسم قسمين اتجه الأول إلى ايسكرا، بينما عرف الثانى طريقه إلى الحركة المصرية للتحرر الوطنى التى كان هنرى كورييل قد لعب الدور الأساسى فى تأسسها عام ١٩٤٣ .

وفى هذا السياق تذكر بعض المصادر أن «الطليعة المتحدة» قامت كمنظمة مؤقتة بهدف اتمام الوحدة مع الحركة المصرية، من جانب آخر كانت الأحزاب الشيوعية العربية والأجنبية.. مثل الحزب الشيوعى اللبنانى والفلسطينى والإنجليزى والفرنسى - تتابع باهتمام شديد أنباء الوحدة، بل إنهم اتصلوا بالرفيق مرسى (مارسيل إسرائيل) ليقوم بدور بين المنظمات المختلفة لاتمام الوحدة.

وعلى الرغم من أننى ذكرت فى السطور السابقة أسماء عدد كبير من المنظمات، إلا أننى أود أن أنبه إلى أن عضوية كل تنظيم لم تزد عن عشرات قليلة جدا، وفى أحسن الأحوال مئات قليلة جدا .

على أى حال، وبدلا من ذكر هذه المعلومات شبه المدرسية، سألجأ إلى طريقة أخرى تتضمن اختيار بعض الروايات - وهو اختيار ليس عشوائيا تماما - حتى يتعرف القارىء على الجو الذى نشأت فيه المنظمات الشيوعية. وهنا أود أن أشير إلى أن من لم يرد ذكر «رواياتهم» بالتفصيل، ليسوا بالضرورة أقل شأنا ممن سيرد ذكرهم، فالجميع تقريبا ، حتى أولئك الذين ضعفوا أحيانا أمام جحيم التعذيب الذى نصبه النظام الملكى ثم الناصرى، مع اختلاف النظامين الشديد فى التوجهات والأفكار بطبيعة الحال، الجميع إذن شاركوا فى هذه الدراما الهائلة ذات الطابع التراجيدى، والتى شارك فيها أيضا بنشاط يحسد عليه فى تلك الفترة تحديداً.. ضابط مباحث الاسكندرية الجلاد ممدوح سالم، والذى عينه السادات فى أواخر حياته (حياة ممدوح سالم) رئيسا للوزراء، بعد مدة خدمة أكثر من حسنة سواء فى ظل النظام الملكى أو الناصرى!!

على سبيل المثال هناك رواية واحد من أخلص المنتمين للحركة الشيوعية وأكثرهم زهدا وتقشفا وتضحية شأن أصحاب الرسالات الكبرى وهو محمد يوسف الجندى ابن رئيس جمهورية زفتى التى استقلت فى غمار ثورة ١٩١٩!

وعلى الرغم من أصوله الميسورة، فوالده الذى استقل بزفتى كان محاميا مشهورا وعضوا في مجلس النواب وينحدر من إحدى العائلات الكبيرة، إلا أن ابنه محمد انخرط فى الحركة اليسارية منذ كان في عامه الأول طالبا فى كلية الحقوق، حيث تردد على دار الأبحاث العلمية، ليستمع للمحاضرات والندوات، ومن بين من تعرف عليهم أثناء ذلك شهدى عطية الشافعى الذى توثقت علاقته به وشكلا حلقة لدراسة الفلسفة والاقتصاد السياسى وتاريخ الحزب الشيوعى السوفييتى ونظرية الحزب.. الخ .. انضم إليها أنور عبد الملك وشقيقه طريف. وفى إحدى أمسيات عام ١٩٤٥، وبعد أن التقيا كالعادة فى دار الأبحاث العلمية خرجا معا ليتمشيا فى الشوارع القريبة من حى السيدة زينب.. وهنا فاتحه شهدى قائلا إن هناك تنظيما شيوعيا اسمه «ايسكرا» وأن الدراسة التى قاما بها كانت فى إطار هذا التنظيم وعرض عليه الانضمام إليه ولم ينس أن ينبهه إلى المخاطر المرتبطة بهذا الطريق من سجن وتشريد.. الخ.

منذ هذه اللحظة فى عام ١٩٤٥ وحتى الآن ظل الجندى واحدا من أخلص الشيوعيين، وأعطى حياته كاملة للحركة، وأكاد أجزم أنه لم يشك لحظة فى قناعاته واختياراته، فقد

ترك دراسته الجامعية وتفرغ طوال حياته لحزبه، بل وعندما ورث عدة أفدنة عن والده، باعها وأعطى ثمنها للحزب، سجن الجندى فى مصر وهرب مع شريف حتاتة إلى فرنسا، حيث سجن هناك أيضا فى سجن «لاسانتى»، وقضى عدة سنوات فى بلدان أوروبا الشرقية قبل أن يقرر العودة إلى مصر عن طريق السودان، ثم سجن مرة ومرات (ظل الأستاذ الجندى ضيفا على معتقلات وسجون النظام الملكى والجمهورى والساداتى والمباركى عدة عقود).

ومن بين انجازاته تأسيسه لواحدة من منارات الفكر الاشتراكى فى مصر وهى دار الثقافة الجديدة. وقبل ذلك عاش أربع سنوات لاجئا سياسيا فى المجر ثم مترجما ومراسلا صحفيا فى موسكو. وسوف أعود إلى دوره عدة مرات وإلى الكتب التى أسهم بها فى النضال السياسى للحركة.

أما هليل شوارتز مؤسس ايسكرا، فلم يبق منه إلا محضر تحقيق النيابة الذى أجري معه فى ١٥ / ٣ / ١٩٥٠، ومحضر آخر فى اليوم التالى أوردهما رفعت السعيد فى كتابه «هكذا تكلم الشيوعيون» وبعد أن قضى عامين رهن الاعتقال أفرج عنه وتم ترحيله خارج البلاد عام ١٩٥٢، وهو

يقيم الآن فى باريس، وحاولت رفعت السعيد إجراء مناقشة معه حول دوره إلا أنه رفض بإصرار. لكن لجنة توثيق الحركة الشيوعية استطاعت الحصول على شهادة منه أوردتها فى الجزء الخامس من سلسلتها «شهادات ورؤى»، ومنها نعرف أن تجربته قريبة إلى حد كبير من تجارب أبناء جيله من المثقفين اليهود وبعد اندلاع الحرب العالمية الثانية. تأثر شوارتز بالصراع ضد الفاشية وصعود النازية بوصفه يهوديا. وحاول بالفعل التطوع والانضمام للفرقة الدولية التى شكلت للدفاع عن الجمهوريين الأسبان إبان الحرب الأهلية الاسبانية و«اضطر» - حسب تعبيره - للبقاء فى مصر، واعتبر نفسه شيوعيا، واندفع يبحث عن المصادر والمراجع التى تعينه على ذلك وليفهم ماهى الشيوعية التى كان قد انتمى اليها بالسمع فقط! حتى عثر بالمصادفة على نسخة مستعملة من البيان الشيوعى، ونسخة أخرى من كتاب ما العمل للينين (وكانتا مخبأتين خلف عدد من الكتب فى إحدى مكتبات القاهرة!).

وما لبث أن علم عن طريق صديقة شقيقته إنه ليس الشيوعى الوحيد فى مصر، وأن هناك آخر يدعى هنرى كورييل. وبالفعل التقيا ودعاه كورييل للانضمام إلى حلقة من

الأصدقاء تدرس الماركسية، وحضر سلسلة من اللقاءات كانت تعقد فى منازل الأصدقاء، إلا أن هناك واقعة محددة جعلته يترك هذه الحلقة، فقد شاهد شابة في أحد الاجتماعات مشغولة بتقليم أظافرها وطلائها. وعندما لفت نظرها إلى أن الوقت ليس مناسبا لهذا النوع من النشاط خصوصا وأن النقاش يتناول مصير الإنسانية، أجابته بثقة وهدوء:

- الشيوعية لا تعنى التخلى عن الرفاهية(!!)

أدرك شوارتز أن مكانه ليس هنا. على الرغم من انتمائه الطبقي والاجتماعي لهؤلاء الأصدقاء، وانضم إلى حلقة أخرى هي «الاتحاد الديمقراطي» التي كانت تعمل كحلقة علنية. تنظم المحاضرات والمناظرات بالفرنسية. ومن خلال هذه الحلقة بدأ في تجنيد عدد من «العاطفين» على الشيوعية، وفي عام ١٩٤٢ تأسست اسكرا، وفي الوقت نفسه تقريبا - حسبما ذكر شوارتز - تأسست الحركة المصرية للتحرر الوطني، أي أنهما نشأتا منفصلتين تماما.

من جانبه، لم يضيع شوارتز الوقت، وسرعان ما مد الجسور بين اسكرا والطبقة العاملة، وكان يعمل موظفا بشركة دلمار للأدوية، فاتصل بزكي أبو الخير سكرتير عام نقابة عمال المطابع - وكان يصدر مجلة اسمها «اليراع»

يمولها حزب الوفد. وفق ما ذكر تصادقا - شوارتز وأبو الخير - بل واستطاع «اكتسابه لصف قضية الشيوعية» وهنا أتوقف قليلا.. لنتخيل رجلا أجنبيا لا يجيد العربية يحاول تجنيد عامل ويعجز، ليس فقط بسبب حاجز اللغة بينهما، بل أيضا بسبب عدم وجود أدوات أخرى مثل الكتب والمجلات والنشرات المكتوبة بالعربية!!

كانت المهمة بالغة الصعوبة، وتنطوى على كوميديا لا يمكن تجنبها فى الوقت نفسه، وإن كانت كوميديا سوداء، إلا أن هذه المحاولة كشفت لشوارتز أنه لاحل إلا بتجنيد مثقفين مصريين أولا ليترجموا المراجع الفرنسية والانجليزية إلى العربية ليتثقفوا، ثم يقوموا هم بتجنيد وتثقيف العناصر العمالية!!

إلى هذا الحد كانت المهمة تبدو مستحيلة بل ومجنونة، تحتاج لإرادة حديدية امتلكها هؤلاء الرواد الذين كانوا مصرين على الحرث فى البحر، والأكثر جنونا أنهم نجحوا فى مهمتهم!

وهكذا تعددت الاتصالات بين أعضاء اسكرا وبين عناصر الانتلجنتسيا المصرية القريبة منهم فى صفوف الطلاب والمدرسين من خلال «دار الأبحاث العلمية»، وكانت تعد

امـتـدادا للاتحـاد الديمقـراطى السـابق الإشـارة له - من المصريين. وبدأت العجلة فى الدوران ببطء، ولم يكن أعضـاء اسكرا وحدهم فى الميدان، فـهناك أعضـاء الحركة المصـرية والقلعة واتحاد شعوب وادى النيل والطليعة الشعبية للتحرر وطليـعة الاسكندرية، وغيـرها من المنظمات الصـغيـرةالتى انطلقت هنا وهناك وكان طبيعا أن يلتقى أعضاء تلك المنظمات فى غمار النضال العملى، وبدأ الكلام يدور للمرة الأولى عن الوحدة.

□□□

أمـا شـريف حتاتة فـجـده كان اقطاعيا، وتعلم أبوه فى انجلتـرا وتزوج انجليـزية، ولد شـريف فى انجلترا ثم عـادت الأسرة إلى مصر، وظل شريف متفوقا وابنا نجيبا مطيعا (له مذكرات من جزئين كبيرين بعنوان «النوافذ المفتوحة» تتميز بقدر نادر من الصدق والاستقامة خصوصا فيما يتعلق بدور اليـهود فى الحركة الشـيـوعـيـة). ظل شـريف سنوات طويلة معزولا عن المصريين فلم يكن يتحدث إلا الانجليزية، ولم تكن هناك حاجة لأن يتعلم العربية إلا فيما بعد عندما تقرر دخوله كلية الطب بجامعة القاهرة، وحسبما عبر فى شهادته للجنة توثيق الحركة الشيوعية أنه تعلم العربية تحت السلاح أى

أثناء النضال العلمى فى كليته.

فى السنة الأخيرة فى كلية الطب تعرف علَى زميله عصام الدين جلال الذى كان قوميا يساريا، واصطحبه معه لاجتماعات الطلبة فى الجامعة، ثم وجد نفسه فى خضم الحركة الطلابية عضوا فى اللجنة الوطنية للعمال والطلبة (دون أن يعرف كيف حدث ذلك) بل وقابل إسماعيل صدقى باشا رئيس الوزراء فى اللقاء الذى عقد بين صدقى ومندوبى اللجنة أثناء انتفاضة ١٩٤٦.

قاده ذلك للانضمام لاسكرا بعد تردده على «مركز الأبحاث» وبعد الوحدة بين اسكرا والحركة المصرية، أصبح عضوا فى حدتو، واشترك مع محمد الجندى فيما بعد فى الهروب من قصر العينى حين كان معتقلا إلى فرنسا وسجن أيضا فى سجن لاسانتى، ثم أفرج عنه وعاد إلى مصر ليواصل نضاله حتى الآن، فهو أحد أعضاء حركة مناهضة العولمة فى القرن الحادى والعشرين!

□□□

أما الراحل مبارك عبده فضل فقد بدأ من مكان آخر بعيد تماما.. بدأ من الأزهر..

نزح مبارك من قرية «أرمنا» بالنوبة إلى القاهرة عام ١٩٣٩ ليلتحق بالأزهر بسبب ضعف إبصاره الذى حال بينه وبين الدراسة الابتدائية. مبارك أيضا ابن اسرة فقيرة عانت من البؤس البالغ حتى إنه كان يسير على قدميه يوميا ذهابا وإيابا من حى السبتية حيث يسكن إلى الدراسة حيث المعهد الديني، وكان مصروفه لا يتجاوز خمسة مليمات يكفيه بالكاد ليتناول «سندوتش مكرونة» طوال اليوم.

وفى عام ١٩٤٥ تحديدا بدأ شعوره الوطنى يتبلور ضد الاحتلال اثر قراءاته المتعددة، والمثير للدهشة أنه لم يكن وحده فى الأزهر، فقد سبقه بعامين طالب آخر اسمه محمد على نوار نوبى أيضا من قرية أبو هور - وأثناء لعبهما كرة القدم سأله:

- ماذا تعرف عن الشيوعية؟

ولم يكن مبارك يعرف عنها إلا أنها تساوى بين الفقراء والأغنياء فبادره نور بسؤال محدد:

- هل تقبل الانضمام لتنظيم شيوعى سرى فى مصر؟

وكانت إجابة مبارك كلمة واحدة:

- نعم..

كان قبول الانضمام للحركة المصرية للتحرر الوطنى يعنى

أنه أصبح مرشحا وعليه أن يستمع إلى المحاضرات المعدة للمرشحين، وهى تسع محاضرات عن أمراض المجتمع المصرى، وتطور المجتمع والرأسمالية والاشتراكية.. الخ.. قرأ نور هذه المحاضرات عليه وناقشه فيها أحد زملائه من الطلبة الشيوعيين اسمه عبد الله الأمين.. وما لبث أن انضم فى العام الدراسى ١٩٤٥ / ١٩٤٦ وهو طالب فى السنة الرابعة الابتدائية بالأزهر إلى خلية الحركة المصرية فى معهد القاهرة الدينى بالدراسة.

□□□

لا يمكن تجنب هنرى كورييل (يونس) أكثر من ذلك، لقد حاولت تأجيله عامدا، فهو أحد أكثر الشخصيات إثارة للجدل، وعلى الرغم من أنه ينتمى للتاريخ الآن بعد اغتياله عام ١٩٧٨، إلا أن تأثيره امتد من مصر حيث شارك فى تأسيس تنظيم الحركة المصرية للتحرر الوطنى إلى الجزائر حين هرب من إيطاليا التى وصل إليها مطرودا من النظام المصرى إلى فرنسا سرا. ومن هناك أسهم فى الكفاح الذى كانت حدتو تخوضه فى مصر حتى اتخاذ القرار بتنحيته - ولا أقول طرده - من حدتو هو ومجموعة روما. ثم فى دعم جبهة التحرير الجزائرية حيث شارك بقوة فى مساعدة الجبهة حتى

استقلالها (فيما بعد ستعلن منظمة يمينية رجعية اسمها دلتا وتنتمي لمجموعة عسكرية رجعية رفضت استقلال الجزائر عن فرنسا مسئوليتها عن اغتيال كورييل). ثم أسهم في تنظيم بدايات ما أطلق عليه الحوار من أجل «السلام» بين القتلة الإسرائيليين ومنظمة التحرير الفلسطينية، وأخيرا وحتى رحيله أسهم في تأسيس منظمة تضامن لمساعدة حركات تحرير عديدة في أرجاء مختلفة من العالم.

لقد قضى كورييل كل عمره (١٩١٢ - ١٩٧٨) محاربا من أجل ما اعتقد أنه الصواب، ودفع من أجل هذا حياته سواء في المنافي أو في مصر أو في السجون التي استضافته في مصر وفرنسا. لا أريد أن أكرر ما كتب عنه وحوله، فهو حاضر بقوة في وثائق تأسيس الحركة المصرية والخط السياسي والبرنامج بعد الوحدة وتأسيس حدتو وكتاب جيل بيرو الشامل والمهم «رجل من نسيج خاص» وكتاب د. رؤوف عباس «أوراق هنري كورييل» وكتاب إبراهيم فتحي «هنري كورييل ضد الحركة الشيوعية المصرية» والفصل الذي كتبه عنه طارق البشري في كتابه «شخصيات وقضايا معاصرة». ونبيل الهلالي في كتابه «اليسار الشيوعي المفترى عليه ولعبة خلط الأوراق» فضلا عما أصدرته دار الثقافة الجديدة من

أوراق ومقالات وتعليقات كتبها كوربيل فى مراحل مختلفة من حياته إلى جانب ما يورده عنه معاصروه ممن التقوا به أو حتى لم يلتقوا فى كتبهم!

فما الذى يمكن إضافته إذن حول هذا الرجل الذى أثار كل تلك العواصف والأعاصير أينما حلّ، منذ اصطحب فى أكتوبر ١٩٤٣ نحو ٢٠ دارسا من المصريين ليقيم لهم مدرسة كادر فى عزبة أبية بالمنصورية وحتى اغتياله الآثم عام ١٩٧٨؟

هل أعيد ما سبق أن ذكرته حول اليهود، سواء كانوا متمصرين أو مصريين والدور الذى لعبوه فى الحركة الشيوعية؟ أكرر أن الجريمة الدولية لم تكن قد ارتكبت بزرع إسرائيل، وفى هذا السياق وحده يمكن فهم دور اليهود والأجانب فى الحركة الشيوعية المصرية، خصوصا أن الحلقة الأولى - حزب ١٩٢٣ - كانت مصرية ومن بين مؤسسيها مشايخ أزهريين، أى أن الظروف الموضوعية فى حزب ١٩٢٣ أدت إلى أن يكون موسسيه مصريون، وبعد أقل من عشرين عاما من مطاردة أجهزة الأمن والسجن والتشريد والنفى واختراق الأمن لقمة الحزب بعد أن تحول إلى السرية، بعد أقل من عشرين عاما إذن كانت الولادة الثانية على النحو

السابق الإشارة إليه. وما يمكن التوقف عنده هو أن دور اليهود والأجانب فى التأسيس كان ضارا بالنسبة للحلقة الثانية، وهو ما انتبه إليه عدد من الأجانب واليهود أنفسهم ممن لعبوا أدوارا فى التأسيس وأدانوه ووقفوا ضده فى حينه، لكن كورييل تحديدا لم يكن من بين هؤلاء، بل كان مصرا على الاستمرار على قمة حدتو، حتى بعد نفيه الإجبارى خارج مصر وتأسيس مجموعة روما فى فرنسا.

على أى حال أظن أن ما كتبه كل من شريف حتاتة فى «النوافذ المفتوحة» وصنع الله إبراهيم فى «يوميات الواحات» وأحمد نبيل الهلالى فى كتابه «اليسار الشيوعى المفترى عليه ولعبة خلط الأوراق» يعد نموذجا للتناول والموقف الذى أجدنى أميل إليه. فالأول يقول عنه أنه ترك لديه انطباعا منذ التقاه فى أحد أيام عام ١٩٤٧ أثناء اشتراك حدتو فى مقاومة وباء الكوليرا لم يتغير. فهو قادر على بث الحماس والتفاؤل بين الجميع، ويعرف كيف يظهر التقدير لكل جهد، ويبحث بدأب عن القدرات الكامنة فى الآخرين. ومع ذلك فهو مثل غيره لا يخلو من العيوب. أنه ككل المبدعين الكبار لم ينكر ذاته بل سعى لتحقيقها، وقد نجح فى بعض الأحيان فى إخضاع ذاته لإطار الحركة وضروراتها، وفشل فى أحيان أخرى وتغلبت

طموحاته، لقد كان صاحب كفاءة سياسية نادرة مقارنة بأقرانه، إلا أنه، وبسبب كونه يهوديا، وأضيف هنا أنه كان أجنبيا أيضا (حتى بعد أن اختار الجنسية المصرية عام ١٩٢٤ وتنازل عن الجنسية الإيطالية ذات الامتيازات الهائلة!) لم يكن ممكنا للشعب المصرى أن يعترف به كقائد سياسى، وأن يظل على قمة الحركة التى ساهم بدور أساسى فى إنشائها.

والحقيقة أن كوربيل كان يتمتع بحس فريد ونادر فى التقاط ما هو أساسى، وصياغته وتحويله إلى عمل مستمر، مثل خط القوات الوطنية، على الرغم من أنه أدى إلى أكبر انشقاق فى حدتو فيما بعد، ودوره فى تأسيس الحركة فى السودان، والتفاته إلى ضرورة العمل فى صفوف الجيش والأزهر والنوبيين، ومأثرته الكبرى فى ربط الكفاح السياسى بالنضال من أجل تحقيق الجلاء وطرد الاحتلال الانجليزى.

سوف أعود فيما بعد إلى الدور الذى لعبه يونس، فهو لاعب أساسى ترك بصماته التى لا يمكن الفكاك منها، إلا أننى أود أن أشير فقط إلى أنه شأنه شأن الأجانب واليهود - كان عليه أن يتوقف فى وقت معين ويتنحى عن القيادة ويتركها للمصريين، أما كونه يهوديا، فهو أمر أشعر أمامه بقدر من

الحيرة والارتباك مثل كتاباته ومواقفه وأفكاره فيما يتعلق بالاعتداءات الصهيونية على فلسطين ثم قبول قرار الأمم المتحدة بالتقسيم ليس بوصفه حلا عادلا، كما حرص كورييل والحركة المصرية أن يؤكدا مرارا على أنه الحل العملى الوحيد فى ظل الخيانة المخزية للأنظمة العربية، وكذلك سلسلة أخرى من المواقف لعل أكثرها وضوحا تعليقه على اعتزام السادات زيارة القدس قائلا:

«هذا حسن بشرط أن يكون لدى الشيوعيين المصريين الذكاء لكى يركبوا معه الطائرة..

يونس، الذى لم يكن صهيونيا، وهو أمر يقينى بالنسبة لى كان مع ذلك مؤمنا تماما بحق إسرائيل فى الوجود والأمن، وإن كان يدين «مغامراتها التوسعية» على حد تعبيره.. وفى الوقت نفسه مؤمنا بقرار التقسيم الذى يقضى بحق دولتين متجاورتين، فلسطينية، وإسرائيلية، فى الوجود الآمن.

ووفقا لما أشار له نبيل الهلالى فى كتابه السابق الإشارة له، عندما علق على التقرير الذى أرسله كورييل للجنة المركزية لحدتو فى أغسطس ١٩٥٣ حول العلاقات بين إسرائيل والبلاد العربية، والتقرير يتحدث مثلا عن جيش الدفاع الإسرائيلى المكون من «مائة ألف مقاتل مسلح بواسطة الأمريكان.. وليس

مخصصا فى المشاريع الامبريالية ضد البلاد الديمقراطية وحدها، ولكنه مخصص أيضا لكى يلعب فى الشرق الأوسط دور الشرطى ضد حركات التحرر الديمقراطية أما الصهيونية فهو يصفها بأنها أداة فى يد الامبريالية ويواصل «فى مشاريع الامبرياليين الأمريكيين والرجعية الإسرائيلية يجب أن تكون إسرائيل قاعدة للعدوان ضد الاتحاد السوفييتى والبلاد الديمقراطية الأخرى، يضاف إلى ذلك أن هذا البلد تقوده حكومة تعتبر من أكثر الحكومات خضوعا للغرب» ويواصل أيضا «أن نضالنا من أجل إقامة علاقات صداقة مع الشعب اليهودى العربى فى إسرائيل، لا يعنى تقليل نضالنا ضد الصهيونية، وإنما يتطلب على العكس تقوية هذا النضال. فهذا النضال وحده سيمنع الخلط بين حق الأمة اليهودية فى إسرائيل فى أن تقيم دولتها المستقلة وبين الصهيونية، فهذه الأخيرة تحاول أن تجعل من إسرائيل وطنا لكل اليهود، وهذا ليس فقط يوتوبياغبية وهذا ليس فقط ضد مصالح كل يهود العالم الذين يعتبرون مواطنين في بلادهم، ولكن هذا يكوّن مع النتائج التوسعية التى تؤدى إليها أيديولوجية عدوانية ضد البلاد العربية» .

ويعلق الهلالى على هذه الأفكار التعليق الصائب الوحيد

وهو أن كورييل كان ضد الصهيونية آنذاك، لكن تحولاته نحو الصهيونية جاءت فيما بعد، وتحديدا بعد عدوان ١٩٦٧ . حيث أعلن هو وجماعته في باريس وفي مقال «اعتبارات حول القضية الفلسطينية» موقفا صهيونيا صريحاً :

«إننا ننطلق من الحق المقدس وغير القابل للتقادم للجماعات القومية في الوجود القومي.. ولهذا فإننا نعترف بحق إسرائيل في الوجود القومي».

وفي مذكرة عنوانها «مذكرة للرفاق المصريين حول ضرورة مواصلة النضال من أجل السلام» في يوليو ١٩٦٣ يقول بوضوح:

«لسنا مستعدين لبحث الحلول ليس فقط التي تقترح إبادة اليهود الإسرائيليين، لكن حتى تلك التي تدعو إلى أن تفرض عليهم وضعاً أيا كان لا يرغبون فيه».

ويضيف في دراسة عنوانها: «بعد جمال عبد الناصر: أفكار حول تسوية سلمية للنزاع العربي الإسرائيلي» عام ١٩٧١:

«في مصر يعتبرون أن كل شيء سيسوى بإعادة الوضع إلى ما كان عليه قبل ٥ يونيو ١٩٦٧ .. يجب أن نفهم أن الجانب الإسرائيلي لا يمكن أن يقبل ذلك.

هل يمكننا بشكل معقول أن نطلب منهم العودة إلى هذا الوضع.. وضع يخاطرون فيه بأن يصبحوا مهددين بالفناء؟!

وضع عليهم أن يتخلوا فيه عن ثمار تضحياتهم الكبيرة دون مقابل؟ لا يجب أن نخدع أنفسنا؟

فالجماهير الإسرائيلية لن تترك الأرض المحتلة إلا مقابل سلام حقيقى وأمن حقيقى.. أن الجماهير ستتخلى عن فكرة حدود آمنة بقدر ما تصبح فيه هذه الحدود غير ضرورية بفضل حالة السلام الحقيقية مع جيرانهم العرب».

ولا تعليق بطبيعة الحال، فتحولات كوريل واضحة وانحيازه الصهيونى لا شك فيه بعد عدوان ١٩٦٧.

لا أنوى الانخراط فى مناقشة غير مجدية بعد أن تجاوز الواقع كل ما كان يبدو مستحيلا، وأصبح نضال منظمة التحرير الفلسطينية يدور حول إمكانية الحصول على غزة والضفة الغربية فى ظل الحراب الإسرائيلية وداخل سجن مفتاحه فى البر والبحر والجو بيد إسرائيل، ودون أن انخرط أيضا فى تناول الدور المخزى للأنظمة العربية عام ١٩٤٨ فى تسليم فلسطين للعصابات الصهيونية التى كانت قائمة آنذاك، أكرر تسليم فلسطين ولا أقل، ولعلى أعود فيما بعد لهذه النقطة.

على اى حال، فإن السيرة الموجزة لكورييل تتضمن انه ابن عائلة يهودية ايطالية هاجرت من ايطاليا الي مصر عام ١٨٥٠، وكان جده مرابيا أما والده فقد اصيب بالعمى قبل أن يتم العام الاول من عمره وتنازعته الموسيقى فكان عازف بيانو ممتازا وهاويا لجمع المسكوكات ، وفي الوقت نفسه كان صاحب بنك (وهو أعمى) وتكونت ثروته من رهن اراضي الفلاحين، وامه من أسرة موسرة من اسطنبول تحولت الى الكاثوليكية فى وقت مبكر من حياتها ويشير كورييل إلى انها عمدته هو وشقيقه سرا. عاشت الأسرة فى قصر ضخم فى الزمالك ارقى احياء القاهرة يعمل فيه عشرات الخدم ، وقضى هنرى صباه وشبابه (من مواليد ١٩١٣) يتردد على المواخير والملاهى في أحضان العاهرات ، وكان يشاهد دائما وسط حلقة من هؤلاء العاهرات والراقصات فى ملاهى الكيت كات، لكنه اسرف على نفسه فيما يبدو بشدة ، فأرسله ابوه الى فرنسا للاستشفاء من مرض صدرى اصابه، وهناك التقى بشقيقه راؤول الذى كان يدرس فى فرنسا وتعرف على الماركسية ، فتأثر به هنرى ، وعندما ارسل أبوهما دانييل يدعوهما للعودة بعد أن لاحت بوادر الحرب العالمية الثانية، كان هنرى قد تغير الى الحد الذى جعله شخصا مختلفا عند عودته.

وفى سيرته الذاتية التى كتبها عام ١٩٧٧ مسودة ، ولم يتح له الوقت لمراجعتها ، نعلم انه اختار الجنسية المصرية عام ١٩٣٤ علي الرغم من أن احتفاظه بجنسية والديه الايطالية كان يكفل له التمتع بالامتيازات الأجنبية الهائلة وقتذاك . وعندما يحلل الأوضاع التى قادت الأجانب واليهود أبناء الليسيهات الفرنسية، للارتباط بالشيوعية يشير إلى أنه كان من الطبيعى أن يتأثروا بالنضال الأوربى ولا سيما فى فرنسا حيث انتصر الحزب الشيوعى الفرنسى والجبهة الشعبية فى انتخابات عام ١٩٣٦ ، لكنهم لم يتوقفوا طويلا امام المشاكل الوطنية الداخلية ، وكانوا بطبيعة الحال يكرهون الفاشية التي كانت قد فتنت كثيرا من الوطنيين المصريين بسبب الاحتلال الانجليزى . كتب كوربيل انه وقرناءه «نجحوا بحق فى اكتساب البعد الوطنى عن طريق انخراطهم فى الشيوعية، العدو الطبيعى للفاشية . فباعتناقهم الشيوعية فى مصر اصبحوا شيوعيين مصريين، وكانت الشيوعية هى الجانب الوحيد الذى يعترف بهم كمصريين » . ويضيف : «كيف يتسنى ليهودى فى نهاية الثلاثينات ان يصبح (حرا دستوريا) أ وحتى وفديا ؟ باختصار لم يكن امام هؤلاء سبيل غير الشيوعية ، لذا سلكه عدد كبير منهم مدفوعين فى ذلك بعدة عوامل : تأثرهم بالحركة الشيوعية الدولية اكثر من

العناصر المصرية، نفورهم من الخيار الفاشى، بعدهم عن الحياة السياسية المصرية، وأخيرا عدم انحيازهم الى تيار سياسى اخر، اذ كيف السبيل لأن يكون الانسان راديكالياً اشتراكيا او حتى اشتراكيا ديمقراطيا» .

اظن ان هذا التحليل هو الاقرب للصواب ، وهو كاف لتفسير انخراط عشرات من الشباب الأجانب واليهود فى الحركة الشيوعية . وهكذا بدأ هنرى اولى خطواته فى الاتحاد الديمقراطى ثم فى محاولته مساعدة الفلاحين البؤساء فى املاك ابيه بالاشتراك مع عدد من اصدقائه المتعاطفين . واعتباراً من يونيو ١٩٤١ افتتح مكتبة الميدان. في ميدان مصطفى كامل فى وسط القاهرة (تحولت الآن فيما أظن لمحل ملابس) ولعبت المكتبة دورها كحلقة اتصال من جانب اخر، ومن خلال عبده دهب السودانى الذى تعرف عليه هنرى عن طريق بعض الخدم النوبيين الذين يعملون فى قصر والده، استطاع اقامة بعض الصلات مع طلبة وعمال سودانيين فى مصر، إلى جانب الحصول على التقارير التى كانت ترد للسراى عن نشاط الشيوعيين من خلال اصدقاء عبده دهب من الخدم الذين كانوا يعملون لدى احمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكى. وعن طريقه ايضا استأجر رخصة لمجلة «حرية الشعوب» وجند المحررين للعمل فيها ، ومن بينهم

صالح عرابى الذى قدم كورييل إلى الضابط محمد نجيب - اللواء وقائد الحركة المباركة فيما بعد - عندما اراد التعرف على موقف الشيوعيين من القضية السودانية .

وفى يونيو ١٩٤٢ استضافه معتقل الزيتون للمرة الأولى فى حياته بموجب، الاحكام العرفية ، وكان قد اختار الجنسية المصرية وتنازل عن الجنسية الايطالية كما سبق ان ذكرت ، لذلك طبق عليه القانون ، لكنه لم يستمر سوى ستة اسابيع واطلق سراحه بسبب تدخل معارف والده.. وفى العام التالى تأسست الحركة المصرية للتحرر الوطني ب ٢٠ مناضلا، دخل ١٥ منهم مدرسة الكادر فى عزبة دانييل كورييل بالمنصورية ، وقام بالتدريس ستة او سبعة من المثقفين .

ويحكى كورييل بجدية شديدة المشهد الكوميدى الذى كان يحدث كل صباح على مدى الاسبوعين اللذين عقدت خلالهما مدرسة الكادر انه تمت ترجمة نشيد الاممية الذى كانوا ينشدونه في الصباح المبكر قبل توجههم لدراسة المادية الجدلية ومبادىء الاقتصاد السياسي والفلسفة الماركسية .

من جانب اخر يوضح كورييل ان الحركة المصرية بحثت عن المناضلين السابقين من الحرس القديم - حزب ١٩٢٣ - وطلبت من عصام حفنى ناصف دخول التنظيم الا أنه اشترط تعيينه امينا عاما ، كما طلبت من ياناكاكيس تاجر الاسفنج

واحد زعماء الشيوعيين اليونانيين الانضمام ، إلا أنه اعتذر لانه كرس نفسه للعمل بين مواطنيه اليونانيين ، بينما انضم لبعض الوقت الدكتور عبدالفتاح القاضى، والدكتور حسونه المسئول عن مجموعة الاسكندرية والشيخ صفوان، وعبدالرحمن فضل. والمثير للاهتمام ان العمود الفقرى للحركة فى المرحلة الأولى تشكل من عمال الجيش بقيادة سيد سليمان رفاعي . وتشكلت اللجنة المركزية من هنري كورييل وسيد سليمان رفاعي وكمال شعبان.

وطبقا لما اورده رفعت السعيد فإن اقسام الحركة هي الطيران وتضم ٨٠ عضوا موزعين على خلايا فى الاسراب والورش ، ثم تحول قسم الطيران الى قسم الجيش بعد امتداد نشاطه الى صفوف الكتاب العسكريين وسلاح الاشارة وسلاح المهمات وموسيقات الجيش الى جانب قسم الطلاب الذي ضم قسماً خاصاً للازهر كان عدد اعضائه موزعين على خلايا في كليات الشريعة واصول الدين واللغة العربية، وقسم للعمال تركز فى شبرا الخيمة وقسم للأقاليم وأخيرا قسم للنوبيين .

□□□

لا أظن انه من الممكن ان تمر هذه المرحلة دون أن اذكر بدايات انضمام بعض الضباط الى المنظمات الماركسية

وقتذاك. احمد حمروش مثلا ، الذى كان ضابطا صغيرا تخرج لتوه وقرأ خبرا صغيرا فى الصحف مضمونه ان محمد بك خطاب عضو مجلس الشيوخ قدم مشروعا لتحديد الملكية الزراعية ، فبعث برسالة لصاحب العزة عضو المجلس يسأله فيه عن بعض التفاصيل ، فأجابه الأخير برسالة يدعوه فيها لمقابلته فى منزله بجاردن ستي فى عصر أحد ايام مايو ١٩٤٥ وفي الموعد المحدد التقاه خطاب بك وبصحبته شاب قصير القامة ظل مبتسما طوال الوقت ..

انبهر حمروش بالتفاصيل التي اوردها خطاب بك حول مشروعه بتحديد الملكية، الزراعية وهو الاقطاعى المعروف. وفى نهاية اللقاء ، غادر حمروش وبصحبته الشاب الصغير الذى لم يكن سوى مصطفى هيكل زعيم المنظمة الصغيرة «القلعة» لأن اغلب اعضاءه من سكان حى القلعة !! وكان هيكل يسكن فى درب اللبانه بجوار القصر الشهير الذى استخدمه مجموعة من شباب الفنانين مرسما لهم مثل حسن فتحي وكنعان وحسن فؤاد وزهدى وجمال كامل وعبدالغنى ابو العينين وغيرهم ممن سيصبحون فنانين كبارا ..

ومالبثت العلاقة ان توثقت بعد هذا اللقاء الذى لم يكن مصادفة تماما بين حمروش وهيكل ، وسرعان ما اصبح حمروش عضوا فى المنظمة التى اندمجت بعد فترة قصيرة مع

منظمة اسكرا . وفى عام ١٩٤٦ اتحدت المنظمة الاخيرة مع منظمة تحرير الشعب ، ولم يحل سبتبمر ١٩٤٧ الا وكانت الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى قد خرجت الى الوجود بعد اتحاد اسكرا مع الحركة المصرية الا أنه فى نهاية العام نفسه جرى اول انقسام في حدتو قاده شهدى عطية الشافعي وانور عبد الملك ..

بطبيعة الحال حمروش مجرد مثل وهناك اخرون سوف اتناولهم فيما بعد مثل خالد محيي الدين وعثمان فوزى وغيرهما .

❑❑❑

لا يمكن ايضا ان نغادر هذا الفصل دون ان نلقي نظرة سريعة علي انتفاضة ١٩٤٦ . وسأبدأ بتناول ما تضمنته تحريات القسم المخصوص ، والتى اوردها عادل امين المحامى فى كتابه «محاكمة الشيوعيين المصريين .. قضية ١٩٤٦» وهي تقدم عرضا وافيا لنشاط المنظمات الشيوعية.. الذى يكشف عن تأثير تلك المنظمات فى المجتمع ، ويوضح الى أى حد كانت الاوضاع السياسية نشطة وفعالة عشية تأسيس الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى.. بطبيعة الحال لا أعتمد عليها وحدها ، فهى من وجهة نظر أجهزة القمع كما أنها مقدمة الى النيابة المنوط بها أوامر الضبط والاحضار

والحبس.. الخ.. ومع اخذ كل هذا في الاعتبار ، أظن ان المرور السريع على ما تضمنته ربما كان مفيدا ..

فعلى سبيل المثال، وبناء على تحريات القسم المخصوص وفي السادسة والنصف من مساء ١٩٤٦/٧/١٠ أذن عبدالحميد وشاحى رئيس محكمة مصر الابتدائية بتفتيش ستة عشر رابطة ومكتبة وجماعة ولجنة هى : مكتبة الميدان لصاحبها هنرى كورييل ومكتبة دار القرن العشرين لصاحبها ريمون دويك ومكتبة كاد موس لصاحبتها ليلى بتريدس ودار التعاون الصحفى لصاحبها مصطفى محرم الرملى ومكتبة الوعى لصاحبها محمود فتحى الرملى وجماعة دار الابحاث العلمية ولجنة نشر الثقافة الحديثة واتحاد خريجى الجامعة والجامعة الشعبية الاهلية وجماعة او اسرة تحرير مجلة الفجر الجديد ودار القرن العشرين ورابطة فتيات الجامعة والمعاهد ومركز الثقافة الشعبية ومؤتمر نقابات عمال القطر المصرى ونادى الشرقية ..

ويفرد القسم المخصوص لكل من تلك المؤسسات وبؤر النشاط الاهلية صفحات تتناول نشاطها فى الواقع العملى والقائمين عليها: فمثلا دار الابحاث العلمية التى انشأها بعض اعضاء اتحاد خريجى الجامعات ممن يعتنقون المبادىء الشيوعية فى اول مايو ١٩٤٣ ، وصل عدد اعضائها عام

١٩٤٦ ، الى ٣٠٠ عـضـو من بينهم ٥٠ فـتـاة ، وهى تنظم محاضرات وتصدر نشرات تعقد واجتماعين أسبوعيا والجامعة الشعبية الاهلية تنشر الوعى الشيوعى بين طبقة العمال وان كان ترخيصها أصلاً لتعليم اللغة العربية للاميين ، الى جانب تعليم اللغة الفرنسية والانجليزية والثقافة الاجتماعية ، أما عدد المشتركين فبلغ ٤٠٠ عامل من بينهم مائة فتاة من عاملات المصانع.. ومركز الثقافة الشعبية الذى يديره الشيوعى الخطر رمسيس يونان المصور والصحافى والذى كان يصدر المجلة الجديدة لنشر الافكار الشيوعية، والمجلة يمولها شيوعى خطر آخر هو جورج حنين الموظف بشركة المياه.. ومن بين انشطة المركز تأييد المرشح الشيوعى فتحى الرملى لعضوية مجلس النواب عن دائرة السيدة زينب عام ١٩٤٥ كما ان المركز ارسل رمسيس يونان الي فرنسا للاتصال بالهيئات الشيوعية. بها ودراسة الانظمة الشيوعية الجديدة. ومؤتمر نقابات عمال القطر المصري انشىء عام ١٩٤٥ ونجح فى ارسال ثلاثة مندوبين لتمثيل العمال المصريين لدى مؤتمر النقابات العالمى فى باريس ، كما انه يقوم بنشاط حافل لنشر الدعوة الشيوعية فى صفوف العمال خصوصا وانه يضم عددا كبيرا من سكرتيرى النقابات، ونجح فى ان يضم اليه عشرات النقابات وشارك فى دعم اضراب عمال

النسيج بمصانع شبرا الخيمة .

اوردت امثلة سريعة ومختصرة للغاية وشبه عشوائية ايضا لاوضح ما كان يجرى فى تلك البؤر المشتعلة فى صفوف العمال والطلاب والصحافيين والادباء، والفنانين، من جانب اخر يحفل كتاب عادل امين بتحقيقات النيابة مع عشرات من (المتهمين) الذين نشطوا فى الكتابة النظرية واصدار الصحف والمجلات وعقد الاجتماعات والمؤتمرات والندوات فابو سيف يوسف مثلا يجرى التحقيق معه حول كتابه .. «الفلسفة الماركسية» وأنوركامل حول كتابه «لاطبقات» وأبو الحسن الغنيمى حول كتابيه «الشيوعية فى الاسلام» و«نورنا فى الكفاح الوطني» كما يجرى التحقيق مع الصحفيين حول مانشروه في مجلاتهم من مقالات وقصائد ودراسات ..

يلفت النظر ايضا وقائع القبض علي بعض اولئك الناشطين. ففي يوم الخميس ١٤ نوفمبر ١٩٤٦ واثناء مرور الموكب الملكى من قصر عابدين الى شارع القصر العينى لافتتاح البرلمان اشتبه أحد أفراد البوليس الملكى بالقسم السياسى فى شخص كان يحمل محفظة سوداء، وتبين أنه أسعد حليم وكان ذلك أمام محل استرا وعمارة عزيز بحرى فى ميدان الخديوى اسماعيل .

كانت الاوامر الصادرة الى البوليس الملكى القبض علي اى شخص يعتنق المبادىء الشيوعية ويكون متواجدا في الجهة التي يمر بها الموكب الملكى وذلك خوفا من قيامهم بتوزيع منشورات او احداث هياج.. الى هذا الحد كان شيوعيو تلك الايام قادرين على بث الخوف لدى اجهزة الامن.. تم القبض على اسعد حليم وكذلك على زوجته التى كانت تنتظره بالقرب من محطة باب اللوق، وبتفتيش المحفظة السوداء التى كانت معه، تبين انها تحوى عشرات الاوراق من التقارير والمنشورات والمذكرات وكتاب العرب والحرب الاهلية في اسبانيا الفه خالد بكداش وبغض النظر عن الخطأ الامنى القاتل والمتمثل فى أن يحمل اسعد حليم هذه المحفظة المليئة بالمتفجرات ويسير فى ميدان الاسماعيلة أثناء مرور جلالة الملك لافتتاح البرلمان، الا أن الاوراق التى سجلت النيابة محتوياتها تكشف مثلا عن كيفية مواجهة النيابة وحقوق المسجون والموقف امام المعارضات القانونية والدروس التي يجب ان تستخلص من التفتيش والقبض والسجن، واوراق اخرى حول موقف الشيوعيين من الاحزاب القائمة، وضرورة قيام حزب شيوعى، ونقد لسياسة صدقى باشا.. وغيرها ..

كما يلفت النظر ما جرى يوم ٥ ديسمبر ١٩٤٦ اثناء مرور احد كونستبلات بوليس القاهرة بشارع سليمان باشا ،

حيث شاهد خمسة اشخاص يجلسون علي منضدة واحدة بداخل بار بيج بن فاشتبه في امرهم.. وعندما حاول دخول البار ارتبكوا وحاولوا الهرب لكنه تمكن من ضبطهم واصطحابهم الى نقطة كوتسيكا ووجد مع احدهم منشورا بعنوان نظرة الى السياسة الداخلية . على ورقة فولسكاب يحض على الشيوعية وبعض اوراق اخرى وقد رفضوا ذكر اسمائهم وتبين من الاوراق الموجودة معهم انهم يدعون :
١ - السيد سليمان رفاعي مدفعجي جوى بوزارة الدفاع ومنقول نقلا مؤقتا الي وزارة الداخلية وملحق بادارة الاسلحة والمهمات ٢- والثانى يدعى شحاته هارون ٣ - والثالث شخص اجنبى رفض ذكر اسمه وهو الذى عثر معه علي المنشور .. ٤- والرابع محمود صبحى زغلول طالب بكلية الحقوق ٥- والخامس شخص سودانى الجنسية ويدعى حامد حمدان .

كان الشخص الاجنبى هو هنرى كورييل .. وعلى الرغم من انكار الجميع للعلاقة التنظيمية فيما بينهم ، وانكار كورييل انه كان يحمل المنشور المشار اليه وانه مدسوس عليه من جانب احد الضباط ، إلا أن المنشور ذاته يوضح موقف الحركة المصرية للتحرر الوطنى من مفاوضات الجلاء، وفشل صدقى باشا فى حملته الارهابية الواسعة ضد الشيوعية

والاحرار ، وموقف الوفد، ومن خيانة البورجوازية للقضية الوطنية وان هذه الخيانة ما هى إلا استمرار لخيانتهم منذ سنة ١٩٣٠ وممالأتهم للاستعمار سندهم الوحيد الذى يصرون علي التمسك به للابقاء على سيطرتهم علي الكتل الشعبية نهائيا من قيادة البورجوازية وان ننتزع هذه القيادة انتزاعا من الاحزاب الحالية الى الحزب الشيوعى المصري حزب العمال والفلاحين.. حزبا يضم اصلح عناصر الطبقة العاملة..

لم يكن ما سبق إلا تتويجا لواحدة من امجد انتفاضات الشعب المصرى واكثرها تأثيرا علي التاريخ الحديث. واذا كانت الانتفاضة قد بدأت نذرها الاولى فى ملاعب كلية الطب بجامعة القاهرة فى صيف ١٩٤٥ ، إلا أنها سرعان ما اشتعلت . فعلى الصعيد الدولى كانت الحرب العالمية الثانية قد انتهت بانتصار الحلفاء على المانيا النازية، وتحملت مصر، المستعمرة البريطانية منذ عام ١٨٨٢، الام وعذابات حرب استمرت اربع سنوات لأسباب لاناقة لنا فيها ولاجمل . وكان المتوقع انه بانتهاء الحرب تبدأ الاجراءات الفعلية للجلاء كان اقل ما يمكن ان نحصل عليه فى مقابل ما تحملناه ان يرحل الاحتلال ..

كان الشاب الطائش الملك فاروق علي حد تعبير فاروق

القاضى فى كتابه .. «فرسان الأمل» .. قد أقال حكومة الوفد وتولى رئاسة الوزراء أحمد ماهر باشا الذى اغتيل في مجلس النواب ثم ترأس النقراشى باشا الوزارة التالية ، كما كانت الحركة اليسارية سواء فى صفوف الطليعة الوفدية او المنظمات الشعبية نشطة ومؤثرة والحركة العمالية تسعى لانتزاع حقها فى تشكيل اتحاد النقابات .

تلك هى الخطوط العريضة التي بدأت من خلالها انتفاضة ١٩٤٦ ، منذ اندفع الطلاب علي نحو تلقائى لعقد سلسلة من الاجتماعات لمناقشة وتدارس الاوضاع السياسية والمطالب الوطنية فى ملاعب كلية طب قصر العينى. لم يدعهم احد ولم يستأذنوا احدا، بل لعب الدور الأساسى الى جانب المشاعر الوطنية المشتعلة والرغبة في انهاء الاحتلال ، شاب نحيل طويل القامة اسمه فؤاد محيى الدين وهو نفسه سيتولى فيما بعد رئاسة الوزارة وتفاجئه أزمة قلبية يموت على اثرها فور علمه بالاستغناء عند خدماته كرئيس للوزراء بعد هذا التاريخ بنحو نصف قرن ! .

من ملاعب كلية الطب وفي صيف ١٩٤٦ الساخن ، انتقلت الحركة الى سائر كليات جامعات القاهرة وعين شمس والاسكندرية مع بداية العام الدراسى، وتمخضت الحركة عن تطور حاسم تجاوز كل القوى السياسية فيما يتعلق بالقضية

المركزية التي تمحورت حولها الحركة الوطنية وهى إنهاء الاحتلال .. فمنذ ثورة ١٩١٩ ومسألة الاحتلال لا يجرى طرحها الا من خلال مبدأ المفاوضات ، أما أبناء جيل الغضب عام ١٩٤٦ فقد حددوا مطالب مختلفة ورؤية متجاوزة للمجتمع القديم ..

تنطلق تلك الرؤية من ان الكفاح من اجل الاستقلال الوطني ليس مقصورا على مواجهة الاحتلال العسكرى وحده ، بل يتجاوز ذلك إلى مواجهة سيطرة الاستعمار الاقتصادية ، وفى الوقت نفسه المطالبة بالقضاء على نفوذ عملاء الاستعمار في الداخل من كبار الماليين والاقطاعيين ، وبدلا من شعار الوفد «لا مقاومة الا بعد الجلاء».. وهو اقصى ما وصلت اليه قيادة الوفد طرح ابناء جيل الغضب شعار «التفاوض مع المستعمر خيانة»

تسارعت الاحداث واتسعت الحركة وانضم اليها الالاف بعد تشكيل لجان وطنية منتخبة فى سائر الكليات تقود العمل السياسى وتتولى التنسيق والاعداد . ومنذ اليوم التالى لبدء العام الدراسى في ٦ اكتوبر ١٩٤٦ تشكلت لجنة تنفيذية عليا من بين اللجان الوطنية ، وانتخب فيها لطيفة الزيات ممثلة للشيوعيين وعبد الرؤوف ابو علم ممثلا للوفديين وجمال السنهورى عن الاخوان المسلمين وفؤاد محيى الدين كمستقل

.. وبعد أيام قليلة جاء الرد البريطانى علي مذكرة الحكومة المصرية ، والذى يشير بصلف الى رفض المطالب الوطنية بل والى عدم تفكير بريطانيا فى انهاء الاحتلال ..

وبانتهاء عطلة نصف العام بدأت مرحلة جديدة، وعقدت مؤتمرات فى سائر الكليات انتهت بخروج الطلاب فى مظاهرة عارمة عبرت كوبرى عباس متجهة الى الجانب الشرقى للنيل فتصدت لها قوات البوليس وتم فتح الكوبرى على الطلاب المتظاهرين ومات وجرح العشرات .

لعل التطور الحاسم فى هذا السياق هو انضمام العمال للطلاب وتشكيل لجنة مشتركة باسم اللجنة الوطنية العليا للعمال والطلاب والتى تولت قيادة مصر فى ذلك الوقت ، وبدا كأن مصر على اعتاب ثورة حقيقية ضد كل اسس المجتمع القديم بدأت نذرها اثناء زيارة الشاب الطائش الملك فاروق فى ذكرى عيد ميلاده الميمون من اجل افتتاح مدينة للطلبة تحمل اسم جلالته وتنتقل بهذه المناسبة شعلة ايذانا ببدء الاحتفال ، لكن الطلاب تظاهروا وخربوا ذلك الاحتفال وداسوا باقدامهم علي صورته المقدسة .. وحطموا الزينات واللافتات المعلقة في الشوارع ..

ويجمع المؤرخون علي ان الاخوان المسلمين لعبوا دورا اقل ما يقال عن انه كان مخزيا، فقد كانوا اول من خرج من

اللجنة الوطنية العليا ليشكلوا لجنة اخرى مناهضة تحت اسم اللجنة القومية لمساندة الطاغية اسماعيل صدقي رئيس الوزراء، وخطب ممثل الاخوان في الجامعة مدافعا عنه ومستشهدا بالقرآن الكريم .«واذكر في الكتاب اسماعيل» على طريقة ولا تقربوا الصلاة ! ..

على أى حال ، كان المارد قد خرج من القمقم . ففي ١٨ فبراير . واستجابة لنداء اللجنة الوطنية العيا خرج ٤٠ الف متظاهر بميدان عابدين و ١٥ الفا اخرون تجمعوا بفناء الجامعة بالجيزة، ومئات اخرون في الموسكي وبولاق وغيرها يهتفون : الجلاء او الثورة .. وعشية اليوم التاريخي ٢١ فبراير .. اصدرت اللجنة الوطنية العليا للعمال والطلبة نداءها بأن يكون الخميس ٢١ فبراير يوما للجلاء والاضراب .. وبالفعل توقف عمال المواصلات وتجمعوا في المخازن والورش في الجيزة وشبرا و العباسية ، كما تظاهر عمال نقابة السكك الحديدية وورش ابو زعبل.. ومن الازهر انطلقت مظاهرة ضخمة .. ومن كل الجامعات انطلقت مظاهرات اخرى لتلتقي جميعها في ميدان الاسماعيلية (التحرير الان) ..

لم تكن المظاهرات وحدها هي الأمر اللافت والمعبر عن اجماع الامة وانضوائها تحت قيادة اللجنة الوليدة، بل الاعداد الدقيق والتنظيم المحكم من خلال مندوبي اللجنة، والحرص

على الامن والنظام ، حتى لا تتاح الفرصة لتدخل البوليس. وفجأة اندفعت من ثكنات الجيش الانجليزى في قصر النيل سيارات مسلحة لجيش الاحتلال ، واخترقت الجموع مطلقة نيران رشاشاتها ، فاشعل المتظاهرون النار في قشلاق الجيش الذى كان مكانه في مواجهة الجامعة الامريكية الان ، كما هاجمت الجماهير بعض المحال الاجنبية ومعسكر للجنود الافارقة خلف دار القضاء العالى ومخزن ادوية الجيش ونادى الطيران البريطاني. استمر الهياج والصخب حتى قرب منتصف الليل ، واتجه البعض الى ميدان عابدين حيث قصر الشاب الطائش الملك فاروق يلوحون بالمناديل المخضبة بدماء الشهداء . لم تقتصر مظاهرات هذا اليوم التاريخى على القاهرة وحد ها بل جرت مظاهرات مماثلة في بورسعيد والاسكندرية والاسماعيلية والزقازيق والمنصورة ودكرنس والمحلة وطنطا وكفر الشيخ ومنيا القمح والمنزلة وقويسنا والسنبلاوين وغيرها.. ووفقا لما ذكرته صحيفة الوفد المصرى، فإن ٢٠ شهيدا سقطوا فى ذلك يوم أصيب اكثر من خمسة عشر..

تطورت الاحداث على نحو اكثر عنفا في الايام التالية، واستجابت الجماهير لقرارات اللجنة الوطنية، العليا للعمال والطلبة، حين تقرر أن يكون يوم ٤ مارس هو يوم الحداد

العام على ارواح الشهداء الذين سقطوا خلاله فى الاسكندرية وحدها وعددهم ٢٨ شهيدا .. وفي ذلك اليوم احتجبت الصحف وشاركت الوزارات ودوائر القضاء والمحاكم والنيابة وطلبة كلية غوردون بالسودان في الحداد .

ومع ذلك فإن الظروف الموضوعية القائمة لم تفرز قيادة تستطيع بلورة تنظيم يطور الحركة ويدفعها الي الامام، ولم يكن ممكنا للجنة الوطنية العليا أن تتحمل أكثر مما تحملته من اعباء ، وقد نهضت بمهماتها على النحو الذى سبقت الاشارة له ، واستطاعت ان تبلور اهداف وشعارات حركة بذلك الاتساع ، والتفت الجماهير حولها واستجابت لنداءاتها الا أنه لم يكن ممكنا لها ان تتجاوز ذلك الدور، وهى لحظة تكررت كثيرا في مصر، حيث تتسع الحركة الجماهيرية وتنفجر فجأة ، ثم تخمد بسبب عجز القيادة او عدم وجودها اصلا أو حتى وجودها على نحو لا يمكنها معه ان تنتقل الى مرحلة أرقى من مراحل الثورة الاجتماعية ، مثلما جرى فى تاريخنا القريب. الملايين يخرجون للشوارع ويتظاهرون فى كل مدن مصر من الإسكندرية إلى أسوان فى ١٨ ، ١٩ يناير ١٩٧٧ ، ثم انتهى كل شيء حين لم تجد الجماهير من يبلور وينظم حركتها الي الامام.

اعود الى انتفاضة ١٩٤٦ التى كانت ثمرة عمل مئات

الشيوعيين والديمقراطيين المنظمين فى منظمات علنية وسرية وجمعيات واتحادات وروابط وصحف.. وكان من الطبيعي وعلى ارض الواقع العملي - أن تنشأ الدعوة الي الوحدة بين شيوعيين فى منظمات مختلفة فى الواقع ، بينما اعضاؤها يعملون جنبا الي جنب في الجامعات او المواقع العمالية ..

من جانب اخر ، كانت اجهزة الأمن اليقظة قد تنبهت لهذا النشاط قبل الانتفاضة ، بل ان القلم السياسي بوزارة الداخلية كان قد طلب الموافقة على حصر اسماء جميع من لهم نشاط شيوعى وتقديم اسمائهم للنيابة العامة لتأمر بتفتيشهم فى وقت واحد فى شهر ديسمبر ١٩٤٥ الا أن الحكومة التى كانت قائمة وقتئذ وهى حكومة النقراشى باشا لم توافق على ذلك ، وتأجلت الاستجابة الى طلب القلم السياسى الى أن جاءت حكومة اسماعيل صدقى باشا فنفذته فى ١٠ يوليه سنة ١٩٤٦ ..

□□□


صفحة فارغة

(٣)

لعل الفترة لمتدة من عام ١٩٤٣ وحتى عام ١٩٤٧ عندما تأسست حدتو تعد من أكثر الفترات اضطراباً وتشوشاً، حيث توالت الانشقاقات والانقسامات بين مجموعات صغيرة، خصوصاً بعد أن رفعت احدى المجموعات التى كان يقودها عبد الفتاح القاضى عضو حزب ١٩٢٣ من الحرس القديم وشاركه فوزى جرجس ، شعار «احناء الرأس للعاصفة» أثناء حملة صدقى باشا الضارية ضد الشيوعية.

غير أن الاستغراق فى تفاصيل تلك المرحلة لن يفيد كثيراً، لأن النشاط العملى لتلك المنظمات الصغيرة كان بعيداً إلى هذا الحد أو ذاك عن التأثير فى الجماهير. واقتصرت كثرتها الغالبة على مثقفين يشكلون تنظيمات سرعان ما تنشق. فـ«العصبة الماركسية كانت انشقاقاً من «الحركة المصرية»، و«طليعة الاسكندرية» انشقاقاً قاده د. حسونه من الحرس القديم (وإن كان فؤاد مرسى - أحد مؤسسى منظمة الحزب الشيوعى المصرى - الراية، يؤكد أنه كان قد أسسه قبل سفره إلى باريس للدراسة عام ١٩٤٧).

على أى حال ، لم يكن طريق الوحدة مفروشاً بالورود، فإذا كانت انتفاضة ١٩٤٦ قد أتاحت الفرصة فى غمار العمل الجماهيرى للالتقاء والتنسيق والعمل المشترك بين رفاق

المنظمات المختلفة. إلا أن ضربة صدقى باشا أشاعت جواً من الإرهاب والقمع لكل التيارات والاتجاهات بما فى ذلك التيارات الديمقراطية.

وفى الوقت نفسه كانت الأحزاب الشيوعية فى فرنسا وانجلترا ولبنان وفلسطين تضغط من أجل الوحدة، والأعضاء فى القواعد يضغطون فى الاتجاه نفسه. وعندما تشكلت لجنة للوحدة شاركت فيها منظمات ح.م واسكرا وتحرير الشعب وط.ش.ت ، رفضت المنظمة الأخيرة الاعتراف بأن المنظمات الثلاث الأخرى شيوعية أصلا!! بينما استأنفت المنظمات الثلاث المناقشات والتنسيق فى العمل العلنى. ويمكن القول أن المنظمات الصغيرة رفضت الوحدة وقاومتها بحجج مختلفة.

فى نهاية الأمر ضغطت القواعد بشدة حتى ان بعض الطلاب من أعضاء إسكرا بزعامة عبد المنعم الغزالى أعلنوا تمردهم وهددوا بالانقسام، مالم تتم الوحدة، فقد كانت الشهور التى عملوا خلالها معاً أثناء انتفاضة ١٩٤٦ ماثلة فى خيالهم. وفى الوقت ذاته كانت هناك كوادر أخرى من ح.م ترفض الوحدة من منطلق آخر، فهم يرون أن إسكرا تضم ثوريين لكنها منظمة غير ثورية، وكل مايمكن عمله هو استقطاب ثوريى إسكرا وتصفيتها، بل ان سيد سليمان رفاعى الذى أصبح سكرتيراً لحدتو فيما بعد، اعتبر الوحدة

كارثة وان الحركة المصرية خسرت كثيراً بسببها، فاسكرا - كما أشار فى محضر نقاش مع رفعت السعيد - تنظيم أغلبه من الأجانب والمثقفين ، إلى جانب ما كان يشاع حول تحرر وتسيب أبناء وبنات الارستقراطية من الأجانب واليهود الذين كانوا يشكلون أغلبية المنظمة، بينما وقف كورييل بجانب الوحدة بشدة وأيدها ودفعها دفعاً.

أما فاطمة زكى فتشير إلى أن وجود الأجانب انعكاس طبيعى لمرحلة تاريخية كانوا فيها معزولين، ولذلك اتجهوا لتجنيد المصريين الاقرب اليهم من حيث التواجد والنشاط من الأغنياء . لكن الحفلات - كما تؤكد - والرحلات أيضاً والتى كان شائعاً لدى أعضاء ح .م أنها تعبر عن الانحلال مسألة مبالغ فيها جداً، فهى تتذكر مثلاً حفلة أقيمت فى ٧ نوفمبر ١٩٤٦ بمناسبة ثورة اكتوبر فى منزل زميل أجنبى هو أرمان بليس فى حى جاردن سيتى وكانت هادئة للغاية.

وطبقاً لمصادر عديدة فإن عدد أعضاء «الحركة المصرية» كان نحو ٦٠٠ عضو، بينما ضمت إسكرا مايقرب من ١٠٠٠ عضو، غير أن عدد أعضاء قسم الأجانب فى إسكرا بلغ ٤٠٠ عضو وبينما كانت مباحثات الوحدة تجرى، أعلنت إسكرا فجأة الوحدة مع منظمة «تحرير الشعب» وجزء من «القلعة لتشكل منظمة «الطليعة المتحدة» كمنظمة مؤقتة لإتمام الوحدة

. وإذا كان هناك من يرى أن الطليعة المتحدة لم تكن سوى «لعبة» ذكية من إسكرا لاكتساب أغلبية عددية تتيح لها الضغط على ح.م للحصول على مراكز متساوية فى الهيئات القيادية ، فإن الأمر انتهى بإعلان الوحدة وتأسيس حدتو عام ١٩٤٧، وان كان ليس معروفاً بالتحديد الشهر الذى تأسست فيه، إلا أن المؤكد أنه بين يونيو وسبتمبر.

وبعد أقل من عام على الوحدة، انفجرت حدتو مرة أخرى إلى عدة شظايا. فالخلافات السابقة لم تحل، وبدا كأن لم يكن صحيحاً الاستجابة للضغوط، سواء ضغوط الأحزاب الشقيقة أو ضغوط القواعد،وبدا أيضاً وكأن الوحدة كان يجب أن تجرى أثناء وعبر الكفاح الذى تخوضه المنظمات المختلفة . وإذا كانت الوحدة الشكلية قد تمت، فإن ترسيخ تلك الشكلية قد تأكد بتكوين لجنة مركزية بالتساوى بين إسكرا منظمة الأجانب الأغنياء والطلاب ، وبين ح.م التى تميزت بوجود عمالى وبدايات نشاط وسط الفلاحين من خلال لجنة الأقاليم التى كان يقودها محمد يوسف الجندى وحمدى عبد الجواد وفؤاد عبد الحليم ، هذا إلى جانب تواجدها فى صفوف النوبيين والسودانيين وميكانيكيى الطيران وبعض الأسلحة فى الجيش وداخل الأزهر.

كل ما فعلته الوحدة اذن هو تأجيل الخلافات السابقة.

فمثلاً فيما يتعلق بالموقف من الدين، اتخذت حدتو موقفاً صائباً وهو عدم استعداء المتدينين فى المنظمة، بينما تختال آسكرا بثقافة كوادرها التى لا تعير اهتماماً للدين. أما المناقشات والمزيد من المناقشات بلا نهاية فكانت ادماناً من جانب أعضاء اسكرا ، بينما تعتمد ح.م العملية واتخاذ قرارات سريعة . وأخيراً - كما يشير زكى مراد فإن ح.م كانت تعمل وسط النساء بقدر كبير من الرهبة ، وتفصل بين الأعضاء من الجنسين وعلى حد تعبيره أنها «كانت تعالج الأمر معالجة «شرقية» بينما تضم اسكرا نسبة كبيرة من الأجانب وأبناء الارستقراطية» لذلك لم تكن هناك مشاكل فى هذا الموضوع.

حتى الآن - كما يرى القارىء - لم تكن هناك مشاكل ايدلوجية أو قضايا كبرى يمكن أن تؤدى إلى انفجار، لا سيما وأن عدد أعضاء حدتو بلغ وقتذاك نحو ١٧٠٠ عضو من بينهم حوالى ٧٠٠ من ح.م عدد الأجانب منهم لايزيد على عشرة أشخاص،وحوالى ٩٠٠ من الطليعة المتحدة (اسكرا وتحرير الشعب وجزء من القلعة) من بينهم ٤٠٠ من الأجانب وكثير من المثقفين وعدد محدود من العمال طبقاً لما أوردته أغلب المصادر.

وقبل أن أمضى إلى مناقشة الانفجار الذى كاد أن يودى

بحدتو وأعقبته سلسلة من الانقسامات، أود أن أركز على نقطتين تبدوان لي في غاية الأهمية. الأولى هي ما ذكره مصطفى طيبة: ان الحركة المصرية أعلنت عن نفسها كمنظمة شيوعية لكنها في واقع الأمر كانت حركة وطنية ، فقد افتقد الوطنيون المعادون للاستعمار بشكل راديكالي امكانية النضال ضد الاستعمار نضالاً حقيقياً وسط الأحزاب الرسمية كالوفد أو مصر الفتاة أو الإخوان.

النقطة الأخرى التي أود الاشارة لها هي ماذكره سعد زهران في كتابه المهم «في أصول السياسة المصرية» مؤكداً أن المنظمات التي رفعت راية الماركسية منذ أوائل الأربعينيات لم تكن شيوعية ، بل شبه شيوعية ، فلا المجتمع المصري كان قد أنجز ثورته الصناعية ولا الاستقطاب الحاد بين البورجوزية في جانب والبروليتاريا في جانب آخر كان قد تم. سأحاول من جانبي أن أضع هاتين النقطتين في اعتباري، لأبين إلى أي مدى كانت الحركة الشيوعية في مصر لها خصوصيتها التي تختلف عن مثيلاتها في البلدان الأخرى.

وقبل أن أختتم مقدمة هذا الفصل وانتقل إلى روايات أبناء تلك المرحلة، أضع أمام القارىء حصراً لما توصلت إليه من انشقاقات مابعد الوحدة: التكتل الثوري عام ١٩٤٧، وفي

العام التالى جرى انقسام تال هو صوت المعارضة ، وفى العام نفسه تزايدت الانقسامات على نحو يدير الرأس حقاً : نحو منظمة بلشفية، المنظمة الشيوعية المصرية، نحو حزب شيوعى مصرى، حدتو العمالية الثورية، حدتو ش، الجات (جبهة التحرير التقدمى)، تكتل المطبعة..

صحيح أن بعض هذه الانقسامات كان يعود لأسباب تتعلق ببناء الحركة وتوجهاتها وخطها الأساسى ، إلا أنه كان ممكنا فى الوقت نفسه أن يجرى حل هذه الخلافات دون تكتل أو انشقاق.

(وهنا أفتح قوساً لأشير بسرعة إلى أن أحد أكبر التكتلات التى واجهت المنظمة التى انتميت إليها فى السبعينات من القرن الماضى، رفع تقريباً ذات الشعار الذى رفعه أول تكتل فى حدتو، وهو ضرورة الارتباط بالطبقة العاملة والتوجه إليها والالتقاء بها، لأن أغلب الأعضاء خرجوا من معطف الحركة الطلابية التى اندلعت فى أوائل السبعينات وقادها الشيوعيون بشكل أساسى .. فهل الانقسامات والتكتلات يتم توريثها جينياً أيضاً؟!).

ومع ذلك ، فإن هناك نقاط ضوء عديدة تلفت النظر، من بينها مثلاً أن كوادر حدتو لعبوا دوراً رئيسياً فى اضراب عمال النسيج فى شبرا الخيمة شارك فيه ٣٧,٠٠٠ عامل،

كما نظموا اضراباً ناجحاً فى السكة الحديد لعمال الاشارة فى العام ذاته . وفى يناير نظم طلاب حدتو فى جامعة القاهرة اضراباً من أجل قضية السودان ومزقوا صورة الملك وهتفوا بسقوطه. هذا إلى جانب مظاهرات ضباط البوليس الذين أضربوا فى القاهرة والاسكندرية، وتنظيم لجان مكافحة الكوليرا عندما اجتاح الوباء مصر.. وفى خلال شهور قليلة زاد عدد أعضاء المنظمة إلى مايقرب من ٤٠٠٠ عضو، كما صدرت مجلة «الجماهير» العلنية والتى كانت توزع ١٥ ألف نسخة.

□□□

يحكى أحمد الرفاعى (عاكف) الذى كان من أوائل من عملوا فى الريف المصرى فى صفوف الفلاحين، عن زميله وصديقه الطالب السودانى صلاح بشرى الذى سجن بسبب نشاطه السياسى وكان يعانى من مرض القلب، ورفضت السلطات علاجه أو حتى الإفراج عنه فى محاولة للضغط عليه، لكنه لم يمتثل ومات الشاب الصغير، فقررت حدتو تنظيم مظاهرة ضخمة لتشهد الشعب على المآسى التى ارتكبتها الرجعية والإستعمار فى ظل الأحكام العرفية.

وكان قرار اللجنة المركزية الذى أبلغ للرفاعى - بعد الإفراج عنه بأيام قليلة - قيادة تلك المظاهرة المهيبة التى

خرجت من حرم الجامعة إلى الجيزة حيث التقت بالعشرات من الطلبة والعمال.وما أن وصلت إلى ميدان الاسماعيلية حتى التقت بمئات العمال القادمين من شبرا وحلوان والوايلي والعباسية، وتوجهت إلى ميدان الأوبرا حيث كان الغضب قد استبد بالجماهير التي هتفت ضد السراي وطالبت بمحاكمة الخونة ورجال المباحث الذين اغتالوا الشهيد.

لاشك ان موت صلاح بشرى أوقع السراي في حرج بالغ، فجلالة الملك يعتبر نفسه ملكاً لمصر والسودان(!) وفي لفتة كريمة (!) منه أمر بسفر الجثمان على طائرة خاصة. وبعد الصلاة على الجثمان أصرت الجماهير على أن يسافر الرفاعي مندوباً عنهم. وهكذا أقلعت الطائرة بسرعة شديدة، فقد كان المئات من المتظاهرين قد وصلوا إلى المطار قبل وصول الجثمان، لذلك اضطرت أجهزة الأمن إلى الإسراع بإقلاع الطائرة قبل أن يتفاقم الموقف.

في الطائرة كان هناك خمسة أو ستة مندوبين من جهات مختلفة يرأسهم أحد الباشاوات العاملين في القصر الملكي مندوباً عن الملك .. وتصرف الأخير بما يليق بمركزه، فلم يتبادل مع أحد كلمة واحدة، حتى اقتربت الطائرة من مطار عطبرة، فأشار لأحمد الرفاعي بطرف إصبعه وسأله: هل تجيد الخطابة؟ وبسرعة شديدة فهم المطلوب منه وأجابه: لا ..

فعاد يسأله : هل معك ورقة وقلم؟ فأجابه أيضاً بالنفى. ازدادت نظرات الباشا احتقاراً وأمره بأن يناوله الحقيبة الصغيرة بجوار مقعده، وأخرج منها ورقة وقلماً، وأملاه خطبة مضمونها أن الفاروق أعز الله ملكه وحمى عرشه يعزى شعبه فى السودان فى وفاة ابنه صلاح.. وأمره مرة أخرى أن يحفظ الخطبة عن ظهر قلب ويلقيها على الجماهير السودانية فى المطار.

وما أن هبطت الطائرة فى عطبرة، ونزل الباشا فى المقدمة، حتى أفسح مكاناً للرفاعى ليواجه جموع السودانيين الذين كانوا فى استقبال جثمان الشهيد، لحظتها كان أول هتاف له: «يسقط فاروق عدو الشعب .. يسقط فاروق قاتل صلاح..».

ومن على سلم الطائرة ألقى كلمته عن كيفية «اغتيال» صلاح وأن مصر فى ظل فاروق والاستعمار سجن كبير . التهبت مشاعر الجماهير، ومضت الجنازة تشق طريقها بعد أن منعت الباشا من المشاركة فى تشييعها.

لم يكتف الرفاعى بذلك، بل نظم له الحزب الشيوعى السودانى مؤتمراً صحفياً فى الصباح صرح فيه الرفاعى بكل مايحلو له!

وعندما عاد على الطائرة نفسها مع الباشا، أمر الأخير

ضابط اللاسلكى باخطار القسم المخصوص بالانتظار فى المطار للقبض على الرفاعى، إلا أن الضابط تعلل بأن هناك عطلاً فى جهاز الارسال، فطاقم الطائرة كان متعاطفاً مع الرفاعى، حتى أنه نجح فى التسلل من المطار، إلا أنه اكتشف عندما اتصل هاتفياً ببيته ان البوليس كان قد سبقه إلى هناك، فعاد لرحلة هروب أخرى!

□□□

أما بهيج نصار الذى كان منتمياً لـ «نواة الحزب الشيوعى المصرى» وهو امتداد للعصبة الماركسية بعد تحللها فيلفت النظر إلى أن خط القوات الوطنية الذى طرحه كورييل كان أحد الأسباب الأساسية فى انقسام حدتو (والواقع أنه أحد مآثر كورييل، لأنه لم يعيد انتاج مقولات الماركسية الجامدة بشأن الدور القيادى للطبقة العاملة مشيراً إلى أن هناك قوى ثورية أخرى تقف بجانب الطبقة العاملة فى قيادة النضال من أجل الاستعمار) ويضيف أنه إذا كانت الحركة الشيوعية عند تأسيسها ضمت شخصيات يهودية كان لها نفوذها، فإن الشخصيات الفاعلة فى اللجنة الوطنية العليا أثناء انتفاضة ١٩٤٦ مثلاً كانت مصرية. وكان أغلب من تعرف عليهم بهيج نصار فى حدتو بعد ذلك مصريين مثل لطيفة الزيات وكمال عبد الحليم وعز الدين فودة .. وهكذا كان النفوذ اليهودى

ينحسر بشكل واضح ووصل ذروته بعد هزيمة ١٩٤٨ وإعلان الدولة العبرية.

□□□

رواية السيد عبد الوهاب ندا تلقى الضوء على بدايات التواجد الشيوعى فى صفوف العمال فى إحدى القلاع العمالية الضخمة وهى شبرا الخيمة. ندا العامل الذى كانت أولى تجاربه عندما طالب مع زملائه بالخروج مبكرين ربع ساعة تخصم من ساعة الغداء حتى يلحقوا بالقطار الذى يعود بهم .. كان رد أصحاب المصنع ربطهم بالحبال فى ذيل الخيول وسحلهم حتى مركز الشرطة ليحبسوا ثلاثة أيام متواصلة ثم يفصلوا. ولم يكن المصنع الذى يعمل فيه ندا يختلف عن غيره من المصانع.

وفى عام ١٩٤٣ - وكان وقتها فى السابعة عشرة من عمره - أصبح عضواً فى الحركة المصرية للتحرر الوطنى،وشهد الفترة التى سبقت الوحدة من موقعه كعامل ونقابى ، لذلك تكتسب روايته أهمية مضاعفة. أما سبب انفجار حدتو فى نظره فليس خط القوات الوطنية الذى طرحه يونس، بل كان ذريعة للانقسام. والمشكلة كما يرى هى محاولة السيطرة على التنظيم، فقوى الانقسام لم تضع برنامجاً أو خطاً سياسياً فى مواجهة تقرير هنرى كورييل. ويضيف أنه

فى مـايو ١٩٤٨ تم اعـتـقـال الجـمـيع وحـشـرهم فى زنازين هايكستب والطـور وعيـون موسى. وأسفرت النقاشات داخل المعتقلات عن «فرقعة التنظيم وأبرز هذه الانقسامات العمالية الثورية. اسم جـميل سـرعان مـا انهار لمجرد أن الحكومة عرضت على التنظيم الوليد بعثات لنيل درجة الدكتوراه.. وقد كان .. وسافر الزملاء وانهار التنظيم»!

(فى عام ١٩٥٠ استدعى فؤاد باشا سراج الدين عدداً من أنبه المثقفين فى صفوف الشيوعيين، وعرض عليهم أن يقطعوا كل صلة لهم بالشيـوعيـة فى مقـابل أن يحـصلوا على منح للدكتوراه، وكان ممن وافقوا مثلاً عبد المعبود الجبيلى، وممن رفضوا جمال غالى).

على أى حال، وفى نفس العام، وبعد الخروج من المعتقل، تشكلت منظمة «النجم الأحمر» ، وأسسها إلى جانب ندا كل من عدلى جرجس وأحمد خضر وفوزى حبشى وعبد المنعم شتلة وغيرهم.

□□□

يتذكر فخرى لبيب أنه كان عضواً قاعدياً فى إسكرا عندما تمت الوحدة، وفـرح الجمـيع بهـا وشـعـروا أنهم يقتـربون من تحقيق الاشتراكية، بل ان البعض ممن كانوا يستعدون للزواج تبرعوا بتحويشة العمر دعما للتنظيم الوليد. إلا أن «نغمة

تذمر» على حد تعبيره بدأت ترتفع حول نفوذ الأجانب وخط يونس للقوات الوطنية الديمقراطية. ويضيف ان الصراع حول مقومات الوحدة الأساسية والتنظيمية والجماهيرية بدأ بعد الوحدة لا قبلها ، ومشاركة المستويات دون القيادية بدأت بعد الوحدة لا قبلها. والأخطر أن ذلك جرى عبر الاتصالات الجانبية والاجتماعات غير التنظيمية. كانت دوامة - على حد تعبيره أيضاً - حتى أنه عندما حدث انقسام التكتل الثورى بقيادة شهدى عطية الشافعى، وجد فخرى نفسه جزءاً منه!

وقبل أن ينهار التكتل بسبب عنف القمع البوليسى من ناحية ، واغراءات سراج الدين باشا بمنح الدكتوراه من ناحية أخرى، تم تكليف فخرى لبيب بلقاء عدد من الأعضاء والعضوات الأجانب في منزل الشهيد د. فريد حداد فى شبرا. وسوف انقل ما قاله في شهادته حرفياً:

«كانوا قرابة العشرين من جنسيات مختلفة ، ولم تكن غالبيتهم الساحقة تعرف العربية، ووجدت نفسى أرفض الحديث بغير العربية وأصر على ذلك ، فقام أحدهم بالترجمة للآخرين وبعد نقاش طويل من جانبهم حول ضرورة أن يلعبوا دوراً جماهيرياً وخاصة بين العمال ، أنهيت النقاش بأنهم لايجيدون العربية فكيف بهم يتعاملون مع عمال لايعرفون غيرها .

وثانياً أن لهم دوراً ، ولكن فى غير العمل الجماهيرى ،

ويتلخص هذا الدور فى مهام ثلاث : المساعدات المالية ، واخفاء الهاربين ، وتأمين الأجهزة الفنية وتشغيلها . غير أن فكرة ١٠٠٪ عمال كانت سائدة كالإعصار دون تبصر ولا روية، فتركوا التكتل وذهبوا إلى «القاعدة المشتركة» محتجين وهى شكل تنظيمى فضفاض ينضم إليه من يشاء لإدارة صراع سياسى ونظرى وجماهيرى،

وقد انتهت أعمال القاعدة المشتركة بإعلان المنظمة الشيوعية المصرية م . ش . م ..

وهكذا بدأ انهيار التكتل الثورى ، بينما قرر فخرى لبيب وعدد محدود من رفاقه عدم دخول «القاعدة المشتركة» ، وفى الوقت نفسه عدم دخول «م . ش . م» لأنها يسارية ، وأن نظرية ١٠٠٪ عمال لا تتفق مع ماسبق أن قاموا به هم أنفسهم من عمل جماهيرى جمع بين مثقفين وعمال ومواطنين عاديين «ومع ذلك، ولأنهم يؤمنون بدور الطبقة العاملة القائد ، بدأو النزول إلى أماكن تجمع العمال فى المقاهى فى شبرا الخيمة وإمبابة . فبعد عودة فخرى لبيب من الكلية كان يرتدى ملابس قديمة ويتوجه بصحبة أحد رفاقه إلى مقاهى شبرا وإمبابة لتجنيد العمال (!) ، ويعترف فى نهاية الأمر بأن هذه التجربة كانت فاشلة ، وحصيلة التجنيد لم تكن تعادل الجهد المبذول .

□□□

أظن أن روايات تلك المرحلة تتسم بأهمية خاصة ، ولوحة الفسيفساء التي أحاول الإحاطة بملامحها ، أقصد من خلالها أن أوضح فقط أن هذه التناقضات المتراكمة والمتراكبة لكفاح هؤلاء كان دافعها الوحيد هو تشييد منظمة ماركسية ثورية تقوم بدورها في النهوض ببلد مستعمر يحكمه ملك فاسد ومؤسسات خربة ، وتعيش غالبيته في ظروف بائسة ولا إنسانية .

كانوا إذن يجربون كل الأفكار والأساليب ، وينقل بعضهم مافي المتون الماركسية بوصفها نصوصاً مقدسة ، وينزلون إلى المقاهي ليرتبطوا بالطبقة العاملة ، وينخرطوا في نقاشات عنيفة باللغة الوحيدة التي يجيدونها - وهي الفرنسية - حول مقاومة البورجوازية وإنزال الهزيمة بها ! والواقع أنهم كانوا صادقين إلى أقصى حد ولا ينبغي أن يطلق القارىء العنان لنفسه للضحك والقهقهة لأنه لا مجال لأي شك في دوافعهم وارتباطهم بالماركسية التي كانت بالنسبة لهم هي الملاذ الوحيد من كل تلك الشرور .

من جانب آخر ، أود أن أوضح أن كل تلك الروايات لها صلة قوية بتاريخ حدتو الذي أعكف على قراءته على مدى صفحات هذا الكتاب .

وكما سبق أن رأينا في الصفحات السابقة ، كانت الكثرة الغالبة من المنظمات الصغيرة انقساماً وانشقاقاً من حدتو

على هذا النحو أو ذاك وهناك كثير ممن خرجوا لم يلبثوا أن عادوا إليها ، ولا يمكن فهم ما انتاب حدتو من عواصف وأنواء إلا بقراءة كل الروايات ، وهو ما أسعى إليه . سوف أتوقف بعد روايتين اختتم بهما هذا الفصل ، لأنتقل إلى مرحلة جديدة عشية قيام الضباط الأحرار بإنقلابهم فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

□□□

يوسف أحمد ماضى هو «الشيوعى الأخير» فى مصر ، وآخر من أفرج عنه فى ٢٠ مايو ١٩٦٤ . ومثلما يحدث فى الروايات والمسرحيات التراجيدية الكبرى ، وصل إلى منزله بعد الافراج فى الأسكندرية ، فوجد سرادق عزاء والده منصوباً أمام البيت .

ولد ماضى عام ١٩٢٦ ، وكل مؤهلاته فقط حفظ القرآن فى كتاب الحى بالأسكندرية ، وتنقل كصبى من ورشة لأخرى حتى نجح فى الألتحاق بشركة الغزل الأهلية بكرموز عام ١٩٣٩ عاملاً بوردية الليل من السابعة مساء إلى السابعة صباحاً . ومنذ عام ١٩٤٠ والاضرابات العمالية تتوالى ، وشارك فى كثير منها حتى قبض عليه عام ١٩٤١ وفى الوقت نفسه كان رياضياً متفوقاً وحصل على المركز الثانى فى بطولة الأسكندرية للمصارعة اليونانية وزن الذبابة ، لذلك كان معروفاً بين زملائه وصوره تعلق على حوائط وجدران المصنع

فى الإعلانات الدعائية عن البطولات التى يتم تنظيمها !

وبدءاً من عام ١٩٤٢ ، ومن خلال الأضرابات العمالية ، عرف ماضى طريقة إلى السجون ، وفى الوقت نفسه إلى المنظمات الشيوعية ، ففي أحد الاعتصامات انفرد به زميل له وسأله إن كان يرغب في الانضمام لتنظيم للدفاع عن العمال وتوعيتهم فوافق . وانضم أولاً إلى «الحركة المصرية» وبعد شهرين أحيط علماً - على حد تعبيره - بأن إسكرا انضمت إلى ح . م وتشكل منهما تنظيم حدتو ، ثم التقى بعد ذلك بالزميل سيف (أنور عبدالملك) الذى راح يهاجم خط القوات الوطنية ، ودعاه لقراءه خط «التكتل الثورى» . بعد فترة من اللقاءات المنفردة مع سيف اتصل به زميل آخر شرح له خطورة التكتل وطلب منه الأنضمام إلى «صوت المعارضة» ، بل وطلب منه ترتيب لقاء مع سيف في حضوره لمناقشة خط التكتل !

لم يكن ذلك الزميل الذى طلب لقاء سيف إلا طبيب شبرا الشهيد فريد حدد الذى سبق لفخرى لبيب أن ذهب للقاء الأجانب من أعضاء «القاعدة المشتركة» فى بيته ، والطريف حقاً - طبقاً لما رواه ماضى - أن عبدالملك اقتنع بعد أن ناقشه فريد حداد موضحاً أن التكتل خطأ تنظيمى ، وأن خط التكتل أيضاً خط قوات وطنية (!) ، بل وأبدى - عبدالملك - استعداده لحل التكتل والاشتراك فى قيادة «صوت المعارضة»، لكن حداد رفض وطالبه بالدخول كعضو عادى ،

وانتهى اللقاء بوعد الزميل سيف بدراسة الأمر !

وقبل أن أترك ماضى يكمل شهادته ، أشير فقط إلى أن مارسيل شيريزى ذكر أن شهدى عطية الشافعى زعيم التكتل عدل موقفه بعد مناقشات مستفيضة معه حول التكتل ، بل وكتب مقالاً نشر فى نشرة «الوعى» (نشرة التنظيم الداخلية للأعضاء) بعنوان «زعيم التكتيلية يدين التكتيلية» .

أعود إلى ماضى الذى كان من الطبيعى بعد اللقاء الذى شهده بين سيف وجبران (أنور عبدالملك وفريد حداد) أن يقتنع بموقف صوت المعارضة ، ويبدو أن صوت المعارضة والقاعدة المشتركة اسمان لمجموعة واحدة خرجت من حدتو ودعت لعقد مؤتمر انتهى بتأسيس منظمة صغيرة لكنها ذات بأس شديد تشبه أفلام الرعب ، وأغلب أعضائها يتميزون بقدر هائل من النبل والتقشف والتطرف شبه الدينى

يقول ماضى أنه شعر بالفخر بعد أن شاهد المطبوعات والملصقات والمنشورات تحمل توقيع المنظمة الشيوعية المصرية ، وسرعان ماشكل خمس خلايا فى الأسكندرية ، وكل خلية مكونة من ثلاثة أفراد من بينهم زميلات مصريات وأجنبيات .

أما داخل مصنعه - الغزل الأهلية - فكان يقوم مع زملائه فى الخلية بتوزيع الملصقات والمنشورات ، ولعبت والدته اسماء محمود عثمان دوراً فى هذا التنظيم لم يكتب بعد ، فقد كانت تسهر طوال الليل لتطوى كل منشور أربع طيات ، حتى يسهل

على ابنها تسليم كل زميل عدداً من المنشورات والدخول بها إلى المصنع لتوزيعها دون أن تكشفهم عناصر الأمن . بعد فترة بدأ البوليس فى تضييق الخناق عليه ، وتكثفت المراقبة ، وفى النهاية طلب منه التنظيم الإنقطاع عن العمل وعدم الاقامة فى بيته . وبالفعل أخبر والدته أنه سيختفى ويطمئنها من وقت لآخر .. واختفى . كان يقضى الليل فى محطة السكك الحديدية ، وفى الفجر يتوجه إلى أحد المساجد ليغسل وجهه ، وفى الوقت نفسه كان دائم الاتصال بزملائه فى المصنع . وعندما ذهب البوليس السياسى إلى بيته وأخبروا والدته - التى اكتشفت حقيقتهم بسهولة شديدة - أنهم زملاؤه فى المصنع ويسألون عن سبب انقطاعه ، أخبرتهم الأم أنها لا تعرف عنه شيئا ، بل وطلبت منهم أن يعرفوها إذا علموا شيئا عنه !

استمر يوسف نحو شهرين يقوم بكل ماهو ضرورى لاستمرار نشاطة السياسى داخل المصنع من توزيع للمنشورات والملصقات إلى لقاءات ضرورية بزملائه سواء فى المصنع أو المنظمة ، وفى النهاية تم تسليمه فى الشارع من جانب أحد العناصر البوليسية التى كانت قد اخترقت المنظمة.

وكان الصاغ ممدوح سالم هو قائد القوة التى ألقت القبض عليه ، وقد لعب الأخير دوراً متكرراً وسوف نصادفه كثيراً وهو يقبض على الشيوعيين ويضربهم ويعذبهم بنفسه ،

وكان ذلك طريقه لرضا السلطات عنه ، حتى أن السادات - الله يرحمه - عينه وزيراً للداخلية بعد نجاح انقلاب ١٥ مايو ١٩٧١ ، ثم رقاه إلى رئيس للوزراء بعد ذلك .

بالطبع لم يتكلم يوسف ولم يعترف بأى شىء ، وكلما ضربه الصاغ ممدوح سالم ليعترف على زملائه ممن كانوا معه أثناء القبض عليه ازداد أنكاراً . وعندما علم الصاغ من مصادره أن ماضى «مصارع» اتسعت ابتسامته وبادره قائلاً:

«هاندربك تدريب عمرك ماشفته ..» .

وكان التدريب كالتالى :

إحتجزوه في ردهة دورة المياه الخاصة بهم فى المكاتب العلوية ولها باب مغلق بمفتاح ولا يفتح إلا من الخارج . وعلى فترات متقاربة ، يفتح الضابط أو المخبر الباب ويظل يضربه حتى يتعب ، ثم يقضى حاجته ويستريح قليلاً ويعاود ضربه قبل خروجه .. وهكذا حتى اصطحبوه فى نهاية اليوم للطابق الأعلى حيث كان الصاغ ممدوح سالم جالساً فى انتظاره . كان قد ضرب وأهين وهدد يوماً كاملاً ، إلا أنه لم يبح بشىء، فأمر الصاغ بتعليقه في الفلقة وضربه على باطن قدمه، وبين فترة وأخرى يجبرونه على الجرى حتى لايتجمد الدم فى قدميه.

استمر الضرب على هذا النحو فترة طويلة ، وبدا وكأن هذا التعذيب المتواصل لن ينتهى ، وانتهز أول فرصة وهم

يجرونه لمعاودة الضرب وانطلق كالسهم قافزاً من نافذة المكتب، وحسبا عبر :

«كانت قفزتي كما يقفز السباحون للغوص وبمجرد أن قفزت فوجئت بأن تحت رأسى ساتر من الطوب الذى كان يبنى أمام الأبواب للوقاية من الشظايا أثناء الحرب العالمية الثانية ، ولم يكن ذلك فى الحسبان ، وبحركة لا شعورية قمت بعمل دورة فى الهواء لتفادى الأصطدام به ، وفى الدورة الثانية كنت على أرض الحوش ، وبحرص المصارع على ألا تلمس أكتافه الأرض ، أنهيت القفزة بكوبرى فلم تلامس أكتافى وظهرى الأرض ، وخففت الدورة الثانية من شدة الصدمة . أصيبت بكسر فى الفك الذى انطبق على الأسنان بشدة وأدى لتكسير أجزاء منه وبعض الأسنان وجرح أسفل الذقن مازال أثره باقياً إلى جانب كسر بالحوض والذراع الأيسر واشتباه فى المخ ، ولم يتأثر الرأس بالصدمة أو العمود الفقرى ولم أفقد الوعى لأن ذقنى تحمل شدة الصدمة، وفقدت القدرة على الحركة» .

نقل يوسف إلى المستشفى تحت الحراسة . وفى اليوم التالى جاء وكيل النيابة وسأله :

«لماذا قفزت من النافذة ؟» ..

كانت إجابته أنه لم يقفز.. أنهم عذبوه ثم ألقوا به من النافذة لأنهم اعتقدوا أنه مات من شدة التعذيب .

وهنا سأله وكيل النيابة مرة أخرى :

«أين هى آثار التعذيب ؟» .

فأشار إلى قدمية المتورمتين والإصابات الموجودة فى كل جسمه ، إلا أن وكيل النيابة كتب فى المحضر أنه لاتوجد أى آثار للتعذيب !! بل وطلب منه - بكل صفاقة - أن يوقع على المحضر ، ورفض يوسف بالطبع .

تم تجبيسه ، وخلال وجوده فى المستشفى لم يكن يستطيع فتح فمه لتناول الطعام ، لذلك كانت أمه تحضر له يومياً زجاجات العصائر ، وحكت له أن الصاغ ممدوح سالم جاء إلى البيت بعد القبض عليه وفتش الشقة . أنتهزت أول فرصة وغافلت القوة وفصلت التيار الكهربائى وأغلقت عليهم باب الحجرة حتى تخلصت من كل المطبوعات ، بينما كان ممدوح سالم ومن معه يتخبطون فى الظلام داخل الحجرة ، واصطدمت يدا الصاغ أثناء تفتيشه فى الظلام بصينية بها بقايا سمك كانت أمه تعده للطهى . وهنا أعادت أسماء التيار الكهربائى وفتحت الباب بسرعة قائلة :

«النور انقطع وجه ...» .

وهكذا خرج ممدوح سالم من التفتيش صفر اليدين إلا من تلوث السمك !

خلال الأسبوع الأول حضر عدد من طلبة كلية الطب لدراسة بعض الحالات فى العنبر الذى يرقد على أحد أسرته،

وفوجيء بأحدهم يقترب من سريره ويهمس له أن يذكر فى التحقيق أنهم هم الذين ألقوا به من النافذة ، فأخبره أن هذا هو ماحدث بالفعل ... وارتفعت معنوياته عندما شعر أن التنظيم يقف إلى جانبه .

وفي النهاية تم نقله مجبساً ومحمولاً على نقالة إلى السجن ! وألقى به فى زنزانة انفرادية ليس بها سوى جردل للماء ، وآخر للبول ، لكنه لم يكن قادرا على الحركة والاقتراب من أى منهما - وكما يقول :

«كنت عندما اضطر إلى جذب الجردل قريباً منى وأثنى أقدامي وأدفع بالجردل تحتهما ثم أرفع جسمى من الخلف محملاً على كيعانى حتى استقر فوق الجردل وجسمى مفرود ولا أستطيع أن أثنى وسطى إلى أعلى ..» .

ولما حضر طبيب السجن طلب منه يوسف نقله إلى مستشفى السجن ، ووعده بذلك إلا أن شيئا لم ينفذ . وزاد الطين بلة جيوش القمل والبراغيث التى هاجمته منتقلة من فراشه المعمول من القش واستوطنت الجبس المحيط بحوضه وحولت حياته إلى جحيم . امتنع تقريباً عن الأكل بسبب مشاكل الإخراج ، واكتفى بشرب الماء . أما الحشرات فقد كانت تهاجمه بضراوة متنقلة من حزام الجبس إلى لحمه ولم يعد قادراً على النوم .

أهتدى إلى الحل فى النهاية وهو تحطيم الجبس .. ولكن

كيف يفعل ذلك دون أن يلاحظه أحد ؟ في الليل ، وبعد التمام، كان لديه كوب من الصاج لشرب المياه له يد . استخدم اليد في «نشر» الحزام حتى تمكن من كسره بأقصى قدر ممكن من الدقة ليستطيع ارتدائه في الصباح قبل فتح الزنزانة ، ويخلعه في الليل بعد التمام !

أعيد مرة أخرى إلى المستشفى لفك الجبس الذى كان مفكوكاً أصلاً !

كما فشلت خطته التى كان قد وضعها للهروب من المستشفي وعاد للسجن ، بينما قامت أمه أسماء بدورها كمسئول الاتصال التنظيمي بين رفاق السجن ورفاق الخارج، ونقلت الرسائل والتقارير على مدى عامين كاملين دون أن يكتشف أمرها ، وابتدعت وسائل وأساليب جديدة في هذا السبيل ، إلا أن أحداً للأسف لم يسجل ما قامت به تلك البطلة .

في السجن نفذ يوسف بأقصى قدر من الستالينية قرار مقاطعة كل التنظيمات - لأن «المسيطرون عليها قيادات خائنة تعمل لتخريب مسيرة الطبقة العاملة» (!) - واستطاع أن يقنع سيد عطية أحد زملائه المسجونين - من حدتو بالانضمام إلى «م . ش . م» أما الشقيقان كليمان وچاك ليبوفيتش العضوان بحدتو ، فإن يوسف تمكن من ضم أصغرهما چاك

إلى «م . ش . م» ونفذ بدوره قرار المقاطعة ، وقاطع شقيقه كليمان ، واضطرت أسرته إلى التوقف عن إرسال طعام مشترك لهما من خارج السجن ، وإحضار طعامين منفصلين في كل زيارة !

ولم يكن قرار المقاطعة مقصوراً على أعضاء المنظمات الأخرى فقط ، بل مقاطعة جميع إجراءات التحقيق والمحاكمة التي تعقد في ظل الأحكام العرفية وبمعرفة المحكمة العسكرية طبقاً لقرار المنظمة . لذلك عندما دخل قاعة المحكمة استوقف الفريق حسين طنطاوى القاضى، محام يوسف الذى كان يطلب التأجيل للإطلاع قائلاً :

«تأجيل إيه يا أستاذ .. واحد مسكوه في الشارع ومش معترف بأى حاجة ومش محتاجة تأجيل !» .

أى أنه كان سيفرج عنه فوراً ، لكن يوسف لم يتح له الفرصة ، وانطلق فى خطبته التى كان قد حفظها يدين الفاشية والأحكام العرفية وهيئات البوليس السياسى والنظام الجائر وأنهى خطبته بالهتاف :

«عاش كفاح الطبقة العاملة .. تحيا المنظمة الشيوعية المصرية ..» .

وكانت النتيجة الحكم عليه ثلاث سنوات وغرامة خمسين جنيهاً (رفض دفعها بعد أن خرج بثلاثة أرباع المدة إنعاماً

من مولانا جلالة الملك بمناسبة عيد ميلاد الملكة ناريمان) .

وقبل أن انتقل إلى الرواية التالية ، أضيف أن ماضى كان أحد الذين شاركوا فى واحد من أطول الاضرابات عن الطعام فى السجون المصرية . وهو الأضراب الذى بدأ فى يناير ١٩٥١ واستمر ٢٨ يوماً .

□□□

على العكس تماماً ، وعلى الرغم من إنتمائه للمنظمة ذاتها (والتى كانت فى الأصل انشقاقاً من حدتو، نتعرف على محمد سيد أحمد الكاتب والمفكر المعروف (رحل هو ونبيل الهلالى ويوسف درويش للأسف أثناء اعدادى للنسخة النهائية من هذا الكتاب). والحقيقة أن الجزء الأخير من شهادته المنشورة فى أحد أجزاء سلسلة «شهادات ورؤى» التى أصدرتها لجنة توثيق الحركة الشيوعية المصرية (وقد سبق أن أشرت إليها) يحتاج ذلك الجزء الأخير إلى مناقشة معمقة خصوصاً فيما يتعلق بدور اليهود فى الحركة والطابع الانقسامى لها، وما يثيره حول سيطرة اليهود أولاً ثم المثقفين ذوى الاتجاه القومى وانفجار حدتو بعد حرب فلسطين، إلا أن المؤكد أنه كان يمتلك صدقاً واستقامة نادرين.

على أى حال، محمد سيد أحمد ابن ذوات. أبوه كان محافظاً لعدة أقاليم وقريباً لصدقى باشا رئيس الوزراء،

وعرف طريقه للماركسية - شأن كثيرين - عبر الليسيه، وبالتحديد من شيوعى فرنسى اسمه «رونى جرانييه»، ثم وجد من يدله على «دار الأبحاث العلمية»، حيث تعرف على شهدى عطية الشافعى وجمال غالى وإبراهيم المناسترلى وعلى الشلقانى وشريف حتاتة وفؤاد حداد، وكان مسئول خلية المرشحين فى إسكرا التى انضم إليها محمد سيد أحمد عام ١٩٤٢ أو ١٩٤٣، طالب يهودى بآداب القاهرة اسمه «ليون كرامر». ويؤكد محمد أن منظمة إسكرا كان تباشر التجنيد من خلال الحفلات واللقاءات، فهم أجانب ويهود ولقاءاتهم تدور فى الصالونات الثقافية والفكرية، وهو الأمر الذى كان مختلفاً بشدة عما يدور فى «الحركة المصرية»، فالأخيرة كانت منظمة نضالية والتركيب الطبقى فيها أكثر شعبية.

وشأنه شأن كثيرين أيضاً، قيل له أن الوحدة قد تمت بين إسكرا وح.م على الرغم من أنه كان من الشائع انتقاد ح.م فى اجتماعات إسكرا! وبعد انفجار حدتو عام ١٩٤٨ تمت ممارسة الصراع الايديولوجى دون أى احترام لهيكل تنظيمى أو مراعاة لقواعد الأمان، بينما نصف أعضاء المنظمة فى السجن والأحكام العرفية معلنة.. وسط ذلك الجو الكئيب والاجتماعات المتوترة والكثيرون هاربون من البوليس، التحق محمد بالتكتل الثورى أولاً ثم التحق بصوت المعارضة التى

شكلت أغلب عضوية م.ش.م فيما بعد. ويضيف أن انضمام ميشيل كامل أدى إلى نقل المنظمة من مجرد تشكيل تمردى أو تكتل إلى منظمة حقيقية لها وزن وقوام.

بعد اعتقال ميشيل كامل تكونت قيادة م.ش.م من أوديت وزوجها سيدنى سلامون وفاطمة زكى ومحمد سيد أحمد. وبسبب قواعد الأمان الصارمة عاشت أوديت زعيمة المنظمة الحديدية مع زوجها فى شقة لا يخرجان منها مطلقاً واتصالهما بالمنظمة عبر فاطمة زكى فقط. وما يذكره محمد من وقائع تدير الرأى حول ما تمتعت به أوديت من قدرة شبه سحرية وسيطرة خفية فوق واقعية على فاطمة زكى ومحمد سيد أحمد بعد ضمه للقيادة. كانت المنظمة - كرد فعل على خط كورييل القوات الوطنية - تتجه لتجنيد العمال، لذلك فرضت أوديت على البنات اليهوديات عضوات التنظيم أن يذهبن ويقفن على أبواب المصانع فى شبرا الخيمة لتجنيد العمال دون معرفة سابقة، وكان بعضهن لا يتقن العربية أصلاً، وللقارىء أن يتخيل مثل هذا المشهد فى شبرا الخيمة ورد فعل العمال والبوليس.. الخ. وإذا كان ذلك المشهد ينتمى للكوميديا السوداء، إلا أنه يعكس طبيعة تلك المرحلة العجائبية!

فعلى سبيل المثال، وبوصفه فى قيادة التنظيم، عاش نحو

عامين فى شقة منعزلاً عن الحياة ولا يتحدث مع أحد أو يخرج مطلقاً. وبلغ من سيطرة الزعيمة الحديدية إنها حرمته من استمرار علاقته العاطفية باحدى زميلاته بسبب قواعد الأمان. ويقول:

«لقد انتابتنى نتيجة الفراق الذى فرض على وأنا محبوس تماماً داخل الشقة حالات اضطراب بلغت حد أن أخذت تلاحقنى أحلام تكررت كثيراً أنى أقتل أوديت، وأنى أجد متعة فى قتلها، فضلاً عن أنى فكرت كثيراً فى الانتحار. وكانت أوديت تشعر بأن لدى مشاعر مكتومة لا أبوح بها تستبد بى، فكانت تصر على جلسات للنقد الذاتى أفصح فيها عن كل ماهو بداخلى. وكنت أجد نفسى أقول لها:

- أنا كثيراً ما أحلم بأنى أقتلك..

وكانت هى ترحب بمثل هذه الاعترافات وترى فيها تنفيساً عما فى قلبى وتطهراً من الصديد الذى يملأ مخى»!

وعندما دخل السجن لم يتبادل الكلام مع أحد مطلقاً طوال عامين، فكل التنظيمات هى فى الحقيقة تنظيمات بوليسية!

كان هناك مثلاً طالب اسمه كريم الخرادلى (كان أحد العبقريات النادرة ووجد الحل الصحيح لمسألة رياضية ظلت تدرس بطريقة خاطئة عشرين عاماً)! حكم عليه بالسجن وأرسل للواحات. ولأنه الوحيد المنتمى لـ م.ش.م لم يكن

يتبادل الحديث مع أحد وقاطع الجميع، فسأله مأمور السجن متعجباً :

– لماذا لا تتحدث مع أحد؟

أجابه:

– لأنهم جميعاً مباحث!

فرد عليه المأمور بأقصى قدر من ضبط النفس:

– هل تعتقد أنك من الأهمية بحيث أن الدولة تبني لك سجناً وتملأه بالمباحث.. من أجلك دون سواك!

لا يحتاج محمد سيد أحمد إلى أن أضيف جديداً حول اخلاصه وتضحياته والدور الذى لعبه، فقد قاطع عائلته وتفرغ لمنظمته وتبرع بكل دخله وعاش حياة متقشفة زاهدة – باختياره بالطبع، وعاش التجربة كاملة حتى الخروج عام ١٩٦٤.

أما مرحلة المرأة الحديدية أوديت فقد انتهت بسفرها هى وسيدني سلامون إلى باريس قبل أيام من أحداث مارس ١٩٥٤. يقول محمد سيد أحمد بقدر من الأسى:

«سافرت وتخلت عن جنسيتها المصرية وكانت معها جنسية فرنسية أصلاً. سافرت ولم تعد وحاولت أن تشكل فى باريس مجموعة تدافع عن مصر. وأنا ظللت فترة أسهم ما وسعى فى

دعم أنشطة أوديت في باريس من القاهرة مادياً، وكان والدى قد توفى وأصبح بمقدورى النهوض بهذه المهمة. ويضيف أن الباقين في المنظمة مثل فاطمة زكى ونبيل الهلالى والمستكاوى وبولس حنا وسعد الطويل رأوا أن استمرار الوضع على ماهو عليه غير معقول، خصوصاً بعد العدوان الثلاثى الذى شاركت فيه إسرائيل وانجلترا وفرنسا، ولم يعد مستقيماً أن تقود أوديت اليهودية من باريس منظمة فى مصر، وكان ضرورياً أن يحدث الانفصال المؤجل. يقول محمد سيد أحمد:

«قبل انفصالنا عن أوديت ومجموعتها أرسلت هى وسيدنى سلامون نقداً ذاتياً جاء فيه أننا عادينا الوفد معاداة لم تكن مبررة. وقاطعنا كل الشيوعيين الآخرين بصفتهم بوليس وتيتويين (كان الرئيس اليوغوسلافى تيتو زعيم التحريفية أنذاك)! وهذا أيضاً لم يكن له ما يبرره. والحقيقة أن هذا النقد الذاتى الذى جاء بعد فوات الأوان لعب دوراً أساسياً فى مقاطعتنا لهم بعد ذلك بصفة نهائية، وقد اشترطت (الراية) كى تضم مجموعة م.ش.م اليها، استبعاد مجموعة باريس كلية، وأن نقطع بهم كل صلة. وشعرت بأن هذا القرار الذى نقله إلينا اسماعيل صبرى عبدالله صعب للغاية، كان وأداً لمرحلة تاريخية وتجارب قاسية وسجن ولكننا قبلناه»!

(٤)

سأخصص هذا الفصل لتناول أخطر الأحداث التى مرت على مصر والمنطقة العربية: حرب فلسطين وما أسفرت عنه من ضياع فلسطين بعد خيانة الأنظمة العربية. وفى هذا السياق لابد من تناول، ليس فقط موقف حدتو وحدها، بل موقف المنظمات الشيوعية المختلفة، بسبب ما تعرض له الشيوعيون من افتراءات تصل إلى حد القول إن الشيوعية غرس يهودى أصلاً، أو أن الشيوعيين بادروا بالموافقة على قرار التقسيم لأنهم عملاء للاتحاد السوفييتى الذى وافق على قرار التقسيم فاتخذوا ذات الموقف.. أو غيرها من الاتهامات.

وأود فى البداية أن اؤكد أن موقف الشيوعيين من القضية الفلسطينية هو أكثر المواقف التى تعرضت للتشويه المتعمد والتزوير والتلفيق. وعلى الرغم من أن الشيوعيين المصريين والعرب أتخذوا أكثر المواقف تماسكاً وجذرية فيما بعد، وخصوصاً بعد هزيمة عام ١٩٦٧ وحتى كتابة هذه السطور، إلا أن الأدبيات المعاصرة لانتزاع فلسطين وإقامة الدولة العبرية على أشلائها ماتزال تعج بالأكاذيب.

إن من ينبغى محاكمته وإدانته هو الأنظمة العربية الخائنة التى قامت بتسليم فلسطين لا أقل! وأظن أنه بات موثقاً أن الأنظمة العربية التى قررت الحرب قبل أيام من المعارك لم

تكن تعرف أية معلومات استراتيجية ومؤكدة عن العدو. محمد حسنين هيكل فى كتابة «العروش والجيوش» - وهو ليس شيوعياً كما يعرف الكافة - يشير إلى أنه «يوم صدور قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة بتقسيم فلسطين، أى قبل ستة أشهر من بدء القتال على أرضها. لم يكن احتمال الحرب فضلاً عن قرار الحرب وارداً على بال الدولة في مصر، ولاحتى كخاطر ينشغل به طرف من أطراف السلطة. يستوى فى ذلك القصر الملكى والوزارة القائمة فى الحكم والأحزاب السياسية خارج الحكم».

ويضيف بأرقام موثقة تبعث على الذهول.

«إن الجيش المصرى دخل فلسطين وهو لا يعرف شيئاً عن جيش اليهود ولا قادتهم.. ولا عدتهم العسكرية وأسلحتهم ومدى قدرتهم على القتال. كان عدد الجيوش العربية بالمتطوعين ٢٦ ألفاً، بينما كان عدد الجيش اليهودى ١٢٠ ألف رجل وامرأة، وكنا نطلق عليهم العصابات الصهيونية تهويناً من شأنهم واحتقاراً لهم».

أما شهادة اللواء محمد على المواوى القائد العام للقوات المصرية فى فلسطين فسوف اكتفى بنقلها عن هيكل.. قال المواوى:

«كنت فى العريش وتلقيت رسالة تطلب سرعة حضورى

إلى القاهرة ودعيت لمقابلة الفريق محمد حيدر (وزير الدفاع آنذاك) الذى سألنى:

ـ إيه الحالة عندك؟.

قلت: إن الوحدات غير مدربة، لقد كنت مسئولا عن التدريب فى الجيش وأنا أعلم حالته، وكنت قائداً لسلاح المشاة وأعلم حالة جنودنا، وكنت قائداً لمعسكر التدريب فى الجيش، وأعلم أننا غير مستعدين إطلاقاً.

وسكت حيدر بعض الشيء.

قال لى: اسمع يامواوى، دولة النقراشى جاى يحضر اجتماع فى رياسة الجيش.. تعالى معى وقل له هذا الكلام كله.

وذهبت إلى الاجتماع وجلست أمام النقراشى أروى له معلوماتى بصراحة، وقال لى النقراشى إن موقفنا أمام الدول العربية يحتم علينا الدخول.

ومن بين ما قاله النقراشى أيضا أنه يعتقد أن المسألة سوف تسوّى سياسياً بسرعة، وأن الأمم المتحدة سوف تتدخل، وأضاف أن الاشتباكات ستكون مجرد سياسة وليست عملاً حربياً.

وإذا علمنا أن عمان كانت مركز القيادة العليا للجيوش العربية، وأن جلالة الملك عبدالله حصل على مملكة شرق

الأردن مكافأة له على خدماته للإنجليز، فإن هذا الملك نفسه كان بمثابة القائد الأعلى لكل الجيوش العربية! ويروى هيكل فى كتابه السابق الإشارة إليه وعلى نحو تفصيلى لقاءات الملك عبدالله مع ممثلى الوكالة اليهودية لضمان ضم الضفة الغربية إلى مملكته، وهو الهدف الوحيد لدخوله الحرب، وأضيف هنا أن الجنرال الانجليزى جلوب باشا كان قائداً للفيلق العربى بكامله، فهو لم يكن مجرد قائد للجيش الأردني، بل لكل الجيوش العربية وهى مهزلة مابعدها مهزلة!.

كذلك ينقل هيكل عن آنى شلايم الأستاذ بجامعة أكسفورد وأهم مؤرخ لمرحلة إنشاء الدولة اليهودية ماكتبه حول الموضوع:

«فور صدور قرار تقسيم فلسطين كان هناك اتفاق مسبق وكامل بين الهاشميين والحركة الصهيونية، وكان جوهر الاتفاق أنه عندما يسرى مفعول قرار التقسيم وينتهى الانتداب البريطانى على فلسطين فإن دولة يهودية سوف تعلن على الفور فى الجزء المخصص لليهود بمقتضى قرار التقسيم، وأما بالنسبة للجزء المخصص للعرب فإنه ينضم إلى شرق الأردن بحيث لايكون هناك داع لدولة فلسطينية بين إسرائيل ونهر الأردن».

بل إن هيكل يورد أيضا عددا من الروايات عن تحريض

المسئولين البريطانيين فى اتصالاتهم بالمسئولين العرب للإقدام على الحرب، (لنتذكر فقط كيف سمحت القوات البريطانية الجرارة المتمركزة في قواعدها فى القناة بعبور الجيش المصرى إلى سيناء والوصول إلى غزة! ألم يتم هذا تحت سمع وبصر وبموافقة بريطانيا العظمى؟!).

وهكذا قامت الأنظمة العربية بتسليم فلسطين، فهى لم تكتف بدخول الحرب وهى لاتعلم شيئا عن العدو، ولايهمها أنه متفوق بنسبة مخيفة، وأن الجيوش العربية غير مستعدة على أى نحو من الانحاء سواء فيما يتعلق بالسلاح أو التدريب، بل ويقودها الجنرال الانجليزى جلوب باشا، وإذا كان جلالة الملك عبدالله قام بتنفيذ ما تمليه عليه مصالحه التى هى فى الوقت ذاته مصالح الدولة العبرية، فإن جلالة الفاروق كان يبغى القيام بحركة مسرحية تصور أنها لن تتجاوز إطلاق بعض الرصاصات هنا وهناك ثم تتدخل الأمم المتحدة ويكسب هو أمام شعبه، ويتعزز نظامه ويترسخ ويستطيع أن يواصل القمع والاستبداد فى الداخل!.

تلك هى الحقائق العارية فيما يتعلق بموقف الأنظمة العربية الخائنة، التى كانت قد فقدت كل مبررات وجودها، أما الفترة السابقة على الحرب، فقد شهدت مثلاً غض طرف السلطات الرجعية المتحالفة مع الاحتلال فى مصر عامدة عن

النشاط الصهيوني، وعندما تأسس الاتحاد الصهيوني في الأربعينيات في مصر، كان اتحاداً علنيا، وتؤكد المادة (١) من لائحته الداخلية أنه يسعى إلى توحيد جهود الصهيونيين الموجودين في مصر بهدف تحقيق الأفكار الصهيونية وتأكيد برنامج بازل والقرارات التي يتخذها المؤتمر، وتشير الوثائق في هذا الخصوص إلى أن جانبا من اليهود المصريين كانوا هم الذين رفضوا هذا النشاط من زاوية محددة، وهي تأثيره على شباب اليهود بالهجرة إلى فلسطين من ناحية، ومن ناحية أخرى استفزاز النشاط الصهيوني للرأي العام المصري، وحسبما جاء في كتاب رفعت السعيد مثلا: «اليسار المصري والقضية الفلسطينية» فإن رينيه بك قطاوي رئيس الطائفة اليهودية في مصر وجه رسالة لليون كاسترو ممثل الوكالة اليهودية بفلسطين في القاهرة تتضمن:

«إن جاليتنا تعتبر أن مثل هذه الدعايات تضر بالعلاقات الأسرية وتهدد استقرار الأسر تهديداً خطيرا، إننا كيهود وكمواطنين في بلد ديمقراطي نعتقد أن لكل يهودي كامل الحرية في اعتناق مايشاء من أفكار، ولكننا كمسئولين عن الدفاع عن مصالح الجالية اليهودية بمصر فإن مجلسنا لايمكن أن يقبل بالأنشطة اليهودية الجماعية التي تضر باستقرار الجالية أو التي تضر بغالبية المجتمع المصري التي

تعتبر الجالية اليهودية نفسها جزءاً منه».

وإذا عدنا إلى الوراء قليلا، إلى الموقف الذى اتخذه الشيوعيون المصريون فى العشرينيات مثلا، فهناك مصادر عديدة من بينها جريدة «الحساب» لسان حال الحزب الشيوعى المصرى التى كتبت أثناء احتفال الحركة الصهيونية العالمية، بافتتاح الجامعة العبرية.

«احتفل الصهيونيون فى فلسطين بتأسيس جامعتهم العبرية يوم أول ابريل الجارى فدعوا لحضور احتفالهم نخبة رجالهم وجميع الذين يعطفون على قضيتهم ويساعدونهم فى عملهم الاستعمارى، وكان فى مقدمة المدعوين اللورد بلفور صاحب التصريح المشهور الذى أصدره باسم الحكومة الانجليزية، والذى بموجبه أعطت انجلترا فلسطين لليهود الصهيونيين رغم إرادة سكانها وضد كل شرع وعرف وقانون».

وسيظل هذا موقفاً ثابتاً عبرت عنه صحف ومجلات ومنشورات ومواقف الشيوعيين ضد الصهيونية، فكتب القائد النقابى محمود العسكرى فى نوفمبر ١٩٤٥ فى مجلة «الضمير» الشيوعية: «إن الصهيونية اليهودية الاستعمارية المتعفنة التى تضلل الشعب الإسرائيلى الكادح (لفظ إسرائيلى كان مرادفاً لكلمة يهودى) لمصلحة حفنة من

الرأسماليين الصهيونيين المستبدين، إنها الخطر المباشر الذى يهدد الشعب الكادح فى شقيقتنا فلسطين العربية الحرة».

وعندما سافر مع رفيقه القائد النقابى محمد يوسف المدرك فى العام نفسه إلى باريس لحضور مؤتمر النقابات العمالية، طرحا برنامجاً على المؤتمر يدعو إلى «مناصرة فلسطين فى كفاحها ضد الاستعمار والصهيونية باعتبارها نوعاً من أنواع الفاشية»، وفى العام نفسه دعا كل من عبدالمعبود الجبيلى وشهدى عطية الشافعى فى كتابهما «أهدافنا الوطنية» والذى شمل البرنامج الجماهيرى لمنظمة إسكرا الشيوعية إلى تأييد وحدة العرب واليهود فى فلسطين للكفاح ضد الاستعمار والصهيونية لتحقيق الاستقلال والديمقراطية لفلسطين» ووصف المناضل الشيوعى فوزي جرجس فى كتابه «تاريخ مصر السياسى والاجتماعى» الصهيونية بأنها «جزء من الاستعمار العالمى» وأضاف «إن أرض الميعاد التى يصرخ من أجلها المليونيرات الصهيونيون ليست إلا نقطة ارتكاز لكى يهاجر إليها جزء من الرأسمال العالمى المأزوم، ويتخذ منها مجالا لنشاطه للسيطرة على كافة أسواق الشرق الأوسط» وعبرت مجلة الجماهير التى كانت تصدرها حدتو بوضوح عن أن «استقلال فلسطين يستلزم جهادا متصلا من سكان فلسطين واتحاد صفوفهم وتخلصهم

من النفوذ الصهيونى أداة الاستعمار من جانب، والرجعية العربية ذنب الاستعمار من جانب آخر».

وفى ٢٣ نوفمبر بعد الموافقة على قرار التقسيم كتبت أيضا «لقد أيدنا، وسنؤيد دائما، قيام دولة عربية يهودية بفلسطين لكن على شرط واحد، وهو أن تتحرر فلسطين من ربقة الاستعمار وأن تتمتع بالاستقلال التام والديمقراطية الحقيقية.. ونسجل أن هذا موقفنا الأخير».

هل أضيف أيضا ماكتبه المستشار طارق البشرى فى الطبعة الأخيرة من كتابه الشهير «الحركة السياسية فى مصر ١٩٤٥ _ ١٩٥٢»:

«وكان من شباب اليهود التقدمى فى مصر من ألّف جماعة عرفت بالحركة المضادة للصهيونية وبذلوا جهودا لوقف التسلل الصهيونى فى صفوف اليهود» وأضاف: «وكان من بين الجماعة المصرية المناهضة للصهيونية يوسف درويش وشحاتة هارون المحاميان وريمون دويك وألبير أربيه والصحف اريك رولو وغيرهم، وعمل أعضاء هذه الجماعة على الانضمام إلى النوادى والجمعيات الرياضية اليهودية التى كانت الصهيونية تنشط بداخلها للترويج لدعوتها وإقناع الشباب بالهجرة إلى فلسطين، وانضموا إليها لمحاربة الدعوة الصهيونية وكشفها».

وبوضوح أكثر أدلى سكرتير الرابطة الصهيونية لمكافحة الصهيونية، وكان أحد قيادات تنظيم اسكرا الشيوعي بتصريح لمجلة الجماهير الشيوعية فى ١٩٤٧/٥/٥ قال فيه:

«الصهيونية خادمة الاستعمار تريد ربط اليهود بعجلة الاستعمار، وأن تجعلهم عبيداً لتنفيذ مآربه الحقيرة من خلال سياسة فرق تسد التى تتبعها فى فلسطين، ومن خلال سياسة إنشاء دولة يهودية صهيونية فى فلسطين، تصبح رأس الرمح الاستعمارى ضد شعوب البلاد العربية».

«لنلاحظ أن تلك الرابطة لعبت دوراً شجاعاً فى التصدى للصهيونية، وعندما قام بعض أعضائها بتوزيع ٦٠ ألف نسخة من منشور ضد الصهيونية، تعرض لهم أعضاء نادى المكابى اليهودى ـ والذى يسيطر عليه الصهاينة ـ وأوسعوهم ضربا، وكانت النتيجة هى حل النقراشى باشا رئيس الوزراء لرابطة مكافحة الصهيونية!.

نأتى إلى قرار التقسيم الذى يتخذ عادة كدليل على مايوجه للشيوعيين من أكاذيب وافتراءات، ويعلق أحمد نبيل الهلالى فى كتابه «اليسار الشيوعي المفترى عليه ولعبة خلط الأوراق» قائلا:

«وليس صحيحا أن الاتحاد السوفييتى ـ كما يزعم البعض ـ بموافقته على قرار تقسيم فلسطين قد شارك فى

المؤامرة الصهيونية الهادفة إلى إقامة الدولة الصهيونية على أرض فلسطين، ذلك أن الاتحاد السوفييتى تمسك فى الأصل بإنشاء دولة ثنائية عربية يهودية موحدة تحفظ حقوق جميع السكان على أساس العدل والمساواة، فلما رفض حكام العرب الرجعيون وقادة الصهيونية العالمية سواء بسواء هذا الاقتراح، غلب الاتحاد السوفييتى الاعتبارات العملية على الموقف المبدئى ووافق على التقسيم باعتباره أفضل الحلول السيئة».

ويضيف الهلالى:

«وأفصح أندريه جروميكو المندوب السوفييتى فى الأمم المتحدة، عن موقف الاتحاد السوفييتى بجلاء فى خطاب شهير ألقاه فى ١٩٤٧/٥/١٤ قال فيه:

«إن إنشاء دولة عربية يهودية موحدة، يتمتع فيها العرب واليهود بحقوق متساوية، يمكن اعتباره من الحلول الممكنة للمشكلة الصهيونية لمصلحة الشعبين ولجميع سكان فلسطين والأمن وسلام الشرق الأوسط، وإذا ظهر أن هذا الحل غير عملى بسبب سوء علاقات العرب واليهود، فلابد من تقسيم فلسطين إلى دولتين مستقلتين عربية ويهودية، وأنا أؤكد ـ والكلام لجروميكو ـ أن هذا الحل لايجب الأخذ به إلا إذا ثبت أن العلاقات بين العرب واليهود تبلغ من السوء الحد الذى

يمنع التعاون السلمي بينهما والذى لايرجي منه أى إصلاح».

ويعلق الهلالى على موقف الاتحاد السوفييتى بأنه تصور واهما أن التقسيم هو أسرع وأضمن وسيلة لإنهاء الإنتداب البريطانى وإجلائه عن فلسطين، غير أن هذا الحل التجريبى ـ كما يصفه الهلالى ـ سلم فلسطين لقمة سائغة للصهيونية العالمية وأتاح للإمبريالية العالمية إقامة قاعدة أمامية لها، الاتحاد السوفييتى إذن ـ كما يؤكد الهلالى ـ يتحمل نصيبه الضخم من المسئولية عن تمرير المخطط الامبريالى الصهيونى، ولكن لايجب إغفال مسئولية الأنظمة العربية والاتجاهات الشوفينية التى رفعت شعار طرد اليهود والإلقاء بهم فى البحر، إلا أنه يصف الموقف الذى اتخذته الأحزاب الشيوعية العربية بالموافقة على قرار التقسيم بأنه موقف ذيلى»، ولعلى أختلف معه هنا، فقرار التقسيم لم يكن الحل المبدئى أو العادل أو الأمثل، بل هو الحل الوحيد المطروح وفق توازنات القوى القائمة وقتذاك بعد خيانة الأنظمة العربية، ولم يكن صوابا أن نرفض ـ فى ظل توازنات القوى والأوضاع الداخلية والعربية والدولية ـ مثل هذا القرار، وفى هذا السياق يشير فاروق القاضى فى كتابه «فرسان الأمل» إلى أن المبدئية التى تناول بها الشيوعيون المصريون والكثير من العرب القضية الفلسطينية لم تكن تخلو من الرومانسية والبعد

عن الواقع، لقد بنوا موقفهم على أساس نظرى تماما غاب عنه على المستوى العملى حقيقتان أساسيتان:

«المشروع الصهيونى كمشروع استعمارى متكامل مرسوم بدقة مدرك لغاياته واع لأهدافه ماكان ليسمح أبداً أن يحرفه عن هدف استعمار فلسطين تحالف القوى الديمقراطية والعمال والفلاحين اليهود والعرب ضد هذا المشروع».

أما الحقيقة الثانية فهى ـ موقف الشيوعيين المصريين كموقف كثير من الشيوعيين فى العالم كان يغلب المفهوم الطبقى الشكلى على مفهوم الصراع الطبقى كإمكانية فعلية، كان يفترض أن وجود الطبقة يفضى أتوماتيكيا إلى الصراع الطبقى، وهذا غير صحيح، لأن الوضع الطبقى لاينفى أتوماتيكيا انتماء العامل اليهودى للمشروع الصهيونى، هذا ما عبر عنه بعض المفكرين الماركسيين فى فرنسا فى السبعينيات، وعلى رأسهم ألتوسير الذين بينّوا خطأ من يبدأون من الطبقة لا من إمكانية الصراع الطبقى الفعلية، لأن الطبقات لاوجود لها، إلا من خلال الصراع الطبقى بالمعنى السياسى للكلمة، وهو مالم يكن موجودا ».

وإذا كنت أشعر بحيرة شديدة، الآن وبعد أن جرت تحت الجسر كل تلك المياه أى بعد الانتفاضة الثانية ـ تجاه الموقف من قرار التقسيم، إلا أننى لا أستطيع أن أصف قبول

الأحزاب الشيوعية العربية بأنه ذيلى، أى تابع للموقف السوفييتى بل موقف يتسم بالجمود العقائدى والتطبيق الحرفى للنصوص الماركسية التى ترى ـ مثلا ـ أن مصالح كل من «البروليتاريا الفلسطينية» و«البروليتاريا اليهودية» تحتم أن يتحالفا، ولذلك فإن قرار التقسيم من الممكن أن يكون طريقا للحل، وهنا يشير الهلالى إلى أن الدولة اليهودية التى وافق الاتحاد السوفييتى على قيامها بموجب قرار التقسيم أبعد ماتكون عن الدولة الصهيونية العدوانية التى أفرزها قرار التقسيم على أرض الواقع، كان المقصود هو إقامة دولة عربية وأخرى يهودية تقوم بإفشال سياسة فرّق تسد التى انتهجها الاستعمار البريطانى، وينزع فتيل الصراع بين العرب واليهود «وراهن هؤلاء رهانا خاسرا على أن الدولة اليهودية التى سوف يقيمها قرار التقسيم ستكون دولة ديمقراطية تلتزم بقرارات الشرعية الدولية، خاصة أن قرار الأمم المتحدة بقبول عضوية إسرائيل علّق هذه العضوية على شروط محددة».

على أى حال، لا أظن أن الاستطراد أكثر من هذا يمكن أن يكون مفيدا، بعد أن تجاوز الواقع العملى كل هذه الأمور، وإسرائيل ـ الآن ـ ترفض مجرد وجود محمية فلسطين تحكمها من الأرض والبحر والجو!.

(٥)

كانت الحرب الخاسرة ذريعة للسراى لفرض الأحكام العرفية والقيام بسلسلة من الاعتقالات واطلاق يدها فى ضرب كل القوى الوطنية والشيوعية . وتزامن مع تلك الاعتقالات التى طالت قيادات عديدة سلسلة أخرى من الانقسامات والانشقاقات .

إلا أنه قبل اندلاع الحرب ، وقبل أن تكمل حدتو عامها الأول ، نشطت وانقسمت مرة أخرى كما سبق القول ، وعندما أعلنت الأحكام العرفية ، امتلأت معتقلات الطور والهايكستب وعيون موسى بالعشرات من الشيوعيين . ومما له دلالة أن أنقل هنا سطوراً من تقرير أورده رفعت السعيد فى كتابه «منظمات اليسار المصرى ١٩٥٠ - ١٠٩٥٧» مرفوع من القسم المخصوص بوزارة الداخلية فى ١٢ يناير ١٩٥٠ وموجه للسفارة البريطانية تتضمن سطوره :

«لقد كانت الأحكام العرفية علاجاً مؤقتاً ، فبفضلها استطعنا أن نعتقل عدداً كبيراً من الشيوعيين . وفيما بين يناير وديسمبر ١٩٤٩ أمكن للقسم المخصوص أن يكشف ٢٧ قضية شيوعية حوكم فيها ما يزيد عن ٦٠ شخصاً وذلك بالأضافة إلى عديد من القضايا التى قبض على المتهمين فيها قبل هذا التاريخ . وبخلاف هؤلاء السجناء فإن كل الشيوعيين

المعروفين بنشاطهم قد تم اعتقالهم بموجب الأحكام العرفية ولم يزل ١٨٠ من أكثرهم خطراً على الأمن معتقلين حتى الآن، فإذا ما ألغيت الأحكام العرفية الآن فإن الشيوعيين سوف يصبحون عبئاً عن أكتاف أجهزة الأمن العام وسوف يتطلب الأمر اتخاذ اجراءات خاصة للحد من نشاطهم ».

وفى ذات السياق نشرت جريدة الجمهور المصرى فى ١٩٥١/١/٨ أنه خلال عامى ٤٩ - ١٩٥٠ بلغ عدد الذين صدرت ضدهم أحكام بالسجن فى قضايا شيوعية ١٠٥ أشخاص حكم عليهم بأحكام مجموعها ٤٣٠ سنة» .

كانت الضربة الأمنية موجعة لا شك بالنسبة لحدتو ، غير أننى أظن أن الأكثر ايلاماً وتأثيراً هو سلسلة الانقسامات التى لم تسفر إلا عن المزيد من الضعف والتفتت . أدت تلك الانقسامات إلى ضعف شديد أصاب القيادة ، كما عكست العجز التنظيمى والفقر النظرى . ويمكن التساؤل هنا : هل كان بمقدور القيادة أن تدير الصراع الفكرى والخلافات التنظيمية دون أن يحدث هذا التشظى والتفتت الذى يبدو وكأنه مرض چينى لاشفاء منه ؟ أم أن ما جرى كان تعبيراً عن العجز النظرى .

على أى حال ، كان تقرير كورييل حول خط القوات الوطنية الديمقراطية من الممكن معالجة الخلاف حوله وفق

الأسس اللينينية للتنظيم ، أى خضوع الأقلية للأغلبية والمركزية الديمقراطية وصولاً إلى فتح باب الصراع عبر النشرة الداخلية إذا وصل الجميع لطريق مسدود . غير أن ما جرى هو إنفجار الخلاف واستباحة التنظيم على نحو يكاد أن يكون متوحشاً مثل السطو على الأجهزة الفنية والاتصالات الجانبية والاتهامات المتبادلة بالعمالة ..

وإذا كانت هناك مجموعات صغيرة خرجت تحت «لافتات» جديدة ، فإن التكتل الثورى قادة شهدى عطية الشافعى وأنور عبد الملك وسعد زهران وحسين الغمرى ، ومع هؤلاء الأربعة خرج أيضاً عدد من الكوادر منهم عبد المنعم الغزالى وميشيل عبد السيد ومحمد سيد أحمد وإلهام سيف النصر وتوفيق حداد ونقولا ورد وموسى عبد الحفيظ . وفى الوقت نفسه عاد الانقسام يطل برأسه داخل اللجنة المركزية لحدتو بين تيارى ح . م ، وإسكرا ، وبدا وكأن هناك ما يشبه المعسكرين المنفصلين .

رفع البعض شعار ١٠٠٪ عمال ، والبعض الآخر شعار تركيز العمل وسط العمال ، وظهر انقسام آخر من حدتو هو العمالية الثورية (ع.ث) خلال المؤتمر الذى عقد فى يوليو ١٩٤٨ ، وتمت الموافقة على دعوة كافة المنظمات الشيوعية لإرسال مندوبين للاشتراك فى لجنة تحضيرية لمؤتمر تأسيسى

للحزب (أى أن نبدأ من أول وجديد !) . انتخب المؤتمر لجنة من خمسة : علام وحميدو (عاملان) وثلاثة مثقفين هم لطيفة الزيات وعادل وشكرى . وبعد سلسلة من المحاولات ، وفي ظل الأحكام العرفية وموجة اعتقالات عام ١٩٤٨ ، تم القبض على القوى المحركة للجنة التحضيرية المشار إليها ، وبحوزة أعضائها مشروعات الوثائق التى كانت ستقدم للمؤتمر .. وهكذا انتهت اللجنة التحضيرية ، وبعد القبض على قيادة ع.ث ، اتجه أغلب الأعضاء المتبقين إلى الوحدة مع ن . ح . ش (نحو حزب شيوعى) . وفى عام ١٩٥٠ لم يكن خارج الأسوار والمعتقلات من أعضاء اللجنة المركزية إلا كمال عبدالحليم وعلى عمر (سودانى) ، ثم خرج من المعتقل كل من كورييل وسيد سليمان رفاعى وكمال شعبان ومحمد شطا وأضيف إلى اولئك الستة من أعضاء اللجنة المركزية ثلاثة محترفون هم مبارك عبده فضل وفؤاد حبشى ويوسف مصطفى . وعندما اندمجت جبهة التحرير الديمقراطية (جات) فى حدتو انضم للجنة المركزية أحمد طه ، ثم اندمجت منظمة نحو حزب شيوعى مصرى (ن . ج . ش. م) ومثلها فى اللجنة المركزية أحمد فؤاد .. وتوالى انضمام منظمات صغيرة دخل منها اللجنة المركزية أحمد الرفاعى وزكى مراد ، إلى جانب ثلاثة من القيادات العمالية هم محمد على عامر وسيد ترك

وأنور مقار وفى النهاية تم ضم كمال الشلودى كمسئول عن الأجهزة الفنية .

كان انضمام الاسماء السابقة للجنة المركزية تعبيراً عن اندماج منظمات صغيرة مثل نحشم التي ضمت مناضلين ذوى تأثير واسع مثل أحمد فؤاد وابراهيم المناسترلى وانجى افلاطون وحمدى وأنور أبو العلا ، وبسبب علاقاتهم المتميزة بعدد من ضباط الجيش تولى أحمد فؤاد مسئولية قسم الجيش داخل اللجنة المركزية .

وزار القاهرة الشهيد عبد الخالق محجوب سكرتير عام الحزب الشيوعي السودانى ، وأعلن أنه لن يغادر القاهرة قبل توحيد تلك المنظمات الصغيرة ، وبسبب ما يتمتع به محجوب من سمعة طيبة واحترام ، وافقت جميع المنظمات أن يرأس لجنة الوحدة ، التى عقدت اجتماعاتها السرية فى أمسيات متعددة فى مدرسة شبرا الثانوية لأن محمود توفيق الذى تولى سكرتارية أعمال اللجنة ، كان فى الوقت نفسه سكرتيراً للمدرسة .

وانطلقت حدتو بعد الوحدة الثانية ، وكانت الأكثر عدداً وتأثيراً ولها صلات هامة بالجيش وبعدد من النقابات العمالية، كما كانت قد أسست اتصالات بالريف فى حوالى ١٠٠ قرية

قبل ١٩٥٢ طبقا لكتاب والترلاكور «الشيوعية والقومية فى الشرق الأوسط» .

وهنا لابد من الاشارة أيضا إلى أن عام ١٩٥٠ شهد تطوراً هاماً تمثل فى قرار السلطات المصرية بأبعاد كورييل عن مصر رغماً عنه ، ومن على ظهر السفينة التى أقلته وجه رسالة نشرتها مجلة البشير يقول فيها :

«لقد أبعدت فى الظلام ودون جواز سفر .. وأصبحت مشرداً على ظهر باخرة وبلا وطن ، ومع ذلك فأننى مصرى وسأظل مصرياً معتزاً بمصريتى» ..

لكنه لم يعد قط حتى اغتياله ، فبعد سحب جواز سفره المصرى، أجبر على ركوب سفينة توجهت به إلى ايطاليا ، إلا أنه لم يمنح اللجوء السياسى هناك وأمرته سلطات ايطاليا بمغادرتها على الفور ، فاستخدم جواز سفر مزوراً وتسلل إلى فرنسا ، حيث أقام فى باريس سراً بلا أى أوراق حتى قبض عليه أثناء حرب الجزائر بسبب نشاطه فى دعم جبهة التحرير .

ولا حاجة للقول أن حدتو لم تكن وحدها فى الساحة ، فقد كان هناك عدد من المنظمات التى لعبت دوراً مؤثراً فى بعض المراحل ومهماً مثل الحزب الشيوعى المصرى (الراية) ونواة الحزب الشيوعى المصرى وطليعة الشيوعيين ووحدة

الشيوعيين وغيرها من المنظمات التى انضم بعضها إلى حدتو أو اندمج وتوحد مع منظمات أخرى على النحو الذى سأحاول توضيحه فى مكان آخر .

أعود إلى حدتو لأرصد لحظات كفاحية متعددة من مسيرتها حتى عام ١٩٥٢ . وفى ظروف الانفراجة شبه الديمقراطية فى أعقاب عودة حكومة الوفد إلى الحكم ، كانت حدتو بشكل أو بآخر وراء عدد من الصحف والمجلات العلنية ، وهى بالطبع أوسع وأكثر تأثيراً من المنشورات والمجلات السرية . من بينها مثلا مجلة البشير التى صدر منها عشرون عدداً ، وبعد توقفها صدر عدد واحد من مجلة أخرى هى «المستقبل» . ثم الملايين التى كانت توزع خمسة آلاف نسخة يومياً ويتولى رئاسة تحريرها ابراهيم عبدالحليم ، بل أن الافتتاحية كانت تعبر عن وجهة نظر المكتب السياسى لحدتو ويعمل فيها صلاح حافظ وزهدى العدوى وغيرهما من القامات الصحفية والفنية المتميزة .

ومنذ عام ١٩٥٠ تبنت حدتو الشعار الذى رفعته منظمات وقوى اليسار فى العالم وهو تأسيس حركة لأنصار السلام فى مواجهة الدول الاستعمارية التى كانت تلوح بالحرب ، وكما عبرت مجلة البشير: «أن النضال من أجل السلام هو فى الأساس نضال ضد الاستعمار» . وتتلخص الفكرة ببساطة

فى القيام بحملة مكثفة لجمع توقيعات على ميثاق استوكهولم الذى يطالب بعدم استخدام الأسلحة النووية ، والسعى لتأسيس لجنة قومية لأنصار السلام وكذلك لجان قاعدية لأنصار السلام فى الأحياء والمصانع أو النقابات . ولست بحاجة للقول أن هذا العمل العلنى وفر وأقام لحدتو اتصالات وعلاقات ونفوذ داخل الحركة الجماهيرية وبالفعل وقعت شخصيات هامة على البيان مثل البندارى باشا ودرية شفيق وفتحى رضوان والسنهورى باشا ، فضلاً عن ١٢ ألف توقيع فى غضون شهور قليلة .

ويبدو أن حدتو ركزت على هذا النشاط إلى حد أن البوليس قبض على سكرتيرها العام – فى ذلك الوقت – سيد سليمان رفاعى فى إحدى قرى بنها وهو يجمع التوقيعات. وتنشر الملايين (جريدة حدتو) فى ١٩٥١/١٠/١٤ الخبر التالى : «فى منزل الفنانة السينمائية لولا صدقى اجتمع ٢٥ من الكتاب والفنانين ورجال السينما لإعلان تأليف لجنة الفنانين المصريين أنصار السلام» . كذلك صدرت مجلة الكاتب منبراً للحركة ، إلا أن هذا لا يعنى أن الطريق كان ميسوراً أمام حركة أنصار السلام ، فحكومة الوفد شنت هجوماً عليها وضيقت على أعضائها وألقت القبض عن كثير من النشطاء .

والمؤكد أن حدتو حققت قدراً لا يستهان به من النجاح كعادتها عندما تتصدى للنشاط الجماهيرى فى أوقات الانفراجات الديمقراطية ، وهو أمر لابد من الاشارة له : أن حدتو تتنفس وتنتشى وتكتسب قوة جديدة فى أوقات الانفراجات الديمقراطية ، وإذا كان هذا مما يعرض أمانها للخطر ، ويكشف مناضيلها أمام البوليس ، إلا أن النتيجة النهائية هى نجاحها فى تحقيق ارتباط أوسع وأوثق بجماهيرها .

من جانب آخر ، استطاعت حدتو فى لحظات عديدة ومواقف مختلفة أن تعمل جنباً إلى جنب مع القوى السياسية الأخرى (ولا اتحدث هنا عن الجبهات التى تتشكل بمناسبة وبدون مناسبة ودون أساس فى أحيان كثيرة لذلك سرعان ما تنهار) ومن بين هذه اللحظات ما جرى فى بناء لجان أنصار السلام . فسكرتير اللجنة العام يوسف حلمى كان وقتذاك فى الحزب الوطنى ، إلى جانب الاسماء التى سبق لى أن ذكرتها ، وهى شخصيات تنتمى لكل التيارات السياسية من الشيوعيين إلى الطليعة الوفدية إلى الحزب الوطنى إلى الاخوان المسلمين . وطبقا لما ذكره طارق البشرى فى كتابه «الحركة السياسية» .. فإن توزيع مجلة الكاتب (لسان حال الحركة) بلغ ٢٢ ألف نسخة اسبوعياً . ويضيف :

«وكان الخط السياسى العام لحركة أنصار السلام المصرية هو على ما عبرت صحيفة التايمز ، الربط بين تعاسة الشعب المصرى وبين مصالح الغرب ، وباسم السلام كانت تطالب بإلغاء المعاهدة وبرفض أية محالفة مع الدول الاستعمارية ، باعتبار أن هذه المحالفات يقصد بها الاستعمار التمهيد والاعداد للحرب العالمية ، كما كانت تطالب بإجلاء القوات البريطانية عن مصر وبالكفاح المسلح ضد هذه القوات على أساس أن السلام في مصر هو فى الكفاح المسلح ضد الاستعمار» ما بين الأقواس نقله البشرى عن مجلة الكاتب - كما كانت تهاجم الولايات المتحدة ، باعتبارها مصدر التهديد بالحرب العالمية وتهاجم الزحف الأمريكى على الشرق الأوسط ، وتدعو لعقد معاهدة صداقة ومعاهدات تجارية وثقافية مع الاتحاد السوفييتي والدول الديمقراطية الشعبية . كما رفعت شعار السلام طريق الحرية ، وخاضت وراء هذا الشعار مع التنظيمات الأخرى - معارك الدفاع عن الحريات العامة ومقاومة تقييد حرية الصحافة .. ودعت الحركة لعقد مؤتمر لشعوب الشرق الأوسط وشمال أفريقيا لتأييد كفاح الشعب المصرى ، ولكن لم يقدر لهذه الدعوة النجاح بعد تطور الحوادث مع حريق القاهرة» .

غير أن ما يثير الدهشة هو الموقف الذى اتخذته كل من

الراية وطليعة العمال والنجم الأحمر بمعارضة حملة جمع التوقيعات على ميثاق استوكهولم السابق الاشارة له ، والأكثر ادهاشا هو سبب المعارضة . وبينما كان موقف الراية أن هذا العمل يخدم البوليس بتسليم أسماء الموقعين ، ولذلك كان موقفها هو أن تكون الحركة سرية (!!) ، فإن طليعة العمال من جانب آخر طرحت فكرة أكثر غرابة وهى أن تكون حركة السلام حركة طبقية لأن قضية السلام هى قضية الطبقة العاملة (!!) .

لكن هذا لم يمنع - فيما يبدو أن تشارك تلك المنظمات بقدر ما فى هذا النشاط .. فالمناضل خالد حمزة يحكى فى «شهادات ورؤى» والمنتمى لطليعة العمال أن التوجيهات التى وصلته أن يشارك فى لجنة أنصار السلام فى «بولاق أبو العلا» وأن يعاون فى توزيع مجلة الكاتب (لسان حال الحركة) وسرعان ما نجح فى تشكيل لجنة لأنصار السلام فى حى بولاق مع عدد من أبناء الحى . وابتكر هو وزملاؤه اسلوباً جديداً تماماً لنشر أفكار السلام ، حيث اشتركوا فى كتابة وتمثيل مسرحيات قصيرة ذات فصل واحد ، تظهر فيها شخصيات مثل إله الحرب وعمال وفلاحين ، ويعرضونها فى الحدائق العامة فى أيام الجمع والاجازات يقول خالد حمزة :

«نذهب إلى مكان العرض فى الجمع والاجازات ونعمل حلقة ونصفق بأيدينا فى إيقاع موحد فيجتمع حولنا الناس فنبدأ العرض وكان لا يزيد عن ٢٠ دقيقة بعدها نشرع فى الانصراف إلى حديقة أخرى . وأؤكد أننا كنا نقابل بقبول حسن . وكان أعضاء اللجنة غير المشتركين فى التمثيل يناقشون الناس وينشرون مبادئ السلام وكنا نركز على أن السلام لا يعنى استسلام الشعوب المقهورة ، وأن الكفاح المسلح ضد الاستعمار هو عمل من أعمال السلام ، وكان زملاؤنا بعد انتهاء مناقشاتهم يتبعوننا إلى مكان العرض القادم . اكتشفنا بعد عدة عروض أن البوليس السياسى ينتظرنا فتوقفنا».

من جانب آخر ، تكشف مرحلة لجان السلام عن أمر كثيراً ما يتكرر وهو الهجوم المتبادل بين المنظمات المختلفة بمبرر وبدون مبرر . فالراحل مبارك عبده فضل من قيادات حدتو - لا يمل فى مذكراته «شهادتى للتاريخ» من وصف المنظمات الأخرى بالانعزالية والانتهازية وضيق الأفق ، والراية وطليعةالعمال تهاجمان نشاط حدتو فى حركة أنصار السلام دون مبرر مقنع . بل أكاد أقول إن قدرة كل فصيل على العمل مع التيارات والفصائل غير الشيوعية أفضل بما لا يقاس عن العمل مع الفصائل الشيوعية!!

مثلاً كتب ابراهيم عبد الحليم القيادى فى حدتو فى الملايين - ٧ / ١٠/ ١٩٥١ وتحت عنوان «أنصار السلام وأعداء السلام» : اليوم يظهر بعض الخونة والمخربين وأعداء الحركة ليوجهوا طعناتهم المسمومة الداعرة إلى حركة السلام وإلى اللجنة التحضيرية وإلى معارك حركة السلام تحت شعارات مثل شعار الكفاح من أجل السلام بشكل أسلم ، وتحت شعار حركة سلام سلامية .. أى بشعارات لا تختلف عن الصفات التى حاول أن يلصقها بها الخونة وأبواق الاستعمار ...».

وأكتفى بالقول أن هذا لا يليق ، ويعكس المستوى المتدنى للمعارك والخلافات والاسلوب غير السياسى للصراع بين الفصائل الشيوعية.

أما المعركة التالية التى خاضتها حدتو فهى فى صفوف الحركة العمالية بهدف توحيد الحركة النقابية فى اتحاد عام للنقابات ، وفى هذا السياق شكلت مجموعة عمل هى «المكتب النقابى المركزى» ضم قادة نقابيين يتمتعون بقدر وافر من الثقل الجماهيرى مثل محمد على عامر وأحمد طه وسيد ترك ومحمد نوح وأنور مقار ومحمود فرغلى وسيد مصطفى.

وعندما نجحت حدتو فى الاتصال بالقيادات النقابية خارجها وشكلت «اللجنة التحضيرية» لاتحاد نقابات العمال»

انتخب احمد طه عضو اللجنة المركزية لحدتو وأصغر الاعضاء سناً فى هذه اللجنة سكرتيراً عاماً لها . وحسبما أشارت صحيفة الملايين فى ١٩٥١/٦/٢٢ انتخب حسن عبد الرحمن رئيساً لمؤتمر نقابات عمال النقل الذى شارك فيه مندوبون لنصف مليون عامل مشتركين فى ٤٣ نقابة لعمال النقل ، وانتخب سيد ترك سكرتيراً عاماً ، وكلاهما عضوان فى حدتو..

كادت جهود حدتو أن تكلل بالنجاح ، وأصبح حلم الطبقة العاملة فى توحيد حركتها النقابية قاب قوسين ، وتحدد يوم ٢٧ يناير ١٩٥٢ موعداً لعقد المؤتمر التأسيسى للاتحاد العام لنقابات عمال مصر ، غير أن حريق القاهرة اندلع فى اليوم السابق على هذا الموعد فى ٢٦ يناير ، وهو ما يعنى توجيه ضربة قاصمة لهذا الحلم ، كما تسبب الحريق ذاته فى قطع الطريق على نشاط حركة السلام.

ومثلما جرى فى الهجوم على حركة السلام الذى شنه الفصيلان المناوئان لحدتو - وهما الراية وطليعة العمال - شنا هجوماً آخر على جهود حدتو فيما يتعلق بتوحيد النقابات ، فطالبت الراية بتكوين لجان نقابية سرية (!) كيف؟ .. لا أحد يعرف ! بينما طرحت طليعة العمال فكرة المراحل التى

تبدأ بتطهير النقابات من العناصر الصفراء ، ثم تشكيل اتحادات مهنية عمالية ، وأخيراً تشكيل الاتحاد العام ، في الوقت الذي كانت حدتو على وشك النجاح في أهم خطوة في تاريخ النقابات العمالية في مصر .

ويشير طارق البشرى فى الكتاب السالف الاشارة له إلى مجال كفاحى آخر خاضته حدتو وهو العمل بين المثقفين والطلبة وشاركتها فيه المنظمات الشيوعية المختلفة والأحزاب الاشتراكية والوطنية الأخرى . ويضيف أنه بذلت محاولات لتكوين اتحاد ديمقراطى للطلبة ولعقد مؤتمر يضم الطلاب الوطنيين عام ١٩٥١. ودعت حدتو فى ابريل من العام نفسه لمؤتمر الميثاق بجامعة فؤاد الأول وأصدر قرارات هامة تتعلق بالكفاح المسلح ورفض المعاهدات والدفاع المشترك واطلاق الحريات.. ويضيف البشرى : «ثم بدأ تكوين ما عرف باسم (لجان الميثاق) التى ساهم فى تكوينها شباب الوفد . كما عملت الحركة الديمقراطية على تكوين لجنة للفنانين انصار السلام من مجموعة المشتغلين بالسينما والفنون وتكوين اسر الفن الحديث للرسامين والتشكيليين».

واستناداً إلى صحيفة الملايين وكتاب والترلاكور «الشيوعية والقومية فى الشرق الأوسط وأقوال بعض من مارسوا العمل

السياسي وما ذكرته الصحف الأخرى فى تلك المرحلة ، فإن برنامج حدتو كان يؤكد على طرد الاستعمار وتحقيق الجلاء وعدم دخول مصر فى أية أحلاف عسكرية مع دول الغرب وعقد معاهدة صداقة مع الاتحاد السوفييتي ، وأن تأييد الدول الاشتراكية والاتحاد السوفييتي يكسب مصر قوة مادية ومعنوية تستطيع الوقوف بها فى وجه الاستعمار . كذلك طالبت حدتو بتأميم قناة السويس وأسهمت فى تكوين لجنة تدعو للتأميم ساهمت فيها مختلف القوى السياسية ، إلى جانب توسيع الحريات الديمقراطية والغاء القيود التشريعية التى تحد من حرية الصحافة والافراج عن المسجونين السياسيين ، هذا إلى جانب المطالبة بتحديد الملكية الزراعية وخدمات التعليم والصحة والضمان الاجتماعى ، كما دعا البرنامج للكفاح المشترك بين الشعب المصرى والسودانى ووجوب أنشاء دولة عربية ديمقراطية فى فلسطين وتطبيق قرارات الأمم المتحدة الصادرة فى نوفمبر ١٩٤٧ الخاصة بتقسيم فلسطين.

والواقع أنه برنامج حدتو فى تلك المرحلة تحديداً ، كان من أفضل البرامج السياسية المطروحة وأكثرها ارتباطا بالواقع وامكانية للتحقيق والأهم التفاف الجماهير حوله. وهى تمضى

فى الشوط حتى نهايته كعادتها وربما بعد نهايته ، فمن أجل مزيد من الوصول لاجماع حول برنامجها ، أكدت على وجوب حماية الرأسمالية الوطنية وأنها حليف للطبقة العاملة فى الكفاح ضد الاستعمار ، على أساس أن هناك امكانيات ثورية موجودة فى الرأسمالية الوطنية توجب ضمها إلى تحالف الطبقات الثورية . وأظن أن المقصود بالرأسمالية الوطنية هو حزب الوفد الذى رأت الحركة أنه من الواجب التأثير فى جماهيره والاستفادة من طاقاتهم . وأنا هنا لا أناقش صحة مقولة الرأسمالية الوطنية أو عدم صحتها ، بل أشير فقط إلى طموح حدتو فى طرح برنامج شامل.

أما الشعار الذى طرحته حدتو حول الجبهة الديمقراطية فيعكس لحظة أخرى من لحظات التوهج والقدرة على العمل مع الفصائل السياسية المختلفة فى إطار برنامج الحد الأدنى الذى يستطيع الجمع بين قوى متعددة تتفق أهدافها وبرامجها فى لحظة محددة . ومرة أخرى اكتنف طرح هذا الشعار مماحكات من جانب الفصائل الشيوعية الأخرى حول الشعار من نوع أن الجبهة يجب أن تكون شعبية وليست ديمقراطية (!!!)..

من جانب آخر يشير طارق البشرى إلى أنه بعد أن ألغى

النحاس باشا معاهدة ١٩٣٦ «دعت الحركة الديمقراطية إلى تكوين جبهة وطنية ديمقراطية على أساس أن جميع الهيئات تصدر نداءات بتكوين الكتائب والتطوع فيها وأن المطلوب هو التحضير الجدى للكفاح المسلح ، تطالب الوطنيين جميعاً (الاخوان المسلمين - التقدميين الاشتراكيين - الوفديين - منظمات العمال - الطلبة - جميع المواطنين من الأحرار) بتكوين جبهة وطنية ديمقراطية متحدة ..» وحددت أهداف الجبهة بأنها مقاومة مشاريع الاستعمار الانجلو امريكى وعقد معاهدات صداقة ومعاهدات تجارية مع الاتحاد السوفيتى والصين .. الخ.

وقبل أن أختتم هذا الفصل أود أن أتناول واحدة من مآثر حدتو وفخرها وهى دورها فى الكفاح المسلح فى القناة ، بعد أن ألغى النحاس باشا معاهدة ١٩٣٦ واتفاقيتى السودان المبرمتين بين مصر وبريطانيا عام ١٨٩٩ فى أكتوبر ١٩٥١ من جانب واحد ، والواقع أنها واحدة من مآثر الشعب المصرى وحكومة الوفد والأحزاب والقوى والفصائل الوطنية ، وهى للأسف لم تكتب بعد ، وأهيل تراب النسيان عليها لتجريد المصريين من مجدهم وفخرهم ومقاومتهم المسلحة للأحتلال.

وما أود أن أؤكد عليه أولاً هو أن قراءة ، وقائع وأحداث الفترة الممتدة من الغاء المعاهدة فى أكتوبر ١٩٥١ وحتى حريق القاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ تكشف عن تلك اللحظات النادرة التى عاشها المصريون ومنظماتهم السياسية وأحزابهم ، حيث اندلعت المعارك بين الفدائيين المصريين وقواعد الاحتلال الانجليزى فى منطقة القناة استشهد فيها الكثيرون ، وأجبر الوفد على التقدم خطوات فى اتجاه اصدار تشريعات وقوانين تتيح للقوى السياسية والأحزاب أن تنتزع قدراً لا يستهان به من حريتها فى التظاهر والتنظيم المستقل وانشاء اللجان والكتائب المقاومة للاحتلال.

وأود أن أؤكد ايضاً أن مناخاً من الحريات السياسية والتنظيمية أتاحته المعركة التى اندلعت فى مدن القناة والهجوم الذى كان يشنه الفدائيون على معسكرات الجيش الانجليزى ، واضطرت حكومة الوفد للاستجابة لما يفرضه هذا المناخ ، وحاولت أن تمسك العصا من المنتصف ، إلا أن الأمر أفلت من يدها ، ولم يكن هناك حل إلا ذلك الذى دبرته السراى والاحتلال بحرق القاهرة والعودة لفرض الاحكام العرفية ووقف الانتفاضة المسلحة التى كانت على وشك الاندلاع.

وفى هذا الصدد يمكن الرجوع لكتابات متعددة ومختلفة ، ولعل من أهمها كتاب طارق البشرى السالف الاشارة له . فهو يتحدث مثلا عن اشتراك اعضاء من الاخوان المسلمين فرادى رغم أنف قياداتهم ، وعن الجبهة الشعبية التى ضمت أعضاء من التنظيمات الشيوعية وطالبت باعتبار القوات البريطانية قوات معتدية ، ورفض محاولات ربط مصر بالمعاهدات الثنائية أو الاحلاف الاقليمية مع الدول الاستعمارية . واطلاق الحريات السياسية ووقف مصادرة الصحف ، هذا إلى جانب تشكيل اللجان الوطنية التى دعت اليها حدتو وعملت على تأليفها فى الأحياء المختلفة.

وشهدت مدن القناة بعد أيام قليلة من الغاء المعاهدة مظاهرات شعبية عارمة تحرشت بها قوات الاحتلال ، واستشهد عدد من المتظاهرين ، واحتل الانجليز فى الاسماعيلية وبور سعيد مكاتب الجمرك والجوازات والحجر الصحى والزراعى ، واستولوا على حدائق الاسماعيلية وخط السكك الحديدية وكوبرى الفردان ، وفرضوا حكما عسكرياً مباشراً . وأقاموا نقط تفتيش فى أبى حماد والتل الكبير ، واطلقوا النار على ثكنات البوليس بالاسماعيلية ، وسقط كثير من رجال البوليس شهداء ، كما سقط أيضاً قتلى بريطانيون، كذلك اندلعت معارك متفرقة من أهمها معركة التل الكبير التى

كانت أول معركة مكشوفة استمرت خمس ساعات بين الفدائيين وقوات الاحتلال واستشهد فيها عباس الأعسر من كتيبة جامعة فؤاد الأول، ويذكر رفعت السعيد أنه كان عضواً فى حدتو ، وشارك ضباط الجيش فى التدريب وفى المعارك ذاتها كمتطوعين ، بل أن مجلس قيادة الكتائب الذى تشكل وقتذاك كان برئاسة الفريق عزيز المصرى وضم وجيه أباظة وحسن عزت من الضباط ، وأشرف الضابطان مصطفى كمال صدقى وعبد القادر طه على تدريب كتيبة أحمد عبد العزيز .. وغيرهم .

وإذا كانت حدتو قد انشأت معسكرات للتدريب فى منطقة القناة ، وشاركت فى المعارك ضد الاحتلال ، فإن تنظيم الراية وجد فى حركة الكفاح المسلح «ميداناً جماهيرياً للنمو الذاتى الذى رأى وجوب الاستفادة منه دون أن يركز نشاطه فيه بما قد يهدد سرية وجود أعضائه» بينما فقدت طليعة العمال «الايمان بأن حركة الكفاح المسلح والمعركة الدائرة وقتها يمكن أن تكون هى الثورة فعلا حسبما ذكر طارق البشرى.

واللافت للنظر أن الأجزاء الستة من الشهادات التى سبق أن أشرت اليها ، لا يرد فيها ذكر هذه المعارك إلا على نحو عابر ، هذا إذا ورد ، يستوى فى ذلك أعضاء المنظمات التى لم يعرف عنها الاشتراك فى الدعوة للكفاح المسلح ، ومن

كانوا أعضاء فى حدتو ، وإذا أضفنا إلى هذا ما أورده مبارك عبده فضل فى «شهادتى للتاريخ» ما أطلق عليه «حجم المساهمة المركزية فى الادارة اليومية للعمليات الفدائية والمساهمة فيها ، وكذلك المعايشة مع الفدائيين فى منطقة القناة لم تكن كافية ، كان من المفروض أن تنتدب اللجنة المركزية عدداً من عناصرها للحياة الدائمة مع المقاتلين فى منطقة القناة» ، إذا أضفنا ما كتبه فضل لأدركنا أنه كان ممكناً أن تسفر هذه المعارك عن نتائج أفضل ، لو نالت ما تستحقه من عناية.

أغلب الظن أن الزمن لم يمهل حركة الكفاح المسلح حتى تؤتى ثمارها ، وأغلب الظن أيضاً أن الطابع الغالب على تكوين الكتائب كان طلابياً ، هذا إلى جانب انعزال الكتائب عن فلاحى المنطقة ، وعدم وجود قيادة موحدة .. لا شك أن كل ذلك كان مؤثراً خلال الشهور القليلة التى اندلع فيها الكفاح المسلح بين أواخر اكتوبر ١٩٥١ ، و ٢٦ يناير ١٩٥٢.

وفى مقابلة شخصية مع الاستاذ أحمد حمروش جرت فى مايو ٢٠٠٥ ، ذكر لى أنه فى تلك الاثناء ، كان مسئولا سياسياً لقسم الجيش فى حدتو ، وأنه صحب جمال عبدالناصر لمعسكرات الجيش وحصلا على قنابل يدوية وذخيرة مهربة بواسطة الصاغ مجدى حسنين ، ووضعت هذه

الأسلحة فى منزل الضابط عثمان فوزى بالزمالك حتى الصباح حيث تم تسليمها فى «القرين» للفدائيين.

وتفضل الصديق الكبير الاستاذ عريان نصيف بالإجابة كتابة فى يونيو ٢٠٠٥ على سؤال وجهته له حول اشتراك الشيوعيين فى الكفاح المسلح عام ١٩٥١ على النحو التالى:

كان للحركة الشيوعية المصرية - وبالتحديد الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى - حدتو - دور هام فى معركة الكفاح المسلح ضد قوات الاحتلال عام ١٩٥١ . ولعل ذلك يتأكد من خلال :

* قرار اللجنة المركزية لحدتو - آنذاك - بضرورة اشتراك الرفاق وخاصة من وجه بحرى وبالذات من الشرقية ومحافظات القنال فى معسكرات الفدائيين القائمة أو تشكيل معسكرات من الرفاق والانصار من الفلاحين . وتم تكليف عدد من الرفاق المركزيين بتنفيذ ومتابعة ذلك بقيادة الزميل سيف صادق.

* حشد قسم الجيش فى حدتو لتوفير الاسلحة الضرورية فى المعركة بالإضافة إلى قيام الضباط الشيوعيين بتدريب المتطوعين للمقاومة المسلحة.

* تشكيل اوسع لجان وحركة سياسية ودعائية واعلامية ، لدعم الكفاح المسلح .

ولعل الاستاذ احمد حمروش الذى كان آنذاك أحد ضباط الجيش من أعضاء قسم الجيش بحدتو، قد حدد بشكل منهجي ودقيق الدور الهام لحدتو فى تلك المعركة التاريخية ، بقوله في محضر نقاش مع الباحثة سيليما بوتمان فى ١٩٨٠/٤/١٣ (أورده رفعت السعيد فى كتابه منظمات اليسار المصرى ٥٠ - ١٩٥٧) بقوله .. لابد من التمييز بين منهجين للكفاح المسلح . منهج الاحزاب الأخرى والذى كان يتمثل فى ايفاد عناصر محدودة من الفدائيين إلى المنطقة كانوا فى معظمهم من البورجوازيين الصغار .. وهو منهج حصر الكفاح المسلح في اطار أشخاص محددين وعناصر محددة ، أما منهج حدتو فكان يقوم على أساس تدريب الجماهير في قرن ومدى القنال وتوعيتها وحشدها للنضال المسلح . وهكذا انطلقت كوادر حدتو إلى قرى المنطقة بهدف تحويل هذه القرى والمدن إلى قرى ومدن مسلحة ومناضلة .. ومن ناحيتنا قمنا بتزويدهم بالسلاح والقنابل والذخيرة من مخازن الجيش أساساً».

□□□

(٦)

فى الصباح المبكر توجه أحمد الرفاعى بصحبة أحد رفاقه إلى مطبعة فى السيدة زينب فى حى المالية لطبع ورقة واحدة عندما فحصها صاحب المطبعة، فوجىء بأنها بيان تأييد حركة الجيش التى لم يكن قد مضى على إعلان بيانها فى الإذاعة إلا نحو ساعتين ، حاول الرجل التملص من مسئولية كتلك، غير أن الرفاعى وصاحبه زجراه، ويبدو أنه لمح الشرفى عيونهم فانصاع . وبعد ساعة واحدة أنهى طباعة المنشور وتم توزيعه فى كل الأحياء فى وقت واحد صباح ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

كانت حدتو هى المنظمة الشيوعية الوحيدة التى كانت تعلم بموعد الانقلاب قبل ٢٤ ساعة من وقوعه، بفضل الصلة المعقودة بين الضباط الأحرار وبين حدتو .. وحسبما كتب أحمد حمروش فى سيرته الذاتية «نسيج العمر»:

«أثمرت حرب فلسطين شعوراً وطنياً وقومياً جارفاً تبلور فى تنظيم جديد عرفنا بتشكيله من خالد محيى الدين الذى كان ضابطاً فى سلاح الفرسان ومنتدباً فى التدريب الجامعى بجامعة فؤاد الأول ومنتمياً فى الوقت نفسه إلى قسم الجيش فى حدتو .. تداولنا فى الأمر بقسم الجيش فى حدتو، ووجدنا أنه من الضرورى أن نلتقى ونتعاون مع هذا التنظيم الوطنى الجديد ، وكلفنا القاضى أحمد فؤاد بأن يتصل عن طريق

خالد محيى الدين بالبكباشي أركان حرب جمال عبدالناصر الذى علمنا أنه كان رئيساً منتخباً للجمعية التأسيسية للضباط الأحرار .. وانعقدت بينهما صلة وثيقة ، فقد كان جمال عبدالناصر حريصاً على استيعاب كل قوى الجيش الوطنية فى التنظيم الجديد الذى أطلق عليه اسم (الضباط الأحرار).

ويضيف حمروش ان أحمد فؤاد فى ذلك الوقت كان يسكن فى شقة فى منشية البكرى قريباً من جمال عبد الناصر الذى كان يسكن فى شقة فى كوبرى القبة، وهو ما ساعد على توثيق الصلة بينهما. توطدت الصداقة بين الرجلين، وظلت العلاقة بينهما قوية، وكان موضع ثقة عبدالناصر حتى رحيل الأخير، بل ان أحمد فؤاد انحاز فيما بعد لعبد الناصر وترك حدتو بعد الصدام بينهما وبين عبدالناصر ، وظل يلعب أدواراً مهمة فى جهاز الحكم مثل توليه لرئاسة مجلس إدارة بنك مصر بعد التأميم ، كما كان أحد أعمدة التنظيم الطليعى للاتحاد الاشتراكى فيما بعد وتولى مسئولية ضم الشيوعيين للحظيرة بعد خروجهم من معتقل السنوات الخمس عام ١٩٦٤..

والحقيقة ان علاقة حدتو بالجيش تعود إلى ماقبل ذلك بما يقرب من عقد من السنين. فعندما تأسست ح.م (الحركة

المصرية للتحرر الوطنى) عام ١٩٤٣، كان من بين كوادرها الأساسية عدد من خريجي مدرسة ميكانيكا الطيران مثل سيد سليمان رفاعي (وقد تولى مسئولية سكرتير حدتو فى احدى الفترات كما هو معروف) وفؤاد حبشي ويوسف مصطفي وإبراهيم عرفه. وطبقاً لمحضر النقاش الذى أجراه رفعت السعيد مع كل من سيد سليمان رفاعي وفؤاد حبشي فإن عدد أعضاء المنظمة فى سلاح الطيران وحده بلغ ٨٠ عضواً شكلوا خلايا فى جميع الأسراب والورش. أما ضباط الجيش الذين انضموا للمنظمة فقد كان من بين الأوائل منهم أحمد حمروش وعثمان فوزى وجمال علام ويوسف صديق، هذا إلى جانب ضباط آخرين كانت لهم علاقات بحدتو فى فترات مختلفة مثل خالد محيى الدين وعبد اللطيف البغدادى ووجيه أباظة ولطفي واكد ومنير موافى وشوقى حسين وآمال المرصفى وأحمد قدرى وعلى لطيف وطلعت خيرى.

الأكثر من ذلك أن قسم الأحذية (وهو الاسم الحركى لقسم الجيش بحدتو) كان يضم عدداً من الضباط الذين حرصت حدتو على أن يكونوا بعيدين عن الضباط الأحرار لقيامهم بمهام معينة مثل عبد المجيد نعمان الذى ذكر لرفعت السعيد فى محضر نقاش أجراه معه:

«كنت مسئولا عن اللاسلكى فى السرب الملكى، ولم أكن

منضماً لتنظيم الأحرار، وكنت عضواً فى قسم الجيش بحدتو، وقد بدأت عضواً فى الحركة المصرية للتحرر الوطنى مع عدد من ميكانيكية السلاح، وكنت طوال هذه الفترة أكلف بنقل المطبوعات والرسائل السرية في الطائرة الخاصة بالملك خلال رحلاتها المتكررة إلى أوربا وإلى روما أساساً وكنت مزوداً بحقيبة ذات قاع مزدوج، وأذكر أننى أبلغت التنظيم عن قيام الملك فاروق باعداد مكان سرى خاص به فى الواحات استعداداً للهروب من البلاد.

وقد سبق أن أشرت لما ذكره أحمد حمروش عن اشتراكه مع جمال عبدالناصر فى تهريب قنابل يدوية وذخيرة من معسكرات الجيش بواسطة الصاغ مجدى حسنين، وحملها حمروش وعثمان فوزى إلى الفدائيين المرتبطين بحدتو للقرين بالشرقية أثناء الكفاح المسلح عام ١٩٥١.

أما أحمد فؤاد فقد تعرف على عبد الناصر بصفته السياسية كعضو فى حدتو. قال فؤاد مثلاً: «كنا نشترك معاً فى كتابة معظم منشورات الضباط الأحرار، والقليل منها كتبه جمال عبدالناصر شخصياً وبعد حريق القاهرة أصبحت حدتو هى الجهة التى تقوم بطبع وتوزيع المنشورات، وأذكر أننى قدمت لجمال عبدالناصر الأهداف الستة بناء على طلبه ونزل بها منشور».

كان عبدالناصر حريصاً على أن يتسلم بنفسه منشورات الضباط الأحرار التى تطبعها حدتو ويقوم التنظيم بتوزيعها. لذلك كان يقف بسيارته فى أول الليل على كورنيش النيل بالروضة أمام قصر المناسترلى، وكما روى الأستاذ خالد محيى الدين: «وأمام عجلة القيادة شاب أسمر طويل يرتدى ملابس مدنية اسمه موريس «وهو اسم حركى بالطبع للحفاظ على أمان عبدالناصر» ووفق الاتفاق كان شاب من أصل أرمنى بعيداً عن الشبهات يمتلك محلاً لإصلاح الراديو بشارع الروضة اسمه ملكون ملكونيان .. وهو واحد من كوادر حدتو الموثوق بهم، يقترب من السيارة ليسلم موريس لفافة . لم يكن ملكون يعرف من هو موريس، ولا ماذا فى اللفافات التى سلمها له مراراً . وبعد قيام الثورة شاهد ملكون صورة موريس تملأ الصحف وأيقن أنه أسهم اسهاماً تاريخياً فى انجاح الثورة .. لكن زهوه لم يدم طويلاً، فما لبث البوليس ان قبض عليه مع زملائه المسئولين عن طبع المنشورات وحكم عليه بالسجن خمس سنوات قضاها كاملة حسبما ذكر الأستاذ خالد فى سيرته «الآن اتكلم» أما المطبعة السرية فقد حافظ عليها الضباط الأحرار فى «حرز مكنون» حتى عرضت فى المتحف الذى أقيم خصيصاً فى القلعة لثورة ٢٣ يوليو بوصفها مطبعة الضباط الأحرار!!

أما تنظيم الضباط الأحرار، فقد كان اندفاعه وتطوره الثمرة المباشرة لهزيمة ١٩٤٨ المهينة، فضلاً عن الاحتلال الجاثم والملك الفاسد الذى كانت الصحافة قد فجرت قضية الأسلحة الفاسدة لتكشف عن أن جلالته شخصياً كان يتقاضى عمولات هائلة فى شرائها، والتدهور السياسى والاجتماعي الذى كان قد فتت النظام القديم، وتأثر صغار الضباط بالجو السياسى الذى كانت تعيشه مصر على النحو الذى أفاضت عشرات المصادر فى ذكره.

وإذا كانت بدايات التنظيم تعود إلى عام ١٩٤٤ طبقاً لأغلب المصادر ، فان هزيمة ١٩٤٨ عجلت بتطورات العمل بداخله . ولاشك أن الأصول الاجتماعية لهؤلاء الضباط – باعتبارهم أول جيل يضم ابناء الطبقات الشعبية ممن تخرجوا ضباطاً من الكلية الحربية – أسهمت فى تطورهم السياسى. فعندما تولى الوفد الحكم عام ١٩٣٦ تبنى سياسة توسيع قاعدة ضباط الجيش حتى لا يبقى وقفاً على أبناء الطبقات الحاكمة، وما لبثت انتفاضة ١٩٤٦ الطلابية العمالية أن أثرت بشدة فى وعى وتوجهات الضباط، ثم هزيمة ١٩٤٨ ومارافقها من ملابسات أدت إلى ادراك شباب الضباط أن العدو لم يكن إسرائيل وحدها، بل إلى جانبها الاحتلال البريطانى والرجعية المحلية. وفى هذا السياق كان البطل أحمد

عبدالعزيز أحد قادة الجيش واستشهد فى حرب فلسطين قد قال لكمال الدين حسين (من الضباط الأحرار) قبل رحيله «ان ميدان الجهاد الأكبر هو في مصر». لذلك سرعان ما انخرطوا بقوة بعد الغاء معاهدة ١٩٣٦ واندلاع الكفاح المسلح فى تدريب الفدائيين، وأصدر حمروش كتاباً عن حرب العصابات، كما حاولوا تعطيل القناة بإعداد لغم ووضعه في القناة ليصطدم باحدى السفن الانجليزية ، إلا أن العملية فشلت لأسباب فنية . هذا إلى جانب الاشتراك في تهريب السلاح من مخازن الجيش وتسليمه إلى كتائب الأنصار في القناة. وحسبما ذكر كمال رفعت في مذكراته «حرب التحرير الوطنية» فإن الضباط الأحرار لم يكفوا لحظة واحدة عن الاتصال بكل القوى الشعبية سواء كانت سرية أو علنية «فاتصلوا أولاً بالإخوان المسلمين ، والتقى خالد محيي الدين وجمال عبد الناصر عدة مرات بحسن البنا، وانضما بالفعل للجهاز السرى وأقسما يمين الولاء والطاعة للمرشد العام ، إلا أنهما ابتعدا عن الجماعة بعد أن كشفت عن وجهها السياسى أثناء حكم إسماعيل صدقى شبه الفاشى، فتعاونت معه ضد اللجنة الوطنية للعمال والطلبة عام ١٩٤٦. ويذكر الأستاذ خالد محيى الدين فى سيرته الذاتية أنه تحدث طويلاً فى تلك الفترة عن العلاقة بالإخوان مع عبد الناصر ويضيف:

«وأفضى لى جمال بمخاوفه من أن الجماعة تستخدمنا كضباط لمصالحها الذاتية وليس لمصلحة الوطن، وأفضيت له بمشاعرى واتفقنا أننا قد تورطنا أكثر مما يجب مع هذه الجماعة وأنه يجب أن ننسحب منها».

من جانب آخر كان من بين أهم ملامح حدتو حرصها على مد الجسور مع كل القوى السياسية، سواء من خلال طرحها المتواصل لشعار الجبهة (حتى لو كان ذلك بدون مناسبة أحياناً!) أو من خلال التواجد وسط التجمعات التى قد لاينتبه اليها الكثيرون مثل العمل فى صفوف الأزهر والجيش والسودانيين والنوبيين . ولذلك كثيراً مااتهمت باهمالها لقواعد الأمان وتغليب العمل العلنى والجماهيرى على العمل السرى والتنظيمى. ولكن يبقى أن أحد أهم انجازاتها تأثيرها وتعاونها مع الضباط الأحرار، غير أنها وقعت أيضاً فى أخطاء جسيمة وربما كارثية بسبب هذه العلاقة على النحو الذى سوف أحاول توضيحه.

سوف أعتمد على ثلاث روايات أساسية لكل من خالد محيى الدين وأحمد حمروش ويوسف صديق فيما يتعلق بعلاقة حدتو بالضباط الأحرار. خالد محيى الدين كان قد تعرف على مقاعد الدراسة فى مدرسة الناصرية الابتدائية على أحمد فؤاد، ثم اشتركا معاً - فى شبابهما - فى

ممارسة رياضة التجديف فى نادى القاهرة النهرى. وفى عام ١٩٤٧ طلب فؤاد أن يلتقى بخالد، وفى الموعد جاء بصحبته على الشلقانى المحامى وتحدثا معه «دون لف أو دوران» عارضين عليه الانضمام لإسكرا، ويبدو أن ما شجعهما هو ماذكره لهما زميلهما فى التنظيم الضابط عثمان فوزى الذى كان صديقاً مقرباً لخالد ويعرف أفكاره وتوجهاته. وانضم خالد بالفعل إلى خلية وحضر عدة اجتماعات ، إلا أنه لم يحدث توافق بين مسئول الخلية واسمه الصحن ويعمل باشكاتب فى الشئون الادارية لسلاح الفرسان - وبين خالد فانقطع عن اسكرا . ثم عاود أحمد فؤاد الاتصال به، وحالت ظروف عديدة دون استمرار تلك الصلة ، من بينها مثلاً أنه كان على خالد أن يكف عن أى نشاط سياسى لفترة، بعد أن ألغى نقله لسلاح الحدود، فى واحدة من عمليات جس النبض المتبادل بين الضباط الأحرار وبين يوسف رشاد الذى كان معروفاً بوصفه يد الملك التى يحركها وسط الضباط.

وفى عام ١٩٥٠ التقيا مرة أخرى - خالد وأحمد فؤاد - واستعادا علاقتهما السابقة . وكان من بين أهم ما أدى إلى تباعد خالد هو الموقف من الدين، خصوصاً وأن الصحن المسئول السابق للخلية كان كثيراً مايثير لغواً ولغطاً حول الموقف من الدين، فأجابه فؤاد: « نحن نحترم الدين ولا يمكن

أن نمسه، والذى قال لك ذلك أحمق ، ولابد أن تعرف أن الصحن بادر بالفرار لدى أول ضربة بوليسية!». ويضيف خالد : «لكنه كان حريصاً على أن يؤكد لى أيضاً أنهم ضد استخدام الدين ستاراً لحركات سياسية، وتحقيقاً لأهداف سياسية».

فى تلك الجلسة تحديداً صارحه خالد بأنه فى قيادة تنظيم الضباط الأحرار، فاهتم بهذا الأمر وطلب على الفور ترتيب لقاء مع جمال عبد الناصر. كان هذا اللقاء الأول – والذى عقد فى بيت خالد محيى الدين مهماً للغاية. تجاوب عبدالناصر مع أحمد فؤاد عندما تحدث الأخير عن الحاجة إلى عمل جماهيرى لتصحيح الأوضاع. وبعد انتهاء المقابلة سأل عبدالناصر – خالد عن فؤاد، فأجابه: إنه مسئول منظمة حدتو. وعاد جمال يقول : «راجل كويس وكلامه كويس». ثم سأله فجأة: «هل رتبت هذا اللقاء عن عمد؟» فقال خالد: «نعم..». ولم يبد جمال أى حساسية فى التعامل مع الشيوعيين.

أما خالد محيى الدين فقد أقام علاقة منفردة مع أحمد فؤاد الذى كان يمده بالنشرات الحزبية، واعتبره على علاقة بحدتو بصورة فردية. ويضيف خالد أن هذه العلاقة الفردية أثمرت علاقة منظمة بين حدتو والضباط الأحرار، ووافق

عبدالناصر بشرط واحد هو أن ينضم من يريد من أعضاء حدتو الضباط إلى التنظيم فرادى وليس كمجموعة منظمة. ويتذكر خالد عدداً من الاسماء التى انضمت - وليس كلها - مثل محمود المناسترلي ومحمود القويسنى وصلاح السحرتى وجمال علام وآمال المرصفي وأحمد قدرى وعثمان فوزى، والأخير كان أحد مؤسسى تنظيم الضباط الأحرار فى سلاح الفرسان.

وفى عام ١٩٥١ ذهب خالد وجمال عبدالناصر لزيارة أحمد فؤاد فى بيته ، ووجدا عنده شخصاً قدمه لهما قائلاً:

«الرفيق بدر..».

تناقشا فى السياسة بطبيعة الحال ، ولما كان هناك انقلاب عسكرى قد وقع لتوه فى سوريا ،وكانت الصورة مرتبكة تماماً أمام الجميع، فإن تحليل بدر بدا «مقنعاً وملهما فى آن واحد» حسب تعبير خالد الذى أضاف:

«وعندما نزلنا من بيت أحمد فؤاد كان عبد الناصر لم يزل منبهراً بهذه الشخصية الغامضة والواسعة الأفق. وبينما تهبط السلم سألنى : مين الرفيق بدر ده؟

قلت : السكرتير العام للحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى..

فقال : بيشتغل ايه؟ قلت : السكرتير العام.

وكرر السؤال لأكرر الاجابة .. وأخيراً سألنى بحدة: يعنى كان بيشتغل ايه قبل مايبقى سكرتير عام؟ وتذكرت أن عثمان فوزى قد حدثنى طويلاً عن الرفيق بدر، وكيف أنه كان قائداً لفرع منظمة حدتو وسط ميكانيكيى الطيران، وكيف أنه وهو الميكانيكى استطاع أن يكوّن نفسه فكرياً وسياسياً ليصبح سياسياً وقائداً يستحق الاعجاب ..

قلت فى بساطة (لعبد الناصر) : ميكانيكى..

وصاح عبد الناصر : ميكانيكى .يعنى انت ممكن تبقى عضو فى الحزب ده وتتلقى أوامر من ميكانيكى.

فقلت : المسألة مش مسألة أوامر وانما هى مسألة اقتناع بفكرة.

لكن مسألة الميكانيكى هذه ظلت عالقة فى ذهن عبدالناصر وظل يرددها دوماً، أحياناً فى تهكم وأحياناً فى استنكار .. وحتى بعد الثورة، وفى اجتماعات مجلس قيادة الثورة قال مرة مشيراً إلىّ : ده زعيمه ميكانيكى..»!!

ويضيف خالد محيى الدين فى موضع آخر:

«وهكذا توثقت العلاقة بـ «حدتو» عن طريق علاقة وثيقة مستديمة بينى أنا وعبد الناصر وأحمد فؤاد .. وكثيراً ما كان عبدالناصر يلتقى منفرداً بأحمد فؤاد ويجرى معه مناقشات

مطولة حول الموقف السياسي المحلى والدولى ولكن لم يكن يفكر فى الانضمام لحدتو».

ولم تقتصر العلاقة على ذلك فقط .. ففضلاً عن طباعة المنشورات وبيانات الضباط الأحرار فى الجهاز الفنى لحدتو، تطوع عدد من الضباط أعضاء حدتو الذين انضموا للضباط الأحرار ، بعد اكتشاف ومصادرة المنشور الثانى والثالث ، والتى كانت عناوينها مكتوبة على الآلة الكاتبة، بكتابة العناوين بخط اليد حتى لايكشفها الأمن وهى فى الطريق للمرسل اليهم، الأمر الذى عرض ضباط حدتو للخطر بسبب خطوطهم بطبيعة الحال.

أما الوثيقة البرنامجية « أهداف الضباط الأحرار» فقد شارك فى كتابتها خالد محيى الدين وأحمد فؤاد ، ثم عرضها الأول على لجنة قيادة الضباط الأحرار، ولم يعترض عبدالناصر إلا على كلمتين فقط : «الاستعمار الأمريكى» قائلاً:

ان الشعب لا يعرف سوى الاستعمار البريطانى فلماذا ندفعه إلى هذه اللخبطة ونتحدث عن الأمريكان. ولما أجابه خالد ان الاستعمار البريطانى يتهاوى والخطر الحقيقى هو الاستعمار الأمريكى ، كان رد عبدالناصر : لكن هذا التعبير لايستعمله إلا الشيوعيون.

اللقاء الأول بين عبد الناصر وحمروش جرى في بيت أحمد فؤاد . والطريف ان عبد الناصر بعد أن تبادل الحديث مع حمروش، أخرج من جيبه منشوراً للضباط الأحرار ليقرأه، وكان أحمد حمروش هو كاتب هذا المنشور، وكان قد سلمه مخطوطاً لأحمد فؤاد في اليوم السابق على لقائه بعبدالناصر!!

وقبل موعد الانقلاب بأيام قليلة كان حمروش يستعد للسفر إلى فرنسا بعد أن تلقى رسالة من هنرى كورييل للقائه في باريس . (وكان الأخير قد طرد من مصر كما سبق القول في يوليو ١٩٥٠ رغم أنه كان يحمل الجنسية المصرية، وأصر البوليس السياسي على طرده دون سند من القانون . وعندما لجأ إلى مجلس الدولة لم يجد القاضي قراراً مكتوباً بالطرد لمناقشته أو اتخاذ قرار حياله ، فقد كان القرار شفوياً : الطرد فوراً!).

تحدد يوم السفر في ٢٤ يوليو على الباخرة الايطالية استوريا ، وكان رفاقه في قسم الجيش يعلمون بطبيعة الحال، إلا أن عز العرب عبد الناصر - شقيق عبد الناصر - زاره في الاسكندرية حيث كان ضابطاً في رئاسة الآلاي الثاني أنوار كاشفة مساء ٢٠ يوليو وأبلغه أن جمال ينتظره في القاهرة على وجه السرعة دون أن يحدد له السبب. وفي

الرابعة مساء ٢٢ يوليو كان حمروش يطرق منزل جمال فى كوبرى القبة، إلا أنه لم يكن فى منزله . وعندما دعاه من بالمنزل للدخول وانتظار جمال، فضّل هو - بخجله الريفى على حد تعبيره - أن ينتظر فى الشارع حتى وصل جمال بعربته الأوستن السوداء وبصحبته كمال الدين حسين وأحمد شوقى وصلاح نصر.

اقترب عبد الناصر من حمروش مبتسماً وقال له بصوت خفيض:

- كنت انتظر حضورك..

وسار معه بضع خطوات ثم أضاف:

- أرجو ألا تأخذك المفاجأة .. سنتحرك الليلة .. أعددنا خطتنا لذلك.. سنتقدم للسراى بعدد من المطالب .. وعليك فى الاسكندرية أن تحافظ مع الزملاء على الهدوء .. فلا تتحرك القوات ولا تصطدم ببعضها حتى لا يكون هناك تنافر بين ما نقوم به فى القاهرة وما قد يقع فى الاسكندرية .. محمد نجيب انضم أيضاً..

لم يكن هناك وقت للمزيد من الحوار ، فقد كانا يتحدثان فى الشارع، بينما الآخرون ينتظرون فى السيارة ، وافترقا على الفور.

كان بيت أحمد فؤاد على بعد خطوات فتوجه إليه ولم يكن

يعلم شيئاً، وتوجها معاً للقاء خالد محيى الدين ويوسف صديق . كان خالد عند طبيب الأسنان ، فذهبا اليه هناك ، ولم يكن يعلم أيضاً ، واتفق معهما أحمد فؤاد أنه فى حالة فشل الحركة ، أن يختفيا فى بيت أحمد فؤاد فى طنطا حيث كان يعمل قاضياً هناك آنذاك . أما يوسف صديق فلم يكن فى منزله، وأخبرتهما زوجته أنه يعلم لكنه يعانى من نزيف فى صدره (كانت زوجته السيدة علية توفيق عضوة فى حدتو).

وبعد هذه الجولة الطويلة ، قاد أحمد فؤاد سيارته فى اتجاه محطة السكك الحديدية ، وفى الطريق طلب حمروش من أحمد فؤاد ابلاغ الرفيق بدر (سيد سليمان رفاعى) سكرتير حدتو فى الليلة نفسها، وبالفعل صدر بيان حدتو بتأييد حركة الجيش صباح اليوم التالى.

وهكذا شاءت المصادفات أن يتحدد تاريخ الانقلاب قبل سفر حمروش للقاء كوربيل بيوم واحد. وفى وحدته العسكرية بالاسكندرية لعب دوراً مهماً فى تأمين الانقلاب بالمدينة التى كان يقيم بها الملك كعادته فى شهور الصيف، وقام باعتقال عدد من كبار الضباط الموالين للملك.

أما القائمقام يوسف صديق فيمكن اعتباره بشهادة جميع المصادر البطل الحقيقى للانقلاب .. وشأنه شأن أبناء جيله، شارك فى حرب فلسطين ، وكانت كتيبته من أكثر الوحدات

المصرية توغلاً فى الأرض الفلسطينية، بل تمكنت من الوصول إلى أسدود القريبة من تل أبيب. وشأن أبناء جيله أيضاً كان يبحث عن طريق لانقاذ الوطن، فاتصل بالإخوان المسلمين ولم يقتنع بأفكارهم على الرغم من تدينه، ثم اتصل بمصر الفتاة ولم يقتنع بأفكارهم أيضاً، وأخيراً اتصل بالشيوعيين عن طريق حمروش . وفى شهادته للأخير فى كتابه «ثورة يوليو» يقول:

«.. وقد أعجبنى فى الشيوعية انها تغرس حب العدل فى النفوس وتعمل لتحقيق السلام على الأرض، واقامة المحبة والتعاون بين الناس، فهى لاتفرق بين الناس لأنسابهم ولأحسابهم وإنما تعمل على الغاء استغلال الإنسان للإنسان، ولم أشعر لحظة واحدة أن فى تطبيق هذه المبادىء مايتعارض مع عقيدتى الدينية، فقد داس الإسلام تيجان الأكاسرة والأباطرة بأقدام الشعوب .. وبعد اعتقال عديد من قيادات حدتووصلت الأمور إلى الحد الذى كنت أكتب فيه المنشورات باليد فى منزلى بثكنات العباسية وكانت تشاركنى فى ذلك زوجتى التى كانت عضوة فى حدتو هى وشقيقها محمود توفيق».

كان هذا خلال النصف الثانى من عام ١٩٤٨ وأوائل ١٩٤٩، حين كانت الانقسامات والانشقاقات تفترس

حدتو . وفى أوراقه عن ثورة ٢٣ يوليو كتب يوسف صديق:

«رغم اقتناعي بأن الشيوعيين كانوا اقرب الاتجاهات الثائرة على الأوضاع إلى قلبى - فأننى تركتهم عام ١٩٥١. تركتهم لأنهم انقسموا على أنفسهم حتى بلغ عدد منظماتهم عند قيام الثورة عشر منظمات، فتفرقت السبل حتى بات الخلاص على أيديهم بعيد الاحتمال . وتركتهم لأنى تلاقيت مع حركة الضباط الأحرار الذين يمكن تحقيق الخلاص على أيديهم سريعاً».

جاء انضمامه للضباط الأحرار عن طريق رسالة من جمال عبد الناصر حملها الضابط وحيد رمضان الذى كان تلميذاً ليوسف صديق، وطلب الأخير مهلة قصيرة للتفكير فى الأمر، لكن رفعت السعيد في مجلة اليسار (عدد ابريل ١٩٩١) يذكر أن رد يوسف صديق «جاء متأخراً قليلاً فقد كان يتعين على يوسف أن يستأذن المسئولين في حدتو . ولم يكن يعلم أن حدتو قد أقامت علاقة وثيقة مع الضباط الأحرار». وهو أمر غريب وبعيد الاحتمال ، فهل من المعقول أن رتبة كبيرة وشخصية لها ثقلها وشبه معروفة مثل يوسف صديق لا يعلم أن هناك اتصالاً بين حدتو والضباط الأحرار، ثم أن حدتو كانت تضم قسماً خاصاً هو قسم الأحذية لضباط الجيش،

ومادام يوسف صديق عضواً في حدتو، فالمنطقى أنه كان يعلم .. أليس كذلك؟! وأخيراً .. ألم يذكر هو في أوراقه أنه كان يكتب منشورات حدتو بخط يده!!

على أى حال كان دور الرجل ليلة الانقلاب دور أساسي. كان الضباط الأحرار قد علموا أن حركتهم قد كشفت وأن الملك يعد لضربهم خصوصاً بعد معركة انتخابات نادى الضباط، فقرروا أن يكونوا هم السابقون بعد أن كان مقرراً أن يقوموا بالانقلاب في غضون عامين عندما يشتد عود التنظيم ويقوى ويتغلغل أكثر في صفوف الأسلحة المختلفة ، لكن الأحداث سرعان ما تلاحقت، وتحدد شهر أكتوبر أو نوفمبر للقيام بضربتهم».

وفي ١٣ يوليو، وفي موعد التنقلات الدورية لوحدات الجيش ، تقرر أن تتحرك الكتيبة ١٣ التى يقودها يوسف صديق من العريش إلى القاهرة لترحيلها إلى السودان. ولذلك سبقت هذه الكتيبة مقدمة «لاستلام مكان الاقامة الجديد والمؤقت قبيل السفر إلى السودان، حتى إذا ما وصلت قوة الكتيبة يمكنها أن تمارس حياتها في يسر، ولأن تلك المقدمة مجرد قوة عسكرية ادارية ، فإن تسليحها، كان خفيفاً وتتكون من ٦٠ جندياً مسلحين بالبنادق بخلاف الضباط. تحرك

صديق إذن بمقدمة كتيبته إلى القاهرة فى ١٣ يوليو تمهيداً لوصول القوة الأساسية فى ٢٦ يوليو.

وكانت الشائعات قد رشحت رجل الملك القوى حسين سرى عامر لتولى وزارة الحربية ، ولم يكن لهذا سوى معنى واحد : ان الملك ينوى التدخل بحسم للقضاء على الضباط الأحرار. ويؤكد يوسف صديق فى مذكراته ان الأسبوع الأخير السابق على الحركة شهد اجتماعات متوالية نظمها جمال عبد الناصر للإعداد الدقيق لخطوات الانقلاب. وفى ٢٠ يوليو - أى قبل يومين فقط من الموعد المحدد - عاود نزيف الرئة صدر يوسف صديق وألزمه الفراش ، بينما كانت الخطة تقتضى أن يتولى هو الدور الأساسى والحاسم بقيادة الكتيبة التى تضم ٦٠ جندياً و٤٠ لورى.

وعندما ذهب جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر إلى بيت يوسف صديق قبل الموعد بيومين ووجداه يعانى من نزيف الرئة، اقترحا اعفاءه والبحث عن حل بديل وسريع، إلا أن صديق أصرّ مشيراً إلى أن مستشفى كوبرى القبة العسكرى قريب من خط السير وإذا ساءت حالته يمكنه أن يمر عليه.

فى ليلة الانقلاب جمع يوسف صديق كتيبته وخطب فيهم

ليعلموا مهمتهم الحقيقية ، وكان الرجل يملك من الحماس والإيمان بما يقوم به إلى الحد الذى أشعل الحماس أيضاً فى قلوب جنوده وضباطه . وفى الليلة نفسها أرسل له جمال عبدالناصر مع أحد الضباط ساعة الصفر وكلمة السر «نصر».

ويبدو أنه كان مقدراً للانقلاب أن ينجح مهما جرى!

كانت ساعة الصفر التى أبلغت ليوسف صديق خطأ. كان المفروض أن يتحرك بقواته فى الواحدة من صباح ٢٣ يوليو، لكنه تحرك خطأ بناء على الابلاغ الخطأ فى الثانية عشرة . هذه الساعة وحدها كانت سبب نجاح الانقلاب .. ففى الليلة نفسها كانت معلومات مؤكدة قد وصلت إلى الملك فى الاسكندرية أن الضباط ينوون القيام بحركة بعد ساعات قليلة ، فاتصل بالفريق حسين فريد قائد الجيش الذى تحرك على الفور واستدعى كبار الضباط للاجتماع بهم فى مقر قيادة الجيش فى كوبرى القبة، كما اتصل بقادة الوحدات ليتوجهوا إلى وحداتهم ويمنعوا أى تحرك إلى القاهرة.

ولذلك سرعان ما التقى يوسف صديق فى الطريق بعربة اللواء عبد الرحمن مكى قائد الفرقة الذى كان متجهاً لمنع

التحرك حسب أوامر قائد الجيش، فألقى القبض عليه على مسئوليته الشخصية، وما لبث أن التقى بعربة الأميرآلاى عبد الرءوف عابدين قائد ثانى الفرقة فألقى القبض عليه أيضاً. وعندما وصل بقوته إلى مصر الجديدة عاوده نزيف الرئة مرة أخرى، توجه إلى أقرب صيدلية وأخذ حقنة قوية لوقف النزيف وواصل طريقه، إلا أن رجاله استرابوا فى شخصين يرتديان ملابس مدنية يحومان حول سيارات القوة فأوقفوهما، وقادوهما إلى يوسف صديق الذى تعرف عليهما بالطبع، فلم يكونا سوى جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر! وعرف منهما أن كبار الجنرالات مجتمعين مع قائد الجيس فى مقر القيادة لاجهاض الحركة، فأسرع إلى مقر القيادة وحاصره واحتله واعتقل قادة الجيش.

هذا هو الدور البطولى ليوسف صديق باختصار شديد.

□□□

أيدت حدتو انقلاب الضباط الأحرار مستندة إلى وجود عدد كبير من الضباط المنتمين اليها فى صفوف تنظيم الضباط الأحرار. وكما سبق الذكر كانت حدتو هى المنظمة الشيوعية الوحيدة التى علمت بموعد الانقلاب قبل قيامه بعدة ساعات. ولذلك فإن قرار التأييد كان صائباً بسبب تلك

الصلات المشار اليها ، فضلاً عن أن بيانات ومنشورات الضباط الأحرار كانت تطبع فى الجهاز الفنى لحدتو، وشارك أحمد فؤاد وخالد محيي الدين فى كتابتها (الأخير مثلاً كتب احدى الوثائق الأساسية وهى أهداف الضباط الأحرار). وإذا كان يوسف صديق قد غادر حدتو قبل الانقلاب إلا أنه كان منحازاً ولا شك للاشتراكية والديمقراطية، والأمر نفسه بالنسبة لخالد محيي الدين الذى ترك اسكرا لكنه ارتبط بعلاقة شبه تنظيمية بأحمد فؤاد. أما إبلاغ السفير الأمريكى كافرى بموعد الانقلاب ، ثم مشاركته فى توديع الملك فاروق بالاسكندرية عندما قرر الضباط طرده فى ٢٦ يوليو، فيمكن فهمه فى إطار محاولة تحييد أمريكا وضمان عدم تدخل الانجليز الذين كانت قواعدهم العسكرية على مرمى حجر من القاهرة، وليس معناه أن أمريكا لها يد فى الانقلاب، كما بدا لدى البعض بسبب الظهور العلنى للسفير الأمريكى مع الضباط لحظة طرد الملك فاروق.

كل الوقائع والتفاصيل والشواهد الآن كانت تؤدى إلى تأييد الانقلاب، على الرغم من أن باقى المنظمات الشيوعية وقفت ضده، كما أن الحركة الشيوعية العالمية كانت بدورها تقف ضد الانقلاب وتتهمه بأنه صنيعة أمريكية!

وبعد أقل من شهرين فقط، أسفر الضباط الأحرار عن الوجه الآخر، فعندما اندلعت مظاهرات عمال كفر الدوار فى سبتمبر مطالبين بتحسين شروط عملهم، تدخل الجيش وسحق العمال بقسوة، بل وعقد مجلساً عسكرياً عاجلاً قرر إعدام العاملين مصطفى خميس ومحمد البقرى. فى البداية حاولت حدتو التدخل ودعت العمال للهدوء خشية حدوث تصادم أعنف، إلا أن عجلة العنف كانت قد دارت ، ولم يكن ممكناً تحاشى الصدام. فالضباط الأحرار وهم فى السلطة يختلفون عن الضباط الأحرار الذين كانت حدتو تطبع منشوراتهم، كما أنه كان سهلاً تحجيم تأثير خالد محيى الدين ويوسف صديق وحمروش أو حتى اعتقالهم ، كما حدث فى الشهور التالية للأخيرين على الأقل.

على أى حال ، ما إن جاء يناير ١٩٥٣، حتى كانت العلاقة بين الضباط الأحرار وحدتو قد وصلت إلى الصدام بعد اعتقال عدد من أعضائها ، ثم خرج أحمد فؤاد من حدتو منحازاً لجمال عبدالناصر ، فقررت حدتو حلّ قسم الجيش لأن أحمد فؤاد كان يحمل معه كل أسرار حلّ قسم الأحذية وأعضائه.

وهكذا بدأت مرحلة جديدة تماماً بين حدتو والضباط الأحرار .

(٧)

في سيرته الذاتية «الآن أتكلم» يتذكر خالد محيي الدين أن جمال عبدالناصر سأله بعد نجاح الانقلاب بفترة (لم يحدد التاريخ بالضبط) : ما هو اسم الرفيق بدر الحقيقي؟ لكن خالد لم يكن يعرف اسمه ، وحتى لو كان يعرف لما أخبره به.

وفي يوم آخر سأله : تذكر أن عدداً من الضباط الشيوعيين في الفرسان قد انضم الينا ؟ فأجابه : نعم . فعاد لسؤاله: من هم؟ ورفض خالد أن يجيب . وهنا غضب جمال عبدالناصر قائلاً: أين ولاؤك.. هل للثورة أم للآخرين؟، ورد خالد : المسألة ليست مسألة ولاء بل مسألة ضمير وشرف .. وأنا لا ولن أشي بإنسان وثق بي وأعطاني بعض أسراره.

علينا أن نعود قليلاً إلى سبتمبر ١٩٥١ حين التقى أحمد فؤاد بخالد محيي الدين ، وتحدث الأخير حول أهمية اعداد وثيقة برنامجية للضباط الأحرار، كما سبق أن أشرت في الفصل السابق. والواقع أنها وثيقة متقدمة للغاية تتضمن أهدافاً ونقاطاً برنامجية متماسكة. فهي لاتتحدث فقط عن الإستعمار البلجيكي ممثلاً في شركات الترام وهليوبليس، والاستعمار الأمريكي ممثلاً في شركات الكوكاكولا والبيبسي كولا والحرير الصناعي» كما ترفض الارتباط بالأحلاف

واتفاقيات الدفاع المشترك، إلى جانب الدعوة إلى «اطلاق الحريات العامة جميعها للشعب حتى يستطيع أن يلعب دوراً فعالاً في الحرب ضد الاستعمار» و«العمل على المساعدة في تكوين جبهة وطنية من جميع الأفراد والهيئات الوطنية المختلفة التي تكافح ضد الإستعمار ومحاربة الهيئات غير الوطنية».

وعندما نوقشت الوثيقة قبل ٢٣ يوليو في الهيئة التأسيسية انقسم اعضاؤها، ليس حول مضمونها ، بل حول ضرورة طرح برنامج مكتوب على الضباط أصلاً ، واقترح جمال عبدالناصر حلاً للخلاف «أن تمرر الورقة على الضباط ثم تعود اليك - إلى خالد - لتحتفظ بها ولكن لاداعي لطبعها وتوزيعها» كما قال لخالد . وظلت تلك الورقة تمرر بالفعل وتعود إلى خالد، ثم تسلم لمجموعة أخرى حتى نجح الانقلاب و«تسلمها جمال عبد الناصر ولم يمكنني العثور عليها بعد ذلك» ثم يضيف ان «عبد الناصر وافق على التعامل مع الشيوعيين قبل ٢٣ يوليو بدون حساسية، لكن عندما نجحت الثورة وتحولنا إلى حكام تغير الأمر». ويضيف أيضاً بأن حدتو أخطأت «لقد غرها أنها شاركت واشتركت في صناعة هذا الحدث التاريخي، لكنها نسيت الفارق الهائل بين مجموعة قليلة العدد من الضباط يعملون سراً وبين التعامل مع ضباط

يحكمون الوطن ويطمعون إلى تعزيز حكمهم هذا». وفى الوقت نفسه كانت حدتو «متعجلة تحت ضغط موقف الحركة الشيوعية العالمية والمنظمات الشيوعية داخل مصر والتى كانت ترفض انقلاب العسكريين، وبدايات التقارب بين الولايات المتحدة والضباط».

وقد حدث الصدام بينهما عندما شعرت حدتو أن الضباط الأحرار قد بدأوا فى التخلى عن أهداف الوثيقة البرنامجية التى سبق أن مروروها بينهم، فقررت أن تخطو خطوة جديدة لاحراج النظام الجديد بنشر تلك الوثيقة التى كانت هناك نسخة منها لدى حدتو. وبالفعل زار أحمد فؤاد - خالد وعرض عليه نشر الوثيقة حتى لايتم التراجع عنها، فلم يوافقه خالد، إلا أنه فوجىء بها بعد ذلك مطبوعة، وهو مالم يغفره عبدالناصر، ومن ثم فإن الصدام كان حتميا . .

وكان قد سبق للضباط أن أفرجوا عن المعتقلين السياسيين فيما عدا الشيوعيين ليشكلوا «خميرة» عند الضباط يضغطون بها، كما سارعوا بتوجيه ضربة بوليسية للجهاز الفنى لحدتو بعد نشر الوثيقة المشار إليها، وهو الجهاز ذاته الذى كان يطبع منشورات الضباط الأحرار!

والواقع أن ما يعتبره الأستاذ خالد خطأ من جانب حدتو هو الصواب بعينه لأن حدتو ليست منظمة تابعة للضباط

الأحرار أو ملحقة بهم، وكان عليها أن تستقل بمواقفها ولاتكرر الخطأ القاتل بعدم إدانة اعدام العاملين مصطفى خميس ومحمد البقرى، بل واشتراكها فى دعوة العمال للهدوء، ليس هناك تأييد مطلق أو تأييد على بياض! وحركة الضباط فى نهاية الأمر ليست حركة يسارية، فلم يكن فى مجلس القيادة إلا خالد محيى الدين الذى كان متعاطفا مع حدتو وكذلك يوسف صديق من بين أربعة عشر عضواً يشكلون مجلس القيادة بعد نجاح الانقلاب، وبقية أعضاء حدتو كانوا مجرد أعضاء فى تنظيم الضباط الأحرار، ثم إن الأخيرين كانوا قد أضحوا حكاما ولديهم أجندتهم الخاصة. لذلك فإن حدتو كان عليها أن تتوقف كثيرا أمام سحق اضراب عمال كفر الدوار على ذلك النحو الوحشى، ولم يكن كافيا أن يصوت خالد ويوسف صديق ضد اعدام خميس والبقرى، بل كان عليها أن تفيق وتعلم أن ما جرى فى ٢٣ يوليو لم يكن - على الأقل فى مراحله الأولى - أكثر من انقلاب عسكرى يمكن تأييده بشروط والاحتفاظ بمسافة كافية بينها وبينه .

ومن المثير للدهشة أن يكتب المناضل أحمد الرفاعى فى مذكراته مؤكداً أن تأييد حدتو للثورة أدى إلى «خلق نوع من البلبلة فى صفوف التنظيم، وزاد من هذه البلبلة أن الثورة

كانت تمضى فى طريق معاد للديمقراطية بشكل واضح ، وأبقت على عدد من المعتقلين ممن سبق واعتقلوا بعد حريق القاهرة. وحينما صدر قانون الافراج عن المعتقلين السياسيين استثنى منه الشيوعيون .

وشكلت محكمة برئاسة أحد المستشارين لينظر فى قضايا الشيوعيين كل على حدة، وانتهى الأمر بقرار مضحك أن الشيوعية جريمة اجتماعية وليست سياسية، رغم أن وزير الارشاد القومى فى ذلك الوقت سبق وأن صرح أن الشيوعية جريمة سياسية، ويضيف «كان تأييدنا لثورة ٢٣ يوليو نابعا من مشاركتنا فيها عضوياً وسياسياً، إذ كان لحدتو تنظيم داخل الجيش، يساهم مع تنظيم الضباط الأحرار بل كان معظم أعضائه فى تنظيم الضباط الأحرار».

أليس مدهشاً أن يتخذ الحكام الجدد كل هذه الإجراءات المعادية للحريات، إنتهاء بالتعامل الوحشى مع اضراب العمال (حتى لو كان وراء ذلك الاضراب - كما قيل - ابن حافظ عفيفى رئيس الديوان الملكى السابق، لأن الضباط سحقوا عمال كفر الدوار، ولم يسحقوا ابن حافظ عفيفى الذى كان يتبختر فى أروقة السجن بالروب دى شامبر، حيث قضى فيه أياماً قلائل معززاً مكرماً كأنه نزيل فندق خمس نجوم! والضباط أيضا أعدموا خميس والبقرى ولم يعدموا ابن حافظ

عفيفى!).

أليس مدهشا إذن أن يتخذ الضباط كل هذه الإجراءات ثم تستمر حدتو فى تأييدهم . أن كل الدلائل كانت تشير إلى ضرورة التأييد المشروط والمتمهل وقراءة الواقع وفق الوزن النسبى لقوى الفريقين . من ناحية أخرى، فإن الطابع العسكرى القمعى لحكام يوليو كان واضحا لأنهم فى المحل الأول «عسكريون» وهدفهم الأول والأخير تأمين انقلابهم بالطريقة الوحيدة التى يفهمونها : القمع !

وفى قواعد حدتو وبعض المستويات الأعلى، بدأت الانقسامات والانسحابات تطل برأسها من جديد مثل مجموعة الطلبة التى كان يقودها إبراهيم فتحى وخرجت لتعلن عن تنظيم جديد هو وحدة الشيوعيين وإن كان الملحق الوارد فى بعض أجزاء سلسلة شهادات ورؤى السابق الاشارة إليها يذكر أن تلك المجموعة خرجت عام ١٩٥٠، وقد سألت الصديق الكبير الأستاذ إبراهيم فتحى الذى أجابنى أن الخروج من حدتو حدث بعد ١٩٥٢ .

على أى حال، بعد سلسلة من الوقائع والإجراءات لم تجد حدتو مناصاً من التراجع عن تأييد حركة الجيش. وفى ديسمبر ١٩٥٢ وزعت منشوراً دعت فيه كافة المنظمات الشعبية ولجان التحرر الوطنى والعمال للنضال من أجل وقف

المفاوضات التى كانت دائرة بين الضباط والانجليز . وفى الشهر التالى أدانت ضغط الاستعمار الأمريكي - الانجليزى و«أعوانه وأذنابه داخل الجيش والحكومة» بسبب اعتقال ١٢٠ من النقابيين الوطنيين. وفى الشهر نفسه وبالتحديد فى ١٥ يناير ١٩٥٣ تم اعتقال أحمد حمروش وأمضى ٥٠ يوما - تم خلالها إلغاء الدستور وحل الأحزاب - رهن الحبس الانفرادى فى سجن الأجانب . كما استقال يوسف صديق فى الشهر التالى - فبراير ١٩٥٣ - وفى الوقت نفسه بدأ الصراع داخل مجلس القيادة وفى صفوف الأسلحة المختلفة، وما لبثت الاعتقالات أن بدأت داخل الجيش وخصوصا فى سلاح الفرسان .

وتوالت المنشورات من حدتو ضد الضباط الأحرار وتحديداً ضد نجيب الفاشى . وفى منشور صدر فى يناير ١٩٥٣ قالت حدتو : «لقد كشف نجيب القناع عن وجهه الفاشى بتخليه عن ارتباطاته أمام الشعب، فقد تعهد بحماية الدستور ثم أسقطه، وأعلن عن إعادة الحياة النيابية وألغاها، وأعلن عن احترام الحريات فأعدم خميس والبقرى واعتقل الأحرار، وأعلن احترامه للأحزاب السياسية ثم حلّها، وأعلن تنكره للحزب الواحد ففرض هيئة التحرير. وأخيراً فتح المعتقلات وأعد القوائم بما يزيد عن الأربعة آلاف مصرى

يستحقون الاعتقال . بدأ بالعمال فاعتقل طليعتهم ثم الطلبة فاعتقلهم بالمئات بحجة تعليمهم فى السجن الحربى الاتحاد والنظام والعمل».

وفي الوقت نفسه كانت النشرة الداخلية لحدتو «الطليعة» والتى لايقرأها إلا أعضاء المنظمة، تتخبط فى تحليلاتها للطبيعة الطبقية للجنة القيادية لحركة الجيش باعتبارها تنظيما طبقيا للبورجوازية الصغيرة، وهى بذلك قوة سياسية غير مستقلة عن نفوذ وقوى الطبقات المتصارعة في المجتمع» . وكما يرى القارىء فإن هذا التحليل ضعيف نظرياً وغير مقنع سياسيا حسبما وصفه رفعت السعيد .

وفي الذكرى السنوية الأولى لاعدام خميس والبقرى فى ٧ سبتمبر ١٩٥٣، أصدرت حدتو كتيباً بعنوان «خميس لم يمت» والمعتقد أن كاتبها هو زكى مراد .. نقرأ فيه هذا النقد الذاتى القاسى :

«لماذا لم نتحرك ونحرك الطبقة العاملة ضد قاتلى خميس منذ اللحظة الأولى ؟ .. لأننا نحن الطليعة أتخذنا موقفا خاطئاً من انقلاب الضباط، موقفا لايعتمد على التحليل الطبقي السليم وعلى الماركسية اللينينية. لقد أدى بنا التحليل الخاطىء لانقلاب ٢٣ يوليو إلى موقف سياسى خاطىء – موقف التأييد غير المشروط – وأدى بنا إلى الانعزال عن

طبقتنا العاملة والعجز عن فهم تحركاتها إذا ذاك الفهم السليم. لقد انخدعت الطليعة، انخدعت حدتو بذلك التحليل الانتهازى اليمينى، وكانت النتيجة أنها : أولاً لم تعرف أن تحركات العمال على نطاق القطر إذ ذاك بالاسكندرية وكفر الدوار والمحلة والقاهرة إنما كانت بداية لمد ثورى واسع، بداية لتقدم الحركة الشعبية والحركة الوطنية بشكل عام.. وأنها ثانيا يوم أقيم مجلس الشنق العسكرى ليشنق العمال الأبطال ويسجنهم فى كفر الدوار والاسكندرية لم تهتم بتحريك العمال والرأى العــام فى كل مكان ضـــد هذه المذابح وتركنا هذه المسألة تمر، بل أخطر من ذلك لقد دعونا العمال إلى النظام وعدم اللجوء لسلاح الاضراب ، ويوم أعدم البطل خميس لم يرتفع فى مصر إلا صوتان هما صوتا العاملين المناضلين محمد على عامر ومحمد عبده نوح ، حيث أرسل كل منهما برقية احتجاج باسم النقابة التى يقودها . فالأول أرسل باسم نقابة عمال النسيج الميكانيكى والثانى باسم نقابة عمال البحارة بالاسكندرية، لذلك تم القبض عليهما وايداعهما السجن الحربى، بسبب ما اعتبره الضباط جرأة!» .

□□□

أود أن أتوقف قليلا عند مسألتين هامتين فى تاريخ حدتو فى تلك الفترة. الأولى تتعلق بشعار الجبهة الوطنية

الديمقراطية الذى كانت حدتو قد طرحته قبل حركة الضباط وأثناء حكم الوفد، إلا أنها عادت إليه بعد الصدام بينها وبين الضباط حين أصدر الأخيرون قرارهم بحل الأحزاب فى يناير ١٩٥٣ واغلاق صحف حدتو العلنية واعتقال ١٠٢ من القوى الوطنية والديمقراطية من بينهم ٤٨ شيوعيا ، كما اعتقل أحمد حمروش، وهو إجراء اعتبره حمروش انذاراً لأعضاء المكتب السياسى لحدتو.

فى ذلك السياق سعت حدتو لإعادة تأسيس الجبهة الوطنية الديمقراطية. وفى محضر النقاش الذى أجراه د. عبدالعظيم رمضان مع د. رفعت السعيد فى كتابه «عبدالناصر وأزمة مارس» يقرر أن الجبهة «تألفت عام ١٩٥٣ من تنظيم حدتو الذى كان مندوباً عنه زكى مراد. ومن الوفد الذى كان مندوبا عنه حنفى الشريف وأبو بكر سيف النصر. ومن أجنحة مصر الفتاة التى رفضت مساومة أحمد حسين مع الثورة إبراهيم يونس وعبدالمنعم العياشى وعادل حسين.. ومن بعض ضباط الجيش مثل مصطفى كمال صدقى الذى كان متزوجاً فى ذلك الحين من الفنانة تحية كاريوكا ويضيف «وأذكر عن دور الوفد ودور النحاس باشا أننى عملت اجتماعا فى حلوان مع السقا سكرتير خاص مصطفى النحاس وكان بكر سيف النصر يجىء بعربته لاستلام منشورات الجبهة لتوزيعها» .

بينما يشير زكى مراد فى محضر نقاش آخر فى الكتاب نفسه إلى أن «شعار الجبهة شعار قديم لحدتو منذ عام ١٩٤٦ .. وفى سنة ١٩٥١ طرح هذا الشعار لحماية النضال الشعبى المسلح فى القنال، ثم طرح بعد نجاح الثورة لتأمين حركة الجيش وحمايتها من الانحرافات الرجعية وضمان مسيرتها فى الاتجاه الوطنى الذى أعلنته فى برنامجها . ويضيف إن «إعدام الشهيدين خميس والبقرى كان مؤامرة لاحداث فرقة بين الطبقة العاملة والجيش (حتى ذلك الحين كانت حدتو ماتزال تأمل خيرا فى حركة الضباط!!) إلا أن صدور قرار حل الأحزاب والقبض على الشيوعيين أكد لحدتو إن الجناح الديكتاتورى فى مجلس الثورة والذى يتركز بصفة خاصة حول مجموعة الطيران : جمال سالم وحسن إبراهيم وعبداللطيف بغدادى قد انتصر (سوف يتكرر هذا التحليل البائس حول وجود أجنحة سواء فى مجلس القيادة أو على قمة السلطة بعد انتصار عبدالناصر، وسوف يؤدى إلى أخطاء كارثية) . إلا أن ذلك أدى من ناحية أخرى إلى عودة حدتو للأسلوب الثورى الوحيد للمواجهة، حيث اجتمع المكتب السياسى وأعلن خيانة حركة الجيش لمبادئها وانتصار القوى الرجعية والاستعمار الأمريكى، ثم نزول حدتو تحت الأرض مرة أخرى ومحاولة تعبئة القوى الوطنية فى جبهة وطنية سرية

هذه المرة» .

وفى الفترة من يناير وحتى مارس ١٩٥٣ أجرت حدتو اتصالات بالوفديين والإخوان وأجزاء من مصر الفتاة، أما دعوة المنظمات الشيوعية الأخرى فلم تنجح بسبب شدة الاختلافات بينها . (والمثير للغضب نجاح منظمة شيوعية فى اقناع القوى السياسية المختلفة فى أى عمل مشترك، بينما تعجز عن اقناع الشيوعيين فى المنظمات الأخرى، وهو أمر يتكرر كثيرا فى تاريخ الحركة الشيوعية !!) .

أما برنامج الجبهة فقد تضمنه البيان الذى صدر بعد أول اجتماع بين مندوب حدتو أحمد الرفاعى ومندوب الوفد حنفى الشريف، وأعلن فيه تأسيسها تحت شعار استئناف النضال المسلح ضد الاحتلال الانجليزى والاتفاق حول النقاط الجبهوية التالية :

عودة الجيش إلى ثكناته، وعودة الحياة النيابية، وتأمين حريات الشعب الديمقراطية وفى مقدمتها حرية حمل السلاح ضد العدو، وتأمين حقوق التنظيم النقابى والسياسى للطبقات الشعبية، وتأمين حقوق العمال الزراعيين فى تكوين نقاباتهم، والفلاحين فى تكوين اتحاداتهم، وبناء علاقات مصر مع الدول الأخرى على أساس نضالنا ضد الاحتلال البريطانى .

والواقع أن برنامج الجبهة متقدم للغاية، ويطرح مهمات

قابلة وممكنة التحقيق، إلى جانب نجاحه فى الحصول على تأييد والتفاف القوى السياسية المختلفة حوله، وكان من الممكن أن يضغط بقوة على الضباط، إلا أن الأخيرين كانوا يسيرون فى طريق لارجعة فيه، فقد بدأت الأخبار تتسرب حول قرب الاتفاق بين الضباط والاحتلال على بقاء نحو ١٠ آلاف جندى انجليزى فى القناة، والخلاف فقط حول الملابس التى يتعين عليهم ارتداؤها : عسكرية أم مدنية ؟!

ويحدد زكى مراد أن الجبهة نجحت فى توزيع عشرات الآلاف من بيانها التأسيسى، وبيان آخر عن إعلان الجمهورية فى ١٩٥٣/٦/١٨، وكتيب «خميس لم يمت» بمناسبة مرور عام على استشهاده هو ومحمد البقرى ، وبيان آخر ضد محكمة الثورة (وهى محكمة استثنائية تمخضت عنها قريحة الضباط) ، إلى جانب جريدة سرية اسمها «صوت الفلاحين» لمواجهة تحايل كبار الملاك على قانون الإصلاح الزراعى الذى كان الضباط قد أصدروه، وقد أدى هذا التحايل إلى معارك عنيفة بين الفلاحين والملاك ، سقط خلالها شهداء من الفلاحين.

ولم يمض وقت طويل إلا وألقى القبض على قيادات الجبهة : مصطفى كمال صدقى وبكر سيف النصر وحنفى الشريف وسعد كامل وإبراهيم يونس ومحمد شطا ود. فؤاد منير فى ٣

نوفمبر ١٩٥٣ .

والمسألة الثانية المتصلة بنشاط الجبهة الوطنية الديمقراطية ، والتى مرّ عليها د. رفعت السعيد مرور الكرام، فى كتابه «منظمات اليسار المصرى ١٩٥٠ - ١٩٥٧»، على الرغم من أنه لاتفوته شاردة أو واردة فيما يختص بتاريخ حدتو ، هى مسألة بيان السجن الحربى .

والواقع أن هذا البيان أثار ضجة هائلة، ودائماً ما يجرى الحديث حوله باعتباره واحداً من خطايا حدتو الكبرى. وكما أشرت منذ قليل، فإن الضباط قاموا باعتقال عدد من قيادات الجبهة وغيرهم من الشيوعيين والوطنيين فى ٣ نوفمبر ١٩٥٣ وأودعوهم السجن الحربى، وأمضى أعضاء حدتو نحو ثلاثة شهور متواصلة رهن الحبس الانفراد مقيدين بالسلاسل مثل سجون القرون الوسطى، وكما يحكى د. شريف حتاته فى «النوافذ المفتوحة» مثلا، أن زبانية السجن حاولوا استخدام انهيار د. فؤاد منير واعترافه على زملائه فى التأثير على صلابتهم ، بينما السلاسل الحديدية تقيد أيديهم من الخلف طوال النهار، وسلاسل أخرى تقيد القدمين معا. وكما يحكى أحمد الرفاعى فى مذكراته «أحمد الرفاعى يسارى متميز» أنه قرأ على الباب الحديدى لزنزانته الكلمات التالية المحفورة بمسمار :

محمود صبرى الشهير بصبرى كنج .

ارفع يدك إلى السماء واقرأ لى الفاتحة .

وكان صبرى كنج قد اعتقل مع عدد من المصريين المتعاونين مع قوات الاحتلال البريطاني وحوكموا بتهمة التجسس، ونفذ بالفعل حكم الاعدام بالنسبة لصبرى كنج. ومن المثير للغضب أن يعتقل أحمد الرفاعى الذى شارك فى معارك الفدائيين مع كتائب الأنصار الشيوعية عام١٩٥١ فى الزنزانة نفسها التى اعتقل فيها الجاسوس صبرى كنج. واستمر الضغط البدنى والنفسى على الشيوعيين إلى حد دخول ضابط على كل منهم فى زنزانته ليتلو حكم الاعدام الصادر بحق كل من أحمد الرفاعى وشريف حتاتة وزكى مراد ومحمد شطا .

وفى محضر النقاش الذى اجراه د. عبدالعظيم رمضان مع المناضل الراحل أحمد طه فى الكتاب السالف الذكر يقول الأخير: « .. وقد وضعنا فى السجن الحربى فى حبس انفرادى لمدة ثلاثة أشهر مما أدى إلى إصابة ثلاثة منا بالجنون هم كمال عبدالحليم ومصطفى كمال صدقى وعبدالرحمن صدقى، وبدأوا يعطوننا جلسات كهربائية. وقد شفى كمال عبدالحليم ولم يشف مصطفى كمال صدقى وكذلك عبدالرحمن صدقى حتى وفاتهما (وتلك واحدة من الجرائم

التى لاتسقط بالتقادم وستظل أحد أبشع الانتهاكات الملوثة لشرف مجلس القيادة) .

وفى فبراير ١٩٥٤ - كما يواصل أحمد طه - علمنا بمظاهرات فى الخارج ، وبدأ يصلنا كلام عنها . وجاء الضابط حسين عرفه، وطلب عدداً منا وبالذات من أعضاء اللجنة المركزية : أنا وكمال عبدالحليم وأحمد الرفاعى وقال لنا : «لقد كان عندنا أمل فى الأمريكان، وتصورنا أن ضرب الشيوعيين سوف يكسبنا ، فخسرنا . تعالوا نتفق على برنامج، وبعد الاتفاق سنفرج عن كل الشيوعيين، ولكم الحق فى التحرك بحرية فى إطار البرنامج المتفق عليه» وقد اشترطنا ألا نناقش انفراديا بل نجتمع سويا لنبحث المسألة، وقد وافقوا، واجتمعنا واتفقنا على المفاوضة واعداد مشروع بيان هو الذى عرف باسم «بيان السجن الحربى» فى النضال الشيوعى المصرى، ولم يكن له من نتيجة سوى أنهم بدلا من تقديمنا إلى محكمة الثورة قدمنا إلى محكمة عسكرية أمام الدجوى، وقد أدينت مجموعة من زملائنا محليا وعالميا باعتبارها المجموعة المسئولة عن بيان السجن الحربى ، وترتب عليه انقسام داخل حدتو نفسها على أساس هذا البيان، وظهر داخلها ما يسمى بالتيار الثورى» .

أما د. رفعت السعيد فيشير على نحو بالغ الاقتضاب

للبيان في محضر النقاش الذي أجراه معه عبدالعظيم رمضان في الكتاب السالف الذكر مشيرا إلى أن البيان وجهه قادة حدتو المعتقلون في السجن الحربي إلى عبدالناصر في مارس ١٩٥٤، وأعلنوا فيه موقفهم من النظام. وقد تعرض البيان والقادة الذين أصدروه للهجوم الشديد مع زملائهم، نظرا لما حواه من مغالاة في التقييم. فقد ذكروا أنهم يلمحون بوادر تقدم من جانب النظام (وكان أحمد فؤاد أيامها قد سافر إلى موسكو مع أول وفد مصري لاجراء محادثات اقتصادية) بينما كان الخط العام وقتذاك المطالبة بتصفية ثورة ٢٣ يوليو» .

ولايكاد يختلف ما يذكره زكي مراد وعبدالمنعم الغزالي مع ما ذكره أحمد الرفاعي وأحمد طه. وعلى الرغم من أنني لم أعثر في أدبيات الحركة الشيوعية على نص البيان، إلا أن مضمونه كما يشير زكي مراد مثلا يدور حول العلاقة بين النضال الوطني ضد الاستعمار الانجليزي وتأمين المكاسب الاجتماعية مثل الاصلاح الزراعي وقوانين الايجارات وتأمين الحياة الديموقراطية، وهو مالا يبدو معقولا وإلا فلماذا أثار البيان كل ذلك الضجيج؟! على أن زكي مراد يضيف : «وقد كتبنا هذا البيان ووزعناه على زملائنا فوقعه كل المسجونين في السجن الحربي» غير أنني علمت – في اتصال هاتفي –

مع د. شريف حتاتة أنه فوجيء بوجود توقيعه على البيان، بل وذكر لى أنه لم يعلم بقصة البيان إلا بعد خروجه بفترة طويلة، واعتراض د. شريف ينصب على اضافة توقيعه دون أن يسأل فى ذلك .

والواضح أن البيان تضمن تأييدا قد يكون غير مشروط للضباط تم فرضه عبر التعذيب اللا إنسانى والذى أدى إلى جنون اثنين من المعتقلين خصوصا مع استعمال الصدمات الكهربائية والقيد بالسلاسل الحديدية والحبس الانفرادى وابلاغ المعتقلين - كذبا - بصدور أحكام بالاعدام عليهم للضغط النفسى.

وارد بشدة أن يضعف المناضل فى لحظات خاصة كهذه يبلغ فيها التعذيب والا نهاك البدنى والنفسى الذرى فى سجن بلغت شهرته الآفاق مثل السجن الحربى، وارد أيضا فى تلك اللحظات التى يفقد فيها الإنسان وعيه واتزانه أن يضطر إلى التوقيع على بيان يختلف مع قناعاته الحقيقية، ووارد أيضا أن يرفض التوقيع. وفى كل الأحوال فإنه كان من الواجب ذكر الحقيقة مهما بلغت قسوتها على النفس !

□□□

أعود إلى مواقف حدثو فى تلك الفترة، حيث توجهت للخارج من أجل الحصول على دعم الأحزاب والمنظمات

الشيوعية والحركة النقابية فى العالم لممارسة ضغط على حركة الضباط . فمن خلال مجموعة، روما التى كان هنرى كورييل يقودها فى باريس، بدأ الاتصال بالحزب الشيوعى البريطانى أثناء مؤتمره عام ١٩٥٣، واعتبر رفعت السعيد أن تلاوة رسالة حدتو لتحية المؤتمر مكسبا كبيرا بسبب انحياز الحزب الشيوعى الفرنسى لمنظمة الراية، وانحياز الحزب الشيوعى الايطالى لمنظمة طليعة العمال إلا أن تلك الرسالة تضمنت خطأ قاتلا فيما أظن، عندما وجهت تحية إلى الحزب الشيوعى الإسرائيلى «الذى يخوض نضالات باسلة فى الدفاع عن حقوق اللاجئين العرب ويدافع دفاعا مستميتا عن حقوق العرب الفلسطينيين ويخوض نضالا حاسما ضد الصهيونية عميلة الامبريالية الأمريكية وضد مخططاتها التوسعية فى منطقة الشرق الأوسط» .. فلم يكن هناك داع لمثل ذلك التورط بينما القضية الوطنية المتمثلة فى احتلال إسرائيل لفلسطين لاتحتمل تحية للحزب الشيوعى الإسرائيلى، فضلا عن أن الحزب الأخير - فيما أظن - لم يكن يخوض كل تلك النضالات الحاسمة، وإلا لما كان الحال على ماهو عليه آنذاك !

غير أن مجموعة روما تحركت فى الخارج على نحو جيد ومفيد لحدتو فى الداخل خصوصا وأن سجون الضباط

الأحرار كانت تمتلىء بالمناضلين الشيوعيين، وتحول هذا التحرك إلى حملة عالمية واسعة ومؤثرة، ويكفى أن الشاعر الفرنسى الكبير أراجون أهدى ديوانه «العيون والذكريات» إلى «شريف حتاتة والمناضلين الشيوعيين فى سجن طره» وكتب الفنان بيكاسو تحيه بخط يده تقول كلماتها : «إلى أخوتى العمال والطلاب والمثقفين السجناء بسبب نضالهم دفاعا عن استقلال وطنهم ومن أجل الحريات الديمقراطية والسلام» ، كما شكلت فى باريس لجنة الدفاع عن ضحايا الارهاب فى مصر ضمت العديد من المثقفين والكتاب والفنانين ورجال الدين والحقوقيين الفرنسيين .

أما فى الداخل، فقد بدأ الحديث عن ضرورة الوحدة بين مختلف المنظمات الشيوعية، وهو تقليد يتكرر كل بضع سنوات فى الحركة الشيوعية المصرية، وفى تقرير ليونس (كوربيل) أورده رفعت السعيد فى كتابه «منظمات اليسار المصرى ١٩٥٠-١٩٥٧» يلفت يونس النظر إلى سمات تتميز بها حدتو فعلا فى سياق انتقاداته للامبالاتها بالوحدة وعدم ايلائها الأهمية التى تستحقها، فيشير مثلا إلى الانشغال الدائم بالمسائل العملية، وهو ما جعل المنظمة مثقلة دائما بالعمل، والرغبة فى التهرب من النضال الفكرى الشاق الذى سيؤدى إليه النضال من آجل الوحدة، إلى جانب غرور الرفاق

الذين يعتبرون أنهم التيار الثورى بينما الآخرين هم الانتهازيون» .

ويمضى التقرير بعد ذلك فى إدانة الانقسام والدعوة للوحدة إن تقرير يونس فى ظنى يعد من أهم وأدق التقارير السياسية والتنظيمية التى تناولت مخاطر الانقسامات، فإلى جانب تشتيت الجهود وتبديدها، فإن كل منظمة تقوم بدور الوعاء الذى يستوعب الساخطين والغاضبين فى المنظمات الأخرى، مما يؤدى إلى اضعاف روح الانضباط فى الحركة، كما يسهل عمليات الاختراق البوليسى، وأخيرا يلفت يونس النظر إلى أن ذلك الانقسام هو السبب الأساسى فى عدم اعتراف الحركة البروليتارية العالمية حتى الآن بالحركة الشيوعية المصرية . وأخيرا أكد على ضرورة التشبث بتحقيق الوحدة من خلال النضال المشترك للمنظمات على أرض الواقع .

❑❑❑

سوف أتوقف قليلا عند الانقسام الذى نشأ عنه التيار الثورى لحدتو فى أعقاب اجتماع اللجنة المركزية فى ٢٨ يونيو ١٩٥٣ واصداره لقرار وقف بدور مسلم وعلى وشكرى وصدقى ويوسف وهمام لقيام الجميع بعمل تكتلى» وبادرت أغلبية اللجنة بنشر القرار فى نشرة الكفاح الخارجية التى

توزع على غير الأعضاء، لذلك أسرع كل من بدر ومسلم بإصدار منشور للتوزيع العام يتضمن مايلى :

«فى ٢٨ يونيو اجتمعت اللجنة المركزية للحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى وأصدر حميدو وناشد قرارا بإيقاف بدر ومسلم تمهيدا لفصلهما، وأن حميدو قد نجح فى تصوير جوكريه حول موقف التيار الثورى ووصف مواقف بدر بأنها تخريبية» وينتهى المنشور إلى «إزاء هذا يعلن التيار الثورى للحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى تكوين حركة جديدة باسم «الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى - التيار الثورى» .

أما أعضاء اللجنة المركزية فى السجون فقد أدانوا انقسام ت. ث، كما وقفت الأغلبية الساحقة طبقا لما ذكره رفعت السعيد من الكوادر الوسطى والقاعدية ضد الانقسام، بينما يشير السعيد إلى أن بدر كان ينقسم على كامل البناء الفكرى لحدتو، وليس بسبب «أشخاص اللجنة المركزية» ، أما كورييل فيرى رأيا مختلفا تماما وأظن أنه الأقرب إلى الصواب. وفى رسالة منه - من كورييل - فى ٧ أغسطس ١٩٥٣ - أى فى أعقاب اجتماع اللجنة المركزية الذى أسفر عن ايقاف بدر ومسلم تمهيدا لفصلهما، يدين بشدة الطريقة التى اتبعت فى معاملة اثنين من الكادر القيادى، فلم تشكل لجنة تحقيق ولم

يطلب رأى أعضاء اللجنة الذين لم يشتركوا فى الاجتماع ويضيف : «لقد كان من الواجب رفع الخلاف إلى المستوى السياسى بينما لم تتعرض ل . م بالمناقشة إلا للزوايا التنظيمية الضيقة» على الرغم من أن بدر ومسلم - فى رأيه - قاما بنشاط انقسامى .

ومما يثير الدهشة ويؤكد ذلك الطابع الشخصى اللاسياسى للانقسام أن حمودة وسالم نجحا بعد القبض على صدقى ومسلم وبقية الكوادر فى أغسطس عام ١٩٥٣ فى السيطرة على حدتو ت . ث وأن يعزلا بدر تماما عن أى ممارسة قيادية ذات أثر ملموس.

ما أود التأكيد عليه هنا أن الخلافات التى نشأت بين جناحى حدتو : الأغلبية، والأقلية بزعامة بدر (سيد سليمان رفاعى) كان من الممكن حلها ، بل كان من السهل معالجتها وفقا للأسس اللينينية للتنظيم، والتى يعرفها جيدا كل من الأقلية والأغلبية على حد سواء. فالموقف من حركة الجيش مثلا، أو الكلام عن سلطة العمال، أو تشكيل اللجان الثورية وصولا للجبهة الثورية، وأشكال التحالف مع القوى السياسية المختلفة .. كلها أمور من الممكن - بل من الواجب - إدارة صراع فكرى حولها داخل المنظمة ، فليس مطلوبا من المناضلين أن يكونوا نسخا كربونية، وإلا لما تطوروا وعجزوا

عن الرؤية مثلما حدث بالفعل. أما ما يشير إليه مبارك عبده فضل في السياق ذاته (في مذكراته) من أن سيد سليمان رفاعي كان أميل لعداء المثقفين، وأن تصعيد أحد الأشخاص للجنة المركزية أثاره، وسقوط التحليل الذى كان يتبناه بتأييد حركة الجيش منذ ديسمبر ١٩٥٢ عندما تحول موقف حدتو إلى الإدانة .. إن كل هذا كان من الواجب إدارة الصراع حوله وليس الانفجار والتشظي والانقسام كأنه قدر مكتوب على الحركة الشيوعية، وعلى الأخص حدتو .

وقد تفضل الصديق الكبير عريان نصيف بالرد كتابة عندما سألته وجاءت إجابته على النحو التالى :

«رغم ما كتب عن انقسام بدر عن حدتو وتأسيسه لتنظيم حدتو ت . ث - وبالذات ما كتبه ووثقه د. رفعت السعيد - إلا أننى آثرت كشهادة واقعية حيث أننى شاركت فى هذا الانقسام، إلا أن ألجأ إلى لما أتذكره شخصيا فى هذا الشأن.

الرفيق بدر هو سيد سليمان الرفاعى من مجموعة «ميكانيكية الطيران» مع فؤاد حبشى ويوسف مصطفى .. الخ الذين كان لهم دور كبير ليس فقط فى حدتو والحركة الشيوعية، بل أيضا فى تشكيل قسم الجيش بحدتو وتجنيد الضباط وبالتالى فى قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

كان الرفيق بدر يتميز بقدرة قيادية عالية وبوعى سياسى

على أعلى درجة، مما أهله بجدارة لسكرتارية حدتو (فى ذروة مجدها النضالى) .

استند الانقسام على قضيتين رئيسيتين :

١ - الموقف اليمينى (من وجهة نظر الانقسام) لحدتو ، تجاه حركة الجيش فى ١٩٥٢ .

٢ - تغليب حدتو العمل الجماهيرى (وخاصة فى حركة أنصار السلام) على العمل التنظيمى وبناء الحزب السرى.

ضم الانقسام - فى بدايته - عددا من القيادات المركزية والوسيطة ذات الثقل فى حدتو، بالإضافة للكثير من القواعد (الذين كانوا يتهمون القيادة بالموقف اليمينى من النظام الحاكم) بالإضافة أيضا إلى الكوادر السودانية التى كانت موجودة - عضويا - على مستويات مختلفة داخل التنظيم .

انهار الانقسام بعد فترة ليست طويلة لما يلى :

١ - الموقف المنهجى الذى تربت عليه كوادر حدتو برفض وإدانة أسلوب الانقسام .

٢ - قوة العناصر الأساسية لحدتو المواجهة لبدر (زكى مراد - كمال عبدالحليم - محمد شطا - أحمد الرفاعى - مبارك عبده فضل .. الخ) .

٣ - تصحيح حدتو لموقفها من النظام - بعد خروج

كوادرها الرئيسية من السجون - بل وتحميل بدر مسئولية الخط السياسى الخاطىء السابق بحكم مسئوليته التنظيمية.

٤ - تشدد بدر تجاه قضية وحدة الشيوعيين، وتبنيه - فعليا - لمنهج «النمو الذاتى» أو لاشيوعية خارج الحزب، على العكس من الموقف الأصيل لحدتو تجاه ضرورة وحدة الشيوعيين المصريين» .

أما سيد سليمان رفاعي زعيم الانقسام، ففى محضر النقاش الذى أجراه معه رفعت السعيد يقرر : «بدأت الخلافات داخل القيادة حول الموقف من حركة الجيش، فعندما بدأت هيئة التحرير، ثار خلاف حول هل نعتبرها جبهة ونرسل عناصرنا إلى داخلها أم لا .. أما أنا فكان رأيى أنها تنظيم رجعي ويمكن ادخال عدة أفراد فيه لمجرد الاستطلاع ولكن دون أية أوهام حول كونه جبهة وطنية، وكانت هذه بداية الخلافات التى أدت إلى انقسام حدتو وتكوين حدتو التيار الثورى».

وقبل أن اختتم هذا الفصل أود أن أذكر ما حكاه الشاعر والمثقف الكبير الراحل عبدالرحمن الخميسى فى محضر النقاش الذى أجراه معه رفعت السعيد، فهو يقول أن الانقسام أفقده توازنه على الرغم من وقوفه سياسيا معه، لكنه

يحكى حكاية أكثر طرافة عندما استدعاه جمال عبدالناصر من السجن لمقابلته ثم بادر بعتابه قائلا :

- مبسوط كده .. أنت عملتها وقلبت الدنيا ضد الحركة وأنت اللي حركت جريدة المصرى حشدت الناس ضدنا .

وأجابه الخميسى اجابة عاصفة على حد تعبيره ثم سأله:

- لماذا أمرت بفصلى من المصرى ؟

وكان رد عبدالناصر أن السفارة الأمريكية هى التى طلبت هذا بالحاح! ويضيف الخميسى :

«ويبدأ الجو يتخذ منحى هجوميا من الجانبين . كنت قد شعرت بتقزز من خضوع الحكومة لطلب السفارة الأمريكية ومن تقبل هذه المذلة ببساطة والحديث عنها ببساطة. وكان عبدالناصر يشعر بحدتي هو الآخر» غير أن الأكثر غرابة أن اللقاء انتهى بأن سأله عبدالناصر :

- مش عايز أى خدمة ؟

ولما أجابه الخميسى : لا ، أمر بإعادته إلى السجن مرة أخرى !

ولا أظن أن هذه الحكاية تحتاج لأى تعليق !!




صفحة فارغة

(٨)

كنت أنوى أن أبدأ هذا الفصل من حيث توقف الصديق الكبير عريان نصيف في رده سالف الذكر ، أى من قضية وحدة الشيوعيين والتي أنجزت بين منظمات : حدتو ، حدتو . ت . ث ، النجم الأحمر ، طليعة الشيوعيين ، والنواة.

ولكن - قبل وأثناء - انجاز الوحدة ، كان الصراع قد احتدم داخل مجلس القيادة في حركة الجيش فيما عرف بأزمة مارس ١٩٥٤ ، وهو أمر ينبغي تناوله بايجاز بغية الاحتفاظ بالتتابع التاريخي للأحداث الجسام التي تعرضت لها مصر في تلك الفترة من ناحية ، ومن ناحية أخرى لتأثير تلك الأحداث على حدتو من ناحية أخرى.

ومنذ يناير ١٩٥٣ ، أى بعد شهور قليلة من نجاح الضباط الأحرار في انقلابهم ، بدأت التناقضات والصراعات تحتدم داخل مجلس القيادة . فيوسف صديق سارع بتقديم استقالته بعد اعتقال عدد من ضباط المدفعية (بملابسهم العسكرية) وكان أحمد حمروش من بينهم على الرغم من أنه لا صلة له بتمردهم . وقدم خالد محيي الدين استقالته بسبب القانون الذي كان مجلس القيادة ينوى اصداره ويقضى بحرمان العمال من حق الأضراب ، وفي الوقت نفسه يمنح أصحاب العمل حق الفصل التعسفي . أما الجنرال محمد نجيب فكان

قد بدأ يصدق أنه زعيم الثورة الفعلى بعد أن نال تأييداً ساحقاً من الجماهير . كما تم عزل البكباشى ثروت عكاشة من رئاسته لمجلة التحرير بسبب مقال كتبه عن ليلة ٢٣ يوليو، لم يشر فيه إلى دور صلاح سالم الذى كان وزيراً للارشاد القومى آنذاك.

وعندما ألغى النظام الملكى وأعلنت الجمهورية ، تم إبعاد نجيب عن منصبه كقائد للقوات المسلحة ، وترقية مدير مكتبه لشئون القوات المسلحة عبد الحكيم عامر أربع رتب مرة واحدة ليصبح بين يوم وليلة قائداً عاماً ، وبدأ مجلس القيادة فى تجاهل نجيب رئيس الجمهورية الصورى . وكما هو معروف لم يكن لنجيب دور فى الانقلاب إلا بعد نجاحه ، فلم يكن عضواً فى تنظيم الضباط الأحرار ، وإن كان ضابطاً وطنياً له مواقف مشهودة ، وتم «استخدامه» بسبب رتبته الرفيعة كجنرال على رأس الانقلاب.

على أى حال ، بدأ نجيب يشعر بتسرب السلطة من بين يديه ، وتبخرت أحلامه فى الزعامة ووصلت الأمور إلى حد تقديم استقالته لمجلس القيادة فى ٢٣ فبراير ١٩٥٤ ، بعد أن أصدر المجلس المذكور قراراً بحل جماعة الاخوان المسلمين ، بسبب الدور الذى سبق لهم أن لعبوه فى دعمه شخصياً . وانفجر الموقف فى سلاح الفرسان بعد تقديم نجيب

لاستقالته، إلا آن عبد الناصر سارع بأبلاغهم أن مجلس القيادة قرر عودة نجيب وعودة الضباط إلى ثكناتهم وتولى خالد محيى الدين رئاسة الوزارة وعودة الحياة النيابية ، وأخيراً تنحي مجلس قيادة الثورة . وبينما كان الأخير يناقش مصير نجيب ، اندلعت مظاهرات ضخمة قادها الأخوان المسلمون تطالب بعودة نجيب وسقوط الديكتاتورية ووصلت إلى ميدان عابدين واضطر صلاح سالم لإذاعة بيان مساء ٢٧ فبراير ١٩٥٤ يدعو فيه نجيب للعودة رئيساً للجمهورية البرلمانية .وفى اليوم التالى نشرت الصحف رد نجيب بقبوله العودة!

ثم صدرت قرارات ٤ -٥ مارس متضمنة اتخاذ الاجراءات الفورية لعقد جمعية تأسيسه عن طريق الاقتراع العام ، على أن تجتمع فى ٢٣ يوليو ١٩٥٤. وتقوم بدورها بانتخاب رئيس الجمهورية ، مع عدم قيام مجلس قيادة الثورة بتأليف حزب يشارك فى الحياة السياسية.

وهنا لعب عبد الناصر بورقة كانت غائبة عن الجميع .. فمن خلال صاوى أحمد صاوى رئيس اتحاد نقابات عمال النقل المشترك وابراهيم الطحاوى السكرتير العام المساعد لهيئة التحرير والصاغ أحمد طعيمة مسئول النقابات بهيئة التحرير ، تم تدبير اعتصامات واضرابات وتظاهرات بل

واعتداءات انتهت في ٢٩ مارس بالغاء قرارات ٢٥ مارس ، وتوجه عبد الناصر إلى مكان اعتصام العمال معلناً إن :

«ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ انتهت اليوم وقامت ثورة جديدة إسمها العامل والفلاح » وفي الوقت نفسه تم اختطاف نجيب واعتقاله في بيت بعيد بالمرج ، في واحد من أكثر اجراءات نظام يوليو شراسة ، وظل رهن الاقامة الجبرية نحو عقدين من الزمان ويعامله حراسه بأقصى قدر من الفظاظة والقسوة وحيداً بين قططه حتى تولى السادات وأفرج عنه ، أما الصراع بين الاجنحة المختلفة بعد اعتقال نجيب فكان قد حسم نهائياً لصالح جمال عبد الناصر.

أعرف جيداً أنني أوجزت ايجازا قد يكون مخلاً ، خصوصاً فيما يتعلق باستخدام جمال عبد الناصر لورقة «النقابات» والصراع الذى دار في صفوف القوى السياسية المختلفة والجامعات والاخوان المسلمين ونقابة الصحفيين ومجلس الدولة ونقابة المحامين والمنظمات الشيوعية ، لكنني عرضت خطوطاً عامة من أجل التتابع التاريخى فقط ، ومن أجل الوصول إلى نهاية الصراع الدائر الذى حسم لصالح جمال عبد الناصر.

□□□

أعود إلى حدتو التى كانت على أعتاب الوحدة بينها وبين حدتو ث.ث والنجم الأحمر وطليعة الشيوعيين والنواة . (تشير بعض المصادر إلى أن هناك منظمة صغيرة شاركت فى الوحدة ، هى منظمة نحشم (نحو حزب شيوعى مصرى) بينما تغفل مصادر أخرى عن ذكرها . فمثلاً فى ملحق سلسلة شهادات ورؤى السابق الاشارة لها يرد ذكر تلك المنظمة باعتبارها انقساماً من حدتو جرى عام ١٩٤٨ وضمت هليل شوارتز وبقايا إسكرا مثل أحمد فؤاد وانجي افلاطون وابراهيم المناسترلى . وعندما نصل إلى عام ١٩٥٥ - أى عام الوحدة - لا نجد اسمها بين المنظمات التي توحدت.

وإذا كان القارئ قد تعرف فيما سبق على ملامح حدتو منذ الوحدة الأولى بين الحركة المصرية وإسكرا ، فسوف أتناول سريعا ملامح المنظمات الثلاث التي تمت بينها وبين حدتو وانقسامها التيار الثورى الوحدة الثانية فى تاريخ الحركة الشيوعية.

فمثلاً أولت منظمة «النجم الأحمر» بين ١٩٥٠ - ١٩٥٢ اهتماماً شديداً لانتشار البطالة ، ودعت لخوض معركة من أجل اصدار قانون للتأمين ضد البطالة ، وأصدرت كتيباً عنوانه «الطريق إلى مكافحة البطالة» ، كما نظمت مجموعات من العمال العاطلين توجهت إلى المطاعم على نطاق اقسام

القاهرة ، وفى ساعة واحدة ، وبعد أن أكلوا امتنعوا عن دفع الحساب على أساس أنهم عاطلون ولا يجدون ثمن الطعام ، فاقتادوهم إلى أقسام البوليس فى تجمعات شعبية أزعجب الحكومة ، وكان هذا موضوعاً للإثارة الصحفية بطبيعة الحال ومن ثم فضح النظام الجائر . وفى شهادة لأحمد خضر - أحد مؤسسى المنظمة - فى سلسلة .. شهادات ورؤى» يشير إلى أن المنظمة شاركت فى الكفاح المسلح فى منطقة القناة عام ١٩٥١ ، وعندما قام الضباط الاحرار بالانقلاب ، عارضته المنظمة وهتف اعضاؤها ضده واعتبروه انقلاباً أمريكياً كما وقفوا ضد محاكمة واعدام خميس والبقرى ، إلا أن عاصفة مؤتمر باندونج ثم صفقة الاسلحة التشيكية غيرت موقف المنظمة.

أما انقسام العمالية الثورية عن حدتو فقد كان له أصداء واسعة . المناضلة ثريا حبشى وجدت نفسها بعد الانقسام فى مجموعة انضمت إلى م.ش.م (المنظمة الحديدية!!) بينما كان زوجها فوزى حبشى فى منظمة أخرى (يبدو أنها العمالية الثورية طبقاً لشهادته فى سلسلة شهادات ورؤى) وكان معتقلاً فى تلك الاثناء ، فتوجهت أوديت حزان مسئولة المنظمة والمرأة الحديدية إلى ثريا حبشى قائلة فى شهادتها فى السلسلة ذاتها :

«حاولى تكلمى فوزى وتجنديه فى تنظيمنا .. فأخبرتها بأنى سأحاول ذلك .. وبالفعل كنت أتحدث مع فوزى فى الزيارة القصيرة أكثر الوقت فى هذا الموضوع وطبعاً لم أنجح وكانت هى بعد كل زيارة تسألنى ماذا فعلت معه؟ فأقول لها : لسه شوية .. إلى أن قالت لى لابد أن تهدديه بأنك سوف تتركيه لأن هؤلاء الناس خونة .. فقلت لها أنا متأكدة أن فوزى ليس خائناً .. فتقول : معذرة .. يجوز فوزى لا يكون خائناً لكن طالما إنه مصر إنه يسير مع هؤلاء الناس فى النهاية سيخون .. ولما كنت لم أنجح فى جذب فوزى لتنظيمنا ولم أستطع تنفيذ قرارات التنظيم فى ذلك فوجئت أنهم نحونى جانباً ولم يعودوا يتصلوا بى ».

وتضيف ثريا حبشى إنها ظلت بعد ذلك بدون تنظيم حتى خرج زوجها ودخلت «النجم الأحمر» . فى تلك الاثناء كانت تعمل سكرتيره لرئيس مجلس ادارة شركة مصر للمستحضرات الطبية ، ووجهها مسئولها عدلى جرجس لتأسيس نقابة عمالية بالشركة وبذلت جهوداً جبارة حتى نجحت وانتخبت بالفعل سكرتيرة للنقابة ، وعلى الفور بدأ الاضطهاد داخل الشركة فى محاولة لعزلها تماماً.

المنظمة التالية التى دخلت الوحدة هى طليعة الشيوعيين المصريين (ط.ش.م) ، وقد أسسها طبقاً لشهادة فخرى لبيب

كل من فخرى وعبد الله كامل ومحمود درويش مصطفى وحسن حسني ومنصور زكى وأغلبهم من أبناء حدتو ممن خرجوا فى أعقاب التكتل الثورى الذى قاده شهدى عطية الشافعي وأنور عبد الملك ، وانصب جانب كبير من اهتمام تلك المنظمة على قضية الوحدة . وإلى جانب اصدارها لنشرة داخلية - «الطليعة» ، دعوا إلى تشكيل «لجنة وحدة» تدير صراعاً ايديولوجياً حول الوثائق والمواقف المختلفة ، وعند نضوج الصراع تتم الدعوة إلى مؤتمر عام للمنظمات المشاركة في الوحدة لإعلان الحزب الشيوعي المصرى ، وقد بدأوا بالفعل فى العمل التوحيدى مع نواة الحزب الشيوعى المصرى ، على الرغم من أنه سبق للمنظمة الأخيرة أن استولت على المكتبة التى كان بحوزتهم وكذلك الرونيو البدائى عام ١٩٤٩ بعد محاولة توحيدية بين المنظمتين!

ويضيف فخرى لبيب أن نشاط المنظمة اتسع بين عمال النسيج وعمال النقل ، وكان لهم بالفعل لجنة منطقة فى شبرا الخيمة ، ولجنة منطقة أخرى في امبابة ، ومن أبرز عناصرها بين عمال النسيج صلاح هلال ، وبين عمال النقل محمود فرغل سكرتير نقابة عمال الترام . وخاضت المنظمة معارك هامة مثل معارك اضراب عمال مصنع الشرق بامبابة ، ومعركة المليم لعمال الترام بالقاهرة (حيث قام العمال بتسيير

مركبات الترام ببطء لنقل الركاب دون أخذ تذاكر منهم ، مع شرح مشكلتهم للركاب وهى أن لهم فى كل تذكرة مليماً كحافز ، إلا أن الشركة ترفض صرف هذا الحافز الذى كان قد تراكم وبلغ آلاف الجنيهات، مما أدى إلى تعاطف جماهير واسعة مع ذلك الشكل المبتكر للاضراب.

وفي ديسمبر ١٩٥٢ وجهت المباحث ضربة شديدة للمنظمة وتم القبض على عدد من أعضاء اللجنة المركزية ، كما سقطت المطبعة ، وبعد عامين ، وفى ٢٩ مايو ١٩٥٤ تلقت المنظمة ضربة أخرى عشية الوحدة.

أما المنظمة الأخيرة التى شاركت فى الوحدة فهى «النواة» التى يحكى طرفاً من قصتها بدر رضوان فى شهادته فى سلسلة شهادات ورؤى . بدر كان ابن كواء بسيط من أسيوط، وأتيح له دخول قصور الاثرياء لتوصيل الملابس المكوية لهم ، بينما كانت أسرته تعيش فى «جنينة ويصا» أفقر أحياء أسيوط فى ذلك الوقت . وانخرط فى مدرسته فى مظاهرات انتفاضة ١٩٤٦ ، بل وكان أحد أعضاء لجنة قسم الحزب الاشتراكى (حزب أحمد حسين) فى أسيوط ، وسرعان ما تركه عندما اكتشف عدم مصداقية شعاراته على حد قوله . وما أن حصل على التوجيهية عام ١٩٥٢ حتى سافر إلى الاسكندرية لدى شقيقه الأكبر «سيد» الذى كان أحد

العاطفين على النواة» . وقام رفاق النواة بتثقيفه ثم تجنيده . وعندمل تقرر نقل الجهاز الفنى من القاهرة إلى الاسكندرية لدواعي الأمان ، اختارته المنظمة - فهو حتى ذلك الحين كان وجهاً غير معروف للمباحث وهو أول شروط تولى هذه المسئولية الحساسة . تعلم بدر الكتابة على الآلة الكاتبة واستأجر سكناً وباشر مهمته ، إلى جانب مسئولية أخرى هى تدبير أماكن السكن لرفاقه الهاربين بالاسكندرية . أما مسئوله السياسى فكان واحداً من أكثر وجوه الحركة الشيوعية اشراقاً واخلاصاً وهو الرفيق شعبان حافظ الذى كان أحد أعضاء حزب ١٩٢٣ الشيوعى ، ورحل عن الدنيا حين كان معتقلاً فى سجن الواحات قرب منتصف الستينيات..

أما الوحدة فقد جرت عام ١٩٥٥ بينما كان متولى بدر فى سجن الحضرة بالاسكندرية ، وعلم بالوحدة أثناء تشريفه هناك ، بل وتلقى تكليفاً بأن يكون مسئولا عن التشكيل الحزبى الموجود بالسجن، وعندما خرج عام ١٩٥٦ عرف بالتفاصيل وتتلخص فى أن أعضاء اللجنة المركزية الذين كانوا خارج السجن مثل محمود أمين العالم وبهيج نصار سارعوا باتخاذ قرار بالوحدة «بعيدا عن الأسس التى كان تنظيم النواة يحددها للوحدة» ويضيف «وقتها كان موقف

التنظيم فى ذلك المجال محكوماً بشعار الرفيق لينين . لكى نتحد ومن أجل أن نتحد يجب أن تكون هناك حدود قاصلة».

لم يكن بدر موافقاً إذن على الوحدة بالشكل الذى جرت به، خصوصاً وأن فوزى جرجس وآخرين من أعضاء اللجنة المركزية كانوا فى ذلك الوقت في معتقل «أبو زعبل» وكان التيار الأخير - فيما يبدو رافضاً أيضاً للوحدة بالشكل الذى تمت به .. على أى حال انتهى الأمر ببدر عام ١٩٥٨ إلى تقديم استقالته ، وكان محقاً فى ذلك ، فقد صعق فى أحد الاجتماعات عندما نوقشت مسألة تجنيد أحد العاطفين ، وطالب بدر بضرورة التريث لأن ذلك الشخص قد يكون اختراقاً من الأمن ، فقال له مسئول اللجنة :"وما المانع .. نحن فى جبهة مع الحكومة .. وما أن سمع هذه الكلمات حتى أيقن أن هناك استحالة فى استمراره!!

وافتح قوساً هنا، لأضيف أن رفعت السعيد يقرر أن النواة ليست إلا امتداداً لمنظمة العصبة الماركسية ، والأخيرة بدورها كانت انقساماً من الحركة المصرية جرى عام ١٩٤٦...

وهكذا بدأت مرحلة جديدة فى تاريخ حدتو بالوحدة بين المنظمات السابق الاشارة لها ، وهو ما سوف أحاول تناوله فى الفصل التالى.



(٩)

منذ هذه اللحظة سوف تواجه الحركة الشيوعية المصرية بكاملها ، وليس حدتو وحدها ، معضلة تاريخية وسياسية مازلت حتى الآن عاجزاً عن فهمها . الشيوعيون كانوا أبطالاً في خوض نضالاتهم وتعرضوا لأقسى ما يمكن أن يتعرض له بشر من تعذيب وقمع وتشريد وسجن وفصل من أعمالهم ... الخ ، وظلوا على مدى تاريخهم ابطالاً لا يتوقفون عن خوض المعارك في النقابات والحركة الطلابية ولجان الأحياء والمصانع ، وكانوا على الدوام في قلب الحركة الجماهيرية..

وفي الوقت نفسه ، كانوا عاجزين عن التأثير المستمر الممتد ، وظلوا إلى هذا الحد أو ذاك عاجزين عن اكتشاف وتشييد جسور دائمة بينهم وبين الحركة الجماهيرية .. وفي هذا السياق كثيراً ما كانت تحليلاتهم ومنشوراتهم ووثائقهم تتسم بالتخبط والتناقض والسطحية .

وسوف أحاول توضيح ذلك قدر الامكان في موضع آخر ، إلا أنني أشير الآن مثلاً إلى أنه بقدر ما بدت حدتو مؤيدة تأييداً كاملاً للانقلاب العسكري استنادا إلى الصلة السابقة لليلة ٢٣ يوليو بين الضباط وحدتو ، بقدر هذا التأييد غير

المشروط والكامل ، انقلب الموقف إلى الرفض الكامل والادانة الكاملة غير المشروطة أيضاً . وما أن بدأ عبد الناصر فى اجراءاته الجديدة ، وبدأت ملامح سياسته الخارجية تتضح فى عدائها للأستعمار ، بعد باندونج ورفض الاحلاف العسكرية ، حتى انقلب الموقف مرة أخرى وأصبحت منشورات الموحد مثلا أشبه بنشرات مصلحة الاستعلامات الرسمية ، وارتفعت نبرة التشبيب بالبطل جمال عبد الناصر ، ورئيسنا جمال عبد الناصر ، وحكومتنا الوطنية .. الخ.

ولعل أكثر ما يصيبنى بالارتباك والقلق أن أفترض فى نفسى الحكم أو القاضى الذى يحكم ويده فى الماء البارد ، بينما هؤلاء الأبطال يتعرضون للاستشهاد دون أن يطرف لهم جفن . كل ما فى الأمر أننى أحاول أن أفهم فقط سبب هذا التناقض بين حجم التضحيات من ناحية ، والنتائج المترتبة على تلك التضحيات وعجزهم عن تحقيق البرنامج الذى طرحوه من ناحية أخرى.

من جانب آخر ، كان استيلاء الضباط الأحرار على السلطة منذ يوليو ١٩٥٢ ، ثم حسم الصراع الذى دار فى مجلس القيادة لصالح جمال عبد الناصر ، يشكل متغيراً

جديداً قلب المعادلة بأكملها . ولعلى لا أحتاج إلى القول إن جمال عبد الناصر كان زعيماً وطنياً قاد ثورة حقيقية ضد المجتمع القديم والاستعمار والأحلاف المرتبطة به ، كما كان أحد مؤسسى حركة دولية شابة تقف بصلابة ضد الاستعمار، إلا أنه كان مصراً على تصفية الجميع : كل القوى السياسية من شيوعيين ووفديين وليبراليين وأخوان مسلمين والمنتمين لمصر الفتاة ، وصولاً إلى تأميم الحياة السياسية لصالح الضباط ولصالح المجتمع الجديد الذى فرضه .

لا أريد أن أمضى طويلاً فى تحليل نظرى مجرد إلا فى أضيق الحدود ، لكن التساؤل الذى أحاول أختبار الاجابة عليه هو : هل كان من الممكن حقاً اقناع عبد الناصر - بوصفه زعيماً وطنياً تاريخياً - بقبول التحالف مع القوى السياسية المختلفة وفى مقدمتها الشيوعيين ، بل حتى قبوله بقيادة هذا التحالف ضد الاستعمار وضد المجتمع القديم؟ وإذا لم يكن ذلك ممكناً لأسباب ربما كان من بينها ذلك النزوع «العسكرى» للضباط للانفراد بالحكم ، فضلاً عن بدايات تشكل طبقة جديدة بورجوازية جديدة تضم عناصر من المجتمع القديم ، إلى جانب عناصر من المجتمع الجديد - وهو

ما يعنى اعتماد عبد الناصر عليها - إذا لم يكن ذلك ممكنا ، فهل كان الشيوعيون قادرون على فرض هذا التحالف عليه؟

لم يكن هناك حل إلا فرض هذا التحالف على عبد الناصر من خلال قوة وتواجد المنظمات الشيوعية فى الحياة السياسية وفى صفوف الحركة الجماهيرية ، وليس من خلال تأييد أو رفض عبد الناصر ونظامه ، هل عجز الشيوعيون عن فهم تلك الحقيقة البديهية ، وهى أن يستمدوا قوتهم من تأثيرهم فى الحركة الجماهيرية ، وأن قبول النظام لوجودهم مرتبط بالحركة الجماهيرية التى يؤثرون فيها والبرنامج الذى يطرحونه.

□□□

على أى حال تحققت الوحدة أخيراً بين منظمات كانت قد انفصلت عن الأم «حدتو» لسبب أو لآخر . ولم يكن الطريق اليها سهلاً .. فطبقاً لما رواه رفعت السعيد فى كتابه منظمات اليسار المصرى ١٩٥٠ - ١٩٥٧» كانت البداية فى سجن مصر أواخر عام ١٩٥٣ ، حيث عقدت لجنة الوحدة أولى جلساتها . وقد شغل رفعت السعيد مسئولية سكرتارية تلك اللجنة وتحرير محاضرها وارسال الرسائل اللازمة للسجون

المختلفة . تشكلت اللجنة من مبارك عبده فضل عن حدتو ، وحمدي عبد الجواد عن التيار الثورى ، وأحمد خضر عن النجم الأحمر، وابراهيم عرفة عن النواة ، وفخرى لبيب عن طليعة الشيوعيين . ومن سجن مصر انتقلت اللجنة إلى سجن القناطر واستمرت فى مباحثاتها .

تركزت انتقادات المنظمات المختلفة لحدتو على مواقفها المؤيدة للانقلاب ، وكذلك موقفها من اضراب عمال كفر الدوار فى سبتمبر ١٩٥٢ ، وبيان السجن الحربى الذى وقعه عدد من قادة حدتو تأيداً لحركة الجيش كما طالبت باستبعاد كل من يونس - هنرى كورييل - وكمال عبد الحليم من قيادة الحزب الجديد . وتم الاتفاق فى النهاية على بقاء يونس كصوت مجمد ليس له حق التصويت حتى تحسم مشكلته ، بينما كان قد صدر قرار بوقف كمال عبد الحليم بسبب اختلافه مع حدتو وتأييده المطلق للحكم العسكرى.

وفى الوقت نفسه كانت القواعد - بل والقيادات - ممن نجحوا فى الهروب قبل القاء القبض عليهم يضغطون من الخارج لإتمام الوحدة ، وتشكلت بالفعل لجنة بالخارج تضم شهدى عطية الشافعى من حدتو ومحمود أمين العالم من

النواة ، ثم أنضم إليهما عبد المنعم شتله من النجم الأحمر .
وفى فبراير ١٩٥٥ أى بعد أكثر قليلاً من عام تحققت الوحدة بعد هزيمة الخط السياسى السابق ، وهى هزيمة كانت ضرورية ولعلها اكثر التغيرات صحة وفى صالح الحركة الشيوعية على وجه العموم . لذلك لا داعى للحزن الذى يبديه رفعت السعيد والتأسي على هزيمة ذلك الخط ، خصوصاً وأن حزنه زائد وميلو درامى جداً حتى أنه كتب : «ودخلت حدتو إلى بيت الوحدة مطأطأة الرأس» ! علامة التعجب من عندى.

ضمت اللجنة المركزية للموحد عشرة أعضاء من حدتو على أن تعلق عضوية يونس ، منهم زكى مراد وأحمد الرفاعى ومبارك عبده فضل وفؤاد حبشي ومحمد شطا ومحمد على عامر وسعد رحمى ومحمد الجندى ، وثلاثة من كل من المنظمات الباقية . فمن النواة فوزى جرجس وبهيج نصار ومحمود أمين العالم من ت . ث فؤاد عبد الحليم وحمدى عبد الجواد وعيد سيد أحمد ، بينما اختفى اسم سيد سليمان رفاعى الذى كان قد قاد انقسام ت.ث ، ومن النجم الأحمر عدلى جرجس وأحمد خضر وعبد المنعم شتلة . ومن طليعة الشيوعيين فخرى لبيب وعبد الله كامل ود. مكاوى.

وعندما يعرض رفعت السعيد للبرنامج السياسى للحزب الموحد والوثائق المتعلقة بالاستراتيجية والتاكتيك ، يواصل الأسى دون أى مبرر على هزيمة الخط السياسى السابق أثناء وبعد الانقلاب . ويضيف إن الأحداث التالية أعادت إلى الاذهان صحة مواقفها السابقة مثل صفقة السلاح التشيكية وباندونج والاعتراف بالصين الشعبية وغيرها.. وباستثناء ما ذكر فى وثيقة «مشروع تاكتيك الحزب الشيوعى المصرى الموحد» من أن انقلاب يوليو من تدبير الاستعمار الامريكى ، فإن الوثائق المتاحة باسم الموحد - فى تلك الفترة تحديداً - تشكل أساساً مهماً وصائباً فى الانفلات من ذيلية مواقف حدتو السابقة أثناء وبعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . من الخطأ بالطبع أن تذكر الوثيقة أن الانقلاب من تدبير الاستعمار الأمريكى ، لأن هذا ببساطة غير صحيح ، لكن أغلب المواقف الجديدة للموحد مثلت تقدماً على طريق الاستقلال عن حركة الجيش والافاقة من الوهم الذى كان قد تلبس حدتو ، وهو أنهم ما داموا شاركوا فى الانقلاب ، فسوف يكونوا مؤثرين فى النظام الجديد الذى كان مفترضاً أن يتحالف معهم!!

والمثير للدهشة أن الضباط كانوا كثيراً ما يلجأون اليهم فى «الملمات» ! فطبقاً لما أورده أحمد حمروش فى كتابه «شهود يوليو» يروى فتحى خليل أنه تم استدعاؤه فى اوائل سبتمبر ١٩٥٥ ومعه الفنان زهدى العدوى وابراهيم عبدالحليم من سجن «أبو زعبل» ، حيث كانوا يتعرضون للضرب ثلاث مرات فى اليوم الواحد ! بعد أن كانوا قد أضربوا عن الطعام ١٨ يوماً متواصلة لتحسين المعاملة . التقوا أولاً فى مبنى وزارة الداخلية بالكاتب الراحل يوسف إدريس الذى كان قد تم استدعاؤه من سجن القناطر ، ثم فوجئوا بترحيلهم جميعاً إلى قصر عابدين حيث كان الصاغ صلاح سالم عضو مجلس القيادة فى انتظارهم (أطلق اسمه على «طريق صلاح سالم» الشهير والرابط بين طرفى القاهرة ، وقد شقته حكومة الثورة وسط مقابر صحراء المماليك ، وهو ما يدل على أهمية ذلك الصاغ !) .

تفلسف صلاح سالم أثناء المقابلة، وذكر لهم أن الثورة مقبلة على مرحلة جديدة وخطيرة، وأنها عقدت بالفعل صفقة لشراء سلاح من الاتحاد السوفييتى، وأن هناك قرارا أخطر بالإفراج عن كل الشيوعيين قبل ٢٣ يوليو ١٩٥٦ . ثم انتقل

الحديث إلى الوضع فى السودان وأهمية الحزب الشيوعى السودانى فى التأثير على تلك الأوضاع. وأضاف إن أصدقاءه أخبروه أن الطريق إلى قلب الحزب الشيوعى السودانى هو الشيوعيون المصريون، ولذلك استأذن صلاح سالم مجلس القيادة فى الاستعانة بهم ليسافروا إلى السودان ويقنعوا الحزب الشيوعى السودانى بتأييد الثورة والاتحاد مع مصر، فطلبوا منه مهلة للتفكير. هنا اقترح عليهم وضعهم فى مكان أمين يقومون فيه باتصالاتهم(!!) لكنهم رفضوا العرض، وتم التوصل فى النهاية إلى الإفراج عنهم والعودة إلى مكتبه بعد أسبوع للاتفاق على كل شىء. وقبل أن يمر ذلك الأسبوع نشرت الصحف نبأ استقالة صلاح سالم! فعادوا للاتصال بكل من أحمد عباس صالح وسامى الليثى، فهما اللذان لعبا دور الوسيط فى البداية، وكان رد الآخرين أن صلاح سالم فى بيته والاتصال به قد انقطع!!

(والحقيقة أن الاستدعاء من السجن، أو حتى إجراء المقابلات بين الشيوعيين وضباط الثورة وممثليها داخل السجون قد تكرر كثيرا حتى كاد يصبح تقليدا يتسم بالبجاحة والتنطع من جانب الضباط، فكيف تتفاوض أو

تناقش معتقلا أنت الذى قمت اعتقاله؟! وكيف يقبل الشيوعيون ذلك التفاوض وهم رهن الاعتقال؟!.. ليرجع القارىء لاستدعاء جمال عبد الناصر لعبد الرحمن الخميسى من السجن حيث تجاذب أطراف الحديث معه مؤكدا أن القبض عليه تم بناء على الحاح السفارة الأمريكية بالقاهرة ثم أعاده للسجن مرة أخرى .أو ليرجع لتفاوض الضباط مع عدد من مناضلى حدتو فى السجن الحربى بعد أن أصاب التعذيب بعضهم بالجنون الحقيقى وليس مجرد الرعب أو الانهيار المؤقت!).

ويسبب الضعف النظرى والسياسى، ومنذ أواخر أكتوبر ١٩٥٥، بدأت منشورات الموحد تكشف عن مواقف يمينية، بالغة الخطأ، توحى بانتصار خط حدتو السابق على الوحدة، بل وكشفت اللجنة المركزية للموحد فى بيان وجهته للأعضاء والعاطفين عن انتصار ذلك الخط، بعد أن تعرضت الحكومة للضغط من الاستعمار الأنجلو أمريكى.

لا أدرى هل أفتح قوسا آخر لأشير إلى ما كان يجرى فى الوقت نفسه من تعذيب وحشى فى معتقل «أبو زعبل»؟ على أى حال سأعود إلى ما جرى فى «أبو زعبل». فيا بعد أن غير

أتى سأشير فقط إلى نقد اللجنة المركزية للموحد للمواقف السابقة على تحولات عام ١٩٥٥ . نقرأ مثلا فى البيان ذاته المشار إليه «والذى ينبغى ذكره هنا ببساطة إن كفاحنا الحزبى كان يتميز باتجاه يسارى حاد. ففى تحديد موقفنا من سياسة الديكتاتورية الخارجية لم يكن موقفنا من باندونج، ولم يكن موقفنا من الحلف العراقى التركى إلا اتهاما للديكتاتورية بالمناورة والتآمر وكنا نتغافل دائما عما فى هذه السياسة من اتجاه إيجابى استقلالى» ويضيف البيان: «ونحن فى تأييدنا للاتجاه الاستقلالى فى سياسة الديكتاتورية لن نؤيد الديكتاتورية بل إننا فى الحقيقة نلمس الطريق الصحيح لعزلها عن الاستعمار واتساع قاعدتنا الجماهيرية والقضاء عليها فى الوقت المناسب» وكذلك «إن تأييدنا للجوانب الإيجابية لسياسة الديكتاتورية الخارجية لا يعنى أبدا إغفال الجوانب الخيانية الرجعية فى سياسة الحكومة الداخلية وفى علاقتها بالاستعمار».

ولا أظن أن هناك عجزا نظريا وتخبطا أكثر من ذلك!

وإذا كانت المنظمات السابق الإشارة لها قد توحدت ثم اتخذت تلك المواقف، فإن هناك اتجاها آخر اتخذ مواقف

تتجاوز بكثير ما يرد من بيانات وأوراق مصلحة الاستعلامات وغيرها من أجهزة الدعاية الحكومية، وهو الاتجاه الذى مثله كمال وإبراهيم عبد الحليم، حيث أصدرا كتابا عن دار الفكر التى أسساها لعبد الرحمن الشرقاوى هو «باندونج» ذكر فيه الأخير العبارات التالية:

«وعندما كانت إسرائيل تفرغ كل قاذوراتها على باندونج، وعندما كانت العصابات تسفك دماء المصريين على الحدود، كانت صحف تصدر فى أمريكا معبرة عن مصالح تجار السلاح والصهيونية، تهاجم مصر وعبد الناصر وباندونج ومشروع الميثاق العربى، وكانت صحف محملة بعفن الرطوبة وظلمة المقبرة (والشرقاوى يقصد هنا صحف الشيوعيين فى مصر) تصدر فى مصر لتترجم إلى اللغة العربية كل هذه القاذورات ويصرخ بما فيها غلمان صغار يربون اللحم على القفا وعلى الأصداغ ويحاولون أن يكتسبوا بطولة زائفة بطعن الحكومة القائمة والتشهير بالنظام» وهى عبارات لا ترقى لمستوى التناول لفرط انحطاطها!

من جانب آخر، بلغت مواقف الموحد حدا دفع هنرى كورييل للرد عندما تلقى بيانا من مكتب الأدباء والفنانين

يؤيدون فيه تأميم القناة، علق عليه قائلا: «لنا ملاحظة هى دفاكم عن شخص عبد الناصر الذى وصفتموه بأن أصبح لشعبنا ولجميع الشعوب المحبة للحرية وسلام رمزا للانتصارات التى حققناها ورمزا للثقة بالمستقبل. إن هذا القول فضلا عن أنه مبالغ فيه وخاطىء من الناحية السياسية، لن يقنع جزءا كبيرا من الرأى العام الديمقراطى نفسه، وذلك أن هذه الأجزاء مقتنعة بأن عبد الناصر ديكتاتور، وأن نظامه استبدادى وغير ديمقراطى. وأى دفاع عن نظامه الدا!مى يضعف قضية التأميم وقضية الاستقلال الوطنى والسيادة القومية، والحقيقة أن القضية أرفع من شخص عبد الناصر وأرفع من نظامه الداخلى».

التعليق نقلته من كتاب رفعت السعيد. والمثير للدهشة أن كوربيل الذى كان يوصف دائما باليمينية يقدم وجهة نظر متماسكة ومتزنة ومسئولة، فى مواجهة ذلك التأييد الفظ نحو التأييد الشخصى، وهو تأييد لا يتسم بالمبالغة الشديدة فحسب، بل وخاطىء من الناحية السياسية حسبما عبر كوربيل، خصوصا أن النظام كان لا يكف عن حبس وتعذيب الشيوعيين من كل التيارات والاتجاهات ممن رفعوا راية

التأييد لعبد الناصر، وممن وصفوه ووصفوا نظامه بالفاشية على السواء. ولعله من التزيد أن أشير إلى ما هو مؤكد، وهو أن كل ما كان يجرى من تعذيب وحشي كان بعلم عبد الناصر ورجاله القريبين.

لقد ظل ذلك الملمح ثابتا ومضطردا وحاكما للعلاقة بين عبد الناصر ونظامه، وبين حدتو تحديدا. وفي الوقت الذى كانت تجرى فيه أبشع عمليات التعذيب فى معسكرات الاعتقال. وقد وصلت في أحيان كثيرة للقتل، كان مناضلو حدتو يفرقون بين ما يمارسه عبد الناصر ونظامه ضدهم، وبين ما كان يقوم به عبد الناصر ونظامه الوطني «داخليا» وخارجيا، وهو أمر لم أفهمه، ولا أعرف كيف كان ممكنا فهمه! وإذا كان عبد الناصر قد اضطر للموافقة على التحالف المؤقت مع الشيوعيين بوصفهم منظمين فى لحظة نادرة أثناء العدوان الثلاثى، إلا أن سياسته الثابتة ظلت كما هى تصفية الحياة السياسية وتأميم الصراع الاجتماعى من خلال تعذيب المعتقلين لسنوات وسنوات للتخلى عن قناعاتهم وأفكارهم وتنظيماتهم وتغييب القانون وإحلال الأحكام العرفية، حتى إن هؤلاء المعتقلين كانوا ينهون سنوات السجن التى حكم بها عليهم فى محاكم استثنائية عسكرية، ثم ينتقلون على نحو آلى

إلى معسكرات الاعتقال، وفى الوقت نفسه ظلت حدتو تؤيد، ليس فقط التحولات الإيجابية العاصفة التى قادها عبد الناصر، بل تؤيد عبد الناصر شخصيا.

صحيح أن عبد الناصر كان يسبقهم في بعض الأحيان بخطوات في عدائه للامبريالية وقيادته لحركة التحرر الوطنى العالمية وفى التغيير الاجتماعى لصالح الأغلبية، وصحيح أيضا أنهم كانوا يؤيدون تلك التحولات تحديدا. لكن صحيح أيضا أنه كان يقوم بالأمرين مع: التعذيب وتأميم الصراع الاجتماعي، من جانب، والعداء للامبريالية والتغيير الاجتماعى، من جانب آخر.

يكفى مثلا الإشارة إلى أن أعضاء الموحد الذين قاموا بتوزيع بيانات الحزب المؤيدة لتأميم القناة كان يقبض عليهم لهذا السبب! وفى الجامعة كان الطلاب من أعضاء الموحد يفصلون ويحولون لمجالس تأديب لمجرد أنهم تحركوا مؤيدين لعبد الناصر ونظامه.

أما الموحد فقد (ترفع) عن ذلك ولم يهتم بتلك السفاسف، وتدخل مثلا ليلفت نظر الحكومة لمصلحتها الغائبة عنها، حسبما ورد فى منشور وزعه الحزب ووقعه المسجونون والشيوعيون آنذاك شريف حتاتة ومحمود توفيق وأحمد على

خضر وكمال الشلودى بعنوان: «مذكرة مقدمة إلى السيد الرئيس جمال عبد الناصر من المسجونين الشيوعيين عن الموقف من جماعة الإخوان المسلمين يعلنون فيها أن هناك إخوانا يؤيدون الحكم ويعانون فى سبيل موقفهم هذا من الاضطهاد من بقية الجماعة، ثم يقترحون الإفراج عن العناصر المؤيدة، والأنكى أنهم يطالبون بأن يتم عزل أولئك الإخوان المؤيدين فى مكان خاص وتحسين معاملتهم حتى يفرج عنهم!!

أما الأكثر سذاجة على نحو فكاهى للغاية، فهو ما أورده رفعت السعيد فى كتابه السابق الإشارة له عن أحد إعداد جريدة كفاح الشعب التى كان يصدرها الموحد، ويتضمن نداء إلى السيد زكريا محيى الدين لشل النشاط التخريبى الذى تقوم به العناصر المتخلفة من بقايا الاستعمار فى وزارة الداخلية والتى لاتخدم سوى المستعمرين بتصرفاتهم الاستفزازية التى تعمل علي تفتيت جبهة الشعب والحكومة .لا تكفى علامات التعجب هنا، وكأن الداخلية والمباحث العامة ومكتب مكافحة الشيوعية فى بلد آخر وليست محكومة بعبد الناصر وزكريا محيى الدين وغيرهما من الضباط!

(١٠)

المأثرة الكبرى التى أضاءت سماء الحزب الشيوعى الموحد (امتداد حدتو، فالمنظمات التى اتحدت - كما سبق أن ذكرت - هى بشكل أو بآخر انقسامات من حدتو) المأثرة هى بلا شك الدور البطولى الذى لعبته كوادره فى بورسعيد أثناء العدوان فى ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ وحتى الانسحاب فى ٢٣ ديسمبر من العام نفسه.

والحقيقة أن معركة تأميم القناة وما ترتب عليها تشكل إحدى الحلقات فى مواجهة نظام عبد الناصر للامبريالية والاستعمار فى ذلك الوقت، وفى وقوف الشعب معه والتفافه حوله. إنها بالتأكيد واحدة من اللحظات النادرة والتى توقف فيها التاريخ ليلتفت لذلك الحدث الأعظم: رفض نظام وطنى لا يملك إلا إيمانه بالاستقلال والحرية أن يرضخ لثلاث دول عاتية قادرة على إبادة مصر بكاملها، ومع ذلك فقد تحققت المعجزة وانتصر الشعب وانتصرت إرادة الرفض والمقاومة.

من جانب آخر كان العالم بكامله يعيش إحدى لحظاته النادرة أيضا، بعد بروز حركة التحرر الوطنى وتشكيل جبهة من الدول الصغيرة حديثة الاستقلال فيما عرف بحركة عدم الانحياز والدور الذى لعبته فى تقرير مصير العالم.

وإذا كان هنرى كوربيل قد أبلغ عبد الناصر عن طريق خالد محيي الدين بخطة الغزو قبل ٢٠ يوما على الأقل من تنفيذها، فإن الأخير قد استبعدها فيما يبدو أو رفض تصديق أن الخسة يمكن أن تصل إلى ذلك الحد. وكان التتابع التاريخى للأحداث المتلاحقة قد بدأ كالتالى: فور سحب أمريكا لعرضها بتمويل مشروع السد العالى على أساس إن مصر بلد مفلس ولا يملك إمكانية النهوض بمشروع ضخم كهذا، كان رد عبد الناصر فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦ تأميم قناة السويس لتدبير التمويل اللازم، وفى الوقت نفسه توجيه ضربة حاسمة موجعة للاستعمار واستمرارا للخطوات الضخمة التى كانت الثورة قد قطعتها بعد باندونج ورفض الأحلاف وعقد صفقة الأسلحة التشيكية والاعتراف بالصين الشعبية، وهو ما توج بتشكيل حركة عدم الانحياز كما هو معروف.

من جانب ثان كانت آخر مراحل اتفاقية الجلاء عن قناة السويس والمبرمة بين مصر وانجلترا قد تمت بجلاء آخر جندى انجليزى فى يونيو ١٩٥٦، ولم يمر إلا قرابة شهران حتى هاجمت القوات الإسرائيلية غزة والحدود المصرية، وفى ٢٩ أكتوبر وجهت بريطانيا العظمى انذارها لمصر للتخلى عن تأميم القناة، وفى اليوم التالى هاجمت بريطانيا وفرنسا بورسعيد، وبدأت واحدة من أروع ملاحم الشعب المصرى فى

العصر الحديث، والتى شارك فيها الشيوعيون بنصيب وافر كما سوف أوضح في السطور التالية .

وطبقا لرواية خالد محيى الدين لجيل بيرو مؤلف كتاب «هنرى كورييل رجل من نسيج خاص» ترجمة لطيف فرج، فإن كورييل عاد للاتصال بخالد محيى الدين مجددا، بعد أن كانا قد التقيا عدة مرات فى قرية على الحدود الفرنسية السويسرية إبان نفي خالد إلى سويسرا (طبقا لرواية خالد فى كتابه «الآن أتكلم») وأبلغه كورييل عن طريق حلقة اتصال آمنة بالخطط العامة لحملة الغزو الفرنسية البريطانية ويضيف: لم يكن الأمر يحتاج إلى مغامرات خيالية كبيرة، هذه الخطط لم تكن موضوعة فى قاع خزينة مصفحة، لكنها كانت تنتقل فى مرح عبر الأوساط السياسية فى باريس، حيث يسود الاعتقال بأن الجيش المصرى سيكون لقمة سائغة، ويضيف أيضا - لجيل بيرو : يمكن القول أن تسعين فى المائة من خطة الغزو تم انكشافها، الأمر الذى جعل من السهل معرفة العشرة فى المائة الباقية. الخطة فى مجموعها كانت ماهرة: هجوم إسرائيلى لجذب الجيش المصرى إلى سيناء، ثم ضرب قواعدنا الجوية بالقنابل، ونزول القوات الفرنسية البريطانية شرقى بورسعيد لعزل القوات المصرية ووضعها داخل كماشة من الإسرائيليين، ويحدد محيى الدين أنه تلقى

الخطة قبل عشرين يوما وأطلع عبد الناصر عليها لكنه لم يصدقها وهو ما اعترف به في إحدى خطبه فيما بعد» .

□□□

أما الشيوعيون فقد كان قسم لا بأس به منهم قد غادر لتوه معتقل «أبو زعبل» في يونيو ١٩٥٦، وهكذا أتيح لهم أن يلعبوا ذلك الدور الباهر داخل بورسعيد ذاتها.

كان شيوعيو الموحد يتوقعون أن يكون رد الاستعمار على تأميم القناة هو العدوان من أجل استعادتها وتوجيه ضربة قاضية لنظام عبد الناصر الذى تجرأ كثيرا وتجاوز السقف المسموح به. وفى اجتماع القيادة المركزية للموحد تم اتخاذ قرارين مهمين. الأول حشد الجهود من أجل الكفاح المسلح والتصدى للعدوان المتوقع، والثانى إسناد قيادة المعركة لأحمد الرفاعى عضو اللجنة المركزية بسبب خبرته بالمنطقة منذ الأربعينات، وأحد الذين شاركوا فى تأسيس نقابة لصيادى بحيرة المنزلة، بل كان أحد الذين شاركوا فى كتائب الأنصار فى القناة عام ١٩٥١، فضلا عن خبرته بالقرى والمراكز المحيطة، فهو ابن قرية طناح التابعة لمركز دكرنس بالدقهلية، وعلى معرفة دقيقة وتفصيلية بالقوى السياسية الموجودة بالدلتا.

ويتذكر نجاتى عبد المجيد فى شهادته الواردة بالجزء الأول

فى سلسلة «شهادات ورؤى» وكان آنذاك عضوا فى منظمة طليعة الشعب الديمقراطية التى ضمت عناصر رافضة لوحدة الموحد من النواة وغيرها - يتذكر أن اللجنة المركزية للمنظمة قررت أن يتوجه الجزء الأكبر من الأعضاء للخطوط الأمامية لتكوين لجان المقاومة الشعبية، كما أبرم أحد الأعضاء القياديين للمنظمة وهو الضابط محمود المناسترلى مع المسئولين فى حكومة عبد الناصر اتفاقا لتدريب الشيوعيين علي حمل السلاح.

وتشير مصادر عديدة إلى موافقة عبد الناصر على تدريب الشيوعيين فى معسكر بقرية «طويحر» القريبة، وتؤكد تلك المصادر أن موافقته تضمنت أن تركزهم فى معسكر واحد يسهل السيطرة عليهم ومراقبتهم، وهكذا ذهب للتدريب على حمل السلاح شيوعيون ينتمون لمنظمات مختلفة أو عاطفين أو مرتبطين بتلك المنظمات على هذا النحو أو ذاك، ومن بينهم على الشلقانى وفيليب جلاب وإبراهيم فتحى وعبد الملك يواقيم وعلى الشوباشى ولطفى فطيم ومصطفى الحسينى وفاروق عبد القادر ومعوض الجويلى وعبد المنعم الغزالى ورشاد الملاح، إلى جانب نانا سالم وعايدة ثابت وأميمة أبو النصر وأنسية أبو النصر ونور الجويلى، والأخيرة كانت عاملة من أعضاء النقابة العامة لعمال الغزل والنسيج بالقاهرة، أما

ضباط المخابرات الذين تولوا التدريب فكان على رأسهم كمال رفعت.

□□□

بعد احتلال بورسعيد كما يذكر أحمد القصير فى الجزء الخامس من «شهادات ورؤى» وكان قد خرج من المعتقل، وتوجه ضمن مجموعة حزبية إلي قرية طويحر بمركز أبو حماد بالشرقية في المعسكر السابق الإشارة إليه. ويضيف: بعد فترة من التدريب ذهبت مجموعة منا إلى بورسعيد ولم أكن بينها، غير أننى حصلت آنذاك على ترخيص بحمل السلاح من لطفى واكد وآمال المرصفى (من الضباط الأحرار) وكانا في قيادة المنطقة العسكرية بالزقازيق، وذهبت بعد ذلك إلى ناحية الأخيوة بالصالحية ومعى كمية من الذخيرة وقمت بتدريب الأهالى على استخدام السلاح وشكلنا لجانا للمقاومة، كما قمت بعملية تجنيد للحزب فى قرى المنطقة، كنت خلال تلك الفترة على اتصال بالمنطقة العسكرية بالمطرية بمحافظة الدقهلية للسؤال عن أخبار الزملاء الذين دخلوا بورسعيد عن طريق بحيرة المنزلة ومن بينهم أحمد الرفاعى وعبد المنعم شتلة، وبعد انسحاب القوات البريطانية والفرنسية من بورسعيد عدت للقاهرة» .

بينما يذكر نجاتى عبد المجيد فى الشهادة السابق

الإشارة لها أن معسكر طويحر كان يضم شيوعيين ينتمون لتيارت ومنظمات مختلفة، وبعد فترة التدريب تم اختياره ومجموعة من الرفاق للتمركز بمنطقة «سرابيوم المحطة» كما توجهت مجموعة أخرى إلى عزبة «أبو جاموس» والأمر الأكثر أهمية هنا أنه أتيح للشيوعيين أن يعملوا مع الفلاحين، وكان واجبهم فى المحل الأول تدريب الفلاحين على حمل السلاح وتشكيل لجان المقاومة الشعبية.

المجموعة التي كان مسئولها نجاتي فوجئت بزغازيد الفلاحين والهتافات ترحيبا برجال المقاومة، وتسابق الجميع على استضافتهم، حتى حسم عمدة سرابيوم المحطة القريبة من الاسماعيلية الحاج أحمد الفرفرى عميد العائلة ذات التاريخ الحافل فى مقاومة الاستعمار فى مدن القناة منذ عام ١٩٥١، حسم الموقف بأن أعد لهم سكنا بجوار منزله ويطل على المحطة، لكن الوقت لم يمهلهم طويلا، حيث تم ترحيلهم من القرية بعد انسحاب المعتدين أى بعد أقل من شهر من بداية الغزو.

من جانب آخر، وحسبما ذكر بهيج نصار فى الجزء الرابع من شهادات ورؤى، فإن حركة المقاومة الشعبية التى قادها شيوعيو الموحد كانت محكومة بيد من حديد من ضباط عبد الناصر. وظل الحذر والتوجس مخيما على نحو أو آخر على

الرغم من أن عبد الناصر ورجاله تعاملوا مع هؤلاء المقاومين بوصفهم شيوعيين منظمين.

والحقيقة أن الدور الذى لعبه الشيوعيون أثناء الاحتلال أثبت إلى أى حد يمكن لهم أن ينظموا الجماهير ويقودوها ويتعلموا منها ويحولوا حياة جنود الاحتلال إلى جحيم ولعلى لا احتاج إلى القول أنهم لم يكونوا وحدهم فى الميدان، فقد كان هناك الحرس الوطنى ورجال المقاومة الشعبية وسلاح المخابرات لكننى معنى هنا بالحديث عن شيوعيى الموحد.

وإذا كانوا قد تعرضوا - منذ الانقلاب وحتى العدوان - إلى الاعتقال والتعذيب فى سجون الضباط الأحرار، إلا أنهم بادروا قبل أن يبدأ العدوان فعلا بالعمل الفورى. فأحمد الرفاعى خرج من الاجتماع المركزى المنعقد فى إحدى الغرف فوق سطح منزل فى العتبة، يحمل على كتفيه تكليفا بقيادة المعركة، وكان أصعب ما يواجهه هو إبلاغ زوجته بضرورة غيابه بضعة أيام، ولم يكن ممكنا له - لدواع أمنية - أن يصرح لها بسبب غيابه، فضلا عن أن زوجته كانت تعانى من فقدان ابنها الوحيد أثناء وجوده فى المعتقل، ثم موت أمها فى حادث مؤلم، ولذلك كان خروجه من البيت بعد ذلك متوجها إلى تنفيذ تكليفه: أشبه بالهروب. واتصل برفاقه إبراهيم المناسترلى وفتحى مجاهد وعبد السلام الخشان ومنير موافى

ومحسن لطفى واتجهوا إلى قرية طويحر لاستلام بعض الأسلحة والتدريب السريع على الأسلحة الجديدة فى معسكر طويحر.

أثناء ذلك بلغتهم أنباء العدوان وسقوط بورسعيد، فكان قرارهم ضرورة دخول بورسعيد المحتلة، وقبل تنفيذ قرارهم توجهوا إلى الإسماعيلية للقاء كمال رفعت الذى كان أحد المسئولين عن التنسيق بين الشيوعيين والدولة، وجرى اللقاء فى مقر قيادة رفعت فى قرية «نفيشة» وبعد نقاش حول كيفية دخول بورسعيد المحتلة اختلفا. فكمال رفعت يرى الدخول عن طريق الإسماعيلية، بينما رأى الرفاعى استحالة ذلك، وخرجوا فى المساء فى مهمة استطلاعية لبحث إمكانية الطريق الذى اقترحه رفعت، واشتبكوا فى معركة سريعة مع سيارة إنجليزية محملة بقوة لاستكشاف ذات الطريق. ثم انتهى الأمر بالدخول عن طريق بحيرة المنزلة وبمساعدة الصيادين. وفى اليوم التالى انطلقت قافلة تضم ثلاث سيارات تحمل عددا كبير من ضباط المخابرات والشيوعيين. مرت أولا على قرية الرفاعى طناح، حيث استراحت لبعض الوقت ثم واصلت طريقها إلى قرية المطرية الصغيرة، وكل سكانها من الصيادين، وتقع على شاطىء بحيرة المنزلة خلف بورسعيد.

فوجيء الرفاعى ورفاقه بأنهم امام قرية مزدحمة بمئات المهاجرين الذين فروا من مدينتهم بعد احتلالها . كان المشهد مفزعا. الامهات يبحثن عن ابنائهن والزوجات عن ازواجهن والفلاحون يحاولون مساعدتهم بشتى السبل. بعد فترة قصيرة عاد اليهم الضابط منير موافي بعد أن تلقى في القاهرة موافقة صريحة واضحة من عبدالحكيم عامر على التعاون مع الشيوعيين .

ساعود إلى الرفاعى مرة أخرى بعد أن نعلم ماذا جرى فى بورسعيد عشية العدوان ..

□□□

فى بورسعيد كان للحزب الموحد عدد من الخلايا داخل المدينة ، وكان الحاج على شلبى الخولى رئيس نقابة اللنشات ببورسعيد احد رؤساء لجان المقاومة الشعبية (استشهد فيما بعد مع شقيقه فى المعركة) . وطبقا لشهادة محمد على فخرى فى الجزء الثانى من شهادات ورؤى .. والذى كان فى ذلك الوقت عضوا فى الموحد فإن من تحملوا المسئولية فى بورسعيد - إلى جانب فخرى هم ابراهيم هاجوج واحمد شوقى المرجاوى وصالح دهب صالح وعبد المحسن الحفناوى.. ود. نصر حمودة الذى استشهد شقيقه حسن حمودة وهو صبى لم يتجاوز العاشرة من عمره إلا بقليل

بطلقات رشاش جنود الاحتلال .

ويتوقف فخرى عند الدور الذى لعبه اللواء حسن رشدى مفتش مباحث أمن الدولة ببورسعيد فى التعاون مع قوات الاحتلال ، ويضيف أن سجن بورسعيد تمت مهاجمته بالطائرات المعادية، وأصيبت زنزانتان في الدور العلوى للسجن. ومات داخلهما قرابة عشرين سجينا .

ولما كان مأمور السجن قد غادر المدينة، التقى فخرى ومعه عدد من رجال المقاومة بالرائد علاء - الرجل الثاني فى السجن ، وطلب منه مساعدته فى فتح ابواب السجن حتى لا يموت المسجونون تحت القصف الجوى. وبالفعل خرج نحو ألف سجين خطب فيهم فخرى الذى كتب فى شهادته : «خاطبتهم فى فناء السجن أناشدهم بصوت عال وأخبرتهم بأننى سأفتح لهم الابواب كى يخرجوا الى المدينة وشوارعها وأن يلتقوا فى تقاطع شارعى كسرى والدقهلية ، أحد مواقع المقاومة) : ويضيف : وسنفتح لهم بيوتنا فى بورسعيد للاقامة وأن ينضموا للدفاع عن المدينة ، وتم فتح الزنازين والباب العمومى على مصراعيه..

وفى صباح ٥ نوفمبر وبعد أن كان المظليون الانجليز قد احتلوا مناطق عديدة، واحرقوا مناطق أخرى ، وأبادوا من وجدوه فى طريقهم ، بدأ الناس يفكرون فى كيفية المقاومة وهم

مجردون فى السلاح . كان ظهور الضابط الشاب منير موافى فى ذلك الوقت بالذات من أكثر المفاجأت مدعاة للسرور، فقد كان يصطحب معه عربة نقل محملة بكمية لا بأس بها من سلاح أفرغها فى شارع كسرى صائحا فى الناس :

«السلاح اهه.. خدوه ..» .

تخاطفوا السلاح بطبيعة الحال رجالاً ونساء، وفوجئوا بموافى وقد عاد بعربة ثانية، ثم عربة ثالثة ، ومالبث أن أخذ الناس معه الى محطة السكك الحديدية ، حيث كان هناك قطار بضاعة محملا بكامله بالاسلحة والذخائر التى واصل الناس تخاطفها ، غير ان ذلك السلاح كان كارثة على وشك الانفجار ، فالناس لم يكونوا يعرفون كيف يستخدمونه وتصرف شيوعيو الموحد قليلو العدد بسرعة ، فكتبوا على الجدران يدعون الناس لاعادة توزيع السلاح، واشتركوا مع بقايا الكتيبة الرابعة مشاة فى تحمل عبء اعادة توزيع السلاح فى نقاط محددة من الشوارع والنواصى على اساس أن يدرب كل من يعرف استخدام السلاح من لا يعرفه خارج المدينة ، ويتبادلوا الطلقات بطلقات صالحة لكل سلاح فلم يكن اغلبهم يعرف الفرق . ومع ذلك قتل عدد ليس قليلا من الطلقات الخاطئة وانفجار القنابل اليدوية بطريق الخطأ .

وكما حكى ابراهيم هاجوج . احد أعضاء حدتو فى

المدينة لكمال القلش وهما يتمشيان معا فى طرقات معتقل الواحات بعد ذلك بعدة سنوات وهو ما سجله القلش بالفعل بعد سنوات اخرى فى كتاب حمل عنوان «بورسعيد .. ايام المقاومة ..حكى هاجوج أنه بعد ساعة واحدة من توزيع السلاح كان رجال ونساء واطفال بورسعيد يقيمون المتاريس فى الشوارع حاملين أسلحتهم . أما أعضاء حدتو (الموحد الآن) فكان من بينهم - الى جانب هاجوج - سعد عبداللطيف واحمد شوقى المرجاوى وغيرهما ، وانطلقوا يجوبون شوارع المدينة باحدى سيارات مصلحة السواحل لتنظيم الناس وتوجيههم نحو اماكن تجمعات العدو فى الملاحة والجميل والساحل كما استعانوا بعربات النقل لتوجيه الناس بأسلحتهم نحو تلك التجمعات وفى الوقت نفسه الوقوف ضد الشائعات التي كانت قد بدأت تغزو المدينة. فالطابور الخامس شرع فى العمل !

وقبل الغزو باربع وعشرين ساعة كانت هناك محاولة فاشلة للاغتيال تعرض لها محمد على فخرى قرب منزل عبدالمحسن الحفناوى ، حين كان يسير والى جواره ابراهيم هاجوج والمرجاوى، وشاهدوا احد صولات مباحث امن الدولة المعروف لهم واسمه عبدالعظيم، يحمل مدفعا سريع الطلقات وحاول اصطياد فخرى، واطلق بالفعل دفعة رشاش نحوه إلا

أنهٰ نجا باعجوبة ..

في ذلك الوقت كان قد بدأ تنفيذ الخطة بالهجوم الذى شنه الاسرائيليون على سيناء ، واخذ الجرحى الفارون من الجنود المصريين في التوافد على المدينة ، بينما كان متعينا على الاهالى ان يوفروا لهم الطعام والمأوى ويطفئوا الحرائق التى تندلع هنا وهناك ..

فى الليل كانت كل المدافع المدينة قد سكتت بعد أن دمرتها قنابل الطائرات المعادية . وبعد لقاء المحافظ بالقائد الانجليزى لقوات الاحتلال ، تم وقف اطلاق النار وتسليم المدينة ، فيماعدا قوة صغيرة فى بورفؤاد ظلت تقاتل حتى آخر رجل ، وهو قائدها البكباشى توفيق . واذا كانت القوات النظامية التي كانت قليلة اصلا وذات تسليح ضعيف بالقياس لجحافل القوى العظمى ، قد ابيدت بشكل او بآخر. إلا أن المقاومة لم تتوقف. وحتى الهدنة التى عقدها المحافظ قبيل الاستسلام الرسمى لم توقفها لأن سيطرة المحافظ لا تسرى الا على القوات النظامية والأجهزة الحكومية وحدها .. وعلى مدى الايام الستة التالية لم تنجح قوات الاحتلال فى فرض سيطرتها بل ولم تهنأ وتستقر بسبب الكمائن العديدة خصوصا بعد أن توافر السلاح ..

وسرت شائعة فى المدينة ان بولجانين .. احد كبار

المسئولين السوفييت واظنه كان رئيسا للوزراء - تقدم بانذار لبريطانيا وفرنسا مهددا بنقل الحرب الى لندن وباريس اذا لم تتوقف القوات المعتدية وتعود فورا الى بلادها ، وسارت احدى عربات ومصلحة الاستعلامات في شوارع المدينة وعلى متنها رجل يصرخ فى الميكروفون : الروس على الأبواب .. قاوموا . روسيا معنا .. فاندفع الناس راكضين نحو شارع محمد على الممتد من البلاح حتى معسكر الجولف. وعند طريق المعاهدة توقف الالاف ينتظرون القوات الروسية، ومالبثت ان تهادت من بعيد دبابتان تحملان العلم المصرى والعلم الروسى، وانطلق الناس يرقصون بجنون والنساء يزغردن.. لقد كان الامر حقيقيا اذن، وهاهى الدبابات المصرية والروسية اتت لتحرر المدينة ، ولا شك ان الانذار السوفيتى كان جادا ولذلك جاء رد الفعل سريعا، وعندما وصلت الدبابتان الى نهاية شارع محمد علي ، استدارت متوجهة بمدافعها نحو المحتشدين واطلقت قذائفها ..

قتل المئات من الرجال والنساء والاطفال والشيوخ.. كانت خدعة العدو سافلة إلى حد قتل مئات المدنيين الذين كانوا يرفضون الاستسلام . وحسب شهادة محمد على فخرى فان احدى سيارات الاسعاف اعدت فى اعقاب المذبحة ورقد داخلها حسن رشدى مفتش مباحث امن الدولة، ووضعت قدمه

فى الجبس تحت زعم انه مصاب، ومر من امام بوابة اقامتها قوات الاحتلال على اول طريق المعاهدة، بحجة انه ذاهب لاستكمال علاجه في القاهرة . قال فخرى : «وبدت لنا هذه العملية وكأنها نفذت باتفاق وتنسيق كامل مع قوات الاحتلال!!» علامات التعجب لفخرى ..

ويواصل ابراهيم هاجوج شهادته ويذكر ان قائد المدينة سلّم نفسه (ولا أدرى ما إذا كان يقصد المحافظ ام موظف اخر) سلم نفسه، واخذ الناس يخفون اسلحتهم فقد تم الاحتلال الفعلي للمدينة الان والجثث تملأ شوارعها والمدافع والعربات العسكرية محطمة هنا وهناك ، واستولى ضابط المخابرات البريطانية وليامز على مبنى المباحث العامة حيث ترقد ملفات الشيوعيين في الدواليب، وهو ضابط عاش فى المدينة اكثر من عشرين عاما قبل العدوان ويتكلم العامية بطلاقة ويعرف كثيرا من الاهالى وعلى اطلاع كاف على كل التفاصيل.. لذلك عقدوا اجتماعا سريعا توصلوا خلاله الى ضرورة سفر هاجوج وعبد اللطيف وشوقى وفخرى من المعروفين للمباحث العامة والمخابرات الانجليزية للاتصال بالزملاء القياديين فى القاهرة والعودة بخطة جديدة، بينما يبقى غير المعروفين فى المدينة مستمرين فى المقاومة فى ظل الظروف الجديدة ..

لم يكن ابراهيم هاجوج قد تجاوز واحد عشرين عاما فى ذلك الوقت، وكان قد ترك وراءه أمه واخوته دون ان يعرف هل نجا احد منهم من غارات الطائرات المتواصلة التي هدمت واحرقت اجزاء عديدة من المدينة . وعلى شواطىء بحيرة المنزلة التى كان قد وصلها ليلا كان المئات من المهاجرين يتدفقون مع أطفالهم وما تمكنوا من حملة منتظرين المراكب وفى البعيد بدت بورسعيد وهى تحترق وأصوات طلقات الرصاص والانفجارات تتوالى. ومالبثت المراكب ان وصلت ورست بعيدة قليلا عن الشاطىء وعلى الفور خاض المهاجرون فى البحيرة يحملون اطفالهم والماء بلغ خصورهم يتدافعون نحو المراكب التى لم يكن ممكنا لها أن تتحمل اضعاف اضعاف حمولتها فغرق الكثيرون .

على اى حال ، وصلت مراكب المهاجرين في رحلة الجحيم الى المطرية.. فوجدوا من سبقوهم مازلوا يجوسون فى الطرقات باحثين عن مأوى وطعام ، الى أن تمكن احد الضباط من توفير قطار ليتجه الى المنصورة ويحمل المهاجرين بعيدا . وفى الطريق كان القطار يتوقف عند بعض القرى فيصعد الفلاحون حاملين طعاما للمهاجرين ، كما يدعونهم للنزول والاقامة بينهم، ووافقت بعض الاسر بالفعل على النزول فى قرى الحوته والشريفة والطوايرة وغيرها ..

اما ابراهيم هاجوج فقد اتخذ طريقه الى معسكر الحلمية.. وبعد أن تلقى تدريبا عسكريا علي ضرب النار والقاء القنابل اليدوية ، وصل احد رفاقه واخبره انه تم الاتفاق مع ضباط الجيش على السفر الى الزقازيق ثم التسلل الى بورسعيد سرا . وفى الطريق من الزقازيق الى المنصورة ثم المطرية ، بحث ضابط المخابرات مع ثلاثة من الموحد هم ابراهيم هاجوج وشوقى المرجاوى وسعد رحمى تفاصيل المعلومات الواجب الحصول عليها ، سواء عن احتياجات الاهالى والادارة المحلية، او اسماء المتعاونين مع العدو ، او القوات العسكرية المعادية وتوزيعها واماكن تواجدها وغيرها من التفاصيل ..

وبالفعل تخفى هاجوج فى ملابس صياد وصعد الى احد مراكب رجال المقاومة . عند منطقة القابوطى توقف المركب ، وحمل هاجوج احدى القفف على راسه فهو الان مجرد صياد عائد الى بيته ، ولم يشك فيه احد حتى عمه الذى صادفه في الطريق دون ان يتعرف عليه . لم يضيع وقتا طويلا، وبدأ على الفور في تنفيذ المهمة التى كلفه بها ضابط المخابرات، واتصل برفاقه وتوجهوا معا الى مقهى الطناحى، بعد أن اطمأن على امه فى لحظات خاطفة فى بورفؤاد ..

المقهى فى شارع الثلاثين امام سينما الحرية. وكان

الشباب قبل العدوان يفضلونه ، فصاحبه يملك جهاز تسجيل يذيع الاغانى الشهيرة فى تلك الايام، وكانت خلية الموحد فى بورسعيد من بين خلايا الحزب النشطة ، وزادتها المعركة نشاطا. وكما مر في السطور السابقة، كانت مباحث امن الدولة تتابع اعضاء الحزب وتحتفظ بملفات عن نشاطهم، لذلك لا يمكن استبعاد ما ذكره محمد فخرى من قبل حول تعرضه للاغتيال علي يد صول من المباحث مكلف من الجنرال حسن رشدى مفتش فرع مباحث امن الدولة فى بورسعيد وصاحب التاريخ المخزى منذ الانزال المظلى الانجلو فرنسى ..

على أى حال ، التقى اعضاء خلية الموحد مع عدد من شباب بورسعيد فى مقهى الطناحى ، وتحدث اليهم ابراهيم هاجوج عن المهمة التى كان عليهم النهوض بها، وهى رصد قوة العدو العسكرية من خلال الوقوف بالقرب من معسكراته وتجمعاته ورصد حركة العربات وتسجيل علاماتها ، كما وزعهم على المناطق التى سيقومون بالرصد منها ..

فى ذلك الوقت كانت قوات الاحتلال الانجليزى صاحبة الخبرة العريضة ببورسعيد منذ شق قناة السويس ، والخبرة الاعرض منذ احتلالها مصر عام ١٨٨٢ وحتى جلائها الذى لم يكن قد مر عليه الا شهور قلائل ، وكانت هذه القوات تعرض على العمال الذين تحتاج اليهم للعمل فى معسكراتها

اجورا مذهلة ، وعلى الرغم من ذلك رفض العمال بل وخرجت الى الوجود عدة تنظيمات صغيرة للمقاومة كانت تصدر منشوراتها مكتوبة بخط اليد مثل - «اليد السوداء» و «هاتاشاما» .. و «المنتقمون الاحرار».. و «الانتقاميون» ، اما اللجنة العليا للمقاومة الشعبية فكانت تابعة للموحد، ووزعت فعلا منشورا مكتوبا علي الالة الكاتبة طالبت فيها بالامتناع عن العمل أو التعاون بأى صورة مع العدو ..

سأعود مرة أخرى الى ابراهيم هاجوج بعد أن استكمل ماقام به الرفاعى على مشارف بورسعيد ..

□□□

وكما ذكرت سابقا ، كان احمد الرفاعى مسئولا حزبيا عن المقاومة ، وتعامل معه رجال عبدالناصر من ضباط المخابرات بهذه الصفة. كان هدفه الرئيسى هو الانتقال بالمعركة إلى صفوف الجماهير على حد تعبيره، فقد كانت مظاهر المدينة المحتلة قد بدأت تخيم عليها : المنازل المهدمة وجثث الحيوانات المتعفنة فى الشوارع وحظر التجوال من السادسة مساءا حتي السادسة صباحا والتموين على وشك النفاد وجهاز السلطة قد تحلل والدمار فى كل مكان. وفكر الرفاعى فى أن الخطوة الأولى تهريب بعض العناصر داخل المدينة ، وشارك صياد وبحيرة المنزلة بنصيب وافر فى نقل

المقاومين الذين يتخفون فى ملابس صيادين ويتسللون. وكان لابد من اعداد مركز في بورسعيد قريب من البحيرة لاستخدامه لاستقبال المقاومين الذين يدخلون من المطرية الى بورسعيد وتغيير ملابسهم من صيادين الى زى ابناء المدينة العاديين . هذا المركز الذى نسيه كثيرون هو منزل «ام سعيد الضو » البمبوطى . وهى سيدة ضخمة الجثة تجاوزت الستين تجلس امام بيتها الطينى فى اطراف بورسعيد قرب عزبة فاروق تخرط الخيار والبرسيم للبط الذى يرعى قريبا منها. لعبت ام سعيد الضو دورا هاما فى المعركة.وكان رجال المقاومة يمرون عليها، ويقف احدهم أمامها، وبينما تخرج له علبة سجائر وتساومه على الثمن كانت تجيب عن اسئلته وتشرح له كيف يتجه ومن الذى سوف يستقبله. او تشير له للدخول من باب خلفى ليغير ملابسه ويتسلم رسالة او سلاحا. اما ابنها سعيد الضو فكان قد التحق بدوره بصفوف المقاومة بعد أن فقد عمله كبمبوطى بسبب اندلاع الحرب وكان كثيرا ما يختفى بالساعات وعندما يسأله زملاؤه اين يتغيب كان يجيبهم : «كنت مع الحته بتاعتى.. » .. وعموما لم يكن يضيع وقته الا فيما يفيد، وكثيرا ما دعا زملاءه علي وجبات السمك المشوى وقد جهزتها ام سعيد ! .

لم يكن مركز ام الضو هو المكان الوحيد، فقد اختار

المقاومون عددا من الجزر التى تصلح لمراقبة الطيران المعادى وتخـزين السـلاح وتموين القـوارب التى تحـملهم الى داخل بورسعيد . ويتذكر احمد الرفاعى احدى الليالى التي استقل فيـها عـدد من الشيـوعيين والضـبـاط مـركـبا ودليلهم سعـيد الضـو، ووصلت المركب المحملة بالليمـون والطمـاطم والطيـور البـحرية الى عزبة فاروق حيث كان الجنود الانجليز يحرسون المنطقـة ، وحـتى يتـمكنوا من المرور عـبـر نقطـة الحـراسـة، عـرضـوا مـا يحملونه فى المركب علي الانجليز للبيع واخـذوا يسـاومـونهم على السعـر . ولاحظ الرفـاعى إن مـعظم اولئك الجنود شبـان صـغـار السن وربما لايتـجـاوز سن اكبـرهم العشرين عاما، وما أن يبدأوا فى مناقشتهم حتى تختفى من وجوههم مسحة العدوان مؤقتا..

واذا كـانت خليـة الموحـد قد أسـهـمت في اتخـاذ ادارة السـجن قـرارها بالافـراج عن السـجنـاء بعد الـهـجـوم عليـه الطيـران المعادى، إلا أن مـحنة الاحـتـلال وحدت بين الجـميع. وفى نهاية الامر بورسعيد مدينة تحت الاحتلال بيوتها مهدمة وبلا سلطة ولا تموين ولا صـحـافـة ، وكراهـية ابنـائـها لرجـال الحكومـــة ازدادت بعـــد أن تخلوا عنهم ولاذوا بالفـــرار ، وخصـوصـا مـفتش المباحث الذى هرب تـاركـا اوراقه للقوات البريطانية تعبث بها كما تشاء !.

ثم قرر عدد من الشيوعيين الذين يقودهم الرفاعى دخول المدينة. وحتى يمكن تصور ماجرى ، فإن خلية الموحد داخل بورسعيد حرصت على استمرار قناة اتصال منتظمة بينها وبين القيادة علي الجانب الاخر من المنزلة ، والتى تشكلت من الرفاعى - القيادى المركزى - ومعه عدد اخر من شيوعى الموحد ممن كانوا يعملون فى تنسيق وتعاون تام مع ضباط المخابرات والصاعقة ..

وهكذا ، فإن دخول الرفاعى ورفاقه كان استجابة لرسائل الداخل التى طلبت بالحاح ان يلحق بهم من تيسر من رفاقهم داخل المدينة .. وهكذا دخل سعد عبداللطيف والفنان عبدالمنعم القصاص وشكرى عبدالوهاب وعبدالسلام الخشان، ولم ينس القصاص ان يحضر معه مواد واكلشيهات لمجلة «الانتصار » التي كانت ضرورية الي اقصى حد . والشيوعيون . كما هو معروف - أكثر القوى السياسية ادراكاً لأهمية الكلمة ، وللدور الذى يمكن ان تلعبه مجلة فى صفوف الناس ..

اختار الرفاعى ورفاقه بعض بيوت الحى الافرنجى للسكن. لأن أغلب القاطنين فى الحى من الاجانب او من الاغنياء الذين لا تشك فيهم قوات الاحتلال. وبعد فترة قصيرة تمكنت المجموعة من تشكيل جبهة متحدة انبثقت عنها لجان

فرعية من حاملى السلاح لاستنزاف العدو بعمليات محدودة ولجنة للتموين تضم .. قدر الامكان . من لهم خبرة سابقة في هذا المجال لمكافحة خلق سوق سوداء، وفى الوقت نفسه عدم وصول اى سلعة للعدو. اللجنة الأخيرة مثلا استطاعت ان تصدر نشرة يومية تعلق في أماكن عديدة فى المدينة تحدد اسعار السلع، او تنشرها فى مجلة الانتصار التى صدرت فيما بعد ، كما تمكنت من مراقبة الباعة والسوق عموما. ولأنها حرب ، بكل بشاعتها ولا انسانيتها حدث أن قام احد التجار ببيع الكيروسين لقوات الاحتلال متحديا قرارات لجنة التموين وللحصول علي مكاسب ضخمة، وكان رد ابناء الحى هو ربطه بالحبال ، ثم صبوا عليه الكيروسين واحرقوه حيا..

من جانب آخر، وقبل أن ينجح ابناء الموحد في اصدار الانتصار ، كانوا يصدرون منشورات شبه يومية ونداءات لتوحيد الفصائل المختلفة والاستفادة من جهود اللجان والنوادى وخصوصا النادى النوبى واليونانى وفروع اللجان النقابية وغيرها ..

وفى ذكرى مرور عام على العدوان .. عام ١٩٥٧ ، وقبل ان تشحب الوقائع والاحداث في الذاكرة ، اصدر احمد الرفاعى وعبد المنعم شتلة كتابهما الصغير «أيام الانتصار» واوردا فيه نص اول منشور اصدرته اللجنة العليا للمقاومة

الشعبية بعد مرور عشرة ايام فقط على احتلال المدينة. ولأهميته التاريخية سوف اورد نصه :

«منشور رقم (١)

ايها المواطنون .

أن الاستعمار بالاعيبه وأساليبه القذرة يريد من طبقتنا العاملة المصرية التى كافحت طويلا من أجل التحرر والقضاء علي الاستعمار والمستعمرين يريد منها ان تعمل لديه. إن الاستعمار في ذلك واهم اذ ان طبقتنا العاملة التى لقنت الاستعمار درساً لن ينساه فى ثورة ١٩١٩ وفي حركة ١٩٥٢ وفى معركة أمس التى مازال دماء شهدائها ساخنا لم يجف.. لن تقاطع الاستعمار فحسب بل هى تنتظم الصفوف للقضاء علي المستعمر الغاشم إن الطبقة العاملة المصرية تبيح دم من يتعاون مع المستعمر ..

وانتهى المنشور الي النداء التالى :

«ايها المواطنون .

كونوا لجان المقاومة الشعبية في كل مكان من أجل القضاء علي الاستعمار واعوانه الخونة.. عاش كفاح الطبقة العاملة المصرية.. يسقط الاستعمار الانجلو فرنسي».. وتوالت البيانات ومن بينها البيان الهام الذى اعلن دمج جميع لجان المقاومة الشعبية فى لجنة موحدة تحت اسم «جبهة المقاومة

الشعبية المتحدة ببورسعيد» ..

من جانب اخر ، تضمن كتاب ايام الانتصار نصوص بيانات هامة أخرى مثل بيان اللجنة النوبية للمقاومة الشعبية وبيان اللجنة السودانية لمقاومة الاستعمار ، وبيان من جبهة العمال للمقاومة الشعبية، كما انضم الى الجبهة عناصر من اليونانيين ومنها جماعة ايوكا المطالبة بتحرير قبرص، واستفاد الاخيرون تحديدا من حسن ظن المحتلين بهم، وبفضلهم امكن تأمين وصول تقارير عسكرية دقيقة ومفصلة للمخابرات المصرية .

كانت مجلة الانتصار أحد أهم الادوات التي اعتمدت عليها المقاومة ، وكانت التطور الحاسم التالى لنجاح المقاومة فى اصدار منشورات وبيانات. فى البداية اتجه التفكير الي طباعتها خارج بورسعيد ثم تهريبها الى الداخل ، إلا أن المخاطر الأمنية المحيطة بالطريق الطويل وانتشار جنود الاحتلال أدى إلى أن تطبع داخل بورسعيد ، وبالفعل وصل الفنان عبد المنعم القصاص الى المدينة ومعه اكليشيهات المجلة، اما البحث عن مطبعة تقبل المخاطرة فلم يكن مستحيلا، فالمدينة بكاملها ترفض الاحتلال وبالفعل التقى ممثلو المقاومة بـ «مخاوف» صاحب المطبعة الذى سوف اتحدث عنه لاحقا ، والذى رفض تقاضى أجر عن الطباعة ،

فالمعركة - كما قال لهم - معركة الجميع . وبعد طباعة العدد الأول ، توصلت مخابرات الاحتلال إلى مكان المطبعة ، واعتقل مخلوف ومعه عامل بالمطبعة وأحد الرفاق .

□□□

أما إبراهيم هاجوج فيواصل روايته مقرراً أنه فى أعقاب صدور قرار الأمم المتحدة بانسحاب المعتدين ، طبعت الجبهة منشوراً يطالب الأهالى باليقظة وألا يستكينوا للقرار ولابد من الاستمرار فى المقاومة . كما قررت أن تستقبل وصول قوات البوليس الدولى إلى بورسعيد بمظاهرة . وبالفعل جرى حشد الناس ولصق صور عبدالناصر على لوحات خشبية ، وعمل لافتات من القماش مكتوب عليها : يسقط الاستعمار ، عاش جمال رمز المقاومة ، الموت للمعتدين .. الخ بالفرنسية والانجليزية والعربية .

وفى اللحظة التى وصلت فيها قوات البوليس الدولى ، كانت المدينة مستعدة تماماً للمظاهرة التى شارك فيها المئات، وسارت فى شارع مصطفى كامل في اتجاه القناة ، ثم توجهت إلى شارع فؤاد واستمرت حتى شارع كتشنر على البلاج ثم ميدان المحافظة حيث تراصت صفوف من جيش الاحتلال ومعهم دباباتهم ومدافعهم يصوبونها ناحية المتظاهرين . التهب الموقف بشدة ، فجيش الاحتلال أخذ

وضع الاستعداد لإطلاق النار ،وتلكأت المظاهرة وخفتت قليلاً هتافات المتظاهرين .

انفرج الموقف عندما فاجأ الجميع صبى صغير لايزيد عمره عن أحد عشر عاماً يحمل صورة فى اطار مذهب لجمال عبدالناصر ، واخترق الصفوف حتى وصل إلى المكان الذى يقف فيه حملة الأعلام واللافتات ، وتحمس الناس له ورفعوه على أكتافهم ليهتف بصوته الرفيع الطفولى .. وهكذا عادت المظاهرة للانتظام وسارت فى شارع محمد على حتى وصلت إلى تقاطع شارع الثلاثينى .

وهنا اخترقت المظاهرة سيارة صفراء تسير بسرعة هائلة انطلق من داخلها الرصاص وهربت على الفور ، فتفرق البعض من حالة الذعر التى سادت ، ومالبث الموقف أن انجلى عن إصابة طفلين : الأول حسن محمود الذى كان يهتف محمولاً على الأعناق وزميله محمد رضوان .

حمل مجموعة حسن ومجموعة أخرى محمد رضوان وانطلقوا يجرون بهما وهما ينزفان فى اتجاه المستشفى الأميرى ، إلا أن جنود الاحتلال سدوا الطريق آخذين وضع الاستعداد لضرب النار ، فغيرت المظاهرة طريقها إلى شارع فاروق ، وطال الوقت والمظاهرة تحاول الوصول إلى المستشفى ، وعندما وصلت أخيراً ، مات حسن محمود بعد

أن نزف طويلاً .. وعلى الرغم من الألم والهلع الذى أصاب الأهالى وأشعل الغضب والرغبة فى الانتقام فى قلوبهم ، إلا أن وقت حظر التجول كان قد اقترب .

وفى اليوم التالى أعلن الأضراب العام وأغلقت جميع المحلات والمقاهى على الرغم من الأنذار الذى وجهته قوات الاحتلال بفتح المحلات بالقوة ومصادرة ما فيها ، إلا أن الاضراب استمر طوال اليوم .

وكما يقرر إبراهيم هاجوج وصل من القاهرة كادر ثورى من الشيوعيين يضم «سعد رحمى وأحمد الرفاعى وأحمد شوقى وسعد عبداللطيف وعبدالمنعم شتلة وعدد آخر من الزملاء» فبدأت مرحلة جديدة من العمل . وبعد تشكيل الجبهة تعددت كمائن الفدائيين ، كما واصل أطفال بورسعيد الشياطين مسخرتهم لقوات الاحتلال من خلال تشكيل مجموعات تلعب لعبة الدورية مقلدين المحتلين ، فيعلقوا عصا من الخشب على أكتافهم كأنها بنادق ، ويرتدون الجلابيب ويضع بعضهم على رأسه طبق صاج كأنه خوذة أو علبة سلمون على أذنيه كأنه لاسلكى .. الخ .

أما حادث اغتيال ضابط المخابرات الانجليزية وليامز فكان أحد أكثر الأعمال الفدائية خطورة وتأثيراً ، ليس فقط

لأنه المسئول الأول عن المخابرات خلال العدوان ، بل أيضاً لأنه سبق له العمل في بورسعيد حيث أقام عشرين عاماً قبل العدوان ، ولذلك لم يكن يجيد العربية فقط بل اللهجة البورسعيدية أيضاً وكان على معرفة دقيقة بالمدينة بالطبع .

واستطاع ولیامز لهذه الأسباب أن يصل إلى عيادة الدكتور جلال الزرقاني والمختبيء فيها سبعة ضباط من الصاعقة واعتقلهم ، كما توصل إلى عيادة الدكتور جودة المختبيء فيها عدد آخر من الضباط واعتقلهم .

وأثناء جولة ولیامز بسيارته التي يقودها بنفسه في شوارع بورسعيد بكل ثقة وصلف ، ألقى على سيارته الچيب شاب لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره ويعمل بائع صحف قنبلة يدوية . أصيب ولیامز إصابة قاتلة ، وعلى الرغم من نقله في طائرة هليكوبتر إلى قبرص للعلاج ، إلا أنه مات فور وصوله . ويذكر محمد على فخرى في شهادته رواية مشابهة ولا تختلف إلا في نهايتها . فبعد خطف ولیامز أعدمته المقاومة في فناء منزل قيل أنه منزل محمود أبوالغيط ، ثم وضع في نعش وسارت به جنازة تحت أبصار قوات الاحتلال إلى الحى العربى وهم يرددون :

«لا إله إلا الله محمد رسول الله» حتى دفنوه بالفعل !

ويحكى إبراهيم هاجوج الذى شارك فى طباعة «الانتصار» لسان حال المقاومة الشعبية :

«نشط الزملاء فى جمع الأخبار للمجلة ، وتكونت هيئة تحرير من الزملاء أحمد الرفاعى وعبدالمنعم القصاص وصلاح دهب . جمعت المواد وقدم مخلوف مطبعته لتقوم بطبع المجلة . اتفقنا أن يقوم منير موافى مع صبى المطبعة بطبعها ليلاً بعد حظر التجول حيث أغلقت باب المطبعة وهما بداخلها. وذهب القصاص والرفاعى إلى المطبعة عصر اليوم الذى تقرر أن تطبع فيه المجلة للإشراف النهائى ، وخلال وجودهما هاجم المطبعة ضابط انجليزى ومعه ستة جنود مسلحين ، وبمجرد دخولهم مثل مخلوف دوراً رائعاً : دور الرجل الغاضب الذى بطرد زبائنه وأخذ يصرخ بصوت عال :

«مش فاضى .. مش ها اشتغل ..» .

واستطاعا الإفلات بتلك الطريقة ، إلا أن الرفاعى لم ينس أن يدس فى جيبه أثناء خروجه أكليشيه المجلة الذى كان موجوداً على المنضدة . تم القبض على مخلوف بطبيعة الحال وإغلاق المطبعة بعد اتلافها . وحسبما روى أحمد الرفاعى وعبدالمنعم شتلة فى «أيام الانتصار» ، وكمال القلش فى «بورسعيد .. أيام المقاومة» فإن التحقيق استمر ليلاً ونهاراً

مع مخلوف ومن معه ، وتحملوا ضراوة تحقيق المحتلين وتهديداتهم ولم يعترفوا ، بل أن العدد التالى من الانتصار حمل نص الرسالة التالية من مخلوف :

تحيتى إليكم أيها الزملاء المناضلون . بل أيها الجنود الساهرون الباذلون للدماء والأرواح فى سبيل الحياة الكريمة» كنت أقوم بدورى الذى تسمح به طاقتى المحدودة فى تلك المعركة الجبارة التى تجلت خلالها روعة البطولة الكامنة فى هذا الشعب المجيد . كنت أشارك أخوانى الجنود المجهولين فى ناحية من مجهودهم العريض فى إخراج الانتصار حتى فوجئت بهجوم غادر من هؤلاء المعتدين الغادرين على المطبعة وعمالها وآلاتها وحروفها وورقها . ولم يكن ضبط هؤلاء الغادرين لهذه الأشياء صادر عن دقة فى مخابراتهم كما زعمت إذاعتهم ضمن تهويشها ولكن الفضل فى وصولهم إلى بغيتهم هو صورة الغدر التى اتخذوها طابعاً لهم . فكلنا يعلم أنهم أعلنوا أنهم سينسحبون بمجرد وصول القوات الدولية مما بعث فى تصرفاتنا شيئا من الطمأنينة ظناً منا أن هؤلاء الغادرين قد كفوا أيديهم عن هذه المدينة التى لم تلن ولن تلن قناتها مهما قابلها . كنا نقوم بدورنا هذا منذ بداية المعركة حتى قبضت القوات المعتدية علينا وقادتنا إلى مركز التحقيق

وتركتنا مدة ثلاث ساعات تحت المطر الغزير والهواء اللاسع جيث بدأت معنا سلسلة من التحقيق والتهديد» .

أما آخر جملة كتبها مخلوف فى نهاية رسالته :

«البقية فى العدد القادم» .

كان إبراهيم هاجوج شاهداً أيضاً على خطف ضابط انجليزى صغير السن يستمد أهميته من قرابته للأسرة المالكة البريطانية واسمه «مورهاوس» . كان خطفه ضمن خطة وضعتها الجبهة بعد القبض على عدد من الضباط المصريين تتضمن خطف مايتيسر من الضباط الانجليز واتخاذهم رهينة للإفراج عن الضباط المصريين .

وأسفرت مراقبة مورهاوس عن اكتشاف أنه جاء مع قوات الغزو لأشباع هوايته فى التصوير !! لذلك كان يتجول طوال الوقت بسيارته ومعه كاميرا يلتقط بها مايروق له من الصور !

وفى أحد الميادين القريبة من شارع الثلاثين اعترض طريقه صبى صغير يركب دراجة ويحمل على رأسه طاولة عليها أرغفة الخبز ، وقبل وصول سيارة مورهاوس ارتبك الصبى وسقط بدراجته وتبعثرت أرغفة الخبز ، فتوقف مورهاوس بسيارته ، وانقض عليه عدد من الشباب واختطفوه إلى منزل قريب .

حاصرت قوات الاحتلال المنطقة يومين وفتشوا البيوت بيتاً وراء الآخر ، فاضطر الخاطفون لوضعه داخل صندوق وأغلقوا عليه ، ظناً منهم أن الحصار لن يستمر طويلاً ، غير أن الحصار طال ، ومات مورهاوس داخل صندوقه ، وكان ضابط البوليس المصرى اليوزباشى عز الدين الأمير هو الذى نظم تلك العملية الباهرة .

ملحمة بورسعيد للأسف الشديد لم تسجل بالتفصيل إلا فى مصادر محدودة ، ربما لأنها المعركة التى قام فيها الشيوعيون بالدور الرئيسى لعل ذروتها تحققت فى المظاهرة التى تقرر القيام بها عندما وزعت الجبهة منشوراً يدعو الناس للتظاهر من جامع الرحمة ، كما اتصلت الجبهة بالكنائس لحضور القسس ويتصدروا المظاهرة مع المشايخ وخطباء المساجد ، لكن أحد كبار الموظفين اتصل بابراهيم هاجوج وطالبه بمنع المظاهرة ، ثم قابله أمام باب الجامع وكرر طلبه بمنع المظاهرة ورفض طلبه مرة أخرى ، بل أن المحافظة حاولت منعها بشتى الطرق وأرسلت قوات بوليس مصرية محمولة على عربات لورى ووقفوا حول المسجد مع القوات البريطانية !

وعلى الرغم من كل تلك الاستحكامات خرجت المظاهرة عندما تقدمت امرأة كبيرة فى السن حملت العلم وتقدمت به

وسارت خلفها مظاهرة صامتة ضمت عدداً قليلاً أول الأمر ، إلا أنها راحت تكبر وتنمو وينضم إليها العشرات ثم المئات وبلغ عدد من شاركوا فيها نحو ١٥ ألفا من الرجال والنساء والأطفال ومشايخ الجوامع والقساوسة إلى أن وصلت إلى المقابر حيث خطب فيهم الرفاعى باسم الجبهة قائلاً :

الأم تقسم أمام قبر ابنها الشهيد .

الأب يقسم أمام قبر ابنه الشهيد .

الزوج يقسم أمام قبر زوجته .

الزوجة تقسم أمام قبر زوجها .

الصديق يقسم أمام قبر صديقه .

وفى مساء هذا اليوم تحديداً تم تحطيم قرار حظر التجول!

□□□

تلك هى باختصار المأثرة الكبرى ، وماسبق مجرد قطرة من بحر المقاومة المتلاطم والدور الذى لعبه شيوعيو الموحد أساسى وحاسم أثناء وبعد الغزو ، بل أن السلاح الذى كان فى يد الأهالى - كما يقول محمود أمين العالم - تم جمعه وتسليمه للجيش بعد جلاء الاحتلال بمساعدة شيوعيى الموحد .. إلا أنه لم يمض وقت طويل إلا وتواصل مرة أخرى اعتقال الشيوعيين وتعذيبهم ، غير أن تلك قصة أخرى !


صفحة فارغة

(١١)

كان غريباً أن يختار جمال عبدالناصر يوم ٢٣ ديسمبر ١٩٥٨ - عيد النصر - ليبدأ معركته الضارية ضد الشيوعيين والزج بهم فى معسكرات اعتقال دامت خمس سنوات . فى هذا اليوم تحديداً كان قد مر عامان على موافقة عبدالناصر على العمل المشترك مع الشيوعيين أثناء العدوان الثلاثى على النحو الذى سبق ذكره فى الصفحات السابقة . وبعد أيام قليلة، وفى الساعات الأولى من فجر أول يناير ١٩٥٩ انطلقت قوات الأمن فى وقت واحد وفى كل أنحاء مصر للقبض على كل الشيوعيين (ومن بينهم عدد آخر من الرموز الوطنية والديمقراطية المعروفين) بلا استثناء فى أوسع تجريدة فى تاريخنا الحديث .

وهكذا يمكن القول أن المرحلة الممتدة منذ وحدة الموحد (الذى شكلت حدتو جسمه الأساسى ، فضلاً عن أن أغلب المنظمات الصغيرة المنضمة للموحد هى بشكل أو بآخر امتدادات وانقسامات عن حدتو) هذه المرحلة امتدت حتى أول يناير ١٩٥٩ ، بينما تشكل الفترة التالية ، أى من يناير ١٩٥٩ وحتى خروج الشيوعيين من معسكرات الاعتقال بعد خمس سنوات مرحلة أخرى . بطبيعة الحال ليس هناك سور صينى عظيم يفصل بين المرحلتين ، إلا أن الأحداث والوقائع

التى جرت فى تلك الفترة، سواء على المستوى المحلى داخل مصر أو عربياً أو دولياً تشير إلى ذلك .

من جانب آخر ، جرت خلال المرحلتين أبشع عمليات التعذيب وأكثرها انحطاطاً تجاه كل خصوم نظام يوليو ، واستهدفت بوضوح سافر القضاء على الإرادة وليس مجرد معاقبة أولئك الخصوم ، بل تحطيمهم واستباحتهم .

إن ما ارتكبه نظام يوليو فى تلك الفتره لايمكن نسيانه ويجب إحياء ذكراه دائماً ، وإعادة كتابة وقائعه والعمل على إبقائه حياً على الدوام ، خصوصاً وأنه تكرر على هذا النحو أو ذاك سواء أثناء حكم السادات أو مبارك ، على الرغم من خصوصية كل عهد بطبيعة الحال واختلاف الخصوم .

سوف أتناول فى الفصل التالى الوقائع والأحداث التى تضمنتها الفتره من عام ١٩٥٦ فى أعقاب دحر العدوان الثلاثى والدور الذى لعبه الشيوعيون ، وفى مقدمتهم رفاق الموحد (أى حدتو بالأساس) وحتى أول يناير ١٩٥٩ حينما انقضت التجريدة لترسم ملامح المستقبل السياسى لمصر بل والمنطقة العربية .

كنت قد ذكرت من قبل أن عام ١٩٥٥ شهد وحدة حدتو مع «النواة» و«طليعة الشيوعيين» و«النجم الأحمر» و«التيار الثورى» ، وبقى خارج الوحده المنظمتان الكبريان «الراية»

و«طليعة العمال» ، فضلاً عن عدد من المنظمات الصغيرة لعل أهمها «طليعة الشعب الديمقراطية» التى ضمت عناصر رافضة لوحدة الموحد من النواة وغيرها من المنظمات .

ومع دحر العدوان الثلاثى ، تألق نجم الناصرية كإحدى القوى الأساسية فى العداء للاستعمار ، فى الوقت الذى كانت فيه حركة التحرر الوطنى والبلدان الاشتراكية تحقق انتصارات متتالية على المستوى الدولى .

داخلياً كان قد تم تنفيذ الإصلاح الزراعى الأول ومصادرة أراضى الإقطاعيين وتوزيعها على الفلاحين (على الرغم من الأخطاء العديدة التى شابت التطبيق) ، وعالمياً جرت أوسع مواجهة مع الاستعمار وتفاقمت الصدامات حول الأحلاف العسكرية التى كانت الولايات المتحدة تسعى لإقامتها فى مواجهة حركة التحرر والاشتراكية ، كما عقد مؤتمر باندونج الذى أعلن بروز قوة جديدة على المسرح السياسى الدولى وعناصرها الأساسية البورجوازيات الوطنية فى الأمم المستقلة حديثاً والمعادية للاستعمار والمدعومة من الاتحاد السوڤيتى وبلدان المعسكر الاشتراكى وفور انسحاب قوات الغزو والاستعمار من قناة السويس ، أعلن إلغاء المعاهدة المصرية البريطانية ، ثم بدأت على الفور إجراءات تمصير الشركات والبنوك الأجنبية .

وفى الوقت الذى كانت الناصرية تحقق فيه مثل هذه الخطوات المتقدمة ، كان الشيوعيون أيضاً يبدأون أولى خطواتهم نحو الوحدة ، ليس فقط بسبب نجاحهم فى انجاز وحده الحزب الموحد عام ١٩٥٥ ، بل أيضاً بسبب سياسة معاداة الاستعمار والانضمام لحركة عدم الإنحياز وكافة الخطوات التقدمية والتحررية السابق الإشارة لها من جانب ثوار يوليو .

ويمكن القول باطمئنان ، وطبقاً لأغلب المصادر المتاحة أن القواعد والكوادر ضغطت بقوة من أجل إنجاز الوحدة ، فقد كان المسرح السياسى العالمى والمحلى مهيئاً لطرح تلك الفكرة والالتفاف حولها . وفى هذا السياق أود الإشارة إلى بداية انطلاق ذلك السيل الهائل من التنظيرات والتحليلات التى تناولت الثورات الوطنية المعادية للاستعمار فى بلدان العالم الثالث باعتبارها حليفاً للقوى الاشتراكية ورصيداً جديداً لها ، مما كان يعنى ضرورة انضمام الشيوعيين لها والعمل فى صفوفها .

كما أود الإشارة أيضاً إلى أن الخلافات النظرية والسياسية بين المنظمات الشيوعية القائمة وقتذاك (الموحد والراية وطليعة العمل) لم تحل دون الاتجاه للوحدة بينها ، لأن هناك متغيراً جديداً ومختلفاً هو سلسله المواقف الوطنية

والتقدمية من جانب نظام يوليو ، بل ان السكرتير العام للحزب الشيوعى المصرى (الراية) كشف في نهاية عام ١٩٥٧ عن شخصيته وهو الرفيق خالد تدعيماً للثقة فى النظام الوطنى، وعرف الجميع أنه د. فؤاد مرسى . وفى أغسطس ١٩٥٦ تشكلت لجنة تنسيق ثنائية بين الموحد وطليعة العمال ، ثم أنضم إليها مندوب الراية . وفى يناير ١٩٥٧ أصدر الموحد وثيقة تتضمن محاضر اجتماعات لجنة التنسيق الثلاثية . وطبقاً لتلك المحاضر نعلم أن طليعة العمال كانت تتلكأ وتملى شروطها قبل إنجاز الوحدة ، لذلك تمت الوحدة أولاً بين الموحد والراية ، وصدر بالفعل المنشور الأول للحزب الشيوعى المصرى المتحد فى أول يونيو ١٩٥٧ فى أعقاب تشكيل لجنة ضمت مبارك عبده فضل (الموحد) وسعد زهران (الراية) أتمت الدمج بين المنظمتين . أعلن المنشور :«بشرى انتصار تاريخى جديد» ، ولم يزف تلك البشرى للطبقة العاملة فقط ، بل ولحلفائها فى «الجبهة الوطنية المعادية للاستعمار والحرب» وهو تعبير مجازى فلم تكن هناك جبهة حقيقية على أرض الواقع ، ولم يحدث أن وافق حكام يوليو على العمل المشترك إلا فى لحظة نادرة هى لحظة الغزو الاستعمارى الثلاثى لبورسعيد . ولم يكتف البيان بذلك ، بل أنه زف البشرى أيضاً «للبورجوازية الوطنية التى اختارت السير بصلابة فى طريق

ثورتنا الوطنية ورئيس جمهوريتنا البطل جمال عبدالناصر» وأضاف أيضاً «وسيواصل حزبنا المتحد بذل كل طاقة لإتمام الوحدة مع حزب العمال والفلاحين الشيوعي المصرى .. وأملنا كبير فى أن تتحقق هذه الوحدة فى المستقبل القريب» .

وبغض النظر عن تفاصيل عديدة حول العدد الحقيقى لأعضاء كل منظمة ، والتمثيل النسبى لكل منهما فى اللجان المختلفة ، إلا أن العداء القديم اللامبدئى بين المنظمتين وعدم الثقة المتبادل لعب الدور الأكبر (ولا ننسى أن مرض الانقسام والشرذمة والحلقية كان متأصلاً فى جسم المنظمات المختلفة منذ الأربعينات كما سبق الإشارة) .

وفى العام نفسه خاض المتحد معركة انتخابات مجلس الأمة وتقدم إليها عدد كبير من المرشحين الشيوعيين ، إلا أن النظام اعترض عليهم ومنعهم من الترشيح ، ومع ذلك أفلت د . فايق فريد وفاز فوزاً ساحقاً عن دائرة جزيرة بدران ليصبح أول نائب شيوعى فى البرلمان . وعلى الجانب الآخر ، وفى دائرة الوايلى دارت المعركة التى كانت أول اختبار الوحدة المنظمتين . ويميل رفعت السعيد فى كتابه «تاريخ الحركة الشيوعية ١٩٥٧ - ١٩٦٥» لأن تلك المعركة كانت تدبيراً استهدف استنفاد طاقة الحزب الوليد واشغاله خلال المعركة الانتخابية بمعركة شرسة بين بعضه البعض . وحسب تعبيره

«مصيدة» حيث تمت موافقة النظام على ترشيح د. عبدالعظيم أنيس وعبدالعزيز مصطفى . الأول جاء من الراية كما هو معروف ، والثانى نقابى معروف له علاقة تاريخية بحدتو .

بكلمة واحدة فإن ما جرى كان «جنون» ! كيف عجز الحزب المتحد عن حسم مثل ذلك الأمر البسيط ! وكيف ترك تلك المعركة تصل إلى حد عدم اتخاذ موقف وترك الأعضاء «أحرار» في التصويت لمن يشاءوا ؟ وماذا فعلت اللجنة المركزية للحيلولة دون الوصول إلى ذلك التناقض ؟ .. هذه الأسئلة وغيرها كشفت عن هشاشة الوحدة وربما شكليتها .

وعندما فاجأ النظام الشيوعيين بإحياء قضية شيوعية قديمة كان قد مضى عليها نحو ثلاث سنوات وتقديم ١٨ من المتهمين للمحاكمة ، تحدث منشور أصدره الموحد عن أن هناك «عناصر رجعية في داخل جهاز الدولة والصحافة» .. ومن هنا خرجت تلك «التنظيرة» البائسة ، والتي كانت من أكثر الخطايا تدميراً للحركة الشيوعية بكاملها وليس المتحد فقط ، ومفادها أن جهاز الدولة والحكم ليساشيئاً واحداً بل أجنحة متعددة ، وكل جناح يستطيع أن يزقزق ما يشاء من أغاني وألحان !! وأن واجب الشيوعيين هو الدفاع عن والتحالف مع الجناح المتقدم وقائده جمال عبد الناصر !!

ويكفى أن نقرأ جانباً من وثيقة وردت فى نشره «حياة الحزب» وهى النشرة الداخلية للمتحد ولا يقرؤها إلا الأعضاء فقط لإدارة الصراع الفكرى فيما بينهم وأعاد نشرها السعيد فى كتابه سالف الذكر .. فمعركة مجلس الأمة مثلا .. معركة أخرى فى سلسلة معاركنا الوطنية ضد الاستعمار وأعوانه وأنها تتويج جديد لكفاحنا الديمقراطى من أجل أن تتولى الأمة والطبقات الشعبية حكم نفسها بنفسها» . أما اعتراض النظام على المرشحين الشيوعيين فتجد النشرة مبرره فى أن الحكومة تعجلت إجراء الانتخابات وليس فى البلاد تنظيم سياسى يضم الوطنيين ويوعيهم وينظمهم ويخوض بهم المعركة الانتخابية» فتأمل ! بل «وليت الحكومة وحدها هى المقصرة وإنما يقع على الشيوعيين جانب كبير من المسئولية (!!) فقد عجزوا من قبل عن جعل قضية تكوين الاتحاد القومى (التنظيم السياسى الذى أنشأه حكام يوليو خلفاً لهيئة التحرير ، ويستطيع القارىء أن يجد امتداداته فى الاتحاد الاشتراكى ثم حزب مصر وأخيراً الحزب الوطنى الديمقراطى) بوصفه شكلاً تنظيمياً للجبهة الوطنية قضية جماهيرية تستجيب لها الحكومة ، كما اندفعوا المعركة غير موحدين بل متضاربين منتهزين الفرصة السانحة لاستعراض قواهم وفرض نفوذهم على البورجوازية (!!) غير مدركين

لعواقب هذا الاتجاه عند الاستعمار لاستخدامه لها لتخويف الفئات المتخلفة ، وتهديد الفئات المتقدمة من البورجوازية الوطنية .. لقد ساعدت اخطاؤنا الخطأ الأصلى للبورجوازية» فتأمل !!

أود أن أفتح هنا قوسا هنا وأنقل عن أحمد حمروش ما ذكره وهو أن الاتحاد القومى اعترض على ترشيح ١١٨٨ من أصل ٢٥٠٨ تقدموا ، كما تم إغلاق ٤٣ دائرة على أشخاص محددين ، وتم الاعتراض على حمروش نفسه رغم أنه كان يشغل فى ذلك الوقت عدداً من المناصب الرسمية !!

وإذا كانت لجنة التنسيق لتوحيد المنظمات قد بدأت ثنائية بين الموحد طليعة العمال وفقاً لرواية أحد أعضائها مبارك عبده فضل ، فإن انضمام الراية للجنة فيما بعد أسفر عن اندماج الراية والموحد ، بينها بقيت طليعة العمال خارج السرب . ويعد ضغوط وتدخلات من جانب الرفاق فى الحزب الشيوعى الإيطالى والعراقى وكذلك ضغوط الكوادر الوسيطة والقواعد ، انضمت منظمة طليعة العمال للوحدة . ويقول حلمى ياسين أحد قياديى طليعة العمال لرفعت السعيد : كانت ثمة ضغوط هائلة .. محلية (الكوادر) وخارجية خاصة من الرفاق الإيطاليين والعراقيين الذين ألحوا وظلوا يلحون ويدفعوننا دفعاً إلى التنازل عن كل مطلب أو شرط نقدمه . بل

لقد وصل الأمر أنهم ألقوا على عاتق ع . ف المسئولية التاريخية لإعاقة الوحدة .. وهكذا استسلمنا . كذلك كان هناك ضغط رهيب من الكوادر وخاصة التى كانت بالسجن . أنا شخصياً غيرت موقفى من مسألة الوحدة بعد أن دخلت السجن والتقيت برفاق المنظمات الأخرى» .

والحقيقة أن الوحدة كان محكوماً عليها بالموت منذ البداية . فالمرارات والعداوات الصغيرة والحلقية والتشرذم - المرض المتوطن - ظل ينخر فى جسد الحلقة الثانية من الحركة الشيوعية منذ بدايتها وحتى نهايتها ، بل وانتقل إلى الحلقة الثالثة فيما بعد .

☐☐☐

على أى حال ، أود التأكيد أولاً على أن تألق نجم الناصرية وصعود خطواتها التحررية وعدائها للاستعمار وتوثيق علاقاتها ببلدان المعسكر الاشتراكى بدءاً بصفقة الأسلحة التشيكية كان من بين الأسباب الرئيسية التى ضخت دماء جديدة من أجل إنجاز الوحدة أولاً بين الموحد والراية فى المتحد ، ثم بين المتحد وطليعة العمال . وكما سبقت الاشارة ، فإن الخلاف الأساسى بين المنظمات الكبرى الثلاث كان كالتالى : الموحد يرى أن الحكم وطنى وينبغى تأييده والتحالف معه ، بينما رأى الحزب الشيوعى المصرى (الراية)

أن الحكم يعبر عن البورجوازية الكبيرة ، إلا أن عواصف التغيرات والتطورات التى قادها عبدالناصر ونظامه أدت إلى سقوط التحليلين الأخيرين ، وأدت أيضا إلى التقدم على طريق الوحدة بين المنظمات الثلاث الرئيسية .

الموحد - امتداد حدتو - أكدت الأحداث سلامة تحليله منذ بداية الانقلاب العسكرى (والواقع أن هذا التحليل كان خاطئاً عندما طرح فى السابق فور قيام الضباط الأحرار بانقلابهم وحتى إنجاز وحدة الموحد) . لم يكن تعبيراً عن الاحتكار ، وشبه الاحتكار ، بل أنه أخذ يوجه ضربات عنيفة للبورجوازية الكبيرة .

أود أولاً أن أؤكد أنه ربما كان سهلاً أن أقرر الآن - وبعد أن جرت فى النهر كل تلك المياه - أن موقفاً ما كان صحيحاً أو خاطئاً ، إلا أن الأمر لم يكن على هذا النحو بينما كانت المعارك دائرة .. ومن المهم أيضا أن أذكر أن حدتو كانت فى الشارع (شأنها شأن طليعة العمال والراية) أى أنها كانت جزءاً أصيلاً ومؤثراً فى الحركة الجماهيرية تخوض غمارها ولا يمكن تصور الحياة السياسية فى مصر بدونها . كل هذا ربما كان بديهياً ، لكننى أؤكد عليه بهدف استعادة المسرح السياسى وقتذاك .

لذلك فإن تحليل حدتو وصل إلى الطرف الأقصى فى تأييد

النظام والتشبيب بالبطل الوطنى جمال عبد الناصر ، واندفعت إلى أقصى حد فى اتجاه التأييد والتهليل لكل الخطوات ، واعتبرت نفسها حليفة للنظام ، حتى أن رفعت السعيد يتيه فخراً - بلا أى مبرر - وهو يتحدث عن سلامة تحليل حدتو التى رأت «وطنية» الانقلاب منذ اللحظة الأولى .

كان المطلوب - فى رأيى - الاستقلال عن النظام (هل كان ذلك ممكناً ؟!) والاحتفاظ بمسافة كافية بينها وبينه وتأييده تأييداً مشروطاً والنظر إلى الجبهة المقترحة معه باعتبارها جبهة تضيق وتتسع تأسيساً على المواقف المشتركة ، والأهم أن حدتو - فى واقع الأمر - لم تلتفت للطابع الديكتاتورى المعادى للديمقراطية لدى الحكم والنظام ، بل إنها قامت بتأجيل أى مطالبة بالديمقراطية لكل التيارات والاتجاهات بلا استثناء . تلك هى الفريضة الغائبة حقاً ! تحقيق الديمقراطية كان صمام الأمان والضمانة بدلاً من الانصياع لما فرضه حكام يوليو فى الاتحاد القومى . أى بدلاً من دخول القفص بقدميك ، كان عليك أن تطالب بتحرير القفص أولاً !!

غير أن حدتو على وجه الخصوص كان من بين أهم تقاليدها ضرورة الانخراط فى الحركة الجماهيرية اينما كانت، والعمل المستمر فى المنظمات والهيئات العلنية واستخدام كل المنابر بلا استثناء واستثمار أى هامش

ديمقراطي وابتداع أشكال وأساليب علنية باستمرار ودون توقف وفي كل المواقع حتي لو أدى هذا إلى مضار أمنية رأت حدتو دوماً أنها الثمن الذى على مناضيلها أن يدفعوه فى السجون والمعتقلات ..

وهكذا غابت الديمقراطية خلف ضباب معركة التحرير الوطنى ..

□□□

كانت تجربة الوحدة بين الموحد والراية ليصبحا معاً الحزب المتحد ، تحمل قدراً لا بأس به من الشكوك القديمة والعداء التاريخي بين المنظمتين اللتين ورثتا أمراض الحلقية المتوطنة ومع ذلك فإن الموقفين السياسيين من الثورة التى كانت في ذروة مجدها قد تطابقا تقريباً من جانب ، كما أن القواعد كانت تضغط بقوة من جانب آخر ، مما عجل بالوحدة قبل توافر الشروط الموضوعية لها : أى المزيد من المناقشات السياسية والفكرية من أجل الوصول لقناعات مشتركة قدر الإمكان . لذلك لم يكن غريباً أن تتضارب المصادر المختلفة حول حجم عضوية كل منظمة ، وبدأ الكلام يتردد مثلاً حول قوائم وهمية قدمتها الراية لتحصل على تمثيل أكبر فى اللجنة المركزية أو المشاكل والمعضلات المرتبطة بعمليات الدمج فى لجان المناطق والأقسام ، وضاعف من ذلك وعضده معركة

انتخابات مجلس الأمة التى تتنافس فيها مرشحان يساريان على دائرة واحدة ، أحدهما ينتمى تاريخياً لحدتو وهو عبدالعزيز مصطفى ، والثانى ينتمى للراية وهو عبد العظيم أنيس .

المثير للدهشة أنه لم يمض إلا قرابة خمسة شهور ثم تمت الوحدة بين المتحد (أى الراية والموحد) وحزب العمال والفلاحين الشيوعيين (الذى كانت المفاوضات قد بدأت به أصلاً) فى ٨ يناير ١٩٥٨ ، بينما بقيت منظمتان صغيرتان هى وحدة الشيوعيين والطليعة خارج الوحدة . وعلى أى حال فهما منظمتان محدودتا النفوذ الجماهيرى .

من جانب آخر ، شهدت تلك الفترة أحداثاً متوالية على المستوى العربى والدولى ، فبعد قرابة شهر على هذه الوحدة بين المنظمات الشيوعية ، تمت وحدة أخرى بين مصر وسوريا . كانت الأخيرة تضغط بقوة من أجل الوحدة مع مصر تحت زعامة جمال عبد الناصر . وإذا كانت هناك مصادر تشير إلى أن الزمرة العسكرية الحاكمة فى سوريا أسرعت بإتمام الوحدة قطعاً للطريق على نفوذ اليسار والحزب الشيوعى الآخذ فى الازدياد هناك ، فإنه من المؤكد أن الوحدة عززت النفوذ السياسى والجماهيرى لعبد الناصر ، بل أن الشعب السورى حمل عبد الناصر بسيارته فى إحدى زياراته ! وفقد

رجال الأمن السيطرة على موكبه تماماً من تدافع الآلاف نحوه !

إلا أن عبد الناصر اشترط أمرين قبل إتمام الوحدة : حل الأحزاب وابتعاد ضباط الجيش عن الاشتغال بالسياسة ، وهو ما أدى إلى توجيه ضربة قاصمة للحزب الشيوعى السورى ، فقد هرب خالد بكداش زعيمه والنائب فى البرلمان السورى . أما الحزب الشيوعى المصرى - بعد وحدة المنظمات الثلاث - فقد أصدر سلسلة من الدراسات والبيانات من بينها مثلاً كراسة «مفهوم القومية العربية» بقلم الرفيقين خالد وعباس ، يوضحان فيها أن القومية العربية حركة شعبية نضالية معادية للاستعمار ، وأنها «بالضرورة حركة تقدمية من الناحية الإجتماعية ، ففى نضالها ضد الاستعمار ، تناضل كذلك ضد عملائه وحلفائه من الإقطاعيين والاحتكاريين ، وهى تحرر ثروات أرضها وطاقات شعوبها من الاستغلال والاستعباد ، وتحقق التكامل بين اقتصادها الممزق وتبنى اقتصادها الوطنى وتطوره ، وتنمى ثقافتها الوطنية والشعبية ، وهى بهذا تتيح لأبنائها ارتفاعاً فى مستوى المعيشة ، كما توفر لهم حريات ديمقراطية متعاظمة».

إلى هذا الحد كان الحزب الشيوعى المصرى يدافع عن الوحدة على الرغم من إلغاء الأحزاب فى سوريا ومصر

بطبيعة الحال ، وعلى الرغم أيضا من الأحكام العرفية والقوانين المقيدة للحريات التى كانت سائدة فى مصر ، بل أن المكتب السياسى للحزب يصدر فى ١٩٥٨/١/٢٧ بياناً يرحب بالوحدة التى كانت فى الطريق ، وما يلبث أن يصدر بياناً آخر بعد إتمام الوحدة فى فبراير ١٩٥٨ اقتطع منه تلك السطور الدالة :

« .. لم تقف قوى الاستعمار والرجعية عند حد التفريق بين الشيوعيين العرب وبقية الوطنيين العرب ، بل أنها بدأت تثير الذعر بين الطبقة الرأسمالية الوطنية فى مصر وبين مثيلتها فى سوريا . ومن هنا راحوا يشيعون فى مصر أن الوحدة ستصيب بالخراب صغار التجار ومتوسطيهم ، وبأن التجار المصريين سوف يكونون تحت رحمة التجار السوريين، وأشاعوا أن الرأسمالية المصرية - وهى الرأسمالية الأقوى - ستزحف على سوريا لتستعمر وتستنزف دماء الشعب العربى فى سوريا ، وأنها تمهد لذلك بالقضاء على الحريات وتشديد الكبت ضد الحزب الشيوعى السورى متعاونة فى ذلك مع الرجعية السورية .. ولكن لا يجب النظر إلى مستقبل التطور الديمقراطى من زاوية وجود الأحزاب وحدها ، ولكن يجب النظر إلى المسألة من زاوية .

١ - أن القوى الشعبية والوطنية ستلتقى فى الدولة

الواحدة وتتجمع وتناضل بكيفية فعالة من أجل توسيع الحريات الديمقراطية ودعمها .

٢ – أن السياسة الوطنية التحررية السائدة فى الجمهورية العربية المتحدة موجهة لإضعاف النفوذ الاستعمارى وتصفيته، وهذا يحقق الظروف الملائمة لتطور الديمقراطية ، كما تخلقها السياسة الديمقراطية التى ترمى إلى تصفية الإقطاع وتصنيع البلاد وتطوير الزراعة فيها» .

إلى هذا الحد كانت ثقة الحزب الشيوعى المصرى بالوحدة وبجمال عبد الناصر ، وهى ثقة – كما يرى القارىء – شديدة الافراط إلى الحد الذى منع الشيوعيين من الاعتراض الواضح والصريح على حل الأحزاب . وهنا تبرز مرة أخرى الفريضة الغائبة التى سبق الاشارة إليها وهى ضرورة الدفاع الثابت والمستمر عن الحرية بكل أشكالها وضرورة التمايز والاستقلال ، وإن كنت أعلم فى الوقت نفسه أننى أكتب ما أكتبه الآن بعيداً عن الأتون الحقيقى الذى كان الشيوعيون غارقون فى نيرانه .

وتتوالى الأحداث على نحو فائق السرعة ، ففى منتصف ١٩٥٨ قامت ثورة العراق التى حطمت حلم الاستعمار الأمريكى بإقامة حلف بغداد . بطبيعة الحال أيدها عبدالناصر بقوة ، وبدأت الصلات تنعقد بين الثورة الوليدة ومصر ، فقد

نشأ واقع جديد بسقوط حلف بغداد ، وأثيرت قضية الوحدة مع مصر ، لكن ثورة العراق كانت مختلفة منذ اللحظة الأولى ، فقد كانت قوى الثورة هناك تتكون من الحزب الشيوعى العراقى والحزب الوطنى الديمقراطى وحزب البعث وحزب الاستقلال وتشكل فيما بينها جبهة ، وهو الأمر الذى دعا الشيوعيين فى مصر إلى رفع شعار الجبهة أيضا ، وبالتالى أن تكون الوحدة فيدرالية وليست اندماجية ، بينما كان عبد الناصر يصرّ على أن تكون اندماجية ، أى يتم حل الأحزاب فى العراق مثلما جرى فى سوريا وانتهى كل ذلك بحملة عدائية ضارية من عبد الناصر وأجهزته ضد ثورة العراق .

منذ تلك اللحظة بدأ الصراع بين عبد الناصر والشيوعيين. فالأول كان معادياً للاستعمار وأحد نجوم حركة التحرر الوطنى العالمية وقائداً لثورة وطنية كبرى ورافعاً لشعار القومية العربية المعادية للاستعمار والأحلاف ، وفى الوقت نفسه كان يغير المجتمع القديم ، بل ويدمره لصالح الأغلبية منذ قانون الإصلاح الزراعى وسلسلة القوانين التالية له ، بينما كان الشيوعيون يؤيدون كل ذلك ، اختلفوا معه فى قضية الوحدة التى كانوا يرون أنها يجب أن تكون فيدرالية لا اندماجية لمراعاة خصوصية كل بلد .

□□□

نعود إلى الوحدة التى أنجزت بين الموحد (امتداد حدتو) والراية من جانب ، وبين حزب العمال والفلاحين الشيوعى فى ٨ يناير ١٩٥٨ من جانب آخر . والمثير للدهشة بل والغضب أن كل المصادر المتاحة سواء شهادات أو مقابلات شخصية أو دراسات ، تجمع على أنه جرى تعجل فى إتمام الوحدة ، وأن الخلافات الفكرية والسياسية تم تأجيلها وليس حلها ، كما تجمع تلك المصادر على أن المنظمات الثلاث دخلت الوحدة لتمارس الحلقية والقبلية شبه البدوية والتشرذم ، وسرعان ما انفجر خلاف يعود أساسه إلى أن مجموعة حدتو كانت ترى أن على الحزب ألا يتخذ موقف الصراع مع عبدالناصر بل تأييده ودعمه . وحسبما عبر الاستاذ محمد يوسف الجندى فى شهادته لفخرى لبيب فى كتاب الأخير «الشيوعيون وعبدالناصر» :

«كنا نعتبر السلطة فى يد البورجوازية الوطنية ، وهى ليست فئة واحدة ، لكنها تمثل فئات يمينية ، وفئات أكثر تقدماً ، وكنا نعتبر أن عبد الناصر والمجموعة التى معه هى التى تمثل القوى المتقدمة فى البورجوازية الوطنية . وكنا نسعى لعمل تحالف مع عبد الناصر والمجموعة التى معه فى السلطة . وكنا نعتبر أن القوى اليمينية التى فى السلطة تحاول ضرب هذا التحالف ، وتحاول جر عبد الناصر

والحكومة ككل بقيادته ، إلى الاتجاه اليمينى . ولهذا عندما تشكل الاتحاد القومي ، كان رأينا أن ندخله ونكافح من داخله لتحويله إلى جبهة . أما الخلافات التى بيننا وبين عبدالناصر فلم نكن نعتبرها فى الصدارة . نقول عن هذه الخلافات ، لكنها ليست الأمر الذى نبرزه ، ونركز على النقاط الإيجابية التى يمكن أن تحقق التحالف ، وكان هذا هو نفس موقفنا من الوحدة المصرية السورية . كنا نعتبر هذه الوحدة خطوة كبيرة ضد الاستعمار ، وأن الاستعمار يضرب هذه الوحدة ، ونحن نركز على حماية الوحدة ولا نركز على النواحى السلبية بها ، على أساس أن هناك معركة ضارية ضد الاستعمار فى ذلك الوقت خصوصاً بعد ثورة العراق التى كانت انتصاراً كبيراً وسقوط حلف بغداد » .

□□□

وحتى يمكن فهم ما جرى فى أعقاب وحدة ٨ يناير لابد من العودة إلى عدد من الروايات حول الوحدة ذاتها أولاً . فمبارك عبده فضل فى شهادته لرفعت السعيد (الوحدة – الانقسام – الحل ١٩٥٧ – ١٩٦٥) يقرر أن اللجنة المركزية لحزب يناير ضمت ١١ من الموحد و٩ من الراية و١٤ من حزب العمال والفلاحين (أى أن الوحدة بدأت «من أول وجديد!» بعد أن كان الموحد والراية قد اندمجا وشكلا المتحد قبل عدة

شهور) وحسب تعبير مبارك «أن وحدة المتحد لم تكن قد انصهرت بعد» وهو ما يدعو على الأقل للدهشة ، فعلام اتحدت المنظمتان إذن ؟!

وقبل أن نحضر - القارىء وأنا - الاجتماع الأول للجنة المركزية لحزب ٨ يناير ، أشير إلى تقرير مطول بعنوان «حقائق الأزمة التى تعرض لها حزبنا» ووقعه فؤاد حبشى وأحمد الرفاعى وشهدى عطية وكمال عبد الحليم ، وأورد مقتطفات منه رفعت السعيد فى كتابه (تاريخ الحركة الشيوعية ١٩٥٧ - ١٩٦٥) وهو تقرير صدر فى أعقاب انسحاب الموحد (أى حدتو) من الوحدة . يقول التقرير : «ها هى الوحدة تتم على أساس انتصار تحليل التيار الثورى لثورة ٢٣ يوليو وادانة خطهم الانعزالى» (والخط الانعزالى المقصود هنا هو خط الراية والعمال والفلاحين بالطبع) ويضيف التقرير أن أصحاب هذا الخط نجحوا فى تشكيل أغلبية داخل المستويات القيادية «عن طريق مساوماتهم وعن طريق قبول التيار الثورى لمزيد من التنازلات من أجل إتمام الوحدة ، نجحوا فى تحويل هزيمتهم السياسية إلى انتصار تنظيمى وفرض أغلبية على مركز الحزب الجديد» .

ويمضى التقرير كاشفاً أن المفاوضات كانت مضنية ومعقدة من أجل الوصول لاتفاق حول نصيب كل منظمة فى اللجنة المركزية ، وانتهت إلى ١١ مقعداً للموحد و٩ للراية و١٤

ل ع.ف . ثمة روايات عديدة فى هذا الخصوص تشير إلى أن كل منظمة من المنظمات الثلاث قدمت قوائم وهمية (هذا ما يقوله أعضاء كل منظمة عن الأخرى !) . وفى الإجتماع الأول للجنة المركزية كما يقول محمد على عامر فى شهادته لرفعت السعيد أنه ما أن بدأت الترشيحات لاختيار المسئولين فى اللجنة ، اتضح له أن هناك حلفاً واضحاً بين ع.ف والراية! كما أثير موضوع المحترفين فى الاجتماع وهو ما يشكل نقطة قوة حدتو وضعفها أيضا ، حيث اعتمدت منذ نشأتها على مبدأ لينينى يقضى بضرورة وجود محترفين ثوريين يهبون حياتهم للحزب ويعملون من أجله ولا عمل لهم سواه . وكان كل من قدمتهم حدتو (أى الموحد) إلى اللجنة المركزية محترفين ، بينما لم يكن هناك إلا عدد محدود جداً من المحترفين فى المنظمتين الآخريين . وحسب روايات رفاق حدتو (الموحد) طرح فى اجتماع اللجنة المركزية الأزمة المالية التى يعانى منها الحزب وضرورة إلغاء الاحتراف ، واعتبر رفاق حدتو أن هذا موجه ضدهم بالذات .

وفى اجتماع المكتب السياسى الذى أورد محضره رفعت السعيد فى كتابه سالف الذكر وعقد فى الأسبوع الثانى من مارس ١٩٥٨ ، نعلم أنه تفجرت قضيتان تنظيميتان . الأولى عندما أبدى ممثل الموحد الرفيق خليل (كمال عبد الحليم) رغبته فى التخلى عن عضويته فى اللجنة الدائمة وهى اللجنة

الضيقة التى تقود العمل الحزبى بكامله) «لأن أعمال اللجنة الدائمة أعمال كثيرة ومرهقة ومسئولياتها فى تزايد ، الأمر الذى لا يقوى على الاستمرار فيه ، خاصة بسبب ظروفه الصحية» لكنه استدرك قائلاً أنه سيحتفظ مع ذلك بمسئولياته الأخرى كعضو المكتب السياسى .

كان تخلى الرفيق خليل عن مسئوليته يعنى ببساطة - على حد تعبير رفعت السعيد «اخلاء لطرفه كى يصبح أكثر حرية فى تجميع رفاق حدتو دونما حرج ولكى يستعد لمواجهة مع الطرف الآخر» أى أنه لا وحدة هناك ولا يحزنون ، فمنذ الاجتماع الأول للجنة المركزية ، ثم اجتماع المكتب السياسى، والصراع الأساسى يدور حول توزيع المناصب ، ثم البدء فى الانسحاب من الوحدة . على أى حال قرر المكتب السياسى إعطاء الرفيق خليل اجازة لمدة شهر من جميع مسئولياته القيادية باستثناء مسئوليته عن مكتب الأدباء والفنانين .

أما القضية الثانية التى انفجرت فى الاجتماع فهى اصدار قرار بحل مجموعة روما وهم أعضاء حدتو المقيمون فى باريس ويقودهم هنرى كورييل على أن يسرى القرار بتاريخ ١٤ مارس ١٩٥٨ . ربما كان هذا القرار صحيحاً فى تلك المرحلة تحديداً بسبب غلبة العناصر اليهودية على المجموعة (يجب ألا ننسى ما أثاره استيطان فلسطين وعدوان ١٩٥٦) إلا أن رفاق حدتو شعروا - على الرغم من أنهم لم

يصوتوا ضد القرار بأنهم هزموا بسبب الأغلبية التى يتمتع بها كل من ممثلى الراية وع . ف وهمـا اللذان قـدمـا أصلاً مشروع القرار.

والحقيقة أن مجموعة روما امتثلت للقرار علي الرغم من الاجحاف والظلم اللذين لحقا بها ، فأغلب أعضاء هذه المجموعة لم يغادر مصر بارادته ، بل تم نفيه ادارياً ، كما أنهم قدموا على الدوام مساعدات مختلفة وأشكالاً من الدعم السياسى والمادى والإعلامى فى الخارج لحدتو ، وكان من الممكن أن تستمر العلاقة بهم على نحو مختلف ، إلا أنهم امتثلوا للقرار ، ومع ذلك فإن المساعدات التى قدموها أثناء جحيم معسكرات الاعتقال فى الواحات على مدى خمس سنوات كانت حسب تعبير رفعت السعيد «عنصراً أساسياً لضمان مستوى معيشى يكفل استمرار حياة السجناء» .

الشهور التالية كانت حاسمة فى حياة الحزب الذى ولد ميتاً . فمن ناحية كانت المنظمات الثلاث قد فتحت أبوابها مشرعة لدخول العشرات ممن لم يختبروا بعد وبعضهم كانوا عناصر أمنية وذلك لتحقيق أغلبية عددية ، ومن ناحية أخرى ، وأثناء الصراع اللا مبدئى بعد الوحدة أذيعت كل أسرار الحزب وأصبحت تتردد على المقاهى ، فكل طرف ينكل بالطرف الآخر ويذيع أسراره .

والواقع أن المادة التي توفرها المصادر المتاحة (سواء كانت شهادات ومقابلات شخصية أو شهادات مكتوبة) تثير الأسى. وإذا كانت حدتو بعد أن دخلت الوحدة تشعر بالغبن من أنها لم تحصل على الأغلبية في اللجنة المركزية،فإن سبب هذا الشعور هو الوهم بأن خطها السياسي - خط تأييد حركة الجيش في أعقاب الانقلاب مباشرة - قد انتصر، بينما هزم خط الراية (الفاشية) وخط ع. ف (الاحتكار وشبه الاحتكار) ومع ذلك حصلوا على الأغلبية بسبب التحالف اللامبدئي بين الأخيرتين.ولا أدري كيف يصمد كلام كهذا للمناقشة! إن خط حدتو في البداية كان خاطئاً تماماً على الرغم من الاشتراك الفعلي لعدد من الأعضاء والعاطفين (كما ذكرت في موضع آخر) في الانقلاب . وطوال السنوات الأولى، وباستثناء قوانين الاصلاح الزراعي وربما حتى عام ١٩٥٥ لم يكن هناك مايمكن تأييده والتحالف معه في حركة الضباط الأحرار.

وبدأ الانقسام فعلياً ، وبدا وكأن حدتو قد حزمت أمرها وعزمت على الانقسام منذ سرقت المطبعة . وكان الحزب لديه جهازي طباعة يعمل عليهما عضوان من الموحد. الأول يعمل عليه محمد الزبير ورشاد الشلودي، والآخر يعمل عليه صابر زايد، ومما جرى أنه تم ارسال تقرير ليطبعه الزبير تضمن

هجوماً على رفاقه في الموحد، فقرر أن ينحاز لرفاقه ويهرب بالمطبعة قبل أن يتوصل اليها الحزب الذى كان يعرف مكانها. وبالمصادفة ، وبينما كان يتنزه فى القناطر الخيرية محتفلا بالعيد مع أسرته (كان مقر المطبعة السرية في القناطر والزبير يقيم في المقر نفسه وفق سيناريو محكم أمنياً) التقى رفيقه شحاته النشار وأخبره بما تضمنه المنشور ، فأسرع إلى أحمد الرفاعى الذى بادر مع فؤاد حبشى بنقل المطبعة لمكان جديد (فى هذا السياق يقرر مجد الجندى مثلاً - وهو من أعمدة حدتو - «غالبية الرفاق فى الموحد ضد أخذ المطبعة لأنها أسهمت فى تصعيد الخلاف»).

دعى المكتب السياسى للاجتماع لمناقشة سرقة المطبعة فأوصى بفصل أربعة (أصحاب التقرير السابق الاشارة له) وهم خليل وأحمد وفاروق وعاكف لأن الأخيرين أسهما فى الأعمال التخريبية وسرقة المطبعة ، بينما قاد الأولان التكتل.

التداعيات التالية يمكن تصورها بالطبع، فالبرغم من أن عدداً محدوداً ممن يشغلون مناصب فى اللجنة المركزية والمكتب السياسى (من حدتو) بقوا فى محاولة لرأب الصدع أو لمجرد التواجد، إلا أن الانقسام كان قد تم فعلاً ولم يبق إلا تحرير شهادة الوفاة، وهو ما جرى بالفعل بعد التجريدة الكبرى في فجر أول يناير ١٩٥٩، إذ يشير أحمد الرفاعى

إلى أنه بعد الاستيلاء على المطبعة وطرد مجموعة الأربعة ثم لحقهم الخامس جمال غالي مسئول الجيزة «أقرر أننا لم نقم ولم نكن ننوى القيام بأى شكل من أشكال التنظيم المستقل.. وإن كان الوضع مختلفاً فى السجن حيث تم انقسام فعلى فى المنطقة هناك ، أما فى خارج السجن فلم يتم أى تشكيل تنظيمى مستقل، فمبارك عبده فضل وبهيج نصار ومحمد الجندي وأحمد خضر ومحمد علي عامر ظلوا يحضرون الاجتماعات ويؤدون عملهم الحزبي ، لكن من الضرورى أن أقرر أننا وإن كنا لم نقم بعمل شكل تنظيمى، فقد كانت لنا أنشطتنا المستقلة سواء الجماهيرية أو الإعلامية، فقد تحركنا جماهيرياً فى النقابات والطلاب وواصلت دار الفكر نشاطها .. كذلك بدأنا فى اصدار عدد من المطبوعات المستقلة باسم الحزب .. والآخرون لفرط غبائهم بدأوا فى اتخاذ اجراءات متشددة ضد رفاقنا الباقين معهم وبدأوا فى فصل العديد من الكودار فكانوا يضيفون إلينا كل يوم رفاقاً جدد ليتعاونوا معنا» ويضيف : «وظللنا كذلك حتى قبض علينا في يناير ١٩٥٩ حيث أعلنا أننا تنظيم مستقل».

غير أن رفعت السعيد يصرح بأن أول اجتماع للجنة المركزية لحدتو بعد انفصالها كان مقرراً أن يكون موعده فى السابعة من صباح أول يناير ١٩٥٩ فى بيت مبارك عبده

فضل، إلا أن حملة الاعتقالات كانت قد بدأت قبل ذلك بساعات قليلة. ويستمر التضارب بين المصادر المختلفة ، من بينها مثلاً أن أول نشرة صدرت عن رفاق حدتو يعود تاريخها إلى ١٨ يوليو ١٩٥٨ ووثيقة الأربعة يعود تاريخها إلى ١٩٥٨/٩/٢.

المهم أن الانقسام حدث فعلاً في غضون النصف الثاني من عام ١٩٥٨ أى أن الوحدة لم تستمر إلا بضعة شهور تحسب على أصابع اليد الواحدة!

بطبيعة الحال، لا يمكن بعد مرور كل تلك السنين الانحياز لطرف دون الآخر، فالجميع مخطئون ومارسوا أساليب لا مبدئية وحلقية بدءاً من القوائم الوهمية للعضوية وحتى الاجتماعات الجانبية وكشف أسرار الحزب على المقاهي والعمل على ضم عضويات جديدة دون التحقق منها والتآمر للاستيلاء على المناصب في اللجنة المركزية والمكتب السياسي. لذلك فإن شهادة وفاة الوحدة كانت قد حررت بالفعل قبل التجريدة البوليسية.

□□□

وقبل أن أختتم هذا الفصل أود التوقف عند واقعة بالغة الدلالة على مدى نفوذ الشيوعيين في تلك الفترة، وهو الأمر الذي يضاعف من حجم الخطأ الذي ارتكبوه بأنفسهم :

الواقعة أوردها الأستاذ محمود أمين العالم فى الجزء الخامس من سلسلة «شهادات ورؤى».

« أواخر نوفمبر أو منتصف ديسمبر عام ١٩٥٨ (أى بعد الانقسام) اتصل بى يوسف ادريس وقال لى إن أنور السادات يريد مقابلتى، فذهبت معه إلى بيت أنور السادات فى الهرم. وأيامها عرفت ان يوسف إدريس مرتبط به. وكنت أعرف أنور السادات منذ عام ١٩٥٦ منذ انتقالى من روز اليوسف إلى مؤسسة التحرير. وفى بداية اللقاء قال لى السادات: «اسمعوا .. كان هناك ناس ضدنا هم الإخوان المسلمين وقضينا عليهم وأنتم الآن تقفون ضدنا سيكون لكم نفس المصير». ورفضت التهديد وقلت له إن الإخوان المسلمين جذورهم غير عميقة اجتماعياً، أما نحن فلنا جذورنا الشعبية من عمال وفلاحين وتاريخ طويل وعميق فى الحركة الوطنية لن تستطيعوا القضاء عليه، وإذا كنت ستبدأ حديثك بهذا الشكل فلا ضرورة للاستمرار . قال : آسف .نحن نريدكم أن تنضموا للاتحاد القومى . قلت له : مستعدين ندخل معكم فى الاتحاد القومى ولكن ندخل كتنظيم لا كأفراد وبهذا نكون جبهة مشتركة متحالفة على أحداث وطنية محددة. قال لو دخلتم كتنظيم عبود باشا سيدخل كذلك وهذا لا يصلح. قلت له عبود باشا لا يمثل قوة وطنية . قال : نحن قوى وطنية

ديمقراطية. قلت له أنتم قوة دميقراطية ضد الإستعمار ولهذا ممكن أن نتحالف معاً، ونحن جميعاً نحتاج للتعاون معاً فى الظروف الراهنة. واستمر الحوار بيننا وحاول أن يقنعنى بحل الحزب والاندماج كأفراد فى الاتّحاد القومى. فقلت له : لا سبيل إلى حل التنظيم لكن نستطيع أن نتعاون مع بعضنا تعاوناً كاملاً على أسس وطنية ديمقراطية داخل جبهة موحدة أو من الخارج. قال لى : دعك من كل هذا. نحن نريدك أنت شخصياً أن تكون معنا. قلت له : عيب أن تقول لى هذا، لقد جئت هنا لأمثل المكتب السياسى للحزب الشيوعى المصرى وأقول باسم المكتب السياسى: نحن مستعدون للتعاون معاً، وأرجو أن تبلغ تحياتنا لعبد الناصر لمواقفه الوطنية المعادية للاستعمار ، ولكن هناك بيننا رؤى قد تختلف ويمكن بالعمل والتعاون المشترك حل المشاكل والخلافات . وهكذا انتهى اللقاء وكان مهذباً، وظل يبحث لى عن السائق ليوصلنى إلى منزلى، ولكنه وجده نائماً فقال لى ضاحكاً: إنت بروليتارى عد على قدميك. ولم يكن الترام قد بدأ يعمل فالنهار لم يبزغ بعد، فمشيت إلى ميدان الجيزة، ولحقنى هناك أول ترام ركبت إلى بيتى، وبعد اسبوع تقريباً بدأت بعض الاعتقالات، فاتصلت فوراً بيوسف إدريس وقلت له أبلغ أنور هذا ليس كلام رجال، فذهب يوسف إدريس وعاد لى وقال لى إن أنور يبلغك بأنه لاصلة

له بما حدث».

تعمدت أن أورد شهادة محمود العالم كاملة فى تلك الواقعة ، فهى تشير إلى أن الشيوعيين كانوا قوة لايستهان بها ، وكانوا مؤثرين كقوة سياسية ذات نفوذ فى صفوف الجماهير، لذلك فوض النظام أنور السادات ليحاول رسمياً إقناع ممثل المكتب السياسى بحب الحزب والانضمام للاتحاد القومى فرادى (وللأسف ذلك هو ماجرى بالفعل بعد خمس سنوات من الاعتقال) لكن المكتب السياسى وقتها أعلن على لسان ممثله رفض الحزب للحل مع الاستعداد للتعاون أو حتى الانضمام للاتحاد القومى.

وأتوقف أيضاً عند واحدة من أهم الوثائق التى أصدرها المكتب السياسى للحزب الشيوعى المصرى وصدرت فى ١٩ سبتمبر ١٩٥٨ تتضمن بياناً مطولاً للرد على تصريحات كان أنور السادات قد أدلى بها ليوسف إدريس مندوب الأهرام بوصفه السكرتير العام للاتحاد القومى . وكان السادات قد هاجم الشيوعيين بضراوة ووصفهم بأنهم جهلة وجامدون وأنانيون ومضللون دون أن يذكرهم بالاسم واكتفى بأن يقول «ذوى الأفكار المعينة». وانطلق البيان منذ سطوره الأولى نحو المشكلة الحقيقية، وهى فشل الاتحاد القومى وانفضاض الجماهير عنه.. «لا يملك السيد أنور السادات إلاأن يعترف

ضمناً بهذا الفشل الواقع، ومع ذلك فهو لا يريد أن يعترف بالسبب الحقيقى لفشل الاتحاد القومى، ألا وهو فرض الاتحاد القومى على الشعب مع حرمان الشعب من تكوين أحزابه. إن السيد السادات لايريد أن يواجه قضية الشعب الأساسية التى يثيرها الاتحاد القومى وهى قضية الديمقراطية». ويمضى البيان فى رده على السادات الذى أشار تلميحاً إلى أن الشيوعيين هم السبب وراء فشل الاتحاد القومى لأن «نظراتهم للديمقراطية جامدة» ولا تتحقق إلا فى وجود أحزاب، بينما «فكرة القومية التى يقوم الاتحاد القومى عليها تتنافى مع فكرة الحزبية الضيقة» . وهكذا فالسادات يرفض وجود الجبهة الوطنية، كما يرفض وجود الأحزاب وهى الأساس الذى يمكن أن يقوم عليه اتحاد قومى راسخ البنيان. ويضيف البيان «ولما لم تكن هناك أحزاب إلى جانب الاتحاد القومى سوى الحزب الشيوعى ، فليس لنظرية السادات سوى معنى بديهى هو رفض دخول الشيوعيين فى الاتحاد القومى . وهنا يعلن السيد السادات نظريته الخاصة من أن «الاتحاد القومى اتحاد مواطنين وليس اتحاد اتجاهات» ولابد أن يفضى به فشل هذا المنطق إلى نتيجته المحتومة: فيرفض انضمام الشيوعيين ويقبل انضمام حتى هؤلاء الذين كانوا أعضاء فى الأحزاب المنحلة».

ويمضي البيان الذى يعد أحد أهم وثائق حزب يناير – في دفاعه مضيفاً: «ولهذا نرحب بقيام الأحزاب الوطنية ونعتقد اعتقاداً راسخاً أن وجود الأحزاب الوطنية انما يساعد بالفعل على توحيد صفوف الوطنيين، وبعبارة أخرى فإن الطريق الطبيعي والبسيط لاتحاد الوطنيين انما هو اتحاد الأحزاب الوطنية فيما نسميه بالجبهة الوطنية» .. «ان الطبقات الوطنية المتصارعة فيما بينها فى مصر متحدة أو على الأقل يجب أن تكون متحدة في معركتها ضد الاستعمار، وهى معركتها الكبرى. فإذا قيل لنا اليوم إن الاتحاد القومي ليس حزباً ولا جبهة وطنية، وإذا قيل لنا إنه يضم جميع الطبقات، أفراداً لاطبقات ، فيجب أن نعترف إن هذا كله لا يعنى فى النهاية سوى أمرين واضحين كل الوضوح . الأول ان الاتحاد القومى حزب، والثانى أن الحزب الشيوعي مطلوب منه أن يصفي نفسه» ويضيف إن دعوة السادات «لن تلقى صدى لدى الشيوعيين وان جماهير الشعب لن تنفض عن الحزب الشيوعي بل سوف تلتف حوله وزيادة».

وعلى نحو أكثر وضوحاً وصفاء يواصل البيان: ان الشيوعيين هم أول من يدرك أن الديمقراطية ليست هى الحزبية دائماً. ولقد أعلن الشيوعيون ان بلادنا التى تحررت من الاستعمار وقلمت أظافر الاقطاع، وحدت من سيطرت

الاحتكار على بلادنا وقد تهيأت فيها بصفة جوهرية جميع الأسس لقيام الديمقراطية التى تمارسها أوسع الجماهير الشعبية . لقد أيد الشيوعيون المصريون فرض الأحكام العرفية عندما وقع العدوان الثلاثى الغادر على بلادنا، وكنا عندئذ من أشد أنصار الديمقراطية مثلما نحن اليوم عندما طالبنا بالغائها، حين تحولت إلى أسلوب دائم للحكم. والواقع ان الديمقراطية لا يمكن أن تقوم فى بلادنا اليوم إلا على أساس الأحزاب، فما دامت لدينا عدة طبقات فلا مفر من قيام الأحزاب».

وينتهى بيان المكتب السياسى إلى أن «قضية الاتحاد القومى هى احدى قضايا الشعب الأساسية، وفيها تتجمع قضايا لها شأن خطير فى حياتنا السياسية، ألا وهى الديمقراطية، وقضية بناء الجبهة الوطنية. واليوم، حين تطرح قضية الوحدة العربية وينظر العرب إلى مصر التى يتخذونها مثالاً لوحدتها الكبرى، فمن حقهم أن يقلقوا على مصير الديمقراطية فى بلادهم فى ظل الوحدة. انهم بطبيعة الحال يتأملون ملياً ماآلت إليه سوريا بعد وحدتها مع مصر. فقبل الوحدة كانت الديمقراطية المزدهرة ضماناً قوياً لقيادة الجبهة الوطنية. ولما تمت الوحدة ، وعطلت الأحزاب والحياة الديمقراطية، تعرضت الجبهة الوطنية للخطر الشديد . ومن

حق العراقيين اليوم أن يحرصوا على مطلب الاتحاد الفيدرالى كوسيلة للمحافظة على حرياتهم».

هل يمكن التمييز إذن بين موقفين داخل الحرب؟! فالوثيقة الأخيرة تعبر عن موقف متماسك وصلب من الوحدة والديمقراطية والدفاع عن حق التنظيم المستقل، وواقعة لقاء العالم مع السادات تعبر أيضاً عن موقف محترم من جانب الحزب فى مواجهة الاتحاد القومى..

أغلب الظن ان الوثيقة واللقاء تما بعد الانقسام، وانهما تعبير عن الجناح المناوىء لحدتو داخل الحزب ، وهو الجناح الذى يضم رفاق الراية ورفاق طليعة العمال طبقاً للمصادر المتاحة وأيضاً طبقاً للتواريخ المختلفة فى تلك الفترة الدقيقة العاصفة من تاريخنا الحديث.




صفحة فارغة

(١٢)

لم تنهار التنظيمات الشيوعية في مصر - وفى مقدمتها حدتو - بسبب سنوات الاعتقال الدامى الخمس التى تحملوها ببطولة وشرف ونبل ، وقدموا عدداً من الشهداء داخل معسكرات الاعتقال، انما انهارت بسبب العجز الفكرى والسياسى عن ممارسة الاستقلال عن الحكم (وعلى الأخص حدتو) التى لم تميز بين اجراءات وشخص جمال عبدالناصر كوطنى معاد للاستعمار، وبين اصراره على تصفية الحياة السياسية بالكامل: أحزاب علنية وسرية ونقابات وصحف ومنظمات جماهيرية... الخ.

الصفحات التالية تقدم لمحات موجزة من الصمود الأسطورى للشيوعيين المصريين (وعلى الأخص حدتو) بدءاً من أول يناير ١٩٥٩.

المناخ السياسى الذى سبق التجريدة كان مشحوناً ومتوتراً لأكثر من سبب. من بين تلك الأسباب أن عبد الناصر كان قد أحكم قبضته على مصر وسوريا، بينما كان الموقف من ثورة العراق بالغ التوتر ، خصوصاً أن قسماً من الشيوعيين المصريين كانوا يؤيدون الجبهة التى تحكم بعد ثورة العراق. ومن جانبه كان عبد الناصر يواصل تألقه وقيادته لسلسلة من التغييرات الاجتماعية لصالح جماهير

الفقراء وتعميق تحالفاته مع حركة التحرر الوطنى ودول المعسكر الاشتراكي، وفى الوقت نفسه كان يواصل قمعه للحركة الشعبية المستقلة سواء كانت نقابات أو صحافة أو غيرها من الأدوات.

أما الشيوعيون فكانوا قد عادوا للانقسام مرة أخرى كالعادة . كانت حدتو قد رجعت إلى اسمها القديم فى دلالة واضحة على اتمام هدم الجسور بينها وبين الحزب الشيوعى المصرى الذى يضم الراية و (ع. ف) . وكما سبق القول، كانت وجهة نظر رفاق حدتو أنه إلى جانب الأخطاء التنظيمية وفصل الأربعة.. الخ هناك ما هو أهم وهو الموقف من جمال عبد الناصر والثورة.

كان الموقف الأخير حاسماً ، فحدتو ترى التأكيد المطلق على التحالف مع «الحكم الوطنى» . تقرير الأربعة السابق الاشارة له مثلاً يعلق على القرار الجمهورى الذى قصر حق الترشيح لدخول النقابات على أعضاء الاتحاد القومى بمعارضته بطبيعة الحال، ولكن «لانصل بمعارضتنا له إلى مايهدم تحالفنا مع الحكم الوطنى أو ما يلغى واجباتنا الإيجابية ازاء انتصاراتنا» ويضيف التقرير الذى صدر اثناء الانقسام الفعلى «أن المظهر الأساسى لليساريه فى حزبنا هو العودة وفى كل مناسبة إلى التشكيك فى وطنية الحكم فى

مصر، وتغليب التناقض الثانوى على التناقض الأساسى والعودة بذلك وفى التطبيق إلى سياسة معادية للحكم الوطنى» ويضيف أيضاً : «ان الاتحاد القومى مفتوح للعمال والفلاحين والمثقفين وسائر الفئات الوطنية باعتبارهم مواطنين، وباعتباره شكلاً جديداً من أشكال التحالف بين القوى الوطنية» ويضيف أيضاً : «اننا متفقون أن الحكومة الحالية حكومة بورجوازية وطنية، وأن البورجوازية الوطنية حليفة للطبقة العاملة، وأننا جميعاً نكافح العدو الأساسى وهو الاستعمار ومتفقين على أن البورجوازية تناضل الآن من أجل السلام وصيانة استقلال الوطن والعمل على توحيد الأمة العربية ..ونحن فى ذلك متفقين معها ونعمل على تأييدها ومساندتها وتطورها وحمايتها، ومختلفين معها فى بعض الوسائل والطرق ومختلفين معها فى الغاية وهى تحقيق الاشتراكية فالشيوعية، ولكننا نضع فى الاعتبار ان المعركة الأساسية هى ضد الاستعمار».

وكشف الخلاف بين حدتو والحزب الشيوعى المصرى أثناء المعارك الجماهيرية عن تباعد الموقفين، بل ووصل إلى حرب غير شريفة فطبقاً للمجلة السرية «صوت القاهرة» التى كانت تصدر عن لجنة منطقة القاهرة نعلم أنه عندما قام عمال شبرا الخيمة بتوزيع «كارت» الفنان زهدى بمناسبة اجتماع اللجنة

العمالية الدولية لنصرة الجزائر لإرساله للجنة تعبيراً عن تأييد العمال لكفاح الجزائر «سعت عصابة فى شبرا الخيمة إلى تخريب هذا العمل فكانت تذهب إلى العمال وتقول لهم ان زهدى خائن وعميل للإستعمار بقصد منع العمال من ارسال الكارت».

وعندما تعرضت مصانع النسيج الصغيرة للتوقف كتبت «صوت القاهرة» : «بفضل كفاح العمال ويقظة الحكومة تمت خطوتان لمواجهة الموقف .. الأولى تكوين جمعية تعاونية تساعد على اعادة العمل فى المصانع الصغيرة وتخصيص سوق الصين الشعبية لتصريف منتجاتها والثانية تكوين لجنة من العمال العاطلين وقد نجحت اللجنة فى صرف ٣ جنيهات اعانة لكل عامل متعطل إلى أن تبدأ الجمعية التعاونية فى عملها». والأهم أنه «فى اجتماع ضم العديد من العمال لبحث تطورات الموقف، وقف (كبير) من أعداء الوحدة الوطنية (يقصد أحد أعضاء الحزب الشيوعي المصرى) فى شبرا الخيمة وأخذ يلقى على العمال كلمات مسمومة تحدث فيها عن الضغط الذى قام به العمال على الحكومة وعن الموقف الصلب وعن انتزاع المكاسب .. وقد رد عليه زميل عامل وأعلن أن كفاح العمال وصلابتهم عامل أساسى ولكن يجب ألا ننسى موقف الحكومة الوطنية واستجابتها للمطالب وأن من الخطأ

تجاهل هذا الموقف ، بل علينا أن نحييه ونشجعه وندفعه للأمام، ففي ذلك تدعيم لوحدتنا الوطنية وحكومتنا الوطنية وتشجيعاً لها لحل المشاكل .. ثم أخذ يكشف الأغراض السياسية الخفية التى تخفى وراءها كلمة هذا الانقسامى الخطير» ولا تعليق بالطبع!!

وطبقاً لمجلة سرية أخرى كانت لجنة منطقة الاسكندرية تصدرها – أظنها صوت الاسكندرية – نقرأ مثلاً بتاريخ ١١ أكتوبر ١٩٥٨: «نعم لقد فشلت سياسة المركزية في كل شيء ، وسياسة المركزية المطلقة التى فرضها علينا التكتل الذى كان يهدف بسياسة المجلة الواحدة إلى تصفية الحزب وانعزاله عن الشعب والعمال وإلى ضمان استمرار الحزب فى دوامة من اليسارية الجوفاء» بل ان المجلة تصف رفاق الحزب الشيوعي المصرى بأنهم «أبناء الباشوات المعطرين وراكبى السيارات الفاخرة» وتضيف: «من الاسكندرية نعلن نحن الشيوعيين بالاسكندرية النهاية الحتمية لهذه العصبة وللسياسة الانتهازية موجهين صفعة أخرى بصدور صوت الاسكندرية صوتاً للسلام والمعركة والتحالف الوطنى».

وحتى رفعت السعيد «الحدتاوى» العتيد يشير إلى الدور الذى لعبته مجلة «الغد» وكان يرأس تحريرها الفنان حسن فؤاد، وأسهم فى اصدارها مكتب الأدباء والفنانين بالحزب –

وكان مسئوله كمال عبد الحكيم كما ذكرت سابقاً - باعتبارها نموذجاً لفريق آخر داخل حدتو . وفي العدد الثاني الذي صدر بعد التجريدة نقرأ في الافتتاحية: «يهل علينا شهر فبراير هذا العام وقد ظهرت بوادر الصفاء والهدوء في وطننا العربي الكبير (فتأمل!!) ولم تعد تجدى محاولات الدس والتفرقة، أو لعل هذه المحاولات إن شئنا الدقة - قد قاربت على نهايتها . ولعل كل عاقل في البلاد العربية يفهم أن تهدئة الخواطر وصفاء النفوس تتيح الفرصة للنقد والعتاب الودى ، وتقطع الطريق على محاولات الاستعمار وأعوانه للتدخل» هذا في الوقت الذي كانت السجون والمعتقلات تمتلىء بالشيوعيين سواء كانوا من حدتو أو الحزب الشيوعي المصري، والأنكى إن ظهر الغلاف يحمل رسماً لمظاهرة ضخمة من الفنانين الذين يحملون لافتة مكتوب عليها «الفنانون يهنئون الرئيس جمال عبدالناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة» وتستمر المهزلة في العدد الثالث ووصلت إلى حد وصف رفاق الحزب بأنهم «من أصحاب المبادىء والنظريات الذين يهدفون إلى عزل دولتهم الجمهورية العربية المتحدة ، إلا إذا كان هذا الهدف يخدم مصالح الاستعمار»!! على أي حال وفي الشهر نفسه تم القبض على دفعة جديدة من الشيوعيين كان من بينهم حسن فؤاد رئيس التحرير!

□□□

وعلى الرغم من ذلك شملت الحملة الجميع: من يدعو للتحالف تحت قيادة عبدالناصر ومن له ملاحظات أو تحفظات على السواء.

في بداية الحملة كان رفاق حدتو وهم فى السجن يؤكدون أن هناك خطأ ما وسوف يخرجون بعد قليل ، وأن المقصود بهذه الحملة رفاق الحزب الشيوعى المصرى، خصوصاً وأن الحملة كانت عادية في البداية شأن ماسبقها من حملات، أى مجرد اعتقال ولم يكن التعذيب (الذى وصل فى أحيان كثيرة إلى القتل كما سوف يتبين بعد قليل) ، قد بدأ.

والحقيقة أن عبد الناصر كان قد عقد العزم على التصفية الكاملة والنهائية، مزهواً بانتصاراته العربية والدولية، لكل القوى . كان قد انتهى تقريباً من الإخوان المسلمين مثلما انتهى من الوفد ومصر الفتاة، ثم اتجه إلى تصفية الشيوعيين. إن خطأ عبد الناصر القاتل والذى مالبث أن أودى بثورة يوليو ذاتها بعد ذلك، هو رفضه التعامل مع القوة الأساسية التى دعت للتحالف معه والوقوف بجانبه وآمنت بقيادته للتحالف سواء من حدتو أو غيرها ، بل ان وجود أكثر من فريق داخل الحركة الشيوعية لم يكن غائباً عن معرفة أجهزة أمنه. فطبقاً للمحضر التالى نقرأ:

«فتح المحضر فى ١٩٥٩/١/١.

بمعرفتنا.نحن البكباشي حسن المصيلحي مفتش قسم الشيوعية بإدارة المباحث العامة» وبعد الديباجة المعتادة يواصل المصيلحي :

«.. وبعد أن اتحدت المنظمتان معاً فى أوائل يناير ١٩٥٨ دب خلاف بين قادة هذه المنظمات فانفصل قادة تنظيم الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى - تختصر فى لفظ «حدتو» - وكونوا منظمة مستقلة باسم الحزب الشيوعى المصرى أيضاً .. وأصبحت هذه المنظمة تميز بأنها فريق حدتو . واستمرار اعضاؤها فى مزاولة النشاط الشيوعى مستهدفين قلب النظم الأساسية سياسية واجتماعية واقتصادية للبلاد بطريق القوة، وقد ثبت من التحريات والمراقبات التى قامت بها فروع الادارة فى انحاء الاقليم، ومما تكون لدى قسم مكافحة الشيوعية من معلومات ان المدير لهذا النشاط فى انحاء الاقليم هم الأشخاص الواردة اسماؤهم فى الكشوف المرفقة والموقع عليها منا ، وهم أعضاء اللجنة المركزية للمنظمة ، والقياديون الذين يتولون مهمة ربط اتصالات الأعضاء ببعضهم وطبع وتوزيع النشرات السرية».

ولم تقتصر الحملة على الاعتقال فحسب، بل ان الصحافة أصابها نوع من السعار ضد الشيوعية، وصدرت الأوامر لخطباء المساجد بالهجوم على اليساريين الكفرة. وفى المدارس انتشرت لوحات مرسوم عليها مساجد وكنائس

تحترق بالنيران وتعلق على واجهات تلك المدارس وتحتها تقرأ: «هذا من فعل الشيوعيين».

هذا في الوقت الذى كان رفاق حدتو يستعدون لعقد أول اجتماع للجنة المركزية بعد الانقسام في أول يناير وفي بيت مبارك عبده فضل، ومن جانب آخر صدر توجيه حزبى بالامتناع عن الهروب من أوامر القبض حسب شهادة فاروق ثابت لفخرى لبيب في الجزء الأول من جداريته الكبرى «الشيوعيون وعبد الناصر»:

«حتى نكسب ثقة الحكومة أكثر ممنوع الهروب . عليك أن تنتظر في بيتك حتى يقبضوا عليك. لا أحد يهرب. إنها أزمة ثقة بيننا وبين النظام وسوف تمر . أزمة ثقة وعلينا احتمالها فوق أكتافنا. وعندما يتضح الموقف سوف يكون التعامل بيننا وبينهم جيداً».

وفي ٢٨ مارس جاءت الضربة الثانية أكثر عمقاً من سابقتها بحيث طالت إلى جانب الشيوعيين كثير من المثقفين والصحفيين وأساتذة الجامعات والنقابيين الديمقراطيين والمعروفين جيداً بأنهم ليسوا شيوعيين. وعلى مدى السنوات الخمس التالية مارس نظام عبدالناصر أبشع عمليات التعذيب في معتقلات وسجون القلعة والفيوم والقناطر وأوردى أبوزعبل والواحات..

□□□

المثير للدهشة وربما الغضب أن رفاق حدتو استمروا فى تأييد عبدالناصر ونظامه حتى بعد التجريدة الكبرى. وما كتبه رفعت السعيد فى «تاريخ الحركة الشيوعية ١٩٥٧ - ١٩٦٥» يثير أكثر من الغضب والحنق.. يقول:

«.. ولكن الحملة الناصرية الجارفة والهوس المعادي للشيوعية والعداء الشرس، والتعذيب الوحشي ذلك كله ما كان له أن يترك مجالاً لأى تحليل عاقل أو بارد.. ومع ذلك فقد قاومت حدتو تيار التباعد عن خطها السياسي، كما قاومت تيار الانحناء أمام حملة عبدالناصر والقبول بها، وأصبح الموقف غاية فى التعقيد، ومع ذلك فقد ثبتت حدتو على خطة تأييد عبدالناصر»!! علامات التعجب من عندي. ويضيف: «كانت تعتبر أن كل ما يجرى ليس سوى سحابة صيف. قد يطول أمدها قليلاً، وقد تثمر ثماراً مريرة، وقد يصاحبها اعصار التعذيب الوحشي والهجوم الأكثر من عنيف.. لكنها فى نهاية الأمر إلى زوال. وبغض النظر عن كل شيء فإن التشبث بموقف كهذا فى ظل اعصار القبض والتشويه والتعذيب كان يتطلب ثباتاً ورباطة جأش تستحقان الاعجاب».

والحقيقة أننى لا أفهم هذا الحب والغرام من طرف واحد حتى

لو كان الحبيب يذبح حبيبه!!

كيف تستمر فى تأييد حكم يقوم بسجنك وتعذيبك؟ على الأقل تتوقف عن التأييد، لكن الأمر كان أكثر تعقيداً من ذلك.. ففى سبتمبر عام ١٩٥٩ كان التعذيب وحشياً ومع ذلك وجهت حدتو الخطاب التالى المفتوح:

«الرئيس جمال عبدالناصر. من المعتقلين الشيوعيين المقدمين إلى المحكمة العسكرية العليا» تقول كلماته: «موقفنا هو التأييد الكامل لثورة يوليو، ونحن نواصل خط التأييد رغم اعتقالنا ونؤمن بأن المصلحة الطبقية تحتم التحالف مع الحكومة الوطنية، كما تحتم التحالف بين الطبقات الوطنية جميعاً».

وفى التحقيقات يجمع كل من شهدى عطية الشافعى، الذى ما لبث أن قتل أثناء التعذيب، ومبارك عبده فضل ورفعت السعيد وجمال الدين غالى وأحمد على خضر ومحمد يوسف الجندى وسعد رحمى وعريان نصيف على التمسك بتأييد جمال عبدالناصر والحكومة الوطنية !! وهو الموقف الذى استمر بعد قتل فريد حداد ومحمد عثمان وشهدى عطية الشافعى أثناء تعذيبهم.

ويحاول رفعت السعيد تبرير هذا الموقف استناداً للشهادة

التالية لمحمد يوسف الجندى:

عندما قبض علينا فى ١٩٥٩ كنا نختلف عن المجموعة الأخرى بأننا نرى أن عبدالناصر يمثل الجزء المتقدم من البورجوازية الوطنية، وأن البورجوازية ليست فئة واحدة، وانما فئات مختلفة، وكنا نعتبر أن المجموعة التى يمثلها عبدالناصر مجموعة وطنية معادية للاستعمار، وأنها تتطور وتتقدم ويمكننا أن نلعب دوراً فى تطويرها وتقدمها، وكنا نعتبر أن العداء الرئيسى يجب أن يوجه ضد الامبريالية، ومن أجل تدعيم التحالف مع هذه المجموعة من البورجوازية والعمل على عزل القوى الأخرى».

جميل.. وجهة نظر قد تختلف معها أو تتفق إلا أنها وجهة نظر سياسية، ولكن عندما تستدير هذه المجموعة لتعتقل وتعذب وتقتل الشيوعيين لمجرد أنهم يختلفون معها فى الرأى ماذا يكون الموقف؟ إن هذه المجموعة لا ترفض التحالف فقط، بل تسعى لتصفية مخالفيها تصفية جسدية ما لم يقم هؤلاء المخالفون بتصفية أنفسهم!

(١٣)

سوف أحاول متابعة الرحلة المضنية التى تقطر دماً بين المعتقلات والسجون مع الساعات الأولى من فجر أول يناير ١٩٥٩، وإذا كان الشيوعيون قد تعرضوا للاعتقال والسجن طوال العقود والعهود السابقة على الناصرية ومنذ تأسيس حزبهم الأول عام ١٩٢٣، فإن ما جرى منذ عام ١٩٥٩ وحتى عام ١٩٦٥ أمر أخر تماماً. إن ما جرى وصمة عار حقيقية فى جبين الناصرية وجبين الإنسانية، ليس فقط لأن الشيوعيين لم يحملوا السلاح فى مواجهة نظام الحكم - وحتى هذا ليس مبرراً لممارسة ذلك التعذيب المخزى للنظام - وكل ما حملوه بياناتهم ومنشوراتهم ومجلاتهم السرية وتأثيرهم السياسى فى الجماهير.

على أى حال، لا أجدنى متفقاً مع الآراء التى تذهب إلى أن الوقت ليس وقت تصفية الحسابات وإثارة الحزازات، وأن ايجابيات المرحلة الناصرية تقتضى التركيز عليها بدلاً من تناول الجوانب المسيئة. إن إعادة رواية ما جرى من خلال شهادات الذين تعرضوا لجحيم استهدف هدر آدميتهم وارادتهم مسئولية يعد التخلى عنها أمر قريب من الخيانة. وحتى بالنسبة للقانون، فإن جريمة التعذيب لا تسقط بالتقادم، بل جريمة حية ودائمة، وإذا كان المجرمون قد أفلتوا من العقاب القانونى، فلا أقل من أدانتهم هنا، وهذا هو

بالتحديد الواجب الذى أجدنى مصراً على الوفاء به.

في البداية سوف أصحب القارىء معى فى نزهة دامية بين عدد من السجون والمعتقلات التى استضافت أنبل وأشرف نساء ورجال الوطن، قبل أن يتم ايداعهم في نهاية الأمر فى معتقل الواحات في قلب الصحراء معزولين تماماً ومحاصرين بعد محاكمات كاريكاتورية وشكلية، بل أن من كانت تثبت براءته - حتى وفق محاكمات جنرالات الجيش رؤساء المحاكم الاستثنائية، أو من يقضى فترة العقوبة المنصوص عليها قانوناً، فكان يصدر أمر آخر باعتقاله بمقتضى قانون الطوارىء وقبل أن يغادر القضبان.

أما المعتقلات والسجون التى استضافت الشيوعيين فقد تعددت وهى على سبيل المثال: قنا والقلعة والسجن الحربى وسجن مصر والعزب بالفيوم وأوردى ليمان أبو زعبل والقناطر - رجال ونساء - والحضرة بالاسكندرية وأخيراً منفى المحاريق.. وطبقاً لما أورده فخرى لبيب في جداريته الكبرى «الشيوعيون وعبدالناصر» فإن معتقل القلعة ظل حتى وقت قريب هو المعتقل الوحيد الذى يتبع مباحث أمن الدولة مباشرة ثم تحول إلى متحف أخيراً وتعددت المعتقلات والسجون التابعة لأمن الدولة). فتحت القلعة أبوابها فى أول يناير ١٩٥٩ وتم تخصيصها كمحطة تجميع فقط، ومنها يتم

التوزيع على سجون أخرى. كان أغلب الدفعة الأولى من قيادات حزب ٨ يناير إلى جانب عدد من المفكرين والصحفيين وأساتذة الجامعات والفنانين الديمقراطيين غير الشيوعيين مثل د. لويس عوض الناقد والمبدع المعروف ومحمود السعدنى وغيرهما.

وتوالت الدفعات على معتقل القلعة، حيث تجرى النيابة تحقيقاتها الأولية، ويتم تلفيق القضايا ثم ترُحّل الدفعة إلى الواحات أو معتقل العزب بالفيوم. كانت الدفعة التالية فى ٢٨ مارس ١٩٥٩، وفى يونيو ويوليو دفعة أخرى، ثم فى سبتمبر دفعة تالية. فى ذلك الوقت كان رفاق حدتو أسرى الوهم بأنهم ماداموا مؤيدين لعبدالناصر، فإنهم سرعان ما يفرج عنهم، وأن الأمر لا يعدو خطأ سوف يتم تصحيحه، وتردد أن التوجيهات الحزبية كانت تقضى بعدم الهروب من المنازل المعروفة للبوليس كما سبق أن ذكرت.. إلى هذا الحد كانت ثقة حدتو، وهو ما يمكن تفهمه لأن التأييد كان موقفاً سياسياً وليس تملقاً لعبدالناصر أو خوفاً منه، لذلك كان طبيعياً أن يتوقع مناضلو حدتو أن الاعتقال أمر عارض.

يتحدث الكثيرون عن معتقل القلعة كما لو كان فردوساً مفقوداً بالمقارنة بما جرى بعد ذلك فى معتقلات العزب بالفيوم أو أوردى أبوزعبل أو المحاريق، فقد كان بالفعل مجرد محطة على الرغم من أن أغلب الزنازين انفرادية ومغلقة طوال اليوم، إلا أنه كان يمكن

فى هدأة الليل سماع أصوات المذياع فى المقاهى فى السيدة عائشة وفى القلعة وهى تذيع أغانى أم كلثوم وعبدالمطلب!

كانت المجموعة الأولى المقبوض عليها فى ١٩٥٩/١/١ هى التى تم ترحيلها أولاً إلى معتقل الواحات الخارجة لإخلاء القلعة لحملة مارس ١٩٥٩، وبعد ١٥ يوماً عادوا مرة أخرى إلى سجن مصر انتظاراً لمحاكمتهم أمام المحاكم العسكرية الاستثنائية فى قضية الشيوعية الكبرى التى جرت فى مارس ١٩٦٠. من بين تلك المجموعة يحكى صديقى الروائى الكبير صنع الله إبراهيم فى كتابه «يوميات الواحات» أنه قضى ثلاثة شهور محروماً من حقوق السجناء العاديين مثل الصحف والراديو والكتب والورق والقلم. وبعد أن تضاعف عدد المعتقلين فى القلعة، نُقل البعض إلى سجن مصر. وبعد فترة جرى نقلهم إلى الواحات بالقطار. وكان يجرى قيد المعتقلين على نحو غريب يشبه قوافل العبيد، فكل معتقل تقيد يده بكلابش ثم يقيد الجميع بحجلة عبارة عن جنزير طويل يجر خلفه ثلاثين معتقلاً. وفى نهاية كل حجلة يربط معهم عسكرى بقفل. أما المسافة من القاهرة إلى الواحات فطولها يقترب من الألف كيلو متر. وللقارىء أن يتخيل كيف يمكن شحن أولئك المعتقلين وهم مقيدون بحجلات داخل سيارات مصلحة السجون المغلقة الأبواب والنوافذ، ومن السيارات إلى القطارات يقضون ساعات طويلة دون

طعام أو ماء، وفى مرات عديدة كانت بعض قوافل العبيد تتعرض للقتل تحت عجلات القطار.

فى الواحات استقبلهم اللواء إسماعيل همت وكيل مصلحة السجون والمتخصص فى استقبال الشيوعيين «يصفه الراحل السيد يوسف فى كتاب بالغ الصدق والعذوبة هو «مذكرات معتقل سياسى» بأنه «شخص ناعم الصوت رقيق الجسد أحمر الوجنات تركى الملامح والجذور، شديد القسوة فى معاملته للرجال، وكأن بينه وبينهم ثأر، ولديه ولع مجنون بتعذيب من يتوسم فيهم رجولة مكتملة، ثم الاصرار على أن يقول الواحد منهم بأنه امرأة.. حكايات تروى عنه بانتمائه إلى الجنس الثالث الذى هو ليس بين الرجال أو بين النساء» ويضيف إن أحد المعتقلين وهو الدكتور محمود القويسنى كان ضابطاً فى سلاح الفرسان حتى عام ١٩٥٤ يعرفه جيدا ويعلم أنه فُصل من الجيش لأسباب أخلاقية ثم أعيد الى الخدمة ضابطاً فى مصلحة السجون.

استقبل اللواء همت تلك المجموعة بفرقته الشهيرة، كان له فرقة خاصة من الحراس فارعي الطول ويرتدون ملابس مميزة ويحملون مدافع رشاشة، وصوّبت الفرقة مدافعها نحو صدورهم وهم يتوجهون إلى زنازينهم، إلى جوار مجموعات أخرى كان قد سبق اعتقالها قبل حملة ١٩٥٩ فى عنبر ضم معتقلين صدر قرار الحاكم

العسكري العام باعتقالهم دون توجيه أي تهمة محددة لهم أو حتى عرضهم على جهات التحقيق، وعنبر آخر ضم المسجونين الشيوعيين ممن حوكموا وصدرت ضدهم أحكام قبل حملة أول يناير أيضاً. وقبل أن يرحل همت في اليوم التالي أشرف على ضرب سيد ترك أحد المسجونين القدامى من قادة حدتو من العمال فوق العروسة» وهي تشبه صليباً خشبياً يجبر المعتقل على احتضانه بيديه ويقيد اليه بينما يقوم الجلاد بجلده بالسياط على ظهره، ويعتقد صنع الله أن ضرب ترك كان تمثيلية لارهاب القادمين الجدد خصوصاً وأن الشكوك كانت تحوم حول علاقة سيد ترك بالمباحث بعد الأفراج عنه. وبعد شهور قليلة نقلت هذه المجموعة إلى سجن القناطر الخيرية وجرى وضعهم في مكان منعزل مع الحرمان من الاختلاط بالسجناء العاديين وكذلك الصحف والكتب والراديو حتى أواخر فبراير عام ١٩٦٠ حيث تم نقلهم مرة أخرى إلى سجن الحضرة بالاسكندرية تمهيداً لمحاكمتهم. وقبل المحاكمة بأسبوع افتعلت إدارة السجن معركة تم خلالها تجريد الشيوعيين من ملابسهم وضربهم مع مصادرة ما تحتويه الزنازين من الملابس والطعام ثم سكب جرادل البول والبراز على أجسادهم العارية.

□□□

(١٤)

وعلى مبعدة مئات الكيلو مترات كانت هناك أكثر من دفعة توجهت إلى الفيوم، أولها تلك التى جرى نقلها فى ١٦ ابريل ١٩٥٩. أما معتقل العزب الذى نقلوا إليه، فقد بناه الانجليز فى الأصل ليكون معتقلاً للأسرى الايطاليين أثناء الحرب العالمية الثانية، وأعيد استخدامه بعد استيلاء الضباط الأحرار على السلطة لشديدى الاجرام من تجار المخدرات ومن على شاكلتهم، لذلك كان منجم ذهب لا ينفد لضباطه وجنوده، وهناك مرتبات يومية يدفعها تجار المخدرات مقابل تسهيل الحياة، وكان من الطبيعى تماماً أن يخرج الأخيرون بصحبة الضباط إلى مدينة الفيوم القريبة والسهر فى أحد بيوت الدعارة مثلاً ثم العودة فجراً!

كان اخلاء المعتقل منهم لاستقبال الشيوعيين نكبة على قائد المعتقل وضباطه وجنوده، وكانت التشريفة قد غدت الآن تقليداً راسخاً فى السجون والمعتقلات المختلفة لاستقبال الشيوعيين. ويمجرد أن فك عساكر الترحيلة معاصم المعتقلين من الحجلات دفعوهم من السيارات بين صفين من الجنود على جانبى بوابة المعتقل. وانطلقت صرخات الضباط والسجانة بالنداءات الوحشية: اقعد على قرافيصك.. بص قدامك..

تتحدث أغلب شهادات الذين «شرّفوا» العزب أنه يشبه المعتقلات النازية وسط الصحراء وعلى مبعدة منه مقابر للمسلمين

وأخرى للأقباط، ومحاط بصفوفا من الأسلاك الشائكة وأبراج الحراس المزَودة بالكشافات الدائرية التى لا تتوقف طوال الليل عن الدوران بواسطة جنود يصوبّون مدافعهم الرشاشة، ويضم عدداً من العنابر المبنية بالطوب، وبجدرانه فتحات مسوّرة بشبكات من أسياخ الحديد المفتوحة لمراقبة المعتقلين من الخارج. حُشر نحو ستين معتقلاً فى كل عنبر تغلق الأبواب عليهم ٢٣ ساعة يومياً، لذلك كانت جرادل البول تمتلىء عن آخرها بل وتفيض فتصبح رائحة العنبر لا تطاق، خصوصاً إذا علمنا أن عدد المعتقلين الاجمالى بلغ ما يقرب من ٥٠٠ معتقل.

يجمع كل من فخرى لبيب فى «الشيوعيون وعبدالناصر»، والسيد يوسف فى «مذكرات معتقل سياسي» وحسن المناويشى فى «أوردى ليمان أبو زعبل» مثلاً على أن إدارة المعتقل قامت بواجبها خير قيام، وخصوصاً الرائد المرقى من تحت السلام أحمد منير غالى قائد المعتقل، والذى كان من بين هواياته الاستيلاء على أقلام المعتقلين من الأمانات، فضلاً عن بحثه الداعم عن الوصفات التى تمنحه طاقة جنسية فى سنه المتقدمة. وعندما سأل الرسام زهدى فى تشريفة الاستقبال عن مهنته أجابه بالطبع أنه رسام، فتعجب غالى قائلاً:

– تقصد شاعر..

فعاد زهدى يقول:

- لأ.. رسام .. الرسام شيء والشاعر شيء آخر..

غضب غالي وصرخ فيه:

- تجادلني يا ابن الكلب..

وانهال هو وحراسه بالضرب على زهدي، لذلك ما أن سأل غالي الرسام حسن فؤاد وكان يقف وراء زهدي أجابه على الفور:

- شاعر..

وعندما سأل شاويش آخر الدكتور لويس عوض عن مهنته أجابه :

- دكتور

فقال الشاويش:

- دكتور في أيه؟

أجابه : في الأدب..

فصرخ فيه الشاويش:

- يعني إيه في الأدب؟!

أجابه : في القصص..

فانهال عليه بالضرب صارخاً:

- يعني دكتور في الحواديت ياابن الكلب..

هذا إلى جانب اليوزباشي عبدالمنعم التونسي والملازم أول حمدي نصار والملازم ثان حلمي العيسوي والصول همام والشاويشان محمد غطاس ووديع، وفرقة من عساكر الهجانة . أما

الأمر الحقيقي والشخصية الرئيسية في المعتقل فهو عبدالعزيز شاكر الضابط المتواري في الظل والتابع لمباحث أمن الدولة وحلقة الوصل بينها وبين المعتقل.

أدوات التعذيب كانت «العروسة» السابق الاشارة لها، وأحياناً يضاف إليها جردل ماء مذاب فيه كمية لا بأس بها من الملح لالقائه على ظهر المعتقل بعد جلده مباشرة. و«الفلكة». حيث توضع عصا عند ثنية الساق مع الفخذ أسفل الركبتين ويضرب بطن الأقدام بالكرابيج أو الشوم أو الجريد، ثم يجبر المعتقل بعد ذلك على الجرى فوراً على قدميه حتى لا يتجمد الدم فيهما. يحكى حسن المناويشي تجربته معها في كتابه السابق الاشارة له قائلاً:

«حضر الضابط عملية الضرب وهو الذى قام بالتنفيذ، فقد طلب كرسيين من الكراسي الخيزران ووضعهما في ظهر بعضهما بحيث يكون مكان الجلوس إلى الخارج ثم أحضر كلبشاً عادياً فوضعه بين يدى ثم أجلسوني القرفصاء مرورا غصن شوم بين ذراعيّ وركبتي ثم رفعوني على الكرسيين وتركوني فانقلبت على رأسي بحكم ثقل الرأس وكانت قدماى إلى أعلى محكومتين بالشومة والكلبشات، وهذا نوع جديد من الفلكة المكوّن من الشوم والكليشات والكرابيج السوداني. وبدأ الضابط يضرب أول كرباج وكان له طعم النار المحرقة، وبسرعة أخذ غطاس الكرباج من الضابط وهو يقول له: عنك أنت يابيه.. فتركه الضابط وانصرف

إلى مكتبه، وكان الحكم الذى أصدره القائد أربعة كرابيج جعلهم غطاس أربعين كرباجاً بلا مبالغة وكان يقول لى قل أنا امرأة وأنا أسيبك.. فرفضت وقلت بتحدى أنا رجل وأنت تعلم ذلك جيداً مما زاد فى غيظه ومن شدة لسع الكرباج وضعت ذيل البيجامة الجديدة فى فمى حتى أكلته بأسنانى».

إلى جانب الفلكة هناك «الساقية» حيث يقف الجنود فى دائرة وكل منهم يحمل شومة أو خيزرانة أو خرطوم كاوتش وأكثر من معتقل كل منهم يجرى وراء الآخر داخل الدائرة ويضربه على قفاه، وبالطبع كان الشيوعيون يرفضون أن يضرب أحدهم الآخر فينهال السجانة على الجميع بالضرب.

طالت تلك الحبسة نحو ثمانية شهور وضمت رفاقاً من حدتو ومن الحزب الشيوعى المصرى، وكان من بينهم فيليب جلاب ود. عبدالرازق حسين وأديب ديمترى وطاهر عبدالحكيم ولطفى الخولى والضابط محمد الخفيف وفخرى لبيب ونبيل زكى وفوزى حبشى وأحمد طه وفتحى عبدالفتاح، إلى جانب عدد من الديمقراطيين واليساريين غير المنتمين لمنظمات مثل د.لويس عوض ومحمود السعدنى، وكذلك مجموعة أبو قرقاص التى ضمت عدداً من أعضاء احدى جمعيات مدارس الأحد القبطية قبض عليهم إثر بلاغ كيدى واتهموا بأنهم يشكّلون خلية شيوعية تقوم بتوزيع المنشورات! ورجل من دمياط كان من الإخوان المسلمين واتهمه

جاره بالشيوعية! وآخر شاهد شقيقه - وكان شيوعياً - يضرب في الشارع فتدخل لانقاذه، وكانت النتيجة القبض عليه. اقتسم قطعة الحشيش التى كانت معه لحظة القبض عليه مع حارسه، وعندما انتهيا من شد الأنفاس، دخل إلى وكيل النيابة ليحقق معه، وسأله الأخير:

- هل أنت عضو في الحزب الشيوعي؟

لم يكن يعرف ما هو الحزب الشيوعى، وأرسل مع ذلك إلى معتقل العزب وبقى فترة أطول من الفترة التى قضاها أخوه!!

تحطيم الإرادة والاحساس بالذات وتفكيك الرابطة الحزبية وإهانة الكرامة الإنسانية وإذلالها.. كان ذلك هو الهدف من الاعتقال وليس مجرد العقاب. لذلك كانت المباحث العامة قد أعدت «كورسات» سريعة لادارة المعتقل وسجانيه ملخصها أن الشيوعيين ليسوا فقط عملاء وجواسيس لروسيا، بل أيضا منحلون وكفرة ويغشون المحارم وربما عفاريت يتصلون بالقوى الخفية !

ولأن هدف الاعتقال زرع الخوف الدائم والقبول بالإهانة، فإن الاستقبال يكون منذ اللحظة الأولى عاصفاً، مع عدم السماح بتبادل الكلام، وضرب وتعذيب من تم اختيارهم كمندوبين بجرعات مكثفة، وتحويل كل معتقل إلى مجرد رقم، العشوائية في الضرب والسحل والتعذيب البدنى الدائم في كل وقت، واغلاق الزنازين طوال اليوم والاكتفاء بفتحها نصف

ساعة في الصباح ليتدافع نحو ٦٠ معتقلا في كل عنبر نحو دورة المياه التى كان عدد فتحاتها نحو ثمانى فتحات فقط، المؤكد أنها خطة مدروسة جيدا لانهاء الكيان الشخصي. فإلى جانب وجبات التعذيب اليومية الاجبارية، تم عزل المعتقلين عن الخارج، فلا صحافة أو إذاعة أو زيارة أو كتب. كما يتم تجويعهم حتى يصل الجسد إلى حالة من الضعف تؤثر فى معنويات المعتقل وتجعله مهيئاً للاصابة بأى مرض . وبالفعل انتشرت الدوسنتاريا والأنيميا الحادة والانفلونزا والتهابات اللثة والحلق والبواسير وغيرها .

فى تلك الفترة كتب فؤاد حداد عدداً كبيراً من قصائده، من بينها مثلا :

الصمت ينصت يابوى للصمت بالساعات
ولا عمل للعيون واليد بالساعات
يارب يا اللى خلقت القمر والشمس
يارب طالب من الدنيا شوية شمس
يارب وسمعنى من البشاير همس ..
بالساعات .

وسرعان ما أدرك المعتقلون أنه لاسبيل أمامهم إلا المقاومة، وأن هدف الجلادين ليس مجرد عقابهم بل تحويلهم بفعل الخوف الدائم المستمر إلى حيوانات مذعورة. شكلوا أولا

جهاز اتصال محدود بين العنابر وارتبط به جهاز آخر للناضورجيه الذين كانت مهمتهم مراقبة تحركات الإدارة نحو العنابر ومتابعة البصاصين الذين يتجسسون على العنابر، كما حرصوا على إجراء مناقشات سياسية متنوعة حول الأوضاع الاجتماعية والسياسية المختلفة، وكذلك اعداد برنامج للتثقيف النظرى للشباب حديثى العهد بالعمل الحزبى. وبالفعل نجح جهاز الاتصال فى توفير أقلام وورق بفره لاعداد التقارير والتوجيهات واعداد مخابىء لها فى العنابر .

أظن أن الشيوعيين هم الذين ابتدعوا نظام «الحياة العامة» فى السجون، وهو يقضى بأن كل ما يمتلكه المعتقل، سواء ما يرد إليه فى الزيارات أو الطرود من الخارج أو المبلغ الموجود باسمه فى أمانات السجن، يتم تجميعه لدى «لجنة الحياة العامة» التى تقوم بدورها بتوزيعه على الجميع دون تمييز. غنى عن البيان أن هذا التنظيم للحياة داخل المعتقل يمنح المعتقلين ما يحتاجون إليه من التضامن والحس الرفاقى، وهو إضافة إلى ذلك شكل من أشكال تطبيق أفكارهم ومبادئهم السياسية على الواقع المعيش ، ولما لم يكن ممكنا تطبيق ذلك الشكل على كل عنابر معتقل الحزب بسبب الظروف السابق الاشارة لها، فإن كل عنبر شكل لجنة حياة عامة وحده تتولى الإشراف على نظافة العنبر وتنظيم

استخدام المياه المحدودة فيه، وانضوى الجميع تحت جناح اللجنة سواء المنتمون لحدتو أو ٨ يناير أو المستقلين .

المرحلة التالية كانت التصدى للإهانة والسب والرد بالمثل، وهو ما كان يعرضهم لعقاب خاص بالنقل إلى زنازين التأديب أو بوجبة تعذيب خاصة، لكن المهم أن حاجز الخوف قد تم كسره، ونجحت شبكة الاتصال عبر النوافذ بين العنابر فى إقامة جسر شبه منتظم. وفى داخل العنابر كانت تنظم ندوات ثقافية، فيحكى البعض ما يعرفه من أحداث الأعمال الروائية لهيمنجواى وشولوخوف ونجيب محفوظ ومسرحيات أونيل وتنيسى وليامز وبريخت ونعمان عاشور، أو عرض بعض الكتب الفكرية لماركس ولينين والأفغانى ومحمد عبده، أو يغنون لسيد درويش وعبده الحامولى، بل ونجح العنبر الذى يقيم فيه لويس عوض فى عقد ندوة عن القومية العربية شارك فيها إلى جانب عادل حسين ممثلا لحدتو نبيل زكى ممثلا للحزب ولويس عوض كمستقل.

ومن التصدى للإهانة وكسر حاجز الخوف انتقل المعتقلون إلى مرحلة المواجهة والمقاومة، وساعد على ذلك ورود دفعة جديدة من المعتقلين قادمة من محطة التجميع الرئيسية فى القلعة، ضمت عدداً من قيادات الحزب الذين كانوا على علم مسبق بما يجرى فى معتقل الحزب، ولم يفاجأوا وقاموا بدور

رئيسي في ذلك الانتقال إلى المقاومة. يحكى عدلى جرجس فى جدارية فخرى لبيب السابق الاشارة لها أن زملاءه فى العنبر أقاموا له حفلا تحية له ليلة وصوله، وسمع أصواتهم بعض السجانة والضابط المسئول، وسبهم الأخير سبا بذئيا وتحداهم أن كان فيهم شجاعا أن يعلن عن اسمه، فتصدى له عدلى جرجس وأخبره باسمه . فى الصباح أخرج الضابط كل أفراد العنبر وسأل عن عدلى جرجس، فخرج له من الطابور عشرة رفاق، فرفض هذا التصرف وطلب من كان يدعى الشجاعة الليلة الماضية. وعندما خرج عدلى جرجس ضرب وألقى به فى «زنزانة الخنازير» ومساحتها متر × مترين وبها جردل للمياه وجردل للشرب ومكتومة لايدخلها الضوء أو الشمس. وبعد خمسة عشر يوما زار مدير أمن المحافظة المعتقل بالمصادفة باعتباره مجرد سجن يقع ضمن اختصاصاته وليس معتقلا للشيوعيين. وأثار المعتقلون ضجة نبهت عدلى جرجس فأخذ يدق على باب الزنزانة ويصيح من داخلها، وهنا أمر الزائر بفتح الزنزانة وخروج المعتقل، فخرج ومعه الرائحة العفنة الفظيعة. وعندما سأل مدير الأمن عما يجرى سارع عدلى جرجس باخباره أنه يتم الاعتداء عليه وعلى زملائه وأنهم يعيشون دون علاج أو طابور شمس. كانت النتيجة اغلاق زنزانة الخنازير بأمر مدير الأمن ونقل عدلى

جرجس لأحد العنابر .

هذا التحسن الطفيف المحدود في الموقف دفع المعتقلين إلى اتخاذ خطوة جديدة خصوصا بعد أن وصل عددهم إلى ما يقرب من ٥٠٠ معتقل . ومن خلال جهاز الاتصال نجحوا في اتخاذ قرار جماعي بالامتناع عن تسلم الطعام، وهي خطوة تسبق الاضراب عن الطعام، في سلسلة الخطوات التصاعدية، وتستلزم أن يحافظ المعتقلون على الطعام الموجود لديهم بالفعل في الزنازين واستخدامه أثناء الامتناع، وتحددت المطالب في وقف سياسة الضرب والتعذيب وأن يمتد طابور الشمس إلى ساعة صباحاً وساعة أخرى بعد الظهر وتحسين الغذاء واستلام الطرود دون تدخل من الإدارة لوقف أعمال السرقة من جانب الأخيرة والسماح بدخول الجرائد والمجلات والورق والأقلام والكتب .

وتحدد يوم الامتناع وتم ابلاغه للجميع. فوجئت الإدارة بأن كل العنابر ترفض استلام الطعام بواسطة مندوبيها وبنظام أفاق الإدارة، ودفع قائد المعتقل للقيام بجولة على العنابر . وعندما يسأل عن سبب الامتناع يجيبه المندوبون فقط بمطالبهم، وهو يرد عليهم بأنه ينفذ أوامر الجهات العليا ولايملك تغييرها . ووصل الموقف إلى ذروته بتهديد القائد لهم بالقتل وسط الصحراء واتهامهم بالتمرد لكنهم تمسكوا

بمطالبهم، فرضخ القائد ووافق على بعض المطالب مثل وقف الضرب والاعتداء البدنى وتحسين الطعام وتوفير العلاج واستلام الطرود بواسطة المعتقلين، كما وعد «بشرفه» أن يتصل بالقاهرة بشأن بقية المطالب وتزكيتها. لكنهم أصروا على ضرورة حضور النيابة. ولما كان اختبار القوة متبادلا من الجانبين، كان عليهم الاختيار بين الاكتفاء بما وصلوا إليه من نجاح، باعتباره أقصى ما يمكن الوصول إليه فى تلك الظروف، أو الاستمرار نحو مجهول لايمكن التنبؤ به، واختاروا الاكتفاء بما وصلوا إليه .

تحسنت الأوضاع بعض الشىء ، والأهم أنه تم اتخاذ تلك الخطوة الجماعية فى المقاومة مما كان يعنى تغيير موازين القوى. وبعد بضعة أيام عادت الإدارة للتفتيش والاستفزاز والسحب إلى الفلكة والتأديب، وما لبث كل شىء أن عاد إلى النقطة صفر قبل الامتناع عن استلام الطعام. كان المعتقل يضم رفاقا من حدتو و٨ يناير والمستقلين. وكان ضروريا الحفاظ على وحدة الموقف التى سبق تحقيقها أثناء الامتناع الأول قبل اتخاذ خطوة جديدة . ودار نقاش حول الامتناع مرة أخرى عن تسلم الطعام والتقدم بالمطالب السابقة نفسها مع التمسك بحضور طرف ثالث حددوه بمباحث أمن الدولة أو النيابة العامة قبل أى اتفاق . وحسبما أشار فخرى لبيب فإن

رفاق حدتو رفضوا في البداية دخول الامتناع على أساس عدم جدوى تلك الأساليب وأنها لاتؤدى إلا إلى استفزاز الدولة التي مازالوا يعتبرونها حليفا لهم !! لكنهم وافقوا في النهاية لا عن اقتناع بل كموقف تضامني مع باقي المعتقلين .

في الوقت نفسه، وقبل تنفيذ القرار، وأثناء احدى حملات التفتيش المفاجئة، عثر على أوراق مكتوبة مع أحد المعتقلين فسحب إلى التأديب وتم تعذيبه بعنف حتى اعترف على مصدر الأوراق، وضاعفوا جرعات التعذيب ليعترف على القيادة الحزبية للمعتقل، وانهار معترفا على المهندس فوزى حبشي مسئول العنبر . في اليوم التالي وحسب شهادة الأخير في الجزء الثالث من «شهادات ورؤى» :

«في ٩ سبتمبر ١٩٥٩ فوجئت باستدعائي لمكتب مأمور المعتقل ووجدت ضيفا بالملابس المدنية هو العقيد عبدالعزيز شاكر (من مباحث أمن الدولة) يتوسط حلقة من الجند لاتقل عن عشرة وأمر بخلع ملابسي تماما، ودون سابق انذار انقضوا جميعا بالكرابيج بشكل وحشي حتى أن الوجه لم ينج من الضرب.. وقد كسرت العصا الخشبية لأحد الكرابيج في يد واحد من العساكر وطلب تغييره من جندى هجانه من الحراس خارج سور المعتقل، ولكن ذلك الجندى نهره صائحاً: «كفاية يا وحوش .. الراجل مات في ايديكو ..» . ويضيف :

«ولما سال الدم من جميع أجزاء جسمى أمر ذلك الضيف الثقيل باحضار كيس ملح طعام من سيارته (أى أن خطة القتل كانت معدة مسبقا) واذابته فى جردل مياه وعصر منه على جروحى وملابسى الداخلية متصورا أن صدمة الألم الشديدة قد توقف القلب فسقطت شبه فاقد الوعى على الأرض، فأمرهم بسحبى إلى الزنزانة ولكننى رفضت واتكأت على كتف أحد الجند ووصلت ببطء شديد إلى حيث سقطت مغشيا علىّ على أسفلت الزنزانة منفرداً» .

لم ير بقية المعتقلين ما جرى فقد كانوا فى عنابرهم إلا من كانوا فى زنزانة الخنازير التى ألقى فيها فوزى حبشى على شفا الموت. استطاع الاخيرون أن يبلغوا ما جرى لرفاقهم، فاتخذ القرار بالامتناع عن استلام الطعام فى اليوم التالى . توجه أحد الضباط للعنابر وراح يسأل عن الأمر وأبلغه المندوبون بالقرار. وبعد قليل دار شاويشية المعتقل على العنابر يطلبون حسب أوامر القائد مندوبين للتفاهم، فرفض الجميع قائلين إن من يريد التفاهم عليه أن يحضر لنا، واضطر القائد للذهاب إليهم، وحاول أن يكرر ما سبق أن فعله فى الامتناع الأول من الوعود والقسم بشرفه .. الخ ، إلا أن الرد كان حاسما من كل العنابر : «لاتفاوض مع إدارة المعتقل .. نريد طرفا ثالثا : النيابة العامة أو مباحث أمن الدولة» .

أبلغ ناضورجية العنابر زملاءهم أن منير غالي - المأمور - عاد هائجا إلى مكتبه، وبعد فترة أرسل الشاويش غطاس ليبلغهم أن غالي لايطلب مندوبين كالمعتاد بل أحداً يصل معه إلى حل! ومع ذلك خرج من كل عنبر مندوبان كالمعتاد، وفى الطريق إلى الإدارة، كما يروى فخرى لبيب «مررنا بزنزانة التأديب، رأيت شيئاً ملقى إلى جانب الحائط وملقى عليه غطاء دام. قال أحد الزملاء إنه فوزى حبشى .. لقد مزقوه بالأمس . أحسست بنار العالم تشتعل فى أعماقى. أدخلونا حجرة ضيقة فاكتظت بنا. كانت حجرة السلاحليك ولم يكن بها أى سلاح (!) . فجأة اندفع القائد إلى وسط الحجرة وحوله جوقته. نظر إلينا كالفائز فى حرب يتأمل باكورة أسراه. ساد الصمت الأخرس. أخيرا نطق القائد. قال تهديدا ووعيدا. خلع رداء التمثيل الذى كان يرتديه من حين إلى حين. بدا عاريا على حقيقته كوحش مخبول . قال : « من أنتم ومن تكونون .. أننى هنا الآمر الناهى، سأقتلكم جميعا وأدفنكم .. النصارى فى مقابر النصارى والمسلمين فى مقابر المسلمين..» كانت المقابر بالفعل تحيط بالمعتقل . رفعت يدى أطلب الكلام . صرخ . القائد : «ماذا تريد؟» قلت «أحتج على هذا الكلام الذى تقوله وأقول لك أنك لن تستطيع قتل أحد منا .. لا من النصارى ولا من المسلمين..» بدا فى أول الأمر كمن فوجئ،

أو كمن اصابه الذهول ثم أفاق فصرخ كالوحش الجريح : « أنت .. أنت ماذا قلت؟» فأعدت فى هدوء ما قلته، إلا أن جنديا دخل الحجرة وقال إن سيادته مطلوب على الهاتف» .

ليس معروفا ما إذا كان استدعاؤه تمثيلية معدة من قبل، أم أنه كان مطلوبا بالفعل . وبعد قليل جاءت الأصوات من الخارج : اصطفاف جنود وزعيق وضجيج وصياح .. كتفا سلاح .. ثم أصوات القبضات على البنادق .. واستمر هذا بعض الوقت، وشعر المندوبون فى حجرة السلاحليك أنهم سيقتلون رميا بالرصاص واستعدوا لذلك فلا مفر من الاستمرار حتى النهاية . وبعد فترة أخرى عاد الشاوش غطاس قائلا إن القائد يطلبهم فى المكتب. وبالفعل توجهوا إلى مكتبه وقد داخلهم اليقين أنها النهاية. لاشك أنهم شعروا بالخوف إلا أنهم حاولوا التماسك . وشيئاً فشيئاً وأثناء النقاش الذى دار بينهم وبين القائد تمالك المندوبون أنفسهم واستطاعوا أن يقهروا خوفهم وأصروا على حضور النيابة بعد ما جرى لفوزى حبشى وحتى ذلك الحين طالبوا بتطبيق اللائحة . بدا القائد غبيا لايستطيع مقاومة الحجج التى تساق أمامه ، أخبروه أنه لايملك ورقة من المباحث تفيد بتلك الإجراءات التى يتخذها وأن ما يحدث هو أوامر شفوية بالهاتف، وأن أى تحقيق إذا قتل واحد منهم سيتحمل

مسئوليته وحده وأنهم على استعداد للقتل على أى حال وليتحمل هو المسئولية !

المثير للدهشة إن النقاش استمر، فقد أحس القائد أنه أمام نوع آخر من البشر لايتصوره وعاجز عن فهمه، فاضطر أن يتساءل : لماذا اعتقلتم؟ كانت الإجابة لأنهم يطالبون بالديمقراطية فعاد يسأل وماهى الديمقراطية؟ فأجابوه ماذا تعنى الديمقراطية وما هو البرلمان ودوره .. الخ .. الخ .. دارت المناقشات أمام قوة المعتقل من الشاويشية والضباط والسجانة، وانتهت إلى محاولة أخرى من منير غالى الذى أعلن عن استعداده لتنفيذ كل المطالب ولاحاجة لحضور طرف ثالث، لكن الرفض كان حاسماً ، بل وانسحبوا من أمامه، فأمر بعودتهم إلى عنابرهم .

أثناء عودتهم صفق لهم رفاقهم من العنابر ، وسادت المعتقل حالة غريبة من الفرح والترقب والخوف والبهجة، وتواصلت الاجتماعات داخل الزنازين للاتفاق على الخطوة التالية وهى الاستمرار فى الامتناع عن استلام الطعام. وفى الصباح رفض الشاويشية فتح الأبواب للذهاب إلى دورات المياه.

كانوا قد انتزعوا احترام سجانيهم من العساكر والشاويشية بسبب ثباتهم فى مواجهة قائد المعتقل فى اليوم

السابق، لذلك أبلغهم أحد هؤلاء السجانة أن عددا من السيارات الخاصة وصلت إلى المعتقل من القاهرة منذ الصباح المبكر، وأن اجتماعا يعقد الآن بين قيادة المعتقل والمباحث .

مرت فترة ثقيلة استمر خلالها اغلاق العنابر والمعتقلين داخلها يتململون، وما لبثوا أن فوجئوا بقوة ضخمة من الجنود المرتدين خوذات والحاملين بنادقهم وبصحبتهم حكمدار المحافظة. قام الأخير بمحاولة لارهابهم باخراج أفراد كل عنبر وتهديدهم باطلاق النار وأخبرهم أنه من السهل قتلهم بحجة التمرد لكن الرفض واجههم من الجميع.
يقول الدكتور فايق فريد فى شهادته لفخرى لبيب :

«استطعنا أن نشرح قضيتنا جيدا فنحن نعرف أنه ليس مسئولا عن اعتقالنا لكى نطالبه بالافراج عنا، وركزنا مطالبنا على أن نعامل معاملة إنسانية وأن توقف جميع أساليب التعذيب من ضرب وإهانة وجلد» واستمروا فى عرض المطالب التى لم تكن أكثر من تطبيق لائحة ومصلحة السجون، وهو ما يعرف مدير الأمن جيدا أنه حقهم . وعندما اتهموا إدارة المعتقل بالاتفاق مع متعهد التغذية على سرقة الطعام الهزيل الذى يصرف لهم وكذلك الطرود التى ترسل لهم من الخارج، بدأ الرجل فى الإصغاء لهم. ولأنه كان بعيدا عن تأثير مباحث

أمن الدولة وكل ما يهمه أن ينهى الأمر بأقل قدر من الخسائر، طلب مندوبين فى مكتب القائد، وأمر بتفتيش خيمة الشاويش غطاس الذى اتهمه المندوبون بسرقة حاجاتهم الشخصية، حيث عثر بالفعل على بعض متعلقاتهم فأمر بإلقاء القبض عليه ووقف عقوبة الجلد نهائيا وعدم صرف أى طعام إلا بعد وزنه مع النظر فى بقية المطالب».

فى هذه المرة تغير الموقف وتحقق الانتصار وحصل المعتقلون على قدر من المكاسب لايستهان به ويسرت بالتأكيد حياتهم فى المعتقل . يقول فخرى لبيب :

«نحن نتحرك فى المعتقل بحرية. نتجول لأول مرة دون سباب أو شتائم أو إرهاب بالفلكة . الجنود يبدون الكثير من المشاعر الإنسانية. البعض يتمنى لنا السلامة والبعض يعتذر عما قام به ضدنا ..».

سأفتح قوساً هنا لأشير إلى واقعة مثيرة للدهشة. فى صباح أحد الأيام طلبت إدارة المعتقل د. عبدالرزاق حسن وحده، وتصور الجميع أنه سيتم الافراج عنه، لكنه عاد فى المساء، ثم تبين أنه كان قد توجه إلى بيته فى القاهرة تحت حراسة مشددة ليحضر مذكرة اقتصادية هامة كان عبدالناصر قد طلبها، ثم أعيد عبدالرزاق إلى المعتقل!!

وعندما تقرر ترحيل دفعة بلغ عددها ٤٠ معتقلا إلى

الواحات، أصروا على أن يأخذوا معهم فوزى حبشى، على الرغم من أن اسمه لم يكن موجودا فى كشف الترحيلات، وهو ما دفع منير غالى للرفض لأنه لايملك اتخاذ مثل ذلك القرار. وكانت اجابتهم: عليه أن يتصل بالقاهرة، والأكثر إثارة للدهشة أن المباحث في القاهرة وافقت . يقول فخرى لبيب:

«زأر الرفاق بالهتاف. طار الخبر إلى كل العنابر . ارتفعت الأناشيد وزادت حرارتها حتى بدا المكان وكأنه صرخة واحدة مدوية. الزملاء يعدون فوزى حبشى للترحيلة. غسلوا جسده الدامى برفق وحنان. كانت الدموع تلمع فى عيون البعض منهم وفوزى يشجعهم كأن هذا الجسد المهشم المكدود ليس جسده. لقد قدم فوزى حبشى في بطولة وإباء وبإرادة الثوار جسده ودمه فداء للمعتقل كله. أخيرا .. أصبح جاهزا . أخفى القطن جسده العارى، وفوق القطن روب دى شامبر (تبرع به أحد الزملاء) وأصبحنا مستعدين للرحيل . ربطنا إلى الحجلات ماعداه. اتجهنا إلى البوابة حيث سيارات الترحيلة. دوى الهتاف بحياة وكفاح الشعب المصرى والطبقة العاملة وكفاح الشيوعيين والحزب الشيوعى».

إلى الواحات اتجهت تلك الدفعة، بينما انطلقت دفعة أخرى تضم مجموعة فؤاد مرسى من الواحات إلى سجن مصر،

وبقيت عدة دفعات فى معتقل العزب توزع بعضها إلى الواحات، والبعض الآخر إلى الأوردى، ومن الأوردى جرى ترحيل دفعات إلى سجن الحضرة بالاسكندرية، بينما اتجهت دفعات تالية إلى سجن مصر، إلى جانب الدفعات التى انطلقت من الواحات إلى الحضرة مباشرة أو سجن القناطر، فى الوقت الذى كان سجن القناطر للنساء يستضيف دفعات أخرى! ..

وهكذا كانت كل السجون والمعتقلات مشغولة على الدوام. متابعة تلك التغريبة الطويلة أمر بالغ الصعوبة على مدى خمس سنوات دامية، لكننى سوف أحاول !

□□□



(١٥)

سـأفـتـح قـوسـاً فى هـذا الفـصـل لأتحـدث عن عـدد من الشهداء ، لعل أولهم منذ بداية التجريدة الشهيد محمد عثمان الذى انضم لمنظمة ايسكرا فى أواخر الاربعينيات ، وشارك مع فخرى لبيب فى تأسيس لجنة مقاومة الكوليرا فى جزيرة بدران وروض الفـرج . ثم اتحـدت ايسكرا وح.م لتـشكلان حدتو، وخرج من حـدتو ليشارك فى تأسيس منظمة طليعة الشيوعيين . انتسب لكلية الحقوق وعمل فى الوقت نفسه مـوظفـاً فى مـجلس النواب . قـبض عليـه فى منتـصف عـام ١٩٥٤ وحكم عليه بثلاث سنوات ، وتفرغ بعد خروجه للعمل الحزبى . عـاد إلى حـدتو بعـد وحـدة الموحد ، وعندما بدأت تجريدة يناير ١٩٥٩ كلفه الحزب بالتوجه إلى طنطا ضمن خطة لتوزيع الكادر الحزبى حيث ألقى القبض عليه هناك ، كما ألقى القبض على رفيقيه أحمد عيد وسعيد النحاس.

كان ضابط المباحث فى طنطا هو البكباشى أنور منصور المعروف كواحد من أكثر الجزارين بشاعة وسادية ، وحاول فور اعتقال محمد عثمان أن يعرف منه خريطة الحزب بالغربية وأماكن الهاربين . أشرف أنور منصور بنفسه وشارك فى ضربه وتعذيبه ليلة كاملة بالعصى الغليظة والكرابيج والشوم وكعوب البنادق ، وكلما سقط مغشياً عليه ،

يقومون بإلقاء الماء على وجهه ليعترف . ويحكى رفيقه الذى كان شاهداً على تعذيبه (سعيد النحاس) أنه تم تعذيبه هو ورفيقه أحمد عيد حتى أغمى عليهما من شدة التعذيب ، وعندما أفاقا قال أحد ضباط المباحث ممن شاركوا فى التعذيب للمخبرين:

- هاتوا محمد عثمان عشان يشوفوا عملنا فيهم إيه ويعترف!

جاء المخبرون يجرون خلفهم شخصاً مسجى على ظهره ووجهه بلا ملامح من شدة الضرب وفاقد الوعى ويبقى أمامه أكثر من ساعتين . ومن مكانه سمع النحاس صوت أنور منصور ينبه زبانيته أن يحضروا كورامين لإفاقة محمد عثمان ، لكن الشهيد لم يتقبله ولفظه.

ثم أخذوا النحاس وعيد وحدهما وحبسوهما فى دورة المياه حتى الصباح حيث عادوا بهما إلى المكان نفسه فوجدا محمد عثمان مايزال ملقى حيث تركاه فاقد الوعى . أنزلوهما إلى فناء واسع به سيارة بوكس وأخرى ملاكى ، ثم شاهدا المخبرين يهبطون من أعلى يحملون محمد عثمان حتى السيارة الملاكى وألقوا به فيها ، بينما ركب النحاس وعيد السيارة البوكس حتى وزارة الداخلية فى لاظوغلى .. وفى نهاية اليوم تم ترحيلهما إلى قسم الموسكى ، ومنذ تلك اللحظة

اختفى محمد عثمان إلى الأبد .

وإحكاما لاخفاء الجريمة التى ارتكبتها المباحث ثم تقديمه للمحاكمة باعتباره هارباً والمحكمة من جانبها حكمت عليه بالسجن ٥ سنوات غيابياً !! على الرغم من أن عدداً كبيراً من رفاقه أبلغوا النيابة رسمياً عند القبض عليهم ، ففخرى لبيب وفوزى حبشى وزميليه النحاس وعيد ونبيل صبحى وغيرهم سجلوا قتله بيد المباحث فى التحقيق معهم وطالبوا بالتحقيق فى الجريمة .

حالة الشهيد محمد عثمان لم تتكرر كثيراً ، لأن أنور منصور وزبانيته لم يقتلوه فحسب بل أخفوا جريمتهم ودفنوه فى مكان مجهول حتى هذه اللحظة ، وامعاناً فى التضليل قدموه للمحاكمة باعتباره هارباً . وعندما انعقدت المحكمة العسكرية لتحاكم الشيوعيين عام ١٩٥٩ وقف عبد المنعم شتلة وروى ما جرى لمحمد عثمان وتعذيبه حتى الموت لكن رئيس المحكمة أمره بالتوقف فأصر قائلاً : اننى أتهم المباحث العامة بارتكابها جريمة قتل أحد رفاقنا الشهيد محمد عثمان وأطالب بالتحقيق فى هذه الدعوى، كما أتقدم للنيابة الموجودة هنا بطلب استدعائى والتحقيق معى فيما نسبته للمباحث العامة» و مع ذلك لم يتم التحقيق.

والدته ستوته أحمد الشرقاوى قالت لفخرى لبيب أنها بعد

القبض عليه بشهر تقريباً وجدت خطاباً ملقى أسفل الباب مكتوب فيه إنهم قبضوا على محمد وعذبوه وقتلوه ، كما ذكر الخطاب أيضاً أنه مرسل من زملائه الذين رأوه بأعينهم . جن جنونها فأخذت الخطاب وذهبت إلى وزارة الداخلية تطالب بابنها قائلة:

– انتو بتقولوا أنكم وطنيين وبلد وطنية ولا بتموتوا الناس ولا حاجة وأنتم الضبط والربط .. دلوني على مكان ابني...

طردوها في نهاية الأمر .. قال لها البعض أن تذهب إلى مباحث طنطا ، ولم تكن تعرف أحداً في طنطا ، قضت ليلتها في الجامع لأنها وصلت متأخرة . وفي مباحث طنطا دخلت حجرة بها ثلاثة ضباط . وبعد لجاج المباحث المعروف قالوا لها : ابنك هرب عند خروشوف .

فقالت لهم أنا لا أعرف خروشوف أنتم الذين تعرفوه ،، وأنا أريد ابني فقالوا لها : هل تعرفين ماذا كان يفعل ابنك؟ .. قالت لهم : ابني طيب وابن حلال .. يقلع قميصه لحبيبه ويعطي ما في جيبه لصاحبه .. بيحب الناس ووطني حر..

اخذوا منها الخطاب وطردوها ايضاً لكنها كانت تتذكر كل كلمة مكتوبة فيه فطلبت من أحد معارفها أن يكتبه لها مرة ثانية وأخذته وذهبت إلى «حقوق الانسان» كما قيل لها . أخذوا منها الخطاب ووعدوها بالضغط لاتخاذ اجراء دون

نتيجة . ثم سمعت أنهم فى «بلاد بره» يسألون عن الأسماء الغائبة وذكر اسم ابنها فى الاذاعات الأجنبية . وذهبت بعد ذلك إلى الهلال الأحمر وأطلعتهم على نسخة من الخطاب ووعدوها بالتدخل ، وانتهى بها المطاف إلى دار القضاء العالى وأصرت على مقابلة النائب العام . افهمها الأخير أنه عمل محضراً وسوف يتصرف ويعيد لها حقوقها إلا أن شيئاً من هذا بالطبع لم يحدث تقول السيدة ستوتة :

«سمعت أنهم دفنوه فى مصر وسمعت كمان أنهم دفنوه فى طنطا ، لما كان الموسم بييجى كنت أروح القرافة . أقعد هناك بالأربع أيام . أحط قطن فى ودانى عشان ما اسمعش مدافع العيد وساعات ألف فى الشوارع . أقعد على الرصيف ده شوية والرصيف ده شوية مش عارفه لابني دليل . كنت أحياناً أحط الأمل فى نفسى وأقول يمكن يفتح الباب ومعاه مراته وأولاده ويقول لى يا أمى أنا كنت صحيح هربان واديني رجعت تانى . كنت ها اتجنن . أصابنى السكر والضغط والروماتيزم وعينى الشمال باظت وأحيانا أحس أن النار ولعت فى جسمى كله..

بعد سفر عبد الناصر ومحاولته ابعاد شبهة قتل شهدى عطية وفريد حداد عنه خبط الباب الساعة ثلاثة الفجر . قلت مين ؟ قالوا : تلغراف . انزعجت وفتحت الباب لقيت

خمستاشر واحد واقفين على العتبة . بصيت لقيتهم ملوا البيت . قلت لهم : اللهم صلى على النبى .. أنتم جايبين محمد يبقى يا مرحبا إذا كان مماكوا . قالوا : هو فين محمد .. أنتى مخبية محمد ليه؟ مسكت فى الضابط وقلت له يبقى أنت عارف محمد فين .. سابونى ودخلوا يفتشوا .. أبوه قام مفزوع ومن يومها أصابه المرض . ودخلوا على ابنى سيد وكان عندنا ضيفة نايمة دخلوا صحوها وسألوا عن محمد . أنا مادريتش بنفسى مسكت فى الضابط وقعدت أصرخ ياقتلة ياظلمة ياسفاحين يا بلد كلها ظلم .. انتو قتلتوا محمد .. الضابط قالى لى أن محمد حى بس هو هرب واحنا بندور عليه ..».

بعد اسبوعين مات الأب متأثراً بالتفتيش الهمجى..

لم تكن السيدة ستوته أما لمحمد وشقيقه حسن المناضلين الشيوعيين فقط ، بل كانت أما لكثيرين وسبق لها أن آوت زملاء ابنها الهاربين من مطارده البوليس مثل عبد الوهاب ندا وفخرى لبيب ، لذلك نالت عضوية الحزب الشيوعى الموحد عام ١٩٥٥ ، كما أنها استقبلت فى بيتها مناضلا أخر هو صلاح هلال وخطيبته وعقدت قرانهما فى ذلك البيت لأن أهلهما كانوا رافضين لزواجهما ..

ظلت النار مشتعلة في جسمها ولا تستطيع أن تنسى ما جرى لابنها .، وعندما جاء السادات إلى الحكم فتحوا باب التظلمات في محاولة لتجميل وجه النظام ، وبالفعل اصطحبها الاستاذ نبيل الهلالي المحامي ومعها النحاس الذى شاهد قتله وكذلك صديقيه فوزى حبشي وعريان نصيف ، في تلك المرة تحديداً استمعت بنفسها لما رواه النحاس حول ضرب وتعذيب محمد عثمان حتى الموت . تقول السيدة ستوتة : «أنا مابقتش دريانه وأغمى على . كل اللى كنت باسمعه قبل كده كلام واشاعات ، لكن دلوقت باسمع اللى حصل من واحد شافه ، حسيت أن محمد بيتعذب قدامي.

قلت أنا عاوزة ابني. أنا مش هاتنقل من هنا غير لم تجيبوا ابني ! » وتضيف : «بعد كده حولوا القضية لطنطا وخلصت على كده ..».

كما قتل الضابط الجزار يونس مرعى طبيب شبرا فريد حداد ضرباً بالعصى والشوم في حفل الاستقبال الذى كان يقام كلما حل «ايراد جديد» على الأوردى . وبعد ذلك بأقل من شهر ونصف الشهر قتلوا شهدى عطية الشافعى . أما سيد أمين فقد مات في قصر العيني بعد أن تعرض للتعذيب فى السجن ونقل ليلفظ أنفاسه الأخيرة فى قصر العينى . كما

تأخر نقل عامل النسيج على زهران إلى المستشفى على الرغم من الآلام الرهيبة التى كان يعانى منها وتدهورت حالته . وبعد حملة داخلية وخارجية واسعة للضغط من أجل نقله لأحد المستشفيات لفظ أنفاسه الأخيرة أيضاً ، وهو نفس ما جرى لابن الاسكندرية أحمد البكار رفيق نضال شعبان حافظ . وهو أيضاً ما جرى لحسب الله على مرسى وهلال عبد العزيز وسعد التركى وعبد القادر مفتاح ومحمد رشدى خليل وعلى متولى الديب .. كلهم ماتوا بعد تعذيبهم أو إثر إضرابهم عن الطعام سواء فى المستشفيات أو داخل المعتقلات والسجون .

□□□

كانت الحملة ضد الشيوعية فى ذلك الوقت حملة مجنونة ، أتيح فيها لأجهزة الأمن أن ترتع وتلعب !

ففى السجن الحربى تعود قائده حمزه البسيونى أن يتجول بشواربه الضخمة وجسده الهائل الحجم فتتوقف الدنيا تماماً بما فى ذلك الكلاب حتى يصيح أحد الجنود:

« إ .... نتباه!».

هنا تبدأ الكلاب فى النباح ويتبعها المعتقلون الذين يؤمرون بالنباح أيضاً ، وكانت هناك ثلاثة كلاب تتمتع بمحبة

خاصة من البسيوني وهي لاكي وتوسكا وركس كانت تهرع إليه ليدللها ويسأل عن طعامها ويأمر بتحسينه في كل مرة . وبعد قتل أحد المعتقلين جاء الطبيب الشرعي بناء على طلب نيابة أمن الدولة ، فما كان من ادارة السجن الحربى إلا أن أوقفت المعتقلين فى طابور وأطلقت الكلاب لتدور حول المعتقلين والطبيب فى استعراض مخيف ، وكان على الأخير أن يولى هارباً بالطبع دون أن ينفذ مهمته !

وجرت محاولة لتلفيق قضية مضمونها أن هناك تنظيماً شيوعياً داخل الجيش ، وتم القبض على عشرين شخصاً عذبوا بضراوة في زنازين السجن الحربى الرهيبة بالكرابيج والهراوات والكلاب حتي مات المناضل شوقي البهنساوى داخل السجن الحربي.

من جانب آخر ،لم تكن التجريدة مقصورة على مصر وحدها ، فقد امتدت ذراع الأمن الطويلة أكثر من اللازم إلى قطاع غزة الذى كان تحت الإدارة المصرية آنذاك.

وفى ٢٢ ابريل ١٩٥٩ تم اعتقال ١٨ شيوعياً وديمقراطياً من أبناء قطاع غزة ، من بينهم الشاعر معين بسيسو وخطيبته صهباء البربرى . ثم حملة أخرى فى ١٠ أغسطس من العام نفسه ضمت مجموعة أخرى من بينها الكاتب

المعروف عبد القادر ياسين ، وتم ترحيل أغلب المجموعتين إلى الواحات فى ٢٩ أغسطس عام ١٩٦٠.

أما ما جرى للشابة صهباء البربرى خطيبة معين بسيسو فقد روته لا يفون حبشى عندما استقبلتها فى سجن القناطر للنساء ، وكانت الأخيرة تقضى هناك أولى شهور اعتقالها ، صهباء خريجة قسم اجتماع بكلية آداب القاهرة . أصرت عندما ألقى القبض عليها وعلى معين (وأخوته الثلاثة) أن تقيد هى وخطيبها فى قيد واحد حتى وصلت الحملة إلى السجن الحربى . ألقوا بها فى زنزانة فى الدور الثالث ، كما وضعوا أسفل زنزانتها معتقلين كانوا يعذبونهم طوال اليوم ويطلقون الكلاب عليهم وهى تسمع كل ذلك وحيدة مرتجفة فى زنزانتها العارية من كل شئ . فلا سرير أو مقعد أو حتى جردل بول ، وفجأة يفتحون الزنزانة ويملأونها بفراش نظيف ومنضدة عليها فازه وستائر كأنها فى فندق فاخر. بعد نصف ساعة يفتحون الزنزانة وينقلون كل شئ ويتركونها مرة أخرى فى الزنزانة العارية.. بعد ساعتين يفرشون الزنزانة مرة أخرى وهكذا على مدى ٤٨ ساعة ، قالوا لها أن الخيارين أمامها وأن معين يجرى تعذيبه فى الزنزانة أسفلها ، وأنه يمكن وقف كل ذلك واعادتها هى ومعين إلى غزة لو اعترف . قالوا لها

أيضاً أنها تملك إنقاذه من الموت الذى يتعرض له لو طلبت منه الاعتراف .. لكنها رفضت.

وأخيراً تم ترحيل معين ورفاقه إلى الواحات ، بينما ألقى بها فى سجن القناطر للنساء .

□□□

كذلك امتدت ذراع الأمن الطويلة أكثر من اللازم إلى أقصى الشرق إلى الاقليم الشمالى - أيامها - للجمهورية العربية المتحدة حيث تم القبض على المناضل الشيوعى فرج الله الحلو وتعذيبه حتى الموت وإخفاء جثته بتذويبها فى الاحماض لإخفاء الجريمة . وطبقا لقرار الاتهام فى قضية مقتل فرج الله الحلو الصادر عن قاضى التحقيق العسكرى لدى المجلس العدلى فى الجمهورية العربية السورية الرائد أحمد زهير صبحى بتاريخ ١٩٦٢/٥/٣٠ وأورده فخرى لبيب فى كتابه سالف الذكر نقرأ بالنص السطور التالية من الوقائع التى جرت بدءاً من ١٩٥٩/٦/٢٥ :

«علم عبد الوهاب الخطيب رئيس القسم السياسى فى المباحث العامة باعتقال فرج الله الحلو فحضر إلى المفرزة المعتقل بها وما آن شاهده حتى بادره بالقول : «أنك لصيد ثمين» وأخذ يحقق معه عن نشاطه الشيوعى وعن المفاتيح التى

بحوزته والدور التي يتردد إليها إلا أن فرج الله كان يرفض الاجابة أو يحاول التخلص منها . فاستعمل عبد الوهاب العنف والشدة معه ليكرهه على القول وضربه بعصاه حتى تكسرت وصعقه بالكهرباء على قدميه ، وكان سامي جمعه يضع سلك الكهرباء في «المآخذ» كما يأمره الخطيب ويوصل التيار ويقوم الخطيب بوضع الطرف الثاني من السلك في ابهامي قدمي فرج الله ليحمله على الافضاء بما لديه من معلومات . وكلما أمعن في الكتمان أمعن عبد الوهاب الخطيب في التعذيب وتفنن في أساليبه ، فأمر بوضع «فلقه» وضربه ضرباً مبرحاً على قدميه وجسمه وجلده حتى ساعة متأخرة من الليل ، ونفخ بطنه بالهواء بمنفاخ سيارة ، ثم ضغط بقدمه ليخرج الهواء ، وأمر بتعليق وعاء فوق رأسه تقطر منه قطرات متقطعة من الماء «وعاء لمازوت المدفأة» وتتساقط على وجه فرج الله في أشد عطشه ، وعلم سامي جمعه بأن فرج الله مصاب بمرض القلب وقد شاهد معه أدوية الكورامين وخشي عليه من الضرب فنهره عبد الوهاب واستمر في تعذيب فرج الله حتى ينتزع منه معلومات عن نشاطه».

بطبيعة الحال مات فرج الله من التعذيب ، وأسرع الزبانية إلى زعيمهم الجلاد عبد الحميد السراج وزير الداخلية في

الاقليم الشمالي آنذاك وعرضوا عليه «إحالة القضية إلى النيابة العامة للتحقيق وتحديد المسئولية فأجابهم وعلى ما بدا لهم أنه على علم بالأمر من قبل وأنه لا يرغب في ذلك حتى لا تحدث هذه القضية ضجة عالمية فيما إذا سلمت الجثة إلى ذويها ووعدهم بدراسة الموضوع بعد أن كان موظفو المفرزة قد دفنوا الجثة في مكان قرب قرية دير سلمان ».

ويواصل قرار الاتهام الرسمي.

«نمى إلى علم نعسان (أحد الزبانية) أن سيارة لبنانية تتردد إلى مكان مدفن جثة فرج الله الحلو فاقترح نقلها إلى قرب قرية جبل الشيخ ووضعها في كهف ثم يصار إلى تفجيره وخرج مع جماعة من موظفيه لاستكشاف المكان فرأى أن الكهف بل الفكرة غير صالحة لئلا ينتبه أهل القرى إلى الحادث ، فعاد واقترح اذابة الجثة بالخمض «الأسيد» وكلف وجيه انطاكي (أحد الزبانية أيضاً) بتنفيذ المهمة وأعطاه أمر صرف بمبلغ مائتي وخمسين ليرة سورية لشراء الأدوات اللازمة لذلك ، فذهب إلى محاسب المخابرات النقيب صلاح الدين الإليري واستلم المبلغ واشترى مغطساً (بانيو) وحمضاً «أسيد» ومنشاراً وقطناً وكحولاً ، وذهب برفقه أحمد السراج وعبد القادر اللحام وزيدان مهنا وسعيد مخللاتي وهو متحمس

لاذابة الجثة من الوجود واجتمعوا هناك بزميلهم سيد حب الله حيث كان فى حراستها ، ونبش وجيه قبر فرج الله تحت جنح الظلام وهو ثمل وأخرج الجثة ، وكان أن سد فمه وأنفه وكذلك رفاقه بالقطن أتقاء لرائحة التفسخ ، وقطع وجيه بمنشاره الجثة أربا أربا ووضعها فى كيس معه ، وعاد بها إلى المفرزة ثم إلى بيته فى كفر سوسة ووضعها فى المغطس الذى اشتراه وصب عليهما الحمض الكيماوى «أسيد» ونقعها ثلاثة أيام حسب ارشادات نعسان زكاء ، وتغيب عن المفرزة هذه المدة بعد أن شاع أن جثة فرج الله الحلو أرسلت إلى اللاذقية وألقيت فى البحر طعاماً للأسماك ، ولما تأكد من نجاح التجربة بنفسه وأن عظام فرج الله قد ذابت فى الحمض، أبلغ نعسان بذلك فحضر برفقة سامى جمعه وتأكد بنفسه من النجاح فأمر بصب الماء فى النهر الذى يجرى بالقرب من دار وجيه الانطاكى».

لا تحتاج الوقائع السابقة إلى تعليق فيما أظن ، ولا أجد كلمات أصف بها هؤلاء الهمج المتوحشون الذين لم يتورعوا عن تقطيع لحم انسان وتذويب عظامه فى الحمض .

(١٦)

لم يفلت أحد من التعذيب الهمجى . لا رفاق حدتو ولا رفاق الحزب ولا غيرهما من المنظمات . وفى الوقت نفسه كان الجميع على قدر هائل من النبل والبسالة والشرف ، وكان ممكنا لأى منهم أن يكتب سطرين يتضمنان استنكاراً لمواقفه وافكاره والحزب الذى ينتمى إليه ثم يخرج على الفور ، لذلك تعددت صور الضغط من الزوجات والأهالى عموماً ، إلا أنهم تمسكوا بمواقفهم على الرغم من أن تلك المواقف كانت تؤيد اجراءات وسياسة عبد الناصر ، أى أن ما يجرى كان عبثياً على نحو ما !

ويبدو لى أنه كانت هناك خطة محددة لدى القائمين على التعذيب من أركان النظام تتركز على تصفية الارادة السياسية المستقلة وليس أقل وإلا تصفية الشيوعيين أنفسهم. وأولئك الشهداء الذين ذكرت بعضهم ليسوا إلا تعبيراً عن أن النظام على استعداد للقتل من أجل تصفية الارادة السياسية، يعزز ذلك ما ذكره الهام سيف النصر فى كتابه «فى معتقل أبو زعبل» : «أن الأيام والتاريخ أثبتا أن عناصر فى قمة السلطة كزكريا محيى الدين وعبد اللطيف بغدادى اشتركت فى وضع الخطوط العامة لتعذيب الشيوعيين يساعدهم فى

ذلك بعض المستشارين من رجال المخابرات المركزية الأمريكية مثل مايلز كوبلاند الذى عمل فى فترة هذه السنوات كمستشار لزكريا محيى الدين للأمن الداخلى ومحاربة الفكر اليسارى»..

هناك قضيتان تم تقديمهما للمحاكمة ، فى الوقت الذى كان معتقلون آخرون يقضون مدداً حكم بها عليهم فى قضايا سابقة ، أو ممن اعتقلوا دون أن يقدموا للمحاكمة سواء قبل تجريدة يناير ١٩٥٩ أو بعدها.

كلتا القضيتان ترأس المحكمة العسكرية فيهما الفريق هلال عبد الله هلال (أحد المسئولين الأساسيين عن هزيمة ١٩٦٧ ، وعزل بعدها مباشرة لذلك السبب .. القضية الأولى مر متهموها بتغريبة طويلة بدأت بالقبض عليهم وايداعهم سجن القلعة ثم ترحيلهم إلى الواحات لاخلاء القلعة لحملة مارس .. ومن الواحات تم ترحيلهم إلى سجن مصر عدة أيام تلقوا خلالها قرار الاتهام ، ثم الترحيل إلى سجن الحضرة بالاسكندرية مكان انعقاد المحكمة . وليتذكر القارئ أن المعتقلين طوال هذه التغريبة كانوا ينتقلون من سجن إلى آخر وهم مقيدون بالحجلات وفى مناخ الهوس المعادى للشيوعية الذى سمم الجو المحيط بسجانيه وجلاديه والنيابة والقضاء.

فى سجن مصر تلقت تلك المجموعة قرار الاتهام الذى تضمن ٦٤ متهما يتقدمهم فؤاد مرسى واسماعيل صبرى عبد الله وحلمى ياسين .. الخ .. ومن بين تلك الأسماء التى كانت تنتمى فعلاً للحزب الشيوعى المصرى ، كان هناك ستة رفاق ينتمون لحدتو ، لكنهم التزموا جميعاً بموقف باقى زملائهم فى القضية ، وبالأخص عريان نصيف حسبما ذكر الكثيرون ، فقد قدم دفاعاً سياسياً ممتازاً أثناء محاكمته ، بل وهاجم محاميه ومنعه من المرافعة عندما حاول الأخير إلقاء تبعة الاتهام على زملائه أو الهجوم على الشيوعية .

كان شهود الاثبات عدد من ضباط مباحث أمن الدولة بالقاهرة والاسكندرية ، أما شهود النفى فكانوا خالد محيى الدين وكمال رفعت ومحسن لطفى ولطفى واكد الذين تحدثوا عن دور الشيوعيين فى مقاومة العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ ، وأنهم أول من دخلوا بور سعيد بعد احتلالها من أجل مقاومة الاحتلال . وقدم عدد كبير من المتهمين دفاعاً سياسيا تضمن دفاعهم عن الشيوعية وعن انتمائهم الحزبى ، وفى الوقت نفسه تأييد الخط السياسى للنظام ، بينما رفض آخرون الاعتراف بانتمائهم تبعاً للموقف القانونى لكل منهم . أى أن من كان موقفه القانونى ضعيف والمرجح أن يصدر ضده حكم

كان يعترف بانتمائه الحزبى ويدافع عنه..

من بين الوقائع التى جرت أثناء المحاكمة موقف أحد المتهمين وهو حسنى بخيت الذى سبق أن انهار واعترف تحت ضغط التعذيب والتهديد باغتصاب زوجته ، وفى المحكمة تحدث عما تعرض له من تعذيب وسحب ما سبق أن قرره فى التحقيقات . وكان رفاقه قد علموا فى الليلة السابقة فقط أنه انهار واعترف من خلال ضابط سجون كان متعاطفاً تعاطفاً انسانياً مع الشيوعيين ، ولعبت المصادفة دورها حين نقل ذلك الضابط إلى سجن الحضرة فى حركة التنقلات السنوية ، وبعد اغلاق السجن وأثناء فترة نوبتجيته استدعى الهام سيف النصر وأخبره سراً أن هناك متهماً اعترف تحت ضغط التعذيب ، ومقابل أن يتركوا زوجته يتحول إلى شاهد ملك ، وتم الاتفاق على أن يعلن اعترافه فى جلسة المحكمة التى سوف تنعقد فى الصباح . يحكى الهام ما جرى بعد ذلك على النحو التالى.

«وصل إلى النبأ من الضابط فى المساء ، وبعد أن تم اقفال السجن ، ولكن الصباح لم يحل إلا وقد أعددنا للأمر عدته . كان صراعاً ضد الظروف والوقت والقضبان ، وكان أيضاً أن قمنا بمحاولات استوجبت جهداً بشرياً خارقاً

وبالطبع مـالاً ، ولكن ذلك كله نجح فى النهـاية . المال حـتى يرضى أحد حراس السجن بالاتصال بزوجة هذا المتهم وقبل الصباح ، والجهد البشرى حتى نحاصر زميلنا الذى كاد ينهار حتى لا يتصل به ضباط المباحث من جديد وقبل أن تتحقق الخطة التى رسمناها بدقة . وفى تلك الليلة لم ننم ولم تهدأ نفوسنا إلا عندما فتح العنبر فى الصباح وقبل ترحيلنا إلى قاعة الجلسة ليأتى أحد الضباط ويطلب زميلنا لأن زوجته قد حصلت على تصريح بزيارة خاصة وتطلب رؤيته . وبالفعل كانت الزوجة التى استغلت بذكاء تسهيلات المباحث العامة وأخفت فى نفسها حقيقة الغرض الذى أتت من أجله تريد مقابلة زوجها، ولكنها ما أن واجهته حتى راحت تخبره أنها ستطلب الطلاق فوراً إذا ما خان زملاؤه . فهى وكما ذكرت له بالتفصيل تفضل أن تبقى وحيدة وزوجها خلف القضبان من أجل مبدأ أقتنع به ، على أن تحيا مع رجل اشترى حريته بحرية الآخرين».

ومن بين الوقائع المثيرة للدهشة ما جرى لأحمد البدينى المحامى الوفدى الذى قدم خلال استجواب البكباشى أنور منصور كشاهد إثباتاً قانونياً بأن الأخير عذب حتى الموت معتقلاً فى هذه القضية هو الشهيد محمد عثمان مما يضعف

شهادته ، هذا إلى جانب دفاعه عن الشيوعيين بشكل عام .

ويمجرد انتهاء المحاكمة تم اعتقال أحمد البديني المحامي في سجن القلعة واجباره على مسح بلاطه ، ثم نقل إلى معتقل المحاريق ليقضي عدة سنوات مع من دافع عنهم!

ومن بين الوقائع أيضاً ما ذكره النائب العام على نور الدين الذى قدم مرافعة النيابة وبدأها مشيراً إلى المتهمين في القفص قائلاً:

«هذه الزمرة الخائنة ..!»

فتصدى له من خلف القفص وحدث هرج شديد ، فأخرج نور الدين من جيبه ، وبحركه مسرحية ورقة صائحاً:

«أتحدى الحزب الشيوعي وأعضائه من فوق لتحت أن يكذبوا هذه الوثيقة أنها تقول بضرورة الصلح مع اسرائيل واقامة علاقات طيبة معها ، وها هي الوثيقة وأتحدى أن يتكلم أى واحد منكم ..».

ثار الجميع من خلف القضبان وارتفعت صرخاتهم :

«يا كذاب .. يا حقير .. يا ابن الكلب ..».

وفزعت هيئة المحكمة ورجال المباحث من عنف الرد ، مما دفع الفريق هلال لأن يشير لحلمي ياسين - الذى سبق أن اعترف بشرف عضوية الحزب الشيوعي ، وطلب منه أن

يتحدث عن رأى الحزب فى قضية اسرائيل ، وكان من بين ما قاله ياسين:

«لماذا لم يتكرم النائب العام بإخبار المحكمة من أين جاء بالوثيقة التى يتقدم بها وأين وجدها ومع من ؟ نحن معنا ملف القضية وقرارات الاتهام ولم يرد لهذه الوثيقة ذكر على الاطلاق فى أوراق القضية . من أين جاء بها ؟ من اسرائيل ؟ أم من أى متهم آخر فى قضية أخرى لينسبها إلينا..» وأضاف : «هذا من ناحية الشكل أما من ناحية الموضوع فسياسة الحزب فى هذا الأمر معلنة وليست سرية ، وللحزب فى هذه القضية تقارير ثلاثة تقول أن اسرائيل دولة عنصرية ونرفض التقسيم كما توضح كفاح الشيوعيين ورأينا فى الكفاح المسلح ».

وطبقاً لما ذكره الهام سيف النصر فإن اتهام النيابة كان مستنداً على فكرة أن هدفنا هو قلب نظام الحكم .. وكان دفاعنا القانونى والسياسى إننا كقوة وطنية تسند الحكم الوطنى الموجود . أننا حلفاء وإن كنا نختلف معه فى نقاط أخرى لمزيد من الديمقراطية ولمزيد من ضرب القوى الرجعية والاستعمارية والمزيد من التحول الاجتماعى» . وفى هذا السياق كشف منفرداً .. فلم أعثر على ذكر لتلك الواقعة فى

أى مصدر آخر - كشف عن آن «محمود أمين العالم بوصفه عضواً قيادياً فى الحزب الشيوعى المصرى وبتكليف من الحزب قد أبلغ السلطة السياسية الحاكمة ببنأ انقلاب استعمارى تحضره القوى الاستعمارية ضد عبد الناصر، كما ذكر أنها مؤامرة «المكباتى» فى الجيش التى افشلت بناء على هذا التحذير».

ويضيف الهام أنه قام وبناء على «تكليف من سكرتارية الحزب الشيوعى المصرى بابلاغ السلطة السياسية الحاكمة عن انقلاب عسكرى آخر تحضره القوى الاستعمارية ضد عبدالناصر وفى ظروف كان يتهددها عدوان استعمارى خارجى حدث بالفعل، وكانت مؤامرة عاطف نصار ومحمد صلاح الدين التى افشلت بناء على هذا التحذير». ويؤكد أخيراً أنه «فى الحالتين وصل شكر من عبد الناصر للحزب. شكر من الحليف لحليفه، فكيف وهذا شأن الحليف أن يتهم بقلب نظام الحكم؟!».

على أى حال استمرت المحاكمة نحو ثلاثة شهور وانتهت بترحيلهم إلى أبى زعبل حيث واجهوا جحيم مستعمرة العقاب، التى تعد بلا أى تردد أبشع معسكر اعتقال شهدته مصر فى تاريخها الحديث.

(١٧)

لم يفتح الأوردى أبوابه إلا ثلاث مرات فقط . الأولى أيام الملك فاروق عندما قرر بناء قصر المنتزه بالاسكندرية وتحويل صحراء المعمورة إلى حدائق غناء ، فقامت مصلحة السجون بجلب عدد كبير من المساجين الجنائيين ، تم تطويعهم أولا بوحشية داخل جدران الأوردى لكسر إرادتهم وتحطيم إنسانيتهم تمهيدا لانتقالهم إلى الاسكندرية والعمل فى قصر الملك وحدائقه وهو العمل الذى مات خلاله العشرات لفرط قسوته .

وفى عام ١٩٥٤ استعمل لفترة محدودة كعملية تأديب جماعية للشيوعيين . أما المرة الثالثة فهى تلك التى بدأت فى ٨ نوفمبر ١٩٥٩ واستمرت شهورا طويلة حتى أغسطس ١٩٦٠، واستبدل - حسبما كتب صنع الله إبراهيم فى كتابه «يوميات الواحات» - بشكل جديد على يد متخصصين تربوا فى الولايات المتحدة «فقد تلقى البعض - من المعتقلين - خطابات من أهاليهم تطالبهم بالخروج وسماع الكلام . وهددت زوجات بطلب الطلاق . وكتبت طفلة إلى أبيها : «اخرج من أجلى ومن أجل ماما ، قالوا لى إنك لا تريد أن تخرج لأنك تكرهنا .. أنا أكرهك» .

من جانب آخر ، كان الشيوعيون قد تعودوا على السجن

والاعتقال لسنوات طويلة ، لكنهم تعودوا فى الوقت نفسه على إدارة معارك ماهرة داخل تلك السجون للحصول على حقوقهم طبقا للوائح مصلحة السجون ، فضلا عن امتيازات اضافية فى أعقاب المعارك، إلى جانب العلاقات الطيبة جدا التى كانوا يستطيعون عقدها مع المساجين الجنائيين وعساكر مصلحة السجون والحراس .

كانت المجموعة الأولى التى شرفت فى الأوردى ، والتى ضمت ٦٤ متهما فى قضية الشيوعية الكبرى رقم ٤ حصر أمن الدولة المقيدة برقم ١٢٣ سنة ١٩٥٩ والمتهم الأول فيها فؤاد مرسى - كما سبقت الإشارة - كانت قد عادت من الاسكندرية بعد المحاكمة التى دافع خلالها عدد كبير عن انتمائهم للحزب الشيوعى المصرى وفجروا قضية قتل محمد عثمان ، كما أكدوا على أن الخلاف مع النظام هو خلاف بين حلفاء وأصدقاء ولا يجوز أن يتحول إلى تناقض رئيسى «يفتح الباب لضرب الوحدة الوطنية ذاتها ويعطى جواز المرور لعملاء الاستعمار وفلول الرجعية تصول وتجول» حسبما أشار إلهام سيف النصر ، كما أكدوا فى الوقت نفسه تأييدهم للحكم الوطنى بقيادة جمال عبدالناصر .

عادت تلك المجموعة إلى سجن مصر ، حيث أودعوا فى عنبر (ج) ، وهو أقذر عنبر فى السجن وتم اخلاؤه على عجل،

وكان مخصصا في الأصل للمصابين بأمراض جلدية ، وتمرح على جدرانه وأرضيته عشرات الألوف من القمل والبق، ولم يدخله من قبل أى سجين سياسى ، وعندما منعت إدارة السجن المزايا اللائحية طبقا لقوانين مصلحة السجون مثل إلغاء الزيارة والأكل من الخارج والقراءة والفسحة ، كانوا قد بدأوا بالفعل اضرابا احتجاجا على ذلك ، وشعر المخضرمون منهم أنهم على وشك الدخول إلى مرحلة جديدة ، إلا أن ما جرى بالفعل كان أمرا يفوق التصور .

ففى فجر ٨ نوفمبر فتح عنبر (ج) فجأة ، ثم أبواب الزنازين واحدة وراء الأخرى مع صياح وتفتيش وتحرش وصل إلى حد كسر زجاجات الدواء ، ثم ساقوهم بعنف غير عادى ، وتم قيدهم بالحلقات الحديدية ، واقترب مأمور سجن مصر يوسف القطشة يتظاهر بفحص القيد الحديدى لالهام سيف النص وهمس فى أذنه :

«هناك عاصفة خطيرة في الأفق ومن الأفضل أن تحنوا الرؤوس حتى تمر ....»

أغلب الظن أن القطشة كان قد تلقى توصية ، من أسرة أو معارف إلهام ابن احدى العائلات الارستقراطية ، لذلك نبهه إلى ما ينتظره ، وتأكد ذلك حين اقتربوا من الباب الخارجى متجهين إلى اللوارى ، فرأوا ضباطا آخرين يتسلمونهم من

ضباط السجن . ومع ذلك اقترب إلهام من أحد الضباط وطلب منه استثناء فؤاد مرسي والسماح له بالجلوس بجوار السائق تقليلا للاهتزاز لاصابته بانفصال شبكي ، فرفض الضابط وسبه بأمه وأبيه وجده ..

بعد ثلاث ساعات تقريبا توقفت اللوارى ، وترك المعتقلون محشورين عدة ساعات يختنقون من الحر والرطوبة ، وتصل إلى اسماعهم من بعيد أصوات وأوامر حادة وصياح وصهيل جياد .. ثم سمعوا طلقة رصاص واحدة بعدها سكن كل شئ. وفجأة فتحت أبواب اللوارى الأولى ليخرج المعتقلون من الظلمة إلى نور الشمس المبهر في لحظة واحدة . وانطلقت الصرخات :

اجرى يا ابن الكلب ..

في الخلف فارسان على صهوتي جواديهما يهويان بالكرابيج دون تمييز فيجرى المعتقل بين صفين من السجانة حاملين شوما وعصيا وقوايش وسيوراً جلدية وأسلاك الكهرباء المجدولة وقطع الخشب من الباب الخارجي وحتى العنابر دون أن يتوقف الضرب حتى يصل المعتقل إلى حالة الهلع والرعب المطلوبين ، ويتوقف عقله تماما عن التفكير ، ويصل إلى حالة شبه حيوانية يحاول تفادى الضربات وحاملا حقيبته راكضا بأقصى سرعة باحثا عن منفذ دون جدوى ،

وفجأة يجد نفسه وقد توقف آلياً عندما يوقفونه على باب العنبر والضرب لا يتوقف بينما يسألونه عن الاسم والبيانات الأولية ، أمام منصة واسعة مفروشة بالجوخ الأخضر ويجلس إليها عدد من كبار الضباط بملابسهم الرسمية يتفرجون ويتقدمهم اللواء إسماعيل همت وكيل مصلحة السجون المتخصص فى تأديب الشيوعيين منذ حملة ١٩٥٤ (وكانت فى الأوردي نفسه) ، ومهمة هؤلاء «النظارة» أن يوجهوا ملاحظات من نوع :

«الواد ده أنا مش سامع صوته»

أو :

«الواد ده مابيقولش أفندم ليه ..»

أو :

«أنا عايز أسمعه بيقول أنا مَرَة»

أى ملاحظة كانت تعنى اشتداد الضرب وزيادة الجرعة على هذا المعتقل أو ذاك ، ثم يجبر المعتقل على خلع ملابسه كاملة والركوع أمام حلاق يجزله شعر رأسه وعانته وحاجبيه وشاربه، بينما الصفعات والشتائم لا تتوقف . بعد ذلك تلقى إليه لفة طرية تشبه الخيش (سيكتشف فيما بعد أنها ملابس السجن وقروانة الأكل ، أما الملابس فسيكتشف أنها تتكون من سروال وقميص خيش أصفر ترابى مكتوب عليه الرقم

وكاسكيته للرأس من نفس اللون والقماش ووردروبه وهى رداء يشبه البردعة) ويستمر ضربه أثناء ذلك وهو يجرى عاريا تماما حتى باب العنبر حيث يدفع به إلى الداخل .. لم يرحموا أحدا : فؤاد مرسى المصاب بانفصال شبكى ، سعد زهران ذو القدم الخشبية ، كبار السن .. الجميع ضربوا دون رحمة لتحقيق ذلك التأثير المرعب، فالمطلوب أن يشعروا أن أرواحهم رخيصة ، والتعذيب يستهدف قبل كل شئ كسر الإرادة والانتقال إلى مرحلة سابقة على المرحلة الإنسانية ، أى يتحول الإنسان إلى حيوان خائف مرعوب يبحث عن أى منفذ يقلل جرعات الضرب المتوالى .

□□□

لا أظنها مصادفة أن أغلب من كتبوا شهاداتهم عن الأوردى لم يكتفوا بالكتابة فقط، بل رسموا كروكى أيضا لمستعمرة العقاب التى صممت على هيئة مربع كبير يضم داخله ستة عنابر مستطيلة من طابق واحد وطول كل عنبر أكثر قليلا من ٣٠ مترا وعرضه خمسة أمتار . فى أحد طرفى العنبر باب والطرف الآخر دورة مياه ، وفى الأعلى نوافذ حديدية لمراقبة المعتقلين من الخارج بسهولة . والعنبر مجرد رصيفين متقابلين لينام المعتقلون ، وبين الرصيفين ممر يصل بين الباب ودورة المياه .

يحيط بالمربع سور شاهق طوله حوالى ثمانية أمتار ، وفى كل زاوية من زواياه حارس يحمل مدفعا رشاشا ليل نهار ، داخل منصة خشبية سلمها خارج سور الأوردى ، وعندما تغلق العنابر من الخارج ، يقبع المعتقلون خلف عدد كبير من الأبواب المتتالية منذ بوابة الأوردى الخارجية ، كما يمكن مراقبتهم بسهولة من الخارج سواء عبر نظارة باب العنبر المصفح أو من خلال النوافذ الحديدية أعلى العنابر . وبجانب العنابر هناك عدة أبنية مخصصة للمخازن والخدمات وتضم حجرات الملاحظة والمغسل والغلاية والحمام ، ثم عدد من الزنازين المتجاورة الضيقة ومساحتها متران فى متر للحبس الانفرادى والتأديب .

الأوردى أيضا كلمة تركية تعنى «ملحق» ، وهو بالفعل ملحق لليمان أبى زعبل ، ووفقا للخطة الموضوعة من جانب حسن المصيلحى واسماعيل همت جرى استقبال عدة مئات من الشيوعيين مختارين بعناية لتحطيم إرادتهم قبل ترحيلهم إلى معتقل الواحات الشهير .

□□□

ومنذ اللحظة التى يلقى فيها بالمعتقل على أرض العنبر، تبدأ مرحلة جديدة . فجرعة التعذيب الأولى ليست هى المشكلة الحقيقية - على الرغم من تهشم ضلوع وأطراف الكثيرين والكدمات والجروح وتكسير العظام، بل تحويل الإنسان إلى

حيوان من خلال تلك المعاملة المهينة وحلق شعر الرأس والعانة وتعرية الجسم وبدلة السجن الحقيرة المتهرئة (روعى بدقة أن يحصل كل معتقل على بدلة لا تناسبه حتى تمسى هيئة الجميع رثة) وتركهم حفاة مع غذاء محدود وتعافه النفس ، ويقدم بعد أن تتساقط داخله كميات من الذباب، كما يعطى لكل معتقل رقم بدلا من اسمه .

هذا البرنامج المعد بعناية كان يتم فرضه من خلال الضرب المتوالي بمعنى أن المعتقل عندما يطالب بتنفيذ أمر لا يعرف كيف ينفذه، لا يكون أمامه إلا القيام بعشرات المحاولات حتى يتوقف الضرب عند احدى المحاولات ، فيعرف أن هذا هو المطلوب !

في الصباح المبكر يبدأ البرنامج قبل أن يفتح المعتقلون عيونهم ، وقد تعرضوا في مساء اليوم الفائت للسحل والضرب المتوالي بلا هوادة ، يقتحم ضابط يقود عددا من السجانة العنبر ويبدأون بضرب الجميع دون تمييز صارخين :

وشك في الأرض ..

دغرى ..

ثم يبدأوا التفتيش وكل معتقل وجهه للحائط وقد انحنى ، ثم يؤمر بالدوران بعد أن يفك رباط سرواله حول نفسه ، فيسقط السروال لتتعرى العورة امعانا في الإذلال، بينما

السجانة يدهسون الأرضية والنمر (وهى بطاطين متهرئة) والابراش ، ثم يؤمر كل عنبر بعد تلك الوجبة الصباحية بالخروج بالخطوة السريعة (منذ تلك اللحظة ستكون كل حركة المعتقلين بالخطوة السريعة وهم حفاة تحت الضربات التى تنهال بلا توقف) .

وإذا لم يكن اليوم هو يوم «طابور الرياضة» يتم ترحيل المعتقلين للعمل فى تكسير أحجار البازلت فى الجبل . أما طابور الرياضة الأول لهم فقد بدأ بعد استعراض همت فى الصباح وهم واقفون فى الطابور . ابتسم همت ابتسامة واسعة ثم همس :

- انتم ضعاف الصحة وتحتاجون إلى رياضة ..

ثم التفت إلى المأمور وأضاف :

- طابور الرياضة يا حسن اللى اتفقنا عليه .. الأولاد أجسامهم طرية .. لأ .. أنا عايز ولاد شداد وجدعان .

طابور الرياضة كان وجبة تعذيب أخرى ولا علاقة له بالرياضة بالطبع، حيث كانوا يؤمرون بالجرى أو تمارين الضغط أو تمرين نمرة ٦ أو نمرة ٩ أو الزحف المقدس أو تمرين شادية ، وكلها وسائل مبتكرة للتعذيب الاضافى . (من كثرة استخدام الشوم وتكسيرها على أطراف وظهور المعتقلين، كانت مصلحة السجون تورد لمستعمرة العقاب أكثر من مائة شومة كل شهر فى البداية ثم تزايدت مع ازدياد عدد

المعتقلين!)

الأمر الأساسي الموجه للمعتقلين طوال الوقت هو : «وشك في الأرض» ومجرد رفع الرأس يعني أن يتلقى المعتقل ضربات متوالية على الرأس، لذلك حكى مسعد أبو رمضان مثلا أن شهور التعذيب انقضت دون أن يعرف لون جدران السجن !

بعد الطابور يتقدمون وهم يضربون نحو قروانات الفول المسوس وهي أوعية من الألمونيوم موضوعة بجوار باب الأوردى أسفل السور . يختطف كل معتقل قروانته ويجرى بالخطوة السريعة تحت الضربات إلى العنبر ويتناول طعامه بعد أن تساقط أغلب ما فى القروانة ، ثم يتوجه إلى العمل فى الجبل، وهو وجبة تعذيب اضافية لكنها أشد . يتحرك موكب العبيد فى مقدمته أحد الضباط يعتلى صهوة جواده، وكل شاويش يقود العنبر المسئول عنه وعلى جانبيه «الجنزير» وهو سلسلة من الجنود المسلحين بالمدافع الرشاشة سريعة الطلقات . وفى آخر الطابور عدد آخر من الحرس بمدفع برن.

بعد الخروج من باب المستعمرة يسير موكب العبيد حتى حفرة واسعة يدخلون من فتحة فيها ليجدوا أنفسهم فى بطن الجبل ، كل ذلك يجرى دون تمهيد ، فلا أحد يعلم ما سوف يحدث بعد لحظة واحدة ، وكل شئ يعتمد على المفاجأة . لا

يقتضى تعليم المعتقلين العمل فى الجبل إلا صفارة ، يتعرضون بعدها للضرب المتوالى والمطاردة ، حتى يجدون غلقان سميكة يقومون بملئها بالتراب أو الحجارة أو الزلط ، ثم يجرى كل واحد مئات الأمتار فى طول الجبل، وهو يحمل الغلق ويفرغه فى الطرف الآخر للجبل .. كل هذا والضرب لا يتوقف لحظة واحدة ، والضباط على خيولهم يضربون بالكرابيج ، بينما يتناثر العساكر بالمدافع الرشاشة فى الهضاب المحيطة .

فيما بعد ، أجبروا أيضا على تكسير صخور البازلت ، وهى عملية صعبة ألغتها مصلحة السجون حتى بالنسبة للمساجين الجنائيين بعد التوقيع على معاهدات دولية، لأن الصخور يتم تفجيرها بالديناميت أولا ، لذلك يحتاج البازلت لمهارة خاصة فى التعامل معه لتكسيره بالعتلات والشواكيش والشاقوف والمطارق الحديدية ، وأثناء ذلك تتطاير الشظايا والأحجار الصغيرة جدا المسننة ، والتى تصيب كل أعضاء الجسم كما تدخل فى باطن القدم مسببة جروحا لا تلتئم بسبب القذارة وانعدام أى رعاية طبية ، وبعد تفتيته يتم تحميله فى غلقان ونقله ليستخدم فى رصف الشوارع . أما نصيب كل معتقل فيتراوح بين أربعة غلقان وثمانية .


صفحة فارغة

(١٨)

تزايد عدد المعتقلين حتى بلغ ٥٩٤ معتقلا فى الأوردى ، بدأوا بـ ٦٤ معتقلا على ذمة الحزب الشيوعى المصرى ، ثم راح يتزايد وفقا للخطة التى وضعها حسن المصيلحى ورؤساءه بضرورة مرور دفعات مختارة بعناية على الأوردى لدق عظامهم أولا على ذلك النحو الهمجى .

أما أول شهداء الأوردى فهو د. فريد حداد الذى كان قد تأخر القبض عليه عدة شهور بعد تجريدة يناير ١٩٥٩ ، حيث اعتقل فى نوفمبر وتهمته أنه يعالج عمالا ونقابيين وعناصر مشبوهة وهدامة . وكان كل ما هو مطلوب منه أن يقدم كشفا بأسماء وعناوين مرضاه، وهو ما رفضه بالطبع، وتم ترحيله إلى سجن القلعة أولا ، وبعد انتهاء التحقيقات تم ترحيله إلى الأوردى ومعه ستة من رفاقه ، يحكى شهود العيان - ممن كانوا مع فريد حداد - أن أحدا فى الخارج لم يكن يعلم أو يتصور ما يدور فى الأوردى ، لذلك فوجئوا بالتشريفة : الخيول والجرى بين صفى العساكر وجز الشعر والعانة والحاجبين وخلع الملابس تماما والضرب بالشوم والعصى .

يحكى نسيم يوسف ما جرى على النحو التالى :

«كنا نجلس القرفصاء على الأرض، وكان أمامى فؤاد

حـداد ، كـان حـسن منيـر (المأمـور) هو الذى يلعب الدور الرئيسى فى هذا اليوم . وبدأ يونس مـرعى (أحد الضبـاط) يسأل :

- ما اسمك يا ابن الوسخة .. ما وظيفتك يا ابن القحبة ..

وقال فريد حداد :

- الاسم فريد حداد والوظيفة طبيب ..

وصرخ يونس مرعى :

- طبيب يا ابن القحبة ..

وانهال عليه ضربا . تكاتف على ضربه أربعة آخرون من الجند :

- أنت طبيب روسى يا ابن القحبة ..

رد عليه فريد حداد :

- أنا طبيب مصرى ..

ويضيف نسيم يوسف :

«الضرب لا يتوقف فوق الظهر ، فوق البطن ، فوق كل جزء من جسده . أصابته شومة فوق رأسه فسقط على الأرض وقد فقد الوعى . صرخ يونس مرعى :

«اقتلوه ابن القحبة ده ...»

وتصاعد الجنون فأفاق . كانت الدماء تسيل من رأسه ، فتقدم إليه التومرجى يمر على الجرح بقطعة خشب فى طرفها

ميكركروم . تسلمنا ملابسنا . مررنا بين صفي جنود قوس النصر حيث دفع بنا إلى حجرة المغسل . كان فريد حداد معنا . أمرونا أن نولي وجوهنا إلى الحائط والضرب لا يتوقف . طلبوا منا أن نقول : أنا امرأة ، ولم يستجب أحد البتة والضرب متصل . ارتدينا ما معنا من ملابس تحت ضربات الشوم ، وسقط فريد حداد للمرة الثانية . كنت إلى جواره فحاولت أن أسنده حتى لا يقع فتكاثف الضرب على . أخرجونا لنلف المعتقل جريا ، خلف عنبرى خمسة وستة . وصلنا إلى زنزانتى تأديب . أدخلوا كل مجموعة فى زنزانة ...»

ويضيف أيضا أن أنين فريد حداد توقف فجأة وهم داخل الزنزانة ، فحاول زميليه نسيم يوسف وسعد الطويل مساعدته بتدليك قلبه وعمل تنفس صناعى له إلا أنه كان قد مات . حرر طبيب السجن "أحمد كمال شهادة طبية تفيد أنه مات بالسكتة القلبية ، بينما كان مخه قد تفتت من الضرب بشومة يحملها يونس مرعي . وضع الجثمان فى نعش مسمر ومختوم بالشمع الأحمر الميرى ، وسلم النعش إلى زوجته فى الثالثة صباحا وأجبروها على دفنه على الفور ، غير أنهم - لفرط الرحمة طبعا - سمحوا بنشر نعى فى الأهرام صباح ٣٠ نوفمبر يحمل تلك الكلمات :

«إيدا وأولادها وعائلات حداد وكارى وحنا بمصر والأردن ولبنان ينعون بمزيد من الحزن والأسى المأسوف على شبابه الدكتور فريد حداد زوجها ووالدهم وقريب ونسيب الباقين» .

وعندما تسرب الخبر إلى المعتقلين ، بادر الزبانية بتكثيف التعذيب والسخرة فى الجبل حتى لا يفكر أحد فى التمرد .. والحقيقة أن المجرمين نجحوا فى البداية فى كسر الإرادة وتحطيم المعنويات لأن الأمر بدا نوعا من العبث المجنون : شيوعيون يؤيدون عبدالناصر بكل قوة ويجرى دهسهم على ذلك النحو .

من جانب آخر تنوعت الأساليب المستخدمة فى كسر الإرادة . فمثلا يتم اختيار أساتذة الجامعات والمفكرين «لتسليك البكابورتات» أو يجبروا على القيام بأعمال اضافية مثل تفريغ القطارات من الأحجار ، أو نقل التراب ، أو حتى تجفيف ماء المطر أمام باب المأمور بأيديهم ، أى ينقلوا ماء المطر بكفوفهم !

أما الزبانية فقد اختيروا بعناية شديدة : مأمور الأوردى حسن منير . شديد الأناقة يحرص على ارتداء بنطلونات محزقة على جسمه . صوته ناعم مخنث . يتابع عمليات التعذيب دون أن تختلج له عضلة . يكفى أنه بعد مقتل شهدى عطية الشافعى هوى بنفسه على ذراعه بآلة حادة وكسرها

عندما جاءت النيابة للتحقيق ليدعى أن شهدى هو الذى اعتدى عليه ! وكيله هو الرائد عبداللطيف رشدى . ضخم الجثة ويستطيع أن يبقى على جواده عدة ساعات ، وهو رجل التعذيب الأول وأكثرهم قسوة ، أما النقيب مرجان إسحق فكان صوته ناعم رفيع وشعره مسبسب ومدهون دائما وأظافره لامعة مصقولة ووجهه خال من شعر الذقن والشارب، وحصانه أشبه بالبغل الضخم الحجم البطئ الحركة، وكان يحلو له أن يختار من يعذبهم من ذوى الأجسام الطويلة التى تبدو ملامح الرجولة واضحة عليها، بينما الملازم أول يونس مرعى لاعب فى الفريق القومى لكرة القدم، والنقيب سيد منصور ملاكم وكثيرا ما كان يأتى بقفاز الملاكمة ليتسلى ويتدرب فى المعتقلين العزل .

يعاون طاقم الضباط الصول مطاوع ، وكان أكثر المعاونين حماسا لاستعمال القسوة ويتفنن فى اختراع أساليب التعذيب، ولم يكن اختيار السجانة عشوائيا ، بل اختيروا وفقا لملفاتهم فى الخدمة ، ومن يكونوا قد ارتكبوا أكبر عدد من الجرائم ضد المساجين مثل الشاويشين عبادى وعبدالحليم والأومباشى عبداللطيف والأومباشى حسين عليوة ، ومثل العساكر عبدالسلام المتربس وعبدالصادق المجنون وأبوالوفا دنجل ودومة .

وطبقا لما أورده سعد زهران فى كتابه «الأوردى .. مذكرات سجين»، فإن البرنامج اليومى كان كالتالى : «التفتيش الصباحى مع مطلع الشمس . ثم طابور الرياضة . فى الثامنة تقريبا . ثم طابور الهتاف . ثم طابور العمل والاستعداد للخروج للجبل، ثم العمل فى الجبل حتى الواحدة يقابله العمل فى الأوردى للدرجات . ثم طابور الجراية ويمك الغداء، ثم طابور الهتاف فى المساء . ثم التفتيش المسائى . ثم طابور يمك المساء» .

ويضيف :

«أسلوب التعامل الوحيد هو الشومة وأسلوب التنقل الوحيد هو الجرى تحت الشوم مع الصياح : شمال يمين .. شمال يمين...»

أما «الدرجات» فهم أولئك الذين تحول حالتهم الجسمانية دون الخروج للعمل فى الجبل، وكان عددهم آنذاك أربعة عشر معتقلا اختص بهم الشاويش عبادى الذى كان ينهال عليهم بشومته الغليظة وهو يسوقهم أمامه لكنس فناء السجن بأيديهم العارية وجمع القمامة وإلقائها فى الخارج . بعد ذلك ينتقلون لغسيل ملابس العنبر ونشرها فى المنشر الذى تمتد حباله بين عنبرى ٥ ، ٦ ثم ينتقلون إلى غرفة «الترميم» وفيها ملابس الغيار الثانى للمعتقلين ، تلك الملابس عادة ما تكون

رطبة وتفوح منها رائحة الصديد بسبب جروح المشتغلين فى السخرة بالجبل، ومهمتهم ترميم الملابس الممزقة قبل أن يستخدمها رفاقهم .

وإذا أضيف إلى ذلك كمية الغداء التى لم تكن تتجاوز ثلاثة أرغفة يوميا وكمية محدودة من اليمك (نوع بالغ الرداءة من الألياف والشحوم) وعسل حامض يضاف إليه قطرات من الفنيك امعانا فى اذلال المعتقل ، كما يضاف للعدس قدر من التراب أمام المعتقلين وهم يسخرون من العدس «ناقص ملح» أيضا ، كان العمل فى الجبل سخرة يومية تستغرق وتستنزف الجميع ، إلى جانب عدم امكانية الاتصال بين العنابر لتنسيق موقف موحد، والعيش دائما على تلك الشعرة التى تفصل بين الحياة والموت .. كل ذلك أسهم فى هزيمة القيادة وعجزها عن اتخاذ موقف فى مواجهة المذبحة اليومية . لكن فؤاد مرسى وحلمى ياسين أكدا لفخرى لبيب فى جداريته السابق الإشارة لها أن الأمر كان إبادة حقيقية ، وكان المهم هو مجرد الحفاظ على حياة الكادر الحزبى بأى ثمن ووسيلة . من جانب آخر لم يكن ممكنا التصدى مثلا بالامتناع عن استلام الطعام أو الاضراب ، لأنه لم يكن هناك اتصال بين العنابر أو وسيلة لابلاغ الخارج وممارسة الضغط المطلوب ، فضلا عن أولئك

الذين ضعفوا ضعفا انسانيا مشروعا وانهاروا والآخرون الذين جرى القبض عليهم وهم غير منتمين أصلا . أما القيادة فقد تم هدر كرامتها علنا أمام الكوادر ..

فى إحدى الأمسيات هاجم حسن منير وزبانيته العنابر الستة فى لحظة واحدة بعد أن كان أكثر المعتقلين قد استسلموا للنوم بعد يوم من العمل الشاق فى الجبل . راح حسن منير يسأل كل واحد عن مكانه، ومن يضبط على غير فرشته ، يضربه السجانة ويقتادونه للخارج، فكل معتقل له رقم وترتيب خاص فى العنبر لا يغيره . فى صباح اليوم التالى ، وأثناء طابور الرياضة ، فتح الشاويش عبدالصادق باب أحدى الزنازين التى لا يزيد طولها عن مترين وربع وعرضها على مترين، فخرج واحد وعشرون معتقلا هم حصيلة حملة حسن منير الليلية ، وظلوا على ذلك الوضع «الخارق» اسبوعا كاملا يخرجون للطوابير والعمل فى الجبل ويضربون ثم يحشرون جميعا لقضاء الليل معا !

وعندما سئل نبيل الهلالى الذى كان من بينهم : كيف كانوا يقضون الليل أجاب :

– اهتدينا بعد قليل إلى أسلوب يسمح بأن يحتوينا ذلك الجحر اللعين : سبعة واقفون وسبعة جالسون القرفصاء وسبعة يجلسون ممددين أرجلهم . ذلك هو أقصى ما يسمح

به هذا المكان . أما الرقاد فممنوع منعا باتا على أن نتداول هذه الأوضاع وفقا لجدول زمني اتفقنا عليه بعد مناقشات طويلة .. وقد تعلمنا أن ننام في أي وضع حتى ونحن واقفون، ولم يكن ذلك صعبا جدا ، لأن الزحام كان يتيح نوعا من التساند .. وطبيعي لم تتوقف الاحتكاكات والمشاحنات بين السكان الواحد والعشرين لحظة واحدة طيلة الأيام السبعة ، فلا يعقل أن نحشر على أسوأ ما يحشر ركاب سيارة أتوبيس مزدحمة دون أن تحدث مشاحنات ، حتى لو كان ركابها من الملائكة ، كل هذا طبعا عدا مشكلات التبول والتبرز التي لم تتوقف لحظة واحدة .

ومع ذلك كان هناك نوع من المقاومة الفردية . فمثلا في اليوم الأول للخروج للأشغال الشاقة بمحاجر البازلت ، كان جو المعتقل بالغ التوتر . وفي الطابور وقف مأمور السجن وصاح :

«غنوا نشيد الله أكبر» !

لم يغن أحد ، فاختار المأمور اسماعيل صبري عبدالله من الطابور ليسأله :

لماذا لاتغني ياولد ؟

أجابه ، وطبقاً لشهادته بالنص :

«إن هذا النشيد مرتبط في أذهاننا بمعركة وطنية عزيزة

علينا للغاية . أنها معركة مقاومة العدوان عام ١٩٥٦ ، ولايمكن أن نغنى هذا النشيد ونحن فى موضع الاعتقال والحبس لأن ذلك مهين لناو ومهين للنشيد .

رد المأمور :

الله .. دا غلباوى وعاوز يعمل بطل .. إضربوه ..

وفى الحال إنهال الضرب علىّ بالشوم ثم سحبونى أمام الطابور وتفاقم الضرب .. قلت لقائد المعتقل :

– لماذا تجعل السجانة هم الذين يضربوننى . إن كنت رجل الحكومة وتحمل طبنجة فأخرج طبنجتك واطلق علىّ الرصاص . إقتلنى فأنا أود أن أكون شهيداً .

واتصل الضرب عنيفاً .

كان فى تصور قائد المعتقل أن مايجرى معى سوف يثير الخوف فى نفسى ولذا فإننى عندما واجهته وقع فى الحرج ولم يعد يدرى كيف يتراجع .

أنقذه النقيب سيد منصور الذى قال أنه مطلوب على الهاتف» .

كان رأس د. إسماعيل صبرى عبدالله قد شج وسالت دماؤه ، فخاط له التومرجى أربع غرز فى رأسه بلا مخدر أو تعقيم ، بل أن الإبره عندما سقطت على الأرض التقطها ونفخ التراب عنها ثم واصل جراحته ! وعلى الرغم من ذلك لم

يتركوه . جروه إلى الجبل ووضعوه فى مكان منعزل وطلبوا منه مقطوعية بازلت ستة غلقان ، وساعده زملاؤه حتى لايتعرض لعقاب إضافى ، غير أن حسن منير عاد يتحرش به وأمر بضربه على الفلكه فى الجبل .

كان المقصود . حسبما روى د. إسماعيل - أن يسترحمه ويصرخ طالباً أن يكفوا عن ضربه ، كما كان يعلم أن كسره يعنى كسر المعتقل بكامله ، فالظروف وضعته موضع الرمز لكل هؤلاء المعتقلين ، لذلك وضع طاقيته بين أسنانه حتى لايصرخ ، وضربوه بالعصا على باطن قدميه نحو ١٢٠ عصا ، وأصيب من رقنها بالفلات فوت .. المهم أن الزبانية صرفوا النظر - بعد تلك المقاومة - عن موضوع النشيد .

أما معركة الهتاف بحياة رئيس الجمهورية فقد وردت إشارات لها لدى عدد كبير من شهود العيان . فى الطابور هتف الصول مطاوع :

- تحيا الجمهورية العربية المتحدة .

وردد المعتقلون وراءه ، ثم هتف بحياة رئيس الجمهورية فتضاءل صوت المرددين خلفه بصورة ملحوظة . الذين لم يرددوا الهتاف ينتمون طبعاً للحزب الشيوعى المصرى ، بينما رفاق حدتو وبعض غير المنتمين هتفوا وراء الصول مطاوع .

لاحظت الإدارة بطبيعة الحال ، ووقعت القيادة فى مأزق

فظيع : هل تهتف أم لا تهتف ؟ وإذا كان موقف رفاق حدتو متسقاً مع الهتاف للرئيس (والحقيقة أن موقفهم لم يكن متسقاً تماماً ، فالهتاف للرئيس كان المقصود به المزيد من الإذلال لأن المرء لايهتف لرئيس يعذبه ويهدف إلى قتله !!) ، إلا أن موقف رفاق الحزب كان مختلفاً ، لذلك كان قرار القيادة أن يفعل كل رفيق مايراه مناسباً لظروفه .

وطبقاً لحسن المناويشي في كتابه البالغ الصدق «أوردى ليمان أبوزعبل» فإن مأمور الأوردى سأل سعد زهران في الطابور :

– لماذا لاتهتف لجمال عبدالناصر ؟

أجابه :

– لن أهتف له وأنا في السجن مهما عمل من إنجازات .. قد أهتف له خارج الأسوار بإراداتي وليس تحت السياط والشوم والكرابيج .. وكانت النتيجة حبسه إنفرادياً في زنزانة واقفاً على ساق واحدة لأربعة ليال وخمسة أيام في الزنزانة المواجهة لزنزانة إسماعيل صبري عبدالله الإنفرادية ، ولم يخرج منها إلا بعد أن تغير لون جلده إلى الأزرق ، فقد كانت الأرضية من البازلت المبلل في عز صقيع أبوزعبل القارىء ولايمكن أن يجلس عليه .

أما نبيل صبحي ووليم زكي – وكانا قد رفضا الهتاف

لعبدالناصر أيضاً ، فتناوب على ضربهما كل الزبانية تقريباً ، وكلما أصيب أحدهما بالإغماء ، يلقون عليه جردل ماء ويعاودون ضربه .

وفى اليوم التالى أجبر نبيل صبحى على الخروج للجيل ، فكان يسير على أربع لأن الجلد بين أصابع قدميه كان قد تفسخ من ضرب الشوم فالقوه فى زنزانة العزل .

ويقرر النحات إكرام محارب وكان شاهدا على الحادث أن نبيل صبحي ضرب مالايقل عن ألفي شومة ! كما رفض الهتاف كل من نبيل زكي ورؤف حلمي وعبدالسلام مبارك ، وهو ما اكتشفه الضابط مرجان بالصدفة فى أحد طوابير الهتاف ، وكان العقاب ضربهم حتى يصلوا إلى تلك الشعرة التى تفصل بين الموت والحياة .

غير أن ماجرى لنجاتي عبدالمجيد يستحق أن يروى على نحو أكثر تفصيلاً . ويحكي نجاتي لفخرى لبيب أن المعتقل فوجيء يوم الخميس ١٤ يناير ١٩٦٠ بـ «طرمبيطة» الحرس تضرب أثناء طابور المساء مما يعني أن هناك شخصية هامة قادمة . وبالفعل بعد دقائق وصل حسن طلعت مدير الليمان . وهتف الصول مطاوع بحياة الجمهورية ورددوا وراءه ، أما عندما هتف بحياة رئيس الجمهورية فلم يرد الجميع . وكان الضابط النوبتجي يومها سيد منصور ، فالتقط أثنين ممن

لايهتفون وكانا نجاتى عبدالمجيد وعبدالمقصود أبوزيد . وبعد انصراف حسن طلعت أمرهما سيد منصور بالتقدم خطوات بعيداً عن الطابور .

وسأل الأخير نجاتى :

– لماذا لا تهتف ؟

وكانت الإجابة كما هو متوقع أنه يهتف لبلده ولن يهتف لعبدالناصر . فبادره سيد منصور :

– تبقى خاين وابن قحبه ..

والتفت للصول مطاوع صارخاً :

– إصرف العنابر وخلىّ العيلين دول واقفين ..

وبدأ الجحيم . لم تكن العروسة موجودة لحسن الحظ .. كانت فى الليمان . وبدأ ضرب السجانة بالركلات والشوم على مدى ساعتين حتى ارتميا على الأرض وسيد منصور يلح عليه:

– لو هتفت هارجعك العنبر ..

ونجاتى يرفض . بحث عن وسيلة أشد ، فأمر بإنزاله فى بكابورت المجارى فى فناء الأوردى حتى رقبته ، ثم رفعوه محملاً بالبول والبراز وألقوا به على أرض الزنزانة بعد أن ألقوا على أرضيتها ماتيسر مَن الفضلات . أوشك نجاتى على الموت فى تلك الليلة من ليالى يناير ١٩٦٠ بعد ذلك التعذيب

المتواصل . يحكى نجاتى .

«فى الزنزانة انتابتنى الأفكار والهواجس . فالمناضل أيا كان بشر له تركيبة الإنسان . تذكرت زوجتى بثينة وابنى أشرف . أنا أحس الآن أننى أفارق الحياة وأسئلة تدور فى رأسى .. ماهذا الموقف الذى تتخذه ؟ ما نتائجه ؟ وغزتنى بالفعل كل عوامل الضعف بشكل حاد : تذكرت أبى وأمى . من أكون أنا بين الشخصيات الأخرى فى المعتقل؟ قارنت نفسى كعامل بسيط بالأسماء المعروفة فى الخارج والداخل . أن هؤلاء عندما يضحون سوف يجدون من يتحدث عنهم . أما أنا ، فمن أنا بالنسبة إليهم ، إلا أن عوامل الضعف بدأت تتراجع . كنت قبل القبض علىّ قد قرأت كتاب چوليوس فوتشيك» تحت أعواد المشانق تذكرت كلامه والألمان يحيطون به . يواجهونه بأن أحداً لن يحس به أو يدرى . كان المطلوب منه كلمة . أن يؤيد النازية ورفض فوتشيك .. وبدأت أستعيد توازنى» .

فى السابعة صباحاً فتحوا الزنزانة ، ووقف سيد منصور بعيداً بسبب الرائحة القطيعة وصاح :

- نمت كويس يا ابن أمك .. عايز تعمل زعيم .. ها تهتف والا أقتلك هنا ..

لم يرد عليه نجاتى فسحبه السجانة حتى الفناء . وبعد أن

ضربوه بحزمة من الجريد الأخضر . أرتدى الملاكم سيد منصور قفازيه وأمر جندين بأن يوقفاه ويمسكا به ومضى يضربه طالباً منه أن يهتف ونجاتى يرفض وقد أشرف على الغيبوبة .

فقال له سيد منصور :

- سأدفنك حياً ..

وأمر العساكر أن يحفروا حفرة بالفعل وضعوه بالطول فيها ، ثم نظر سيد منصور حوله فوجد كلباً ميتاً أصابه العفن ، أشار للعساكر فوضعوا الكلب الرمة فى حضنه وأجبروه على احتضانه ، ثم أهالوا عليه التراب حتى رقبته . خيل لنجاتى أنه مات واستسلم تماماً . وعندما أفاق ، لم يجد بجواره إلا عويس السجان الذى كان يعرف نجاتى من حبسات سابقة فى سجن مصر والقناطر .

كان سيد منصور قد تركه عائداً إلى مبنى الإدارة لأن زوجته كانت فى انتظاره هناك . ولما تأكد عويس أنه لا ضباط حوله ، حاول مساعدته على التماسك وسقاه ماء . وقام سجان آخر بالذهاب للعنبر للحصول على خبز لنجاتى فلم يجد . والحقيقة أن السجانة لم يكونوا كلهم على نفس الدرجة من الوحشية والقسوة ، كما أنهم كانوا يحترمون من يصمد ويعتبرونه رجلا! ، وحدث التعاطف نفسه من قبل مع من صمد

مثل إسماعيل صبرى عبدالله وسعد زهران وغيرهما .. بعد ثلاث ساعات وصل طعام الظهر ، وأحضر عويس رغيفاً من المساجين الجنائيين ، وذهب إلى نجاتى فى زنزانته ، وأعطاه الرغيف ، فأشار له نجاتى على يديه الملطختين بالبول والبراز، فراح الرجل يقطع الرغيف لقمات صغيرة ويضعها فى فم نجاتى .

وفى اليوم التالى - السبت - كان حسن منير وعبداللطيف رشدى ومرجان قد وصلوا ، لكن الزنزانة لم تفتح إلا آخر النهار ، حين أخرج المأمور نجاتى وقال له بعد أن ابتعد عنه مسافة كافية بسبب الرائحة الفظيعة :

- أنت عارفنى كويس من أيام سجن القناطر يا نجاتى .. إذا كنتم فاكرين أنكم جايين هنا علشان تاخدوا مواقف تسجل لكم على أنها مواقف بطولية فلأ .. شيلوا الحكاية دى من دماغكم .. أنت هنا مسلوب الإرادة .. مطلوب منك تهتف يبقى لازم تهتف :

ثم أمر بعودته إلى العنبر ، حيث قام رفاقه بإحضار مياه ساخنة من المغسل وأشرفوا على إستحمامه وغسله جيداً ، كما قام زميلاه - عبدالعزيز عطية ومحمود شديد المتخصصان فى علاج الأورام الناجمة عن الضرب باستخدام لبابة العيش والتدليك .

وفى العشاء فوجىء بطعام مضاعف من زملائه الذين تسابقوا على إطعامه ، بل أن لويس عوض الذى كان معروفاً عنه تمسكه بقروانته تمسكاً شديداً أصر على أن يعطى نجاتى نصيبه كاملاً !

تلك الأشكال المتنوعة من المقاومة حتى لو كانت فردية ، نتيجتها فى نهاية الأمر أن طابور الهتاف أصبح شكلياً على حد تعبير نبيل صبحى الذى قال أن حسن منير استدعى رفاقاً من عنبر واحد (وكان يضم عدداً كبيراً من القيادات) وقال لهم :

– لقد أمرت بوقف الضرب بسبب الهتاف لأننا لانريد أن نصنع منكم أبطالاً ..

إلا أن تلك الأشكال من المقاومة ، لو أمكن تنظيمها وتطويرها ، لكان ممكناً وقف المجزرة والتعذيب المتواصلين ، وتلك الصنوف المتنوعة من الإهانة والإذلال ، والمسئولية هنا تقع فى تقديرى على عاتق القيادة فمادام هناك مقاومة قد تمت بالفعل ، وكانت نتيجتها أفضل من عدم المقاومة والاستسلام ، فإن التصدى كان ضرورياً ، ولا معنى لما يقوله فؤاد مرسى وحلمى ياسين من أن الهدف كان الحفاظ على حياة الكادر الحزبى بأى وسيلة ، لأن ذلك الكادر الحزبى لن يظل حزبياً وهو يتعرض لكل هذا الإذلال والإهانة اليومية

المتواصلة ، وسوف يتم هزيمة الناس داخلياً .

وقبل أن أختتم هذا الفصل سوف أحكى واقعة غريبة جداً جرت في عنبر ٦ . إنهار الزميل حكيم مترى بسبب ما رآه وما جرى له خصوصاً الرعب الذى سببه له يونس مرعى فى الاستقبال عندما جرى وراءه بالحصان ، كما تعرض للضرب على يد جزار الأوردى عبداللطيف رشدى ، فأصيب بحالة نفسية من جراء الرعب والهلع المصاحبين لحفل الاستقبال .

وفى اليوم التالى إزدادت حالته النفسية سوءاً ، وعندما دخل السجانة فى الصباح للتفتيش ووجبة الضرب الأولى ، لاحظ حسن منير أن الشاويش عبداللطيف أحمد امتنع عن الضرب ، وتكرر ذلك عندما دخلوا لتفتيش عنبر ٦ .

ويحكى حسن المناويش الذى كان أحد نزلاء العنبر أن حسن منير نادى الشاويش عبداللطيف وقال له :

- لاحظت أنك لم تضرب أحداً من الشيوعيين فى عنبر (٥) فقلت أنك متأثر بحالة المريض اللى اسمه حكيم .. وكذلك هنا فى عنبر (٦) .. إيه حكايتك ؟

أجابه :

- أنا من الآن لن أضرب أحداً وإذا كنت عاوزنى أضربهم أعطنى أمراً كتابياً بذلك لأن الضرب تم منعه من السجون ..

عاد حسن منير يقول :

- أنت تخالف الأوامر وتعرض نفسك لمجلس عسكرى ..

- أنا لم أخالف الأوامر . الضرب ممنوع بأمر اللواء محمود صاحب مدير عام المصلحة وسيادتك عارف بأنى سبق أن حوكمت قبل ذلك بسبب ضرب أحد السجناء ولن أضرب أحداً إلا بأمر مكتوب .

- إحضر للمكتب محبوس .

- محبوس محبوس ولا أرتكب جريمة قتل ..

من يعكف على شهادات من اكتووا بنار الأوردى سيصاب بالحيرة . لقد كان ممكناً اتخاذ موقف من التعذيب - أكرر - خصوصاً وأن النماذج التى سبقت الإشارة لها من التصدى والمقاومة كانت باهرة حقاً غير أن الجانب العبثى وغير المفهوم يظل ماثلاً على الرغم من كل شىء : شيوعيون يؤيدون نظاماً وطنياً يقوده زعيم وطنى ، والنظام والزعيم يضطهدون ويعذبون ويقتلون مؤيديهم . والحقيقة أنه كان عبثياً بالنسبة للشيوعيين فقط ، أما فيما يتعلق بالنظام والزعيم فإن مطلبهم كان واضحاً : القضاء التام والنهائى على أى تنظيم مستقل ، والاجبار على التخلى عن حق التنظيم المستقل والدخول فرادى بعد الانصياع وخلع الأحذية والسراويل الداخلية إلى الاتحاد القومى !

(١٩)

رفاق حدتو قدمتهم النيابة فى قضية منفصلة عن رفاق حزب ٨ يناير ، فى القضية رقم ٣ حصر أمن دولة سنة ١٩٥٩ المقيدة برقم ١٦٣ جنايات وضمت ٤٨ متهماً يتقدمهم شهدى عطية الشافعى ومبارك عبده فضل وإبراهيم عبدالحليم وأحمد على خضر وفؤاد حبشى ومحمد يوسف الجندى ومحمد على عامر وجمال غالى .. إلى آخر القائمة . وقبل تقديمهم للمحاكمة طافوا أولاً ضيوفاً على عدد من السجون والمعتقلات فمن القلعة إلى الواحات إلى سجن الحضرة بالإسكندرية ليحاكموا أمام الفريق عبدالله هلال الذى كان قد انتهى من محاكمة رفاق حزب ٨ يناير بالمدينة نفسها . وأود هنا أن أضيف أن هناك عدداً كبيراً من القضايا سواء لحدتو أو غيرها من المنظمات جرت محاكمتها فى الفترة نفسها ، إلا أن القضيتين المشار إليهما هنا هما أهم القضايا . قبل المحاكمة كان شهدى عطية الشافعى قد وجه رسالة إلى جمال عبدالناصر من داخل سجن مصر وتم تهريبها للخارج لتجد طريقها إلى عبدالناصر . الرسالة مؤرخة فى سبتمبر ١٩٥٩ ، ومن بين سطورها نقرأ :

«إنى أشعر أن قضية الوطن أكبر من كل شىء وأن محاكمتى ليست مجرد محاكمة لفرد بتهمة يعاقب عليها قانون

العقوبات . وإنما هى أخطر من ذلك بكثير .. إنها قضية مبدأ، وقضية جزء من أبناء هذا الوطن هم أخلص المؤيدين لزعامتكم الوطنية ولسياستكم التحررية وللأسس الاجتماعية والاقتصادية التى شيدتموها بموجب هذه السياسة ، ومع هذا فهم يوضعون اليوم موضع المحاكمة والاتهام .. ويا له من اتهام بقلب نظام حكم وطنى هم أشد الناس حرصاً عليه . أن الشيوعيين فى الأقليم المصرى من أشد أنصار الحكم إخلاصاً وأكثرهم دعوة للشعب للالتفاف حول زعامة عبدالناصر . أن الشيوعيين هم حملة لواء الجبهة الوطنية التى تضم العمال والفلاحين والمثقفين والرأسماليين الوطنيين وصغار الملاك ، من أجل دفع الوطن إلى الأمام ، ومن أجل معركة البناء» .

ويضيف شهدى فى رسالته :

«إننى عندما أتوجه إلى سيادتكم بهذا الخطاب فأنا أخاطبكم من الأعماق ، وبكل إخلاص وأمانة . هاهى تسعة أشهر على بدء الحملة ضد الشيوعيين ، فلنر حصيلتها على النطاق العربى . هل أزالت الجفوة بين الجمهورية العربية المتحدة والعراق ؟ هل قضت على أوجه الخلاف بينهما؟ هل وجدت السبيل لتحقيق الوحدة أو الاتحاد أو حتى التضامن بينهما ؟ والتضامن والاتحاد بين هاتين الجمهوريتين المتحدتين

المستقلين بالذات هو اليوم فعلاً عماد التضامن العربي بأسره وركنه الركين وحصنه الحصين . ثم ألا نرى النظام الملكى فى الأردن هو الذى ثبتت أوصاله» .

على هذا النحو مضى شهدى فى رسالته مؤيداً الحكم الوطنى وسياسته ومطالباً بإنهاء الحملة ضد الشيوعية وداعياً للتحالف تحت قيادته ، غير أن الرد جاء على الفور : حملة عنيفة داخل السجن لمصادرة الأوراق والأقلام !!

وأمام المحكمة وقف أحمد الرفاعى ليقول للفريق عبدالله هلال ومن حوله :

«أظن ياحضرات الضباط العظام أننى عندما توجهت لبورسعيد المحتلة ، لم تكن هناك قوة تلزمنى بذلك ، فقد كان يمكننى أن أظل بالقاهرة شأن بقية الناس فلست من رجال الجيش . كان بإمكانى أن أظل فى القاهرة شأن الشهود من المباحث العامة ، فلماذا ذهبت لبورسعيد ؟ هل ذهبت إلى هناك لتحريض العمال ضد النظام والحكومة ؟!» .

وأضاف : «عندما دخلنا بورسعيد وجدنا مدينة مضروبة ومهزومة . لا حكومة ولا بوليس ولا أى شىء . كل من فيها يحس بالضياع .. فأين كان رجال المباحث ؟ لقد كان مخبروهم فى بورسعيد يواصلون دورهم فى تقسيم صفوف الوطنيين ، والتجسس على الوطنيين ، بل لقد وصلت بهم

القحة أنهم كانوا يشتركون مع الإنجليز فى مطاردة الوطنيين وتمزيق صور عبدالناصر التى كنا نقوم نحن بلصقها على الجدران» .

سواء أمام النيابة أو أمام المحكمة ، دافع عدد كبير من رفاق حدتو عن الشيوعية ، وفي الوقت نفسه أنكروا انتماءهم الحزبى منعاً لاستفزاز «الحليف» على حد تعبير بعضهم ، ولعل أبرز ما جرى هو انهيار كمال الشلودى أمام المحكمة واعترافه بكل شيء ليتحول إلى شاهد ملك .

ومنذ وصول تلك المجموعة إلى الإسكندرية ، بدأ عقد كونفرنس لمناقشة وتقييم الوضع السياسى ، وفى هذا السياق طرحت للمرة الأولى الفكرة البائسة القائمة على أن السلطة ليست مجموعة واحدة ، بل هناك مجموعة اشتراكية ويجب العمل معها لتحقيق وحدة العمل من أجل الأهداف الوطنية والديمقراطية .

كان ترحيل المتهمين في القضية بعد انتهاء محاكمتهم أمراً عادياً شأن أى ترحيلة باستثناء مصاحبة العقيد الحلوانى مأمور السجن للمتهمين من الإسكندرية إلى أبى زعبل ، فلم تجر العادة على أن يغادر مأمور السجن بصحبة المساجين مكانه ليسلم المساجين المرحلين لأى سجن ، وحتى التشريفة التى أقامها اسماعيل همت وفرقته للمعتقلين منذ

وصولهم خارج السجن وحتى دخولهم الزنازين من كان يمكن اعتبارها عادية ، وسبق أن ذكرت مثيلاتها فى الصفحات السابقة ، أى تلك العاصفة المزعبة منذ يغادر المعتقل عربة الترحيلة ويجبر على الركض وهو مقيد مع زميلين بين صفين من العساكر ويضرب حتى وصوله إلى الحلاق لكن شهدى عطية الشافعى تم النداء عليه وحده وتلقى وجبات خاصة واستثنائية من التعذيب ، فقد لاحقه أحد الضباط بحصانه وخصه بضربات متوالية وهو يركض أمامه حتى اقترب من المنصة التى يجلس إليها اسماعيل همت وكبار الضباط يتفرجون على التشريفة ، وصرخ همت بصوته الأنثوى :

«الواد شهدى اللى هناك عايز اسمعه من هنا ..» .

فرد الضابط من فوق حصانه :

«اسمك إيه ولد» .

قال شهدى وهو مايزال يتلقى الضربات :

«أنت عارف أنا مين ياعبداللطيف يارشدى .. عيب الأسلوب ده ..» .

أجابه :

«قُل أنا مره يا ولد ..» .

قال شهدى :

«نحن قوى وطنية تؤيد الرئيس ، وحتى لو لم تكن نؤيده ..

ده أسلوب وحشي ..» ضاعف عبداللطيف رشدى من ضرباته صارخاً :

«بيقول إنه قوى وطنية ابن القحبة يا أفندم ..» .

أجابه همت :

«اسحله يا ابني .. اسحله قدامي ..» .

سحلوه وضربوه حتى أغمى عليه فقاموا بتغطيسه فى ترعة صغيرة قريبة ليفيق ، ومضوا يضربونه حتى وصل إلى الحلاق حيث أسلم الروح . وعندما انتبهوا بعد فترة أنه لايتحرك مهما ضربوه ، حاولوا افاقته بالكورامين لكنه لم يستجب .

وكان المتوقع أن يعاد نفس السيناريو الذى سبق أن عولجت به الحالات الأخرى مثل حالة الشهيد فريد حداد ، أى يكتب الطبيب شهادة مزورة إنه مات بالسكتة القلبية مثلاً ، وينتهى الموضوع ، لكن السيدة «روكسانا» زوجة شهدى وأم ابنته «حنان» كانت قد شعرت بأن شيئاً غير عادي يحيط بتلك الترحيلة ، وكانت قد انتقلت إلى الإسكندرية أثناء المحاكمة وتابعتها متابعة دقية . وعلمت بطريقة أو أخرى موعد الترحيلة ، وسارت وراءها على مسافة كافية بسيارتها ، ثم توقفت فى أبى زعبل لتستريح بعد الرحلة المضنية وبالمصادفة سمعت من جنود الحراسة ما جرى لشهدى ، فأبلغت والده بعد ساعات ،

وأبلغ والده معارفه بالخارج ، وجرى إحراج عبدالناصر أثناء زيارته ليوغسلافيا عندما قال له بعض أعضاء البرلمان هناك إنك تتحدث عن الاشتراكية بينما الشيوعيون يقتلون في السجون، فأمر بالتحقيق .

بالمصادفة فقط فتح التحقيق ، أكرر بالمصادفة ، فلو لم تكن السيدة روكسانا تابعت الترحيلة من الإسكندرية إلى أبي زعبل ، أو لو لم يحسن والد شهدي التصرف ويبلغ الخارج بسرعة شديدة ، أو لم يكن عبدالناصر في يوغسلافيا آنذاك .. الخ .. بالمصادفة فقط فتح التحقيق ، ومنع الضرب والسخرة في الجبل وافتدى شهدي رفاقه جميعاً بحياته .

❐ ❐ ❐

وقبل أن نغادر .. أبو زعبل .. في اتجاه الواحات ، أضيف أن نتيجة تحقيقات النيابة في مقتل شهدي عطية جاءت مخيبة للآمال ، فقد أحيل اللواء إسماعيل همت للمعاش، ونقل الرائد حسن منير إلى سلاح الحدود ، والرائد عبداللطيف رشدي إلى أسيوط مأموراً لأحد مراكزها (يبدو أنه استمر في ممارساته هناك حتى دبر مسلحون هجوماً على مسكنه وقتلوه وقيدت الحادثة ضد مجهول !) ومات الصول مطاوع مشلولاً ، وقتل ابن السجان عبدالسلام المتربس الوحيد في حادث سيارة !

لايعنى ذلك أن التعذيب والتكدير والإذلال اليومى قد توقف تماماً ، كل مافى الأمر أنه تم ترحيل المعتقلين على دفعات إلى سجون ومعسكرات أخرى لاقوا بين جدرانها تعذيباً أقل وطأة، حتى تجمعوا فى نهاية الأمر فى معتقل الواحات لفترة دامت سنوات أربع فى خليط من المحكومين (أى من صدرت ضدهم أحكام بالسجن ، ومن لم توجه لهم تهم أصلاً ، ومن كانوا يقضون مدداً محكومين بها وانتهت عقوبتهم ثم صدرت على الفور أوامر باعتقالهم (وهم رهن الاعتقال !!) هذا إلى جانب من كانوا معتقلين فى الواحات قبل حملة يناير ١٩٥٩ ..

(٢٠)

في أغسطس عام ١٩٥٨ كان ملك الصحراء الفنان التشكيلي وليم اسحق يجلس بجوار خيمته وقد حزم أدوات رسمه ولوحاته وبقية أغراضه في لفافة كبيرة، يتأمل المكان حوله، ثم نهض ليسقي الورود التي كان قد زرعها، حزينا لأنها المرة الأخيرة التي يسقي فيها وروده، وواصل استعداده لمغادرة مثل معتقل جناح مع رفاقه إلى معتقل المحاريق.

في الواحات الخارجة التي تبعد نحو ١٠٠٠ كيو متر من القاهرة وأقل قليلا من ٣٠٠ كيلو متر من أسيوط أخر نقطة عمران على وادى النيل، قضى الشيوعيون والإخوان المسلمون بضع سنوات رهن الاعتقال أو تنفيذا لأحكام في معتقلين على التوالي: جناح والمحاريق . ولم يكن سجن جناح إلا بقعة جرداء وسط صحراء قارية بالغة القسوة ومحاطة بالأسلاك الشائكة، رغم أنه لم يكن ممكنا الهروب منه، لأن أقرب نقطة للعمران تقع على مبعدة نحو ٣٠٠ كليو متر كما سبق أن ذكرت، استضاف (جناح) ومنذ عام ١٩٥٤ عددا كبيرا من الشيوعيين المنتمين لتنظيمات مختلفة والإخوان المسلمين، وتركوا ليدبروا حالهم كيفما اتفق. واستطاعوا بالفعل استئناس الصحراء بجهد لا يمكن تصوره وأن يبدعوا حياة

شبه محتملة، كان ثمة شجيرات خروع هنا وهناك وورود وحوامل للرسم استخدمها الفنان وليم اسحق ورسم عشرات البورتريهات (وليم اسحق واحد من كبار فناني البورتريه في العالم) وأطلق عليه رفاقه «الملك» بسبب هدوئه وصلابته وربما أيضا بسبب لحيته الضخمة التى تركها تسترسل حتى صدره هذا إلى جانب الفنانين داود عزيز وسعد عبد الوهاب والجريتلى.

وعندما تقرر نقلهم إلى سجن المحاريق على مبعدة كيلو مترات قليلة بعد ثلاث سنوات كان المشهد قاسيا حقا: الخيام تم تكويمها وإعدادها للنقل، ومخازن الطعام والمطبخ فرت منها الفئران والقطط تجرى مذعورة والمعتقلون يجلسون بجوار مزرعتهم الصغيرة يشعرون بوحشة الفراق وينتظرون ترحيلهم بين لحظة وأخرى.

على أى حال انتقل هؤلاء المحكومون إلى المحاريق بعد الاتفاق مع الإدارة على أن يصحبوا معهم لوحاتهم وأدوات الرسم والكتب. وفى المحاريق وافقت الإدارة على إقامة مرسم فى ركن من أركان حوش السجن يضم الحوامل والبويات والفرش والأقمشة التى تستخدم «توالا» للوحات. لكن ذلك لم يستمر طويلا، فعندما زار مدير مصلحةالسجون المحاريق، لم

يعجبه الحال، وأعلن أنه سوف يبلغ اللواء همت بهذه المهزلة! وبالفعل جاء همت الذى لم يتورع عن جمع كل حاجيات المساجين من كتب ولوحات وملابس وأغراض مختلفة وأشعل فيها النار جميعا فى فناء السجن، لائحيا - أى طبقا للائحة مصلحة السجون، فإن من حق المحكومين استخدام تلك الأدوات التى جاءتهم بالطرق القانونية كطرود أو مع الزيارات، لذلك فإن ما فعله همت يعد بشكل من الأشكال تمهيدا لما سوف يحدث بعد قليل، وبالتحديد بعد حملة مارس ١٩٥٩ حين بدأت الدفعات تتوالى.

فى سجن المحاريق التقى الجميع - القادمون من سجن جناح وأغلبهم صدرت ضدهم أحكام، ثم دفعات كانت تأتى بعد تجريدة يناير ١٩٥٩ - من سجن القلعة أو سجن مصر أو طرة أو القناطر، ثم تغادر إلى القاهرة ثم الاسكندرية للمحاكمة، ثم تعود مرورا بمجزرة أوردى أبو زعبل أو معتقل العزب بالفيوم، وتجمع فى نهاية الأمر نحو ألفى شيوعى، من بينهم عدد من الشيوعيين الفلسطينيين القادمين من غزة، لا فرق بين المحكوم عليه أو المعتقل، وكل ما فى الأمر أن المحكوم عليه عندما تنتهى مدة سجنه ويحل موعد الإفراج عنه، ينقل إلى القاهرة حيث يجرى الضغط عليه لكتابة

استنكار لأفكاره ومواقفه، وبالطبع كانت الكثرة البالغة ترفض (هناك استثناءات قليلة جدا) فيحرر أمر اعتقال ويعاد مرة أخرى إلى المحاريق.

وبدءا من أواخر عام ١٩٥٩ أخذت الدفعات تتوالى (ومن بينها دفعات كانت قد أقامت مددا قليلة في المعتقل نفسه من قبل أثناء مرورها العابر انتظارا للمحاكمة).. وهكذا قدر لهؤلاء - سواء المحكومون أو المعتقلون أو من أنهوا أحكامهم وأعيد اعتقالهم - الإقامة خمس سنوات رهيبة، وصاغوا دراما إنسانية اختلط فيها النبل والتضحية بالخوف والرعب، بالتعذيب وفقدان الأمل، بالأصداء البعيدة للتغييرات العاصفة التي كان يقودها عبد الناصر لصالح الجماهير التي دخلوا بسببها هذا المعتقل! أي أن العبث اختلط بما يشبه الجنون، بينما آلة التعذيب الرهيبة تطحن المئات دون أن تبدو أي بادرة أمل في الأفق.

الطريق إلى معتقل المحاريق لا يخلو من وجبات تعذيب متنوعة، ينتقلون من محابسهم بعد أن يقيدوا صفوفا في الحجلات السابق الإشارة لها ويشحنون في عربات مصلحة السجون. ثم ينقلون إلى عربات السكك الحديدية الخالية من المقاعد والمعدة أصلا لنقل المواشي ويهبطون في محطة

«المواصلة» فى أسيوط والتى تمر عليها القطارات بين أسوان والقاهرة، ويعاد شحنهم مرة أخرى فى عربات مصلحة السجون، حيث يستقبلهم قائد المعتقل فريد شينشن بتشريفة تليق بمقامهم ثم يودعون فى زنازنيهم.

ومن بين وجبات التعذيب الإضافية ما حدث لإحدى الدفعات التى تم ترحيلها من معتقل العزب إلى الواحات، وعندما وصلت هذه الدفعة التى ضمت ٥٩ معتقلا إلى بنى سويف مقيدين بالحجلات ومتجهين إلى محطة المواصلة، وبدأوا بالفعل فى النزول من القطار: نزلت مجموعة بينما كانت هناك مجموعة أخرى لا تزال داخل القطار. وفجأة بدأ الأخير يتحرك ويدفع من هبطوا لمسايرته قليلا، والآخرون داخل القطار يحاولون التشبث بمواقعهم، ثم أخذ القطار يزيد من سرعته.. يحكى عبد الستار الطويلة لفتحى عبد الفتاح فى كتاب الأخير (شيوعيون وناصريون) عن تلك اللحظات الفاصلة:

كانت رأسى تدور بنفس السرعة التى تدور بها عجلة القطار. كان مصيرى ومصير الأربعين الآخرين الذين يرتبطون بالسلسلة الواحدة يتوقف عن مدى قدرتى على الابتعاد عن عجلة الموت، وكنت قد سمعت ورأيت فى الأفلام

أنواع التعذيب في القرون الوسطى حين كانوا يربطون الفلاح إلى ذيل حصان جامح أو عربة تجرها مجموعة من الخيول، ولكن في هذه المرة كان قطارا جامحا.. صورة كلما تخيلتها حتى هذه اللحظة أغمضت عيني ورعدة شاملة تجتاح كل جسدي.

ويضيف:

ولقد تدخلت الصدفة تماما مثلما يحدث في الأفلام المصرية لكي لا تمضي المأساة إلى النهاية، فقد تنبه خفير في المزارع المجاورة لما يحدث وأطلق عدة أعيرة نارية، مرت جوار السائق جعلته ينظر إلى الخلف ليرى المأساة وليوقف القطار.

نعود إلى الواحات.. أغلب الدفعات استقبلت بالتشريفة المعتادة، فلم يغير استشهاد شهدي الكثير.. استقبل فريد شنيشن بعض الدفعات، بينما حضر إسماعيل همت بفرقته استقبال دفعات أخرى، فضلا عن زياراته المفاجئة التي كانت تشهد بدورها الوجبات التي كان يفضلها همت، حيث كان يحلو له - كما مر من قبل - أن يخلع المعتقلون ملابسهم كاملة ويساقوا عرايا وهم يجلدون ويضربون بقسوة بين صفين من الزبانية حتى زنازنيهم.

وعلى عكس معتقل جناح المفتوح كان معتقل المحاريق محاطا بالأسلاك الشائكة وله أسوار وبوابة وأبراج حراسة في قلب الصحراء الملتهبة الحارقة. أما اسم المحاريق، فيرى البعض أنه انحدر من زمن الرومان الذين لاحقوا المسيحيين المصريين الأوائل الفارين بدينهم حتى تلك البقعة المنعزلة وأحرقوهم في أحد الأخاديد..

يضم المعتقل ثلاثة عنابر مستطيلة من طابق واحد، وفي كل عنبر عشرون زنزانة ٦ × ٦ م تسع نحو عشرة معتقلين، أبوابها مصفحة نصفها السفلى بينما النصف العلوى شراعة بها أسياخ حديدية تتيح مراقبة المعتقلين من الخارج. وفي نهاية كل عنبر دورة مياه. كان الجو داخل الزنازين خانقا خلال شهور الصيف الطويلة لأن الجدران من الحجر الجيرى المعروف بقدرته على امتصاص حرارة الشمس، كما أن السقوف والأرضيات من الأسمنت المسلح، لذلك يحتفظ بحرارة الشمس في درجة حرارة تتجاوز الأربعين درجة مئوية عادة.

استضاف عنبرا (١) المسجونين من الشيوعيين وعنبر (٢) المعتقلين منهم، بينما استضاف عنبر (٣) الإخوان المسلمين، وفي وقت من الأوقات قسمت الزنازين في عنبرى (١)، (٢)

حسب التنظيمات! فالانقسام كان فى السجون والمعتقلات وليس خارجها فقط، خصوصا وأن الجميع استقر بهم الحال فى المحاريق، ولم يعد هناك شيوعيون خارجها تقريبا!!

❑❑❑

لابد من الإشارة أولا إلى أن معتقل المحاريق شهد مراحل مختلفة ومتنوعة من التضييق والانفراج، ليس فقط على مدى السنوات الخمس (١٩٥٩ - ١٩٦٤) بل قبل ذلك أيضا - ومنذ إغلاق سجن جناح ونقل نزلائه إلى المحاريق.. كما كان شاهدا على الصمود الأسطورى للغالبية وسقوط قلة نادرة فى قبضة المباحث تحول بعضهم إلى عيون لها، بينما أصيب البعض الآخر بالجنون، ممن لم يتحملوا - أخلاقيا - أن يقبلوا القيام بهذا الدور، وقد تركتهم المباحث متعمدة داخل المعتقل ليكونوا عبرة لمن يعتبر، وتشير أغلب المصادر إلى أن عددهم قد بلغ ستة أصيبوا بانهيارات عصبية.

من جانب آخر حرص كل فريق على تمييز موقفه عن الآخر، من ينتمون لحدتو اعتبروا أنفسهم حلفاء لعبد الناصر ومؤيدين لنظامه الوطنى وشواهد وطنية عبد الناصر لا حصر لها وتتأكد وتزداد يوما بعد يوم. فمثلا لم تكن «الحياة العامة» واحدة للجميع، والمواقف التى يتم اتخاذها سواء فى مواجهة

الإدارة أو حتى فى البرقيات التى يتم إرسالها لعبد الناصر فى المواقف المختلفة، فقد كان كل فريق حريص على تأكيد تميز موقفه، بل إن مجلات المعتقل كانت منقسمة، ولكل منظمة مجلتها (تسمع ولا تقرأ). حدتو مثلا أصدرت مجلة «الهواء» والحزب أصدر مجلة «الطريق» وانشقاق الأفق الذى تم داخل المعتقل عن الحزب مجلة «الأفق»، وهى مجلات تقدم فى طرقات العنابر فى مواعيد أسبوعية ثابتة، حيث يمر أحد الرفاق على العنابر ينادى فيتجمعوا ليستمعوا للمجلة.

وإذا كان أوردى أبو زعبل قد افتتح فى ٨ نوفمبر ١٩٥٩ وجرى فيه ما جرى، فإن الوقائع الدامية تكاد أن تكون تكررت بحذافيرها فى ذات التوقيت تقريبا فى الواحات. فحسن المصيلحى وهمت كانا يتميزان بالنشاط الجم والاخلاص فى العمل، ويتنقلان بين مختلف السجون والمعتقلات بغية الاتقان والوصول لأفضل النتائج.

فى ١٥ نوفمبر ١٩٥٩ وصل همت بفرقته الشهيرة إلى الواحات فجأة، ومارس تقريبا التعذيب نفسه الذى كان يمارسه فى أبى زعبل. أمر بخروج المعتقلين من العنابر. كان السجانة يحملون قدرا من التعاطف مع الشيوعيين، وضاعف من ذلك التعاطف أن الجميع فى تلك الواحة البعيدة المنسية

كانوا يعيشون ظروفا شبه متماثلة، لذلك نبهوا نزلاء كل زنزانة أن الموت رابض فى الخارج، بل وطلبوا منهم أن يستعدوا ويخلعوا أحذيتهم ليسهل الجرى والإفلات من الجحيم المنصوب. كان كل ستة يخرجون معا من الزنزانة إلى العنبر يحمل كل منهم حاجياته فى طريق طويل على جانبيه وقفت صفوف متراصة من الزبانية الذين لا يتوقفون عن الضرب بالشوم والعصى وقحف النخيل، أمام منصة يجلس إليها همت وبجواره صلاح طه من مصلحة السجون وفريد شنيشن قائد المعتقل.

كانت الصيحات المجرمة تتوالى: اجرى.. اجرى مع السب والضرب، وعندما سقط على الشلقانى مثلا وتبعثرت حاجياته، راح يلمها على عجل دون أن يرى تقريبا من الهلع حتى إنه حمل من بين حاجياته قحف نخيل يبدو أنه أفلت من أحد الزبانية، فبدا وكأنه يحمل سلاحا يوشك على الهجوم به مما عرضه لهجوم مضاد عنيف ونال عدة وجبات اضافية!!

وعندما يصل المعتقل إلى نهاية الطابور يجبر على خلع ملابسه ويقف عاريا تماما ليجزوا له شعر رأسه ولحيته إن وجدت وحاجبيه كيفما اتفق. وعندما سأل فخري لبيب إذا كان شيوعيا وأجابه أنه شيوعي، جن جنون همت وأمر بصلبه

على العروسة وجلده بالكرباج عددا لا حصر من الجلدات، ثم انزلوه من العروسة وراحوا يضربونه خصوصا عندما صرخ:

- أنا احتج على تلك المجزرة وأحملك المسئولية.

تضاعف الضرب وصلاح طه يصيح:

- بتحتج ياابن القحبة.. تحمل المسئولية يا ...

ثم وضعوه بينهم على طريقة (الكفتة) أى الإحاطة به وعجنه بالشوم والعصى حتى أصيب بالإغماء، وعندما أفاق فى زنزانته كان ذراعه الأيسر مكسوراً، وجسمه ينزف من كل مكان، وجرى ما يشبه ذلك مع شكرى عازر وسيد اسحق وزكى عثمان الذى كان قد فقد بصره قبل اعتقاله بوقت قصير وعشرات غيرهم.

أما محمود القويسنى الذى كان همت يعرفه جيدا، فلطالما توسل إليه لإعادته إلى الجيش بعد فصله لأسباب أخلاقية كما سبق الذكر، لذلك عندما سأله همت عن اسمه(!) أجابه:

- صاغ دكتور محمود القويسنى.

- صاغ إيه ودكتور إيه يا ابن القحبة.. اسمك إيه ياولد!

- صاغ دكتور القويسنى.

ازداد جنون همت وشارك بنفسه فى ضرب القويسنى على جسمه العارى.

وفى صباح اليوم التالى واصل همت غاراته، ففتح الزنازين فى الصباح المبكر، وانهال العساكر بوجبة صباحية انتهت بخروج المعتقلين واجبارهم على الجلوس القرفصاء منكسى الرؤوس فى الفناء، وغادرهم همت ليتسريح قليلا، ثم عاد بعد ساعتين كانوا خلالها جالسين ثابتين فمن يتحرك أي حركة يناله الضرب الغشيم.. . وعندما جاء همت زعق السجانة يأمرونهم بالوقوف، وساروا نحو بوابة المعتقل بين صفين من العساكر بالمدافع الرشاشة والسجانة يضربون بالكرابيج وقحوف النخيل والعصى. وعلى البوابة أمر همت، فريد شنيشن أن يوقع على كشف البوابة، ولم يجرؤ بالطبع على الرفض، وبالتالى أصبح مسئولا عن حياة المعتقلين.

كان الطريق الذى قطعه طابور العبيد من البوابة وحتى وادى العقارب، الواقع بين تلين رمليين نحو أربعة كيلو مترات، ركب همت وبقية الضباط فى عربات جيب، وعندما أمر همت بالتوقف أسرعت فرقته بمدافعهم الرشاشة يحيطون بالمعتقلين، فى البداية طلب همت من المأمور أن يسحب عساكره ويمضى بهم ويتركوا المعتقلين مع همت وفرقته، إلا أن المأمور رفض فقد سبق له أن وقع على كشف البوابة بخروجهم، ولم يكن مستبعدا أن يقتل همت بعض هؤلاء الذين

وقع على خروجهم ويتحمل مسئوليتهم، وأسرع آمرا جنوده وضباطه بالالتفاف حول المعتقلين والاحاطة بهم ثم صرخ فيهم:

- أنا عندى أوامر بضرب النار عند أى حركة.. نفذ اللى هانقول لك عليك بالضبط.. هانوزع عليكو الفوس والغلقان تنقلوا تلال الرمل اللى قدامكو.. دغرى.. نفذ..

وبدأت وجبة أخرى من الضرب المتقطع أثناء العمل بينما همت يشجع:

- العساكر تشد حيلها فى الضرب.. الأولاد دول ماشيين يتفسحوا على مهلهم ليه.. اضرب بالكرباج.. عايز اسمع صراخ..

وازدادت إثارة همت عندما لم يسمع صرخة واحدة، وأمر باستمرار السخرة حتى الرابعة بعد الظهر، بعدها عادوا وعزف البروجى إيذانا بانصراف إسماعيل همت، وباءت محاولته قتل عدد من المعتقلين بالفشل من خلال افتعال تمرد يعطيه الفرصة لتنفيذ مذبحة حقيقية.

وعلى الرغم من أن انصراف همت معناه أن تخف القبضة قليلا، فقد كان مكروها ليس من المعتقلين فقط، بل أيضا من العساكر والضباط، إلا أن المأمور حرص مع ذلك على إبقاء الجو ملتهبا، وحرص بالأخص على الغارات الصباحية التى

يتم من خلالها مداهمة الزنازين والضرب أثناء التفتيش، كما استمر الخروج للجبل وإجبار المعتقلين على مجرد نقل تلال من الرمال، ثم إعادة نقلها دون طائل أو مبرر.

وسرعان ما حل رأس سنة جديد فى ٣١ ديسمبر ١٩٥٩، وأصر المعتقلون على الاحتفال به بالرغم من كل ما يحيط بهم. وما أن أغلقت الأبواب حتى انطلقوا يغنون ويرقصون ويحتسون الشاى (لم يكن توفير الشاى والسكر مسألة سهلة بل دونه الأهوال)، إلا أن الحفل لم يكتمل، فقد وصلت دفعة جديدة فى الليلة نفسها من السجن الحربى، كان من بينها نحو ٢٠ من أبناء قطاع غزة.

استمر الحال على ما هو عليه: الخروج إلى السخرة فى الجبل والأحراش فى جو شديد الحرارة (كاتب هذه السطور عاش عامين منفيا نفيا إداريا فى الثمانينات فى الواحات الخارجة، ويعرف جيدا أن درجة الحرارة فى الصيف قد تصل إلى ٥٠ درجة مئوية).. من السابعة صباحا وحتى الرابعة بعد الظهر حفاة فى منطقة تكثر فيها العقارب وثعابين الطريشة العمياء والتى تكفى لدغة واحدة منها للموت فورا فى دقائق قليلة.. ولم يكن لتلك السخرة هدف فى الحقيقة إلا التعذيب والإذلال، فهم ينقلون أحجارا أو رمالا بالغلقان من مكان إلى مكان، ثم يعيدون نقلها فى اليوم التالى كما كانت!!

(٢١)

بعد منتصف إحدى الليالي فتح فريد شنيشن المأمور أبواب العنبر ودخل على الزنازين مشرفا على البكاء وصوته يتهدج طالبا طبيبا من بين المعتقلين، وخرج معه الطبيبان حمزة البسيوني وصلاح حافظ. يحكى حمزة البسيونى ما جرى فى الجزء الرابع من شهادات ورؤى على النحو التالى:

فى ليلة وجدنا المعتقل يفتح ويستدعوننى أنا وصلاح حافظ. كنا أحيانا نعالج الشاويشية والضباط. دخلنا فيللا المأمور. كان لديه ولدان ثلاث سنوات وأربع سنوات كان لديه أقراص درن لونها جميل اسمها (سيتازيل) الأولاد تناولوها وكانوا يحتضرون.

سرت أنا وصلاح حافظ وصارعنا موت الأولاد والمعتقل كله استيقظ. لم يمت الولدان وانقذا. أعطيناهما منبهات وغسيل معدة.

ويضيف:

فريد شنيشن تحول بعدها إلى إنسان يحكى ويبكى. كل القشرة الفظيعة نزعت وظهر الإنسان داخله. فمثلا يوم انفصال سوريا عقدنا مؤتمرا ووجد أننا ناس وطنيين، فكان يبكى تأثرا بموقفنا وأنهى سنته وصمم أن يعود سنة أخرى

ليعطينا شيئا كإنسان. كان محمود السعدنى يقول: لو قابلنى فى الخارج وأنا لا معتقل ولا شىء وهو لا مأمور ولا شىء سيضربنى أيضا.. تحول.. كيف يتحول الإنسان؟!

وهكذا، فقد تصادف أن طبيب الواحة لم يكن موجودا فى تلك الليلة، ولو لم يفعل حمزة وصلاح حافظ ما فعلاه لمات الطفلين فعلا. تغير شنيشن بعدها لدرجة أنه استجاب عندما طرحت عليه فكرة استصلاح بعض الأراضى المحيطة بالسجن وزراعتها، فقد كان المعتقلون والمسجونون على وشك الموت جوعا، ولم يكن الطعام يتجاوز العدس والفول المدمس والجبن القريش المتحجر والذى ينخره الدود والعسل الحامض بفعل الحرارة الشديدة (وتذكر بعض المصادر أن شنيشن كان قد نقل من المعتقل عندما طرحت فكرة استصلاح الأرض، وأن من وافق على الفكرة مأمور آخر تولى بعده).

ومثلما كان استشهاد شهدى عطية الشافعى سببا فى أن يتمكن نزلاء الأوردى من التقاط أنفاسهم، انعكس الأمر نفسه أيضا على أحوال الشيوعيين على مبعدة ألف كيلو متر لأن فضيحة النظام كانت دولية.. فقد جمع شنيشن المعتقلين فى فناء السجن بعد ظهر أحد الأيام، وأخبرهم أنه تلقى برقية من القاهرة بتحسين المعاملة، ويمكنهم ارتداء أحذيتهم واستلام

خطابات الأهالي ومراسلتهم، والتعامل مع «الكانتين» كما أن العمل في الصحراء لم يعد إجباريا، ثم أمر بفتح المخازن وتسليم المعتقلين ملابسهم التي جاءوا بها، وكان همت قد استولى عليها يوم التشريفة وأحرق بعضها، وأجبرهم على ارتداء ملابس السجن بالمخالفة للوائح مصلحة السجون التي تمنع ارتداء المعتقل ملابس السجن سواء البيضاء للسجناء تحت التحقيق أو الزرقاء للمحكومين.

والحقيقة أنه من بين مآثر الشيوعيين في الواحات تلك المعجزة التي حققوها باستصلاح مزرعة في قلب الصحراء. وربما كان التفكير فيها قد بدأ بعد تلك الحادثة التي يتذكرها الكثيرون، فأثناء العمل في السخرة والجوع يطحن الجميع، استراح طريف عبد الله قليلا تحت ظل شجرة وحيدة، وعندما رفع عينيه وجدها محملة ببعض الثمار فأكل منها ونبه زملاء، أن طعم الثمار يشبه اللوز، فأقبل العشرات يلتهمون «اللوز» من الأشجار المتناثرة، وبعد عودتهم إلى زنازنيهم، وفي المساء، بدأت الآلام الحادة وحالات الاسهال والقيء، وبعد قليل تبين أن نصف عدد المعتقلين تقريبا أصيب بحالات تسمم، ونقل ما يقرب من ٧٠ معتقلا لمستشفى الخارجة القريب إلى جانب قيام الأطباء المعتقلين بعلاج حالات زملائهم الأقل

تطورا داخل الزنازين.

كان سجن المحاريق أصلا مزرعة صغيرة تذهب منتجاتها المحدودة للإدارة، وفكر الشيوعيون فى أن الحل الوحيد لإنقاذهم من الموت جوعا والأمراض هو استصلاح جزء من الأراضى المحيطة، في البداية رفض البعض، وخصوصا من ينتمون للحزب، على أساس أن هذا الحل سخرة للمعتقلين، وإن كانوا انضموا لحدتو فيما بعد، ولكن الفريقين ظلا منقسمين أيضا، فهناك أراض استصلحها فريق حدتو وحدهم، وأرض استصلحها فريق الحزب وحدهم، إلى هذا الحد كان مرض الانقسام مازال مستفحلا!

كان هناك عدد من المهندسين الزراعيين أو ممن لهم خبرة بالزراعة مثل عبد المنعم شتلة وأحمد سليم والسيد يوسف وعبد السلام خشان وحسين عبد ربه ومحمد عراقى. وبرزت أمام العمل مشاكل عديدة مثل ضرورة تسوية الأرض واقامة الجسور وعلاج الأرض الصلصالية بخلطها بالرمال (وهى عبارة عن كميات من الطمى المتخلف عن النيل الذى كان يمر من تلك المنطقة منذ آلاف السنين). بدأوا أولا بنقل أربعة مقاطف رمل لكل متر، ثم حرث الأرض ليختلط الرمل بالصلصال ويتخلخل التماسك فى التربة حتى تستطيع البذرة

أن تنمو من الأرض وتشق طريقها للخارج. أما تسوية الأرض فقد جرت يدويا أولا، ثم وافق المأمور على الاستعانة بثورين مخصصين للعمل في المزرعة الأصلية لمسح الأرض حتى يصبح منسوبها واحدا!

كانت مشكلة المياه محلولة تقريبا. فهناك بئر جوفى بالقرب من مساكن الضباط. إلا أنه كان أعلى من مستوى الأرض بثلاثة أمتار، فتم حفر خزان صممه المهندس فوزى حبشى للمياه مساحته ١٠٠ × ٥٠ مترا بعمق مترين وتبطينه بالدبش والأحجار، ثم شق مجرى يوصل مياه البئر إلى الخزان، كان للأخير فوائد متعددة، فهو يقوم بتبريد المياه التى تكون ساخنة عندما تندفع من البئر ومن الممكن أن تحرق النبات، كما تم استخدامه كحمام سباحة، وكم كانت دهشة الأهالى عندما أرسل لهم المعتقلون يطلبون مايوهات للسباحة!!

وحتى يعلم القارىء حجم المعجزة التى تحققت، يكفى أن أشير إلى أن مساحة الأرض التى استصلحت بلغت أكثر من ٣٠ فدانا. فى البداية لم تستجب الأرض وظل انباتها ضعيفاً، وكان الحل هو تسميدها ولكن من أين يأتى السماد؟ اهتدوا أخيرا إلى مجارى السجن التى تصب فى الرمال وصنعت

بركة عميقة تراكمت فيها كل فضلات السجن التى يمكن نقلها إلى الأرض. وعندما وجدوا طنبورا قديما فى المخازن برزت الفكرة إلى الوجود. يحكى شريف حتاتة فى «النوافذ المفتوحة»:

«دارت المداولات، اتضح أنه فى المخزن طنبور. إذا أدرنا الطنبور فى البركة يمكن سحب المياه منه والقاءها فى الأرض المحيطة بها والتى تنخفض عنها مقدار متر على الأقل. هذا يتطلب أن يغطس طرف الطنبور فى مياه البركة وأن يثبت فيها بحيث لا يتحرك أو ينقلب فيسقط فيها، وأن يوضع الطرف الآخر خارجها على الأرض الجافة ويثبت بدوره على ارتفاع منها، فمن منا مستعد أن يغطس فى البركة، فى مياه قذرة تراكمت فيها وفى قاعها كل فضلات السجن، كل فضلات ما يزيد عن ألفى وخمسمائة مسجون، خليط من البول والبراز والمخاط والدم ومياه الغسيل والمطبخ والورش والفرن، ومن أشياء أخرى قد لا نعرفها مثل الجرابيع الميتة أو الصراصير أو الحشرات المجهولة التى تجرى فيها من تحت، فضلا عن ملايين الذباب تحط فوقها أو تدور حولها.. تطوعت راغبا فى أن أرى جسمى ينوء تحت الحمل ويرفعه لأعود عند آخر النهار وأقول لنفسى وأنا راقد على البرش: انتصرت.

تطوعت وتطوع أحمد الرفاعي.

ويضيف:

نستيقظ في الفجر ونذهب إلى البركة خارج السجن حيث نصبنا طرف الطنبور على هضبة صغيرة، وتركنا الطرف الآخر في البركة التي تصب فيها المجاري. ولكن حتى يستقر على هذا الوضع، وحتى يمكن نقله من مكان إلى مكان لننزع به مياه البركة تماما ونكشط طبقات السبخ المتراكمة في القاع كان لابد من الغطس تكرر الغطس مرات ومرات، والمياه التي نغطس فيها باردة كالثلج، نعمل قبل أن تصعد الشمس فتستيقظ الحشرات والذباب مع الدفء . نستنشق الروائح التي تثير الغثيان وتقلب البطن فيصعد في حلقنا السائل المر.

وشارك العشرات في التطوع لنقل الفضلات تحت الشمس الحارقة ثلاثة أيام فتجف تماما ثم تنقل إلى الأرض المزروعة. بعد قليل أصبحت المزرعة تنتج السبانخ والبامية والملوخية والبازلاء والخبيزة والرجلة والخيار والقثاء والكوسة والخس والفول والجزر والفجل والجرجير والبطيخ والشمام وكل الخيرات التي لم يشاهدها المعتقلون منذ عدة سنوات. وتم تعيين حراس على حقل الفول كان من بينهم د. محمد عمارة (الكاتب الإسلامي الذائع الصيت الآن) بسبب اعتداء البعض

على الفول قبل نضجه، إلا أن الأشقياء أمثال صنع الله إبراهيم وكمال القلش وإبراهيم هاجوج اعتادوا التسلل إلى الحقل والاختفاء بين العيدان العالية والتهام حبات الفول الطرية اللذيذة!

تزايد انتاج المزرعة حتى إنهم توقفوا عن استلام العشاء، فالانتاج، كان يكفى النزلاء والإدارة، بل وكانت أقفاص الخضراوات والفاكهة ترسل للمحافظ والموظفين . يحكى السيد يوسف فى مذكرات معتقل سياسى :

لأكثر من ثلاث سنوات كان نصيب الفرد من نزلاء السجن وموظفيه لا يقل عن نصف كيلو جرام يوميا من الخضار الطازج والفاكهة وعن ثلث كيلو من الخضار المطبوخ، وقد قام بعض المعتقلين بتجفيف الفول الأخضر لعمل فول مدمس، وشجع نجاح المزرعة وانتاجها الوفير مأمور السجن على أن يقوم بتسلمينا مزرعة السجن الأصلية التى كان يشرف عليها الإخوان المسلمون ويحتكرون انتاجها ولا يبذلون فيها جهدا كافيا لتحسين انتاجها، وكان تصرفهم فيها محل شكوى رغم أن أرضها رملية طفلية خصبة للغاية وفى منطقة منخفضة يسهل ريها، وقمنا بزيادة انتاجية هذه المزرعة، فساهمت فى حل أزمة التغذية.

(٢٢)

سوف اتوقف هنا قليلا لاحاول استجلاء بعض الغموض فيما يتعلق بالمواقف السياسية للمنظمات المختلفة فى تلك الفترة ، أى اثناء الاعتقال الدامى. كان الانقسام داخل حزب ٨ يناير قد وقع كما سبق أن ذكرت عشية تجريدة الاول من يناير ١٩٥٩ وعادت حدتو لاسمها القديم. وفى الوقت الذى كان الشيوعيون علي اختلاف منظماتهم يتعرضون لابشع عمليات تعذيب وتصفية ، كان عبدالناصر ايضا يقوم بالتغييرات الجذرية اجتماعيا وسياسيا لمصلحة الأغلبية، وعلى مدى السنوات الخمس (١٩٥٩ - ١٩٦٤) جرت تطورات عاصفة عجز الجميع عن ملاحقتها ، خصوصا وانها كانت تحدث فى ظل العزلة والتعذيب والغياب الاجبارى .

رفاق حزب ٨ يناير مثلا رأوا ان الاجراءات والقوانين الجديدة مثل تأميم بنك مصر فى فبراير ١٩٦٠ لن تكون تقدمية ما لم تصحبها اجراءات ديمقراطية داخل المؤسسات المؤممة، وأن التأميم تأميم رأسمالى ولأغراض رأسمالية ، كما أن علاقات الانتاج ماتزال هى علاقات الانتاج الرأسمالية وقد تصدت الدولة للقيام بمرحلة الرأسمالي مباشرة، ولذلك فان ماتحقق هو رأسمالية الدولة. وفى الوقت الذى أعلنت فيه قوانين يوليو ١٩٦١ الحاسمة ، أعلنت ايضا فى أعقابها

الأحكام القاسية ضد الشيوعيين وخصوصاً القيادات ، وكان متوسط الأحكام يتراوح حول عشر سنوات. تلك تقريبا هى القضايا التي اختلف حولها رفاق حزب ٨ يناير خصوصا بعد وصول مجموعة الاوردى التى تم التنكيل بها الى اقصى مدى ممكن ، وبسببها وجهت الى قيادات الحزب اقسى الاتهامات لأنها استسلمت لكل ماجرى داخل الاوردى وهكذا ما أن وصلت تلك المجموعة حتي طالب الكثيرون بفتح باب الصراع، وانقسم حزب ٨ يناير مرة أخرى بخروج مجموعة أطلقت على نفسها اسم «الأفق» .

أعرف أنه بعد مرور قرابة نصف قرن، فان الوقائع التى أتناولها هنا تبدو باردة وجافة، الا أن الأمر بلا شك كان مختلفا بل ومعجونا بدماء شهداء دافعوا عما يعتقدون انه الصواب حتي الموت .

رفاق حدتو كانوا قد دعوا إلى كونفرنس ضم الكادر الاساسي. بدأ فى سجن الحضرة بالاسكندرية اثناء محاكمتهم ثم استمر في اوردى ابو زعبل وانتهى فى سجن القناطر الذى نقلوا اليه بعد ابو زعبل علي مدى تسعة شهور. أما القرار الذى توصل اليه الكونفرنس فهو أن هناك مجموعة اشتراكية فى السلطة بقيادة جمال عبدالناصر.. ولم يعترض على القرار إلا ثلاثة فقط هم محمد عباس وطاهر البدرى وعبدالحميد السحرتى .

وعلى الرغم من أن كاتب هذه السطور يعتقد ان هذا التحليل كان السبب الاساسى فى كل الكوارث التي لحقت بالحلقة الثانية من الحركة الشيوعية المصرية بكاملها، إلا أنه ينبغي تأمل الأوضاع العربية والدولية التى صدر فى ظلها ذلك القرار ، بدلا من الاتهامات الشائعة بالعمالة للسلطة وخيانة مصالح الطبقة العاملة، وحسبما اشار محمد يوسف الجندى فى الجزء الأول من مسيرة حياتى فان العالم كان يموج بانتصارات البلدان الاشتراكية وانحيازها ومساعدتها لبلدان العالم الثالث حديثة الاستقلال عن الاستعمار، ويضيف، «ان النضال ضد الامبريالية والاستعمار فى العالم والتوجه الوطنى لقيادة ثورة يوليو يدفع قيادتها لاتخاذ مواقف راديكالية في سعيها للبحث عن طريق مستقل للتنمية ودعم الاستقلال الوطنى والتطلع الى الطريق الاشتراكي متأثرة بنجاحات الاشتراكية في العالم.. لكنه يقرر فى الوقت نفسه ان تلك المجموعه تخلط افكارها الاشتراكية ببعض التوجهات القومية، فهى اذن ليست الاشتراكية العلميه ، والموقف الذى ينبغى اتخاذه هنا هو السعى نحو تحقيق وحدة العمل مع هذه المجموعة الاشتراكية فى النضال من اجل التحرر الوطنى والاجتماعى ..

المجموعة الاشتراكية التى يقودها عبدالناصر ليست

وحدها على الرغم من الدور الحاسم لجمال عبدالناصر وهناك اجنحـة يمينيـة داخل السلطة ، وبسـبب هذه التناقـضـات يتعرض الشيوعيون لما يتعرضون له من تعذيب وتصفية، وعلى حد تعبير الجندى : «كنا نشعر أن هناك محاولات من اقسام وجهات فى السلطة لافساد علاقاتنا مع جمال عبدالناصر والمزيد من تدهور تلك العلاقات» . ويضيف في شهادة اخرى نشرها رفعت السعيد في كتابه «هكذا تكلم الشيوعيون.»:

«كنت آنذاك في سجن الاسكندرية حيث تجرى محاكمتنا امام المجلس العسكرى العالى واجرينا مناقشات مستفيضة حول مغزى هذه الاجراءات وقال البعض بوجود مجموعة اشتراكية فى قمة السلطة اما عملية السجن والاعتقال فهى تعبير عن نجاح القوى اليمنية والاستعمار في الوقيعة بين القوى الوطنية وبعضها البعض »

صاغ القرار بعد المناقشات بهيج نصار الذى يقول فى الجزء الرابع من شهادات ورؤى :

«أكد القرار ان افكار عبدالناصر تتطور وتقترب رويدا رويدا من افكار الاشتراكية العلمية، وأنه من الممكن مستقبلا ومع تطور افكاره ان تتم وحدة بين مجموعته الاشتراكية والتنظيم الشيوعي » ويضيف ان احتمال وحدة مجموعة عبدالناصر مستقبلا مع الشيوعيين «أمر لا ترفضه خبرة

الاحزاب الشيوعية سواء ما جرى في كوبا او ماجرى في كثير من دول شرق اوربا حيث توحدت الاحزاب الشيوعية مع احزاب الاشتراكية الديمقراطية» .

وفي الواحات ، حيث تجمع المئات من الحدتويين ومع استمرار النقاش حول القرار السابق، تقرر عقد مؤتمر آخر، وحسبما ذكر بهيج نصار فإن اغلب اعضاءه رأوا ان ما بينهم وبين عبدالناصر ليس خلافا حول افكار اشتراكية «فالرجل لا ينقطع عن التأميم وسيطرة الدولة على كافة المقدرات الاقتصادية حتى اصبح عند الاتحاد السوفييتي وكأنه العريس بين زعماء العالم الثالث. القضية هي التنظيم، ولما كان من المستحيل التخلي عن تنظيمنا فليس من طريق غير الوحدة مع مجموعة جمال. ولقد سبق ان تبنى التنظيم قرار المجموعة الاشتراكية وارسل القرار اليه.. الى عبدالناصر طبعا. وانتهى مؤتمر الواحات الى ثلاثة قرارات . الاول يقضي بأن المرحلة الراهنة مرحلة انتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية . الثاني ان تتضمن لائحة منظمة حدتو شرطا بضرورة القبول بحماية نظام عبدالناصر كأحد شروط العضوية (!!) . الثالث تضييق القيادة حتى تستطيع اتخاذ القرارات بسرعة وحسم وضمت انذاك محمد شطا وزكى مراد واحمد الرفاعي وفؤاد حبشي ومبارك عبده فضل وكمال

عبدالحليم ، والأخير كان خارج المعتقل .

قد يفسر ذلك التحليل الذى اعتمدته حدتو عن اقتناع (بل ويتحدث الكثير من هؤلاء الرفاق عن الأمر بفخر شديد، مؤكدين ان تعذيبهم على ذلك النحو المهين والوحشى لم يمنعهم من التفكير بموضوعية!!) قد يفسر ذلك التحليل اصرار حدتو على التمايز عن موقف رفاق حزب ٨ يناير حتى فى التسكين فى الزنازين او الحياة العامة او ارسال البرقيات لعبد الناصر فى عدد من المناسبات ، أو حتى في استصلاح ارض المزرعة، أو فى المجلات التى صدرت في المعتقل . هذا التفسير في اعتقادى ليس كافياً ، وأظن ان الحركة الشيوعية لم تبرأ مطلقا من مرضها المتوطن وهو الانقسام والتشرذم حتى فى أحلك الظروف ..

(٢٣)

وعلى مبعدة نحو ألف كيلو متر من معسكر اعتقال المحاريق، كانت نساء حدتو وغيرها من المنظمات يتمتعن بسجن القناطر للنساء (يبعد عن القاهرة عدة كيلو مترات) . واذا كان عددهن قد بلغ ستة وعشرين فقط، الا أن مجتمعا مثل المجتمع المصرى كان يرفض ويدين بشدة تورط سلطات القمع في اعتقال او سجن النساء في قضايا سياسية، وقبل عام ١٩٥٢يمكن رصد حالات قليلة جدا ممن اعتقلن ، غير أن تجريدة يناير ١٩٥٩ وانفجار الهوس المعادى للشيوعية، كان أقوى من أن يتوقف أمامه أحد.

تأخر اعتقال النساء أقل من ثلاثة شهور بعد تجريدة الأول من يناير، حيث بدأت حملة اعتقالهن في ٢٨ مارس ١٩٥٩ ، فهوجم بيت الفنانة التشكيلية انجى افلاطون، لكنها كانت تتوقع ذلك وهربت، كما اعتقلت انتصار خطاب وزوجها صلاح تاركين طفليهما عمر (١٤سنة) وهشام (١٠ سنوات) ورفض الضابط الذى القى القبض عليها أن تصطحب معها الطفلين لتوصيلهما الى بيت جدتهما القريب.

كانت المشكلة الأولى التى واجهت تلك الاعتقالات ان لا أحد كان قد فكر في اعداد مكان لاعتقالهن ، فالقلعة (المعتقل الاول الذى يستضيف المناضلين) لم تكن معدة لاستقبال

النساء، وهو مادعا قائد المعتقل للصراخ في القوة التي اصطحبت انتصار خطاب رافضا دخولها ! «وبعد عدة اتصالات تم ارسالها الي حجز قسم الموسكى مع ثريا شاكر التى كانت قد اعتقلت فى الليلة نفسها» .

كانت ثريا قد اتفقت مع زوجها المهندس فوزى حبشى على أن يظل هارباً ولا يمر على اسـرته إلا لحظات قليلة للاطمئنان اذا ما وجد منشفة الوجه منشورة على حبل الغسيل فى الشرفة المطلة على الشارع ، وهى العلامة التى تعنى أن المكان لا يزال آمنا.

وكانت قد آوت الى فراشها متأخرة بعد الاحتفال بعيد الميلاد الثامن لابنها الاكبر ممدوح. بالمصادفة كانت حماتها معها تحضر عيد الميلاد ليلة الاعتقال . تركت ثريا وراءها الى جانب ممدوح كلاً من حسام ٦ سنوات ونجوى الرضيع التى لم يتجاوز عمرها عاما واحدا.

ومع ذلك تمكنت من اختطاف منشفة الوجه من حبل الغسيل ، طبقا للاتفاق بينها وبين فوزى حبشى. حاولت ثريا أن تصطحب معها طفلتها نجوى الرضيع ، إلا أن الضابط رفض تماما وقال لها كالعادة انها لن تتغيب اكثر من نصف ساعة !! .

اما فاطمة زكى عضو اللجنة الوطنية العليا للطلاب

والعمال اثناء انتفاضة ١٩٤٦، فلم يكن قد مر على زواجها من نبيل الهلالى سوى ستة شهور ، وتم القبض عليها أثناء هروبها واودعت قسم عابدين مع اجلال السحيمى فى حجز النساء . ومثلما حدث مع انتصار خطاب، رفض قائد معتقل القلعة استقبال ليلى الشال واعيدت الى المباحث العامة، بينما قبض علي ثريا أدهم زوجة حلمي ياسين من بيت اسرة زوجها وهي تعاني من التهاب رئوي حاد الزمها الفراش، حتى أنهم اعتقلوها وتوجهوا بها الى المستشفى رأسا في اليوم نفسه، وفى شهر رمضان الكريم قبل مدفع الافطار !!

اهتدى مكتب مكافحة الشيوعية الي حل مشكلة مكان ايداع المعتقلات اخيرا وهو سجن القناطر للنساء المجاور لسجن القناطر للرجال الذى استضاف بدوره عددا كبيرا من المناضلين سواء ممن اعتقلوا عام ١٩٥٩ او بعد ذلك .

جينيفيف سيداروس تركت ايضا ثلاثة اطفال اكبرهم عمره ٤ سنوات لتقضي نحو خمس سنوات رهن الاعتقال حسبما اشارت في الجزء الثالث من «شهادات ورؤى»» وبنت شبرا ثريا ابراهيم التى كان بيت اسرتها ملاصقا لبيت عائلة حفني ناصف الثورية الشهيرة، اعتقلت تاركة ابنتها تسعة شهور، بينما زوجها د. مختار السيد كان قد اعتقل قبلها . ايفون حبشى - التى كان شقيقها ضابط شرطة - توجه

لاعتقالها جزار طنطا الشهير انور منصور قاتل الشهيد محمد عثمان بنفسه، لذلك لم يتورع عن الامساك بالمقص فى قسم شرطة طنطا وقص شعرها لينتزع منها اماكن الهاربين فى طنطا، وعندما فشل شحنها فى سيارة مصلحة السجون مع الرجال من المساجين الجنائيين . وداد مترى لم تمكث فى المعتقل إلا حوالى خمسة شهور، وتعرضت اثناء القبض عليها وهى تسير فى الشارع مع فخرى لبيب لالتواء فى ذراعها بسبب العنف المستخدم معها، والاكثر ازعاجا بالنسبة لها هو أن أسرتها بكاملها فى تلك الليلة كانت تستعد للسفر الى الاسكندرية بعد ساعات ، وخرجت من بيتها بعد أن قالت أنها لن تتغيب اكثر من نصف ساعة، وكان كل ما يهمها بعد القبض عليها هو قلق امها وشقيقتها ، فقد كانت كبيرة العائلة ومسئولة عنها بعد وفاة والدها ..

وداد مترى وايفون حبشى تم تقديمها للمحاكمة فى قضية ، لذلك يبدو أنهما كانت تقيمان فى عنبر اخر باعتبارهما تحت التحقيق ، وهو العنبر الذى كانت تقيم به مسجونات اخريات من بينهن مارسيل بنينو الجاسوسة الاسرائيلية ، الى جانب اجنبيات اخريات مثل مارى بابا دوبلو اليونانية وليفكى ياناكاكيس، ثم ميمى كانل الايطالية المتزوجة من كمال عبدالحليم ، وكان محكوما عليها بثلاث

سنوات قضتها وخرجت من مصر، ثم عادت متنكرة إلا أنها قبض عليها وحكموا عليها بخمس سنوات قضتها كلها حسبما قالت ثريا شاكر فى ورشة العمل التى نظمتها لجنة توثيق تاريخ الحركة الشيوعية، وأضافت وداد مترى فى المصدر نفسه انها كانت عازفة موسيقى ماهرة ، وقد سمحوا لها فى السجن بدخول آلة كمان كانت تعزف عليها موسيقى كلاسيكية عندما تكون حالتها طيبة إلا أنها كانت تفرض عليهن أن يرتدين ملابس رسمية اذا رغبن فى الاستماع الي عزفها ! ..

أما العنبر الذى كان يضم القسم الأغلب من المعتقلات فكان اسمه اصلا عنبر الدعارة حسبما قالت ليلى الشال لفخرى لبيب فى كتاب «الشيوعيون وعبدالناصر» وبعد تسكين الشيوعيات سمى عنبر الشيوعية وهو «مبنى طوله عشرة امتار وعرضه خمسة امتار، كان به سبعة سرر فى صفين ، وكل سرير مكون من ثلاثة طوابق، لا توجد على السرر حشايا ولا اية مفروشات اخرى. فقط على كل سرير بطانية واحدة، وبالعنبر جردلين .. عندما دخلت الرفيقات العنبر لم يكن لدى اى منهن اية فكرة عن استخدام هذين الجردلين فقالت السجانة : واحد للمياه والآخر للحاجة ..

منطقة القناطر التى تضم سجنا للرجال وأخر للنساء يفصل بينهما شارع واسع، تعد من اكثر المناطق سحرا

وخصوصا فى الشتاء (كاتب هذه السطور قضى بضعة شهور فى سجن القناطر للرجال عام ١٩٨١) فالارض المحيطة تعد من أخصب الاراضى ، والاشجار متكاثفة ومتنوعة ، والطبيعة سخية للغاية ، والألوان والظلال دائمة التغير والتنوع ، لكن البرد قارس حقا وتشعر به يدق عظامك ويؤلمها بشدة ..

واذا كان الشيوعيون فى السجون الأخرى لم ينجحوا فى اقامة حياة عامة مشتركة سواء فى المعيشة أو فى المواقف السياسية والمطلبية داخل السجون بسبب اختلاف الانتماء الحزبى، فإن النساء - على اختلاف واقتتال المنظمات التى انتمين اليها، استطعن اقامة حياة عامة مشتركة ، كما استطعن توحيد مواقفهن فى مواجهة الادارة وانتصرن فى أغلب المعارك التى جرت ضدها، كذلك أصدرن بيانات مشتركة، ودخلن معا اضرابات عن الطعام ..

انجى افلاطون - الفنانة التشكيلية الراحلة وذات الاصول الارستقراطية العريقة، كانت قد استطاعت الهروب اكثر من ثلاثة شهور من امر اعتقالها ، وتنكرت فى زى فلاحة ممن يعشن فى المدن، وارتدت طرحة فوق منديل الرأس وجلباباً اسود طويلا وكردانا علي الرقبة ووضعت كحلا اسود كثيفا فى عينيها ، وعاشت مع زوجين مسنين كانت ظروفهما

المالية صعبة باعتبارها هاربة من بيت الطاعة . ثم قبض عليها فى كمين بعد أحد الاجتماعات الحزبية واستطاعت بمهارة تحسد عليها ان تتخلص من تقرير عن اضرابات عمال الترام كان كافيا لتوقيع اقصى عقوبة عليها. وفى اليوم التالى حقق معها وكيل نيابة يدعى احمد موسى وكان علي علاقة بزوجها محمد أبو العلا وكيل النيابة الراحل الذى مات بعد خروجه من السجن . وسألها الرجل : هل كنت هاربة ؟ . اجابته بأنها كانت هاربة بالفعل لأن امر الاعتقال كان غير قانونى «وانا لست على استعداد للذهاب الى السجن» .. فعاد يسألها ان كانت متنكرة ، فأجابته بأنها فنانة وتحب رسم الفلاحين ، وبسبب هروبها ارتدت تلك الملابس وكانت تقف امام المرآة لترسم نفسها ! فانفجر في الضحك بالطبع !

بعد ثلاثة أيام قضتها فى مبنى وزارة الداخلية قابلها خلالها حسن المصيلحى وغيره من كبار الضباط وحاولوا استدراجها للادلاء بمكان هروبها دون جدوى. وعندما أودعت سجن القناطر كان كحل عينيها قد ساح وجلبابها اتسخ وبدت هيئتها كمتسولة حتى ان رفيقاتها لم يتعرفن عليها فى البداية..

اما الشابة الفلسطينية صهباء البربرى خطيبة الشاعر معين بسيسو فقد نقلوها من السجن الحربى الى سجن

القناطر ، مثلما نقلوا خطيبها من الحربى الى الواحات ..

(لا أعرف ما اذا كان على أن اكرر ان هؤلاء النساء كن يعملن بالسياسة بطبيعة الحال، ولم يكن مجرد زوجات مناضلات، فى صفوف منظماتهن المختلفة شأنهن شأن رفاقهن من الرجال سواء فى النقابات او الاحياء او اماكن عملهن او فى الاجهزة الفنية مثل المطبعة او فى شبكات توزيع المنشورات الخ ... الخ .. ..

❐❐❐

في الكتيب الصغير الذى اهداني اياه صديقي الكبير عريان نصيف «المرأة المصرية واليسار» . تذكر ثريا حبشى اسماء ٢٤ معتقلة ومسجونة من بينهن ٩ أمهات تركن اطفالهن خارج الاسوار، والباقيات توزعن بين من تخرجن فى الجامعات او مازلن طالبات ، الى جانب عاملة من شبرا الخيمة ، وفتاة صغيرة من بنى سويف عمرها ١٦ عاماً (تذكر ثريا ابراهيم فى «شهادات ورؤى» أن عمرها كان ١٣ سنة فقط، ولم تكن شيوعية بل تلميذة لشيوعى مدرس فى بنى سويف . قضت ثلاث سنوات في السجن وخرجت شيوعية ، بل ورفضت كتابة استنكار مقابل الافراج مثلما فعل البعض من الرجال ..

تركزت جهود المباحث وادارة السجن على الضغط على

من تركن ابنائهن بحرمانهن من رؤيتهم ، خصوصا وان الآباء كانوا مسجونين ايضا، فتضاعف قلقهن ، وابتدعن طرقا عديدة لرؤية ابنائهن الذين كانت اعمارهم تتراوح بين عام واحد وسن المراهقة ، على النحو الذى سوف أورده بعد قليل. عانين بطبيعة الحال، فأغلبهن كن يدخلن السجن للمرة الاولى، والعنبر مغلق طوال اليوم، إلا للذهاب لدورة المياه الموجودة في مستشفى السجن مرتين صباحا وعصرا والكتب الجرائد والاوراق والزيارات ممنوعة والطعام بالغ الرداءة (متعهد التغذية لسجن القناطر تمكن من بناء عمارة سكنية شاهقة خلال السنوات الاربع التي قضتها الرفيقات في السجن) .

وسرعان ما ادركن انه يجب عليهن مواجهة تلك الظروف والتغلب عليها. وكما روت فاطمة زكى لفخرى لبيب فى «الشيوعيون وعبدالناصر» ..

«اتفقت انا وثريا ادهم وسعاد الطويل واجلال السحيمى على ضرورة عمل شىء ما. فى اليوم التالى ساعة طابور الصباح صحت فى الجميع ان يتجمعن معا لنبدأ تمارين رياضية .. شكلن دائرة وبدأت التمارين.. واحد .. اتنين .. الرأس واليدين ، البطن والرجل ، ثم رقص ايقاعى .. خطوة لليمين خطوة لليسار والمسجونات العاديات يتساءلن عن هؤلاء اللواتي يرقصن داخل السجن. بعد هذا الطابور الرياضى

توجهنا للاغتسال فى دورة المياه، ثم تناولنا الافطار. بدا الأمر وكأننا فى معسكر خاص بنا. كان الأمر الهام هو تحطيم رهبة السجن» ..

بينما تقول انجي افلاطون ..

«عندما وصلت فى شهر يونية كانت معنويات الزميلات هائلة .. يتصرفن وكأنهن فى رحلة.. لعب وغناء .. وحتى اذا جاء شهر يولية وانتشر جو الافراج والعفو في السجن، دخلت الزميلات فى هذا الجو أيضا . لذلك ناقشت مع اللجنة القيادية (لجنة شكلت داخل سجن القناطر تضم مختلف التنظيمات) ، خاصة والزميلات عامة، ضرورة تجهيز انفسنا للحفاظ علي صحتنا ومعنوياتنا لأننا سنظل في السجن مدة طويلة ..

بعد جهد شديد استطعن اقامة علاقات انسانية مع المسجونات العاديات من المتهمات فى قضايا القتل والمخدرات والدعارة والسرقة ، وكذلك مع السجانات ، إلا انه بعد شهرين فقط، ادلى جمال عبدالناصر بتصريح شهير للصحفى الهندى كارينجيا قال فيه .. ليس فى مصر معتقلين او معتقلات ، ووصلت الصحيفة التى نشرت الخبر الى سجن القناطر.. وأثناء مناقشته تذكرت ثريا شاكر ما سمعته من زوجها فوزى حبشي ان مصطفى النحاس اعلن عام ١٩٤٨ انه لا توجد

معتقلات فى مصر، وخرج الجميع فى اليوم نفسه بناء على ذلك التصريح . تروى ثريا شاكر ماجرى بعد مناقشة تصريح جمال عبدالناصر ..

«اتفقنا فيما بيننا اننا سوف نذهب بعد الطابور .. الى غرفة المأمور ونخبره اننا قررنا الاعتصام عنده حتى يأتى من يؤكد لنا وضعنا الحالي.. فرئيس البلاد يقول بالفم المليان ان ماعندوش معتقلين .. نبقى احنا مين ؟! وبعد طابور الصباح ذهبنا بشلة المعلم الى غرفة المأمور واخبرناه بما اعتزمناه، بالطبع رفض أن نحتل غرفته وهاج وماج وهددنا بالويل والثبور وعظائم الأمور حتى نرتدع ونعود الي عنبرنا لكن احنا لم نهتم واصرينا على موقفنا فادخلونا غرفة الرئيسة وهى الغرفة المقابلة لغرفة المأمور .. وحضروا حوالى ٢٠٠ او ٣٠٠ عسكرى عملوا التمام والفرقعة بالسلاح وهذا بالطبع للتخويف .. وبعد أن تركونا لمدة ساعة تقريبا وهى التى عمل فيها المأمور الاتصالات والذى منه وحضر مدير المنطقة ونقلوا السجن يعنى ادخلوا كل السجينات فى عنابرهم الا من حوالى ٣٠ أو ربما اكثر المعروف عنهم الخناقات واجسامهم ضخمة وادخلوهم علينا الغرفة الصغيرة اللى احنا مزنوقين فيها وكل واحدة منا استلمتها اتنين على الاقل من السجينات الفظيعات وهات يا ضرب فينا وشد شعر وسحل والذى منه،

فهتفنا رغم كل هذا ونحن مسحولين الى العنبر :
تسقط سياسة الكذب والنفاق ..
وهكذا حتى وصلنا الى العنبر مكسرين مدغدغين . وفاطمة زكى كسر لها ضلع. وسجلوا الحادث علي أنه خناقة بين المسجونات العاديات والمعتقلات الشيوعيات واوقعوا علينا عقوبات كثيرة» ..

بطبيعة الحال استفدن كثيرا من تلك المعركة على الرغم من الضرب والتكسير، فقد رفضن الاستسلام وشعرن بقدرتهن علي المقاومة . لذلك سرعان مانظمن المحاضرات والمناقشات ، ونظمن تجربة محدودة لمحو امية بعض المسجونات الجنائيات، وأعددن مجلة مسموعة، وشكلن فريقا للتمثيل داخل العنبر كانت الفنانة محسنة توفيق هى البريمادونا فيه بطبيعة الحال. وكان فى السجن مكتبة، إلا أنه لم يكن مسموحا لهن بالاستعارة منها ، غير ان علاقاتهن بالمسجونات الجنائيات مكنتهن من قراءة اغلب مافيها من خلال استعارة زميلاتهن من الجنائيات.. والطريف ان انجى افلاطون اكتشفت ان عدداً كبيرا من تلك الكتب كان مكتوب عليها اسم زوجها محمد محمود ابو العلا الذى كان نزيلا فى سجن الرجال من قبل، وهى التى كانت قد أحضرت له الكتب!..

وبعيدا عن السياسة كانت انجى افلاطون واحدة من اهم الفنانات التشكيليات في مصر بلا جدال ، ولم تكن تستطيع الحياة دون ان ترسم، لذلك طلبت من مأمور السجن ان يسمح لها بالرسم ، ولما رفض، عرضت عليه ان ترسم لحساب السجن، اى تسلم لوحاتها للادارة التي تقوم ببيعها لحساب السجن، وبعد لأى وجهود مضنية استطاعت اسرتها ان تستخرج لها تصريحا رسميا بالرسم داخل السجن ، فرسمت في تلك الفترة عددا من أجمل لوحاتها واكثرها تأثيرا . من بينها الصورة الشهيرة للطفلة التي تمسك برتقالة ، وهي في الاصل ابنة واحدة من تجار المخدرات المحكوم عليها بتأبيده ، كانت قد دخلت عنبر المعتقلات فرحبن بها واعطينها برتقالة ، وحين بدأت الطفلة في تناولها ، وكانت انجى تراقبها منذ دخولها ، شرعت في رسمها على الفور. تلك اللوحة تحديدا نالت اعجاب العميد عباس قطب مدير منطقة سجون القناطر وأصر على شرائها بجنيه واحد وكادت تلك اللوحة النادرة أن تضيع تماما، إلا أن البرواز الخالى الذي اشترى العميد اللوحة خصيصا ليضعها فيه كان اصغر من اللوحة فأعادها وطلب منها ان ترسم لوحة أخرى وأبلغها بالمقاس الذي يريده! وعندما وصل مأمور جديد للسجن اسمه عبدالقادر فهمى، كان متشدداً جدا ويقضى فترات طويلة كل

يوم يراقب انجي وهي ترسم ، ولأن انجي كـانت تهـرب لوحاتها خارج السجن، فقد خافت من مراقبته واكتشافه اختفاء احدى اللوحات ، واضطرت لرسم نسختين من كل لوحة، وهو أمر بالغ الصعوبة بالنسبة لأى فنان كما هو معروف ، وعلى الرغم من ذلك صادرت المباحث احدى عشرة لوحة لا يمكن تعويضها ابدا . ومن بينها بورتريه لامرأة محكوم عليها بالاعدام ، ولم تستطع استردادها .

□□□

على الرغم من كل ذلك الا أن هناك جرحا مفتوحا ومؤلما على الدوام ، وهو حرمانهم من رؤية اطفالهن ، فيما عدا اسماء البقلى التى اعتلقت وهى حامل في أيامها الأخيرة ، وساعدها طبيب السجن على ان تلد فى معتقل مستشفى قصر العينى حتى لا يقال ، إن طفلها ولد فى السجن! ..

وبعد شهر عادت اسماء البقلي ومعها طفلها ياسر الذى تفتح وعيه وتعلم اولى الكلمات داخل عنبر المعتقلات الشيوعيات بسجن القناطر ، وكان موضع عناية وحب كل المعتقلات اللائى مارسن امومتهن معه على مدى ما يقرب من ثلاث سنوات . لكن استمراره بعد ذلك كان مستحيلا . ليس فقط بسبب لوائح مصلحة السجون، بل أيضا لأنه لم يكن يعرف احدا فى الخارج ، وأبوه علي مبعدة امتار قليلة في

سجن القناطر للرجال، وقد رفضت المباحث السماح له برؤية ياسرمطلقا . الحل كان البحث عن طريقة لنقل اسماء وياسر لمستشفى قصر العينى ، واتاحة الفرصة ليتعرف على اسرته الجديدة في الخارج، قبل أن تضطرها اللوائح لاخراجه في الموعد المحدد، وهو ما نفذته بأقصى قدر من السرعة .

المدهش ان ياسر يوم خروجه من السجن انطلق راكضا بجنون الى الخارج دون ان يودع امه ! ورفض فيما بعد أن يزورها او يراها !.

اما ثريا شاكر فتحكي لفخرى لبيب فى جداريته انها فوجئت ذات يوم بمأمور السجن يستدعيها ثم «وجدت هناك طفلة صغيرة تجلس على مكتبه. كانت جميلة كالقمر . وقفت امامها اتأملها . امعن فيها النظر واتساءل ان كانت هذه نجوى ابنتى.. كانت الطفلة تنظر لى أيضا دون أن تعرفنى. لم أكن قد رأيتها منذ عامين .. قال مأمور السجن: ألا تعرفين هذه الطفلة ! وللحال تحول شكى الى يقين هذه الجميلة ابنتى . اختطفتها وانهلت عليها تقبيلا . قال لى المأمور : لقد جاء بها عمها هذا الصباح وقال إن الطفلة تريد رؤية امها وأنا لاأريد زيارتها ، لكن ها هى الطفلة امامك تريد أن تتعرف على امها ومرجع الامر إلى انسانتيك .. وأنا كأب لم أستطع ان امنعها من رؤيتك رغم مخالفة هذا للوائح والقوانين ..

في الأعياد تسمح مصلحة السجون بزيارة اطفال السجينات الجنائيات لامهاتهن وقضاء النهار معهن ، الا أن هذا لم يكن مسموحا به لاطفال المعتقلات السياسيات ، ولأن علاقة الاخيرات بالسجانات كانت طيبة، فقد سألت كل من ثريا شاكر وثريا ابراهيم وانتصار خطاب وسميرة الصاوى ، الباشجانه ماإذا كان بامكانهن ان يرين اطفالهن واستغلال تلك الفرصة السانحة، فوافقت ، إلا أنها ادخلت المعتقلات مع اطفالهن احدى الغرف وطلبت منهن الا يحدثن ضجة حتى لا ينتبه المأمور ، والارجح انه كان يعرف، فقد سبق له السماح لثريا شاكر برؤية طفلتها نجوى على مسئوليته الشخصية..

وتحكى انتصار خطاب لفخرى لبيب ايضا ان ضابطا شابا اصطحبها من القناطر الى قصر العينى للكشف عليها لاحتمال اصابتها بالسرطان ، وأثناء الطريق طلبت من الضابط ان يسمح لها برؤية ابنيها اللذين لم تكن قد رأتهما منذ عامين ، ووافق الضابط على الفور وذهب بها الى بيت والدتها حيث قضت بعض الوقت معهما ، ثم غادرت الى قصر العينى ..

اعتاد ابناها التسلل لزيارتها في قصر العينى ، وكانت الممرضات يخفيانهما اثناء مرور الضباط ، سواء من قسم الشرطة التابع له المستشفى او المباحث العامة، لكن أحد

الضباط لمح الابن الاكبر عمر وانهال عليه ضربا.. وبادله عمر الضرب بكل الحقد الذى كان يختزنه لمن حبسوا امه واباه، عادت انتصار بعد شهر الى سجن القناطر . ولم تمر شهور قليلة إلا ووصلها خطاب من عمر في اوائل عام ١٩٦٢ تقول كلماته :

«أنت وزوجك (يقصد اماه واباه) ، تتركان أولادكما في حين ان الامر لا يحتاج منكما لأكثر من التوقيع على ورقة فتخرجان من السجن . رشاد خميس وقع على هذه الورقة وخرج الى أولاده .. هذا الخطاب انذار .. اننى متعب للغاية حيث تسبكما وتشتمكما جدتى على الدوام . اذا استمر موقفك علي الرفض فهذا اخر خطاب منى اليك لأنى سوف انتحر .. سوف احرق نفسى» ..

لم تستطع انتصار احتمال الموقف وكادت تفقد صوابها، واسرعت بتدبير طريقة للعودة الى قصر العينى وشرح الامر لعمر، فهى لم تدخل السجن بارادتها والورقة التى يطلبون التوقيع عليها هى الرصاصة التى يقتل بها الانسان نفسه وانسانيته.....

من جانب آخر لم تترك المباحث العامة وحسن المصيلحى أسلوباً أو طريقة إلا واستخدمتها للضغط على المعتقلات والتوقيع على مجرد ورقة لاستنكار أفكارهن ومعتقداتهن، وهو

ما قاومنه بشدة ولم يسقط أحد منهن، حتى عايدة بدر التى لم تكن تعرف أى شىء عن الشيوعية، وكل مافى الأمر إنها تصدت للقوة التى هاجمت بيتها للقبض على شقيقها أحمد بدر فاعتقلوهما معا، وحاول حسن المصيلحى عدة مرات إقناعها بكتابة استنكار لتخرج، إلا أنها صمدت، كما يليق بإبنة بلد حقيقية عاشت مع الشيوعيين وأكلت معهم «عيش وملح» وعرفت معدنهم الحقيقى.

وفى ديسمبر ١٩٦١ دخلت المعتقلات الشيوعيات اضراباً عن الطعام استمر ١٧ يوما كدن يفقدن حياتهن خلاله، فقد كان مطلبهن غير واقعى على الإطلاق، وهو الإفراج عنهن، وأنهين إضرابهن بعد حضور مندوب من رئاسة الجمهورية، وحصلن على «وعد» بالإفراج، وهو أقل كثيراً من الإفراج بالطبع! إلا أن حياتهن كانت مهددة بالفعل بعد ١٧ يوماً، ثريا شاكر مثلا كان وزنها ٧٣ كيلوجراما قبل الإضراب وبلغ ٥٦ كيلوجراماً بعده وأصيبت چنفيف سيداروس بنزيف، وأشرفت فاطمة زكى على الموت، وبدلاً من الإفراج حصلن على عدد من المكاسب مثل قراءة الجرائد (وإن كان السيد مندوب رئاسة الجمهورية سمح بالأهرام فقط!) وتحسين الطعام وزيادة الأمانات فى الكانتين وخطاب كل أسبوع من المعتقلة لأسرتها، وكما هو واضح فإن ماتحقق نتيجة الإضراب كان محدوداً

جدا ولايتناسب مع إضراب استمر ١٧ يوما، ويبدو أنهن لم ينجحن فى إدارة المعركة، كما أن رفاقهن فى سجن الرجال المجاور كانوا رافضين لإضرابهن وحاولوا اثنائهن عن تنفيذه دون جدوى.

على أى حال، أمست الظروف أكثر إنسانية بعد الإضراب، فقد فتح باب «عنبر الشيوعية» طوال النهار، وسمح لهن رسميا بوابور جاز لطهى الطعام، ومشاهدة التليفزيون الذى كان قد بدأ إرسالة للمرة الأولى فى مصر، كما كن يشاهدن فيلما كل أسبوع، إلا أنهن كن يحرصن على تصفيف شعورهن وارتداء فساتينهن ليحتسين الشاى وهن جالسات أمام شاشة السينما!.

ثم بدأت المحاكمات..

كانت إيفون حبشى من طراز خاص جدا وتمتعت بما لم تتمتع به أى من المعتقلات، فقد أفرج عنها للمرة الأولى فى ٢٤ يوليو ١٩٦٠، ثم أعيد القبض عليها فى ابريل ١٩٦٢، وأفرج عنها فى فبراير ١٩٦٣، وأعيد القبض عليها مرة ثالثة فى ديسمبر ١٩٦٣.. كان ممكنا لها احتمال كل ذلك مادامت تقضى فترات اعتقالها بين رفيقاتها فى سجن القناطر إلا فى المرة الأخيرة حين سقطت فى كمين أعد لها بدقة، حيث اتصل بها هاتفياً شخص طلب مقابلتها، وعندما التقيا أخبرها أن

أحد الرفاق ـ المعروفين لها ـ أرسله ليسلمها بعض الأوراق، وفى الموعد المحدد ألقى القبض عليها فور تسلمها للأوراق، قضت فى البداية سبعة أيام فى حجز قسم الخليفة الكريه، فهو واحد من أبشع المحطات التى يتم فيها تجميع المساجين والمسجونات الجنائيين قبل الترحيل إلى السجون، حقق معها وكيل النيابة تحقيقاً صوريا استمر ليلة كاملة حتى الخامسة صباحاً بهدف إنهاكها، وبسبب صلابتها فى التحقيق أودعت سجن القناطر نساء فى عنبر المخدرات وليس فى عنبر الشيوعية الذى كان خاليا بعد الإفراج عن المعتقلات، كان عنبر المخدرات قد أعد لها وحدها لتقضى ٧٠ يوما فى حبس انفرادى وأجبرت على ارتداء ملابس السجينات المحكوم عليهن، بينما تقضى لوائح مصلحة السجون، بارتداء المسجونات تحت التحقيق ملابس بيضاء، ثم أفرج عنها فى أواخر مارس ١٩٦٤، ولذلك فهى آخر شيوعية يفرج عنها تقريبا.

أما إنجى أفلاطون فقد حكم عليها بسنتين سجناً أنهتهما فى ١٩٦١/٦/١٩ وأعيد اعتقالها فى اليوم نفسه دون أن تغادر فناء السجن، وكل ما جرى هو نقلها من عنبر المسجونات إلى عنبر المعتقلات، وعلى الرغم من أن موقف ثريا أدهم القانونى كان جيداً فلم يثبت عليها إلا مجموعة من

الخطابات الشخصية بينها وبين زوجها حلمى ياسين، ومع ذلك أصرت على أن تقدم دفاعاً سياسياً أثناء محاكمتها، وكانت أول امرأة مصرية تقدم دفاعاً سياسيا، وعندما قاطعتها هيئة المحكمة، قفزت فوق مقعدها داخل القفص وألقت دفاعها الذى تركز حول حل أزمة الديمقراطية باعتبارها الطريق الوحيد للحفاظ على استقلال الوطن وتدعيمه وأنهته بالكلمات التالية:

«وليس لدى ما أقوله سوى أنه يشرفنى أننى منذ عام ١٩٤٦ وأنا أقدم كل ما أملك بلا تردد ولا مقابل، فى سبيل قضية بلادى العزيزة وشعبها الحبيب، لقد اشتركت فى مذبحة كوبرى عباس فى ٩ فبراير ١٩٤٦، وكذا ٢١ فبراير ١٩٤٦، وكنت عضوة فى لجنة العمال والطلبة، واشتركت فى إضرابات عام ١٩٤٧، ونتيجة لنشاطى الوطنى إبان العهد الملكى وإرهاب إبراهيم عبدالهادى عام ١٩٤٩ حكم علىّ بالسجن، وفور خروجى اشتركت فى معركة الكفاح المسلح فى القنال عام ١٩٥١، واستمر نضالى الوطنى بعد الثورة، وساهمت فى كل معارك كفاح شعبنا، ففى عام ١٩٥٦ كنت عضوة فى لجنة المقاومة الشعبية فى كفر الدوار، وفى ١٩٥٧ كنت عضوة فى لجنة التوعية الانتخابية، وفى عام ١٩٥٨ قمت بدورى فى توعية الشعب بأهمية الوحدة العربية والديمقراطية وأهميتها

بالنسبة لكفاح شعبنا وكافة الشعوب العربية.

وأنا اليوم بعد ثلاث سنوات عن الاعتقال، بعد كل ما قاسيته وأقاسيه من تدهور سريع فى صحتى يكاد يودى بحياتى، بعد كل التعذيب الوحشى الذى لاقاه زوجى محمد حلمى ياسين فى معتقل أوردى أبى زعبل، أعلنها مدوية، إنى أفخر وأعتز بنضالى وتضحياتى من أجل بلادى، وإنى مستعدة، اليوم وغدا، فى كل وقت، أن أقدم حياتى حتى آخر قطرة من دمى فى سبيل مصرنا العزيزة ومستقبل شعبنا الباسل المجيد».

ومع ذلك حكم عليها بثلاث سنوات، كانت قد أنهتها بالفعل فتحولت إلى معتقلة! وهو نفسه ماجرى مع ثريا إبراهيم التى كان من بين قرائن الاتهام ضدها أن لها طفلة اسمها «مير» أى السلام بالروسية! حيث حكم عليها بسنتين ثم تحولت إلى معتقلة، وهو أيضا ماجرى مع نوال الحملاوى التى حكم عليها بسنتين وتحولت إلى معتقلة.

إلى جانب ذلك، لعبت أمهات المعتقلين دوراً بالغ الأهمية، وعندما التقيت مثلا بعم عريان نصيف لنتجاذب أطراف الحديث حول دور الأمهات، ضحك قائلا إنه جند أمه الرفيقة صفية التى فاجأته بقراءة أوراق حدتو وكان يحتفظ ببعضها فى البيت منذ بدايات ارتباطه بالسياسة دون أن يعلم عريان!

وساعدته بعد أن اقتنعت بما قرأته فى الأوراق والمطبوعات المختلفة، وحسبما ورد فى الكتيب الذى أعدته لجنة أحياء ذكرى شهداء ومناضلى اليسار ـ «المرأة المصرية واليسار» ـ روى فخرى لبيب حكاية الرفيقة صفية..

بعد معركة ١٩٥٦ وفى جلسة صفاء بين الأم وابنها طلبت منه أن يشرح لها أفكاره وقضيته بالتفصيل، ثم سألته عن موقفه من الدين، وظلا يتحدثان حتى الصباح.. وفى النهاية قالت له:

ـ لو كان السيد المسيح عايش لاتهموه بالشيوعية وسجنوه!.

وفى اليوم التالى طلبت السيدة أنس غبريال حنا الانضمام لحدتو واختارت «صفية» اسما حركيا لها اعتزازا بدور صفية زغلول، وعملت فى جهاز الاتصال الذى يعد أكثر أجهزة المنظمة حساسية ويتطلب السرية الشديدة والذكاء.

وعندما تمت الوحدة بين المنظمات المختلفة أعدت الرفيقة صفية للرفيق عريان «تورتة» على شكل المنجل والمطرقة، منقوش عليها: الحزب الشيوعى المصرى الموحد ٨ يناير ١٩٥٨، وفى تجريدة يناير ١٩٥٩ يهرب عريان نصيف من القبض عليه فتعتقل المباحث والده وشقيقته الصغرى حتى يسلّم نفسه، أصيبت شقيقته بانهيار عصبى حاد فأفرج عنها

فى اليوم التالى، بينما أخذوا بالأب فى نزهة طويلة بين أقسام بوليس طنطا والاسكندرية والقاهرة (كعب داير)، وبسبب ماتعرض له من إهانات أصيب بالشلل.

ومع ذلك صمدت الرفيقة صفية وظلت على موقفها، وعندما قبض على ابنها قامت بدور قيادى فى جبهة العائلات التى تشكلت من أمهات الشيوعيين لمساندتهم فى السجون والمعتقلات المختلفة، بما فى ذلك معتقل المحاريق الذى كانت تزوره مرة كل شهر حاملة معها أكبر كمية ممكنة من الأدوية.

أما السيدة بديعة مصطفى عبده أم الرفيقين محمد ومصطفى عباس (من حدتو أيضا) فقد وقفت وراء ابنيها منذ قبض عليهما للمرة الأولى فى يوليو ١٩٤٩ وحتى تجريدة يناير ١٩٥٩ مقتنعة بموقفهما ومساندتهما، مثلها مثل زكية أحمد حسين أم أحمد ومحمود العطار، فكلاهما كان مناضلا، وكذلك السيدة نور أم محمد وميسور والسيد ومصطفى شعراوى، والأربعة شيوعيون (فيما بعد تزوجت إحدى بناتها من شيوعى أيضا!) ومرثا عازر أم نسيم يوسف والسيدة مفيدة بطرس أم نبيل زكى والسيدة إلين السندى أم فخرى لبيب وزوجات وشقيقات أخريات شكلن جبهة العائلات لمساندة أبنائهن وأزواجهن بكل الأشكال: برقيات الاحتجاج والمسيرات والمظاهرات والزيارات وتوفير الأدوية والاحتياجات المختلفة.

سوف أتوقف قليلاً عند الرفيقة أوديت (السيدة مرثا عازر

يوسف) أم نسيم يوسف التى اكتشفت طريق ابنها مبكراً وتعاطفت معه. كانت تشاركه في إخفاء الأوراق التنظيمية، وعندما يقبض عليه كانت هى الوسيط بينه وبين رفاقه فى الخارج فى تهريب الأوراق والبيانات، وفي إحدى المرات التى زارت فيها نسيم اصطحبت معها نبيل زكى باعتباره ابنها وديع وكأنه جاء معها ليزور أخاه، وجلسا معاً فى الزيارة يتهامسان بأخبار المنظمة خارج وداخل السجن، وفى عام ١٩٥٧ أبلغها حلمي ياسين أن اللجنة المركزية لحزب العمال والفلاحين الشيوعى المصرى وافقت على عضويتها بالحزب، فاختارت أوديت اسمها حزبياً لها، وبعد تجريدة يناير ١٩٥٩ علمت أن ابنها ومجموعة من الرفاق فى أوردى أبى زعبل والزيارة ممنوعة، فتفتق ذهنها عن حيلة لمعرفة أخباره والاطمئنان عليه، حملت «صرة» كبيرة على رأسها ومضت إلى «عزبة السجانة» التى تسكن فيها أسر سجانة الأوردى القريب، كانت الصرة تضم ملابس وأقمشة وطرحاً ومناديل رأس وأغراضا مختلفة، ومثلت دورها باتقان باعتبارها دلالة تبيع بالتقسيط، وجلست فى طرقات العزبة تعرض بضاعتها على زوجات وبنات السجانة، وسألت عما يحتجنه لتأتى به لهن في المرة القادمة، وفى الوقت نفسه تعرفت على جغرافية المنطقة، وتمكنت من معرفة موقع الأوردى بالضبط، وعندما عادت بعد أيام قليلة يوم عيد الأم ٢١ مارس ١٩٦٠ إلى عزبة

السجانة كانت تحمل على رأس صرة خالية إلا من أشياء قليلة، فالتفت حولها النساء يسألنها عما كن قد طلبنها منه فأجابتهن أنها صادفت فى الطريق من اشترى منها ماتحمله ووعدتهن أن تأتى بطلباتهن فى مرة قادمة، وبعد أن تركت العزبة سارت فى اتجاه الأوردى علّها تلمح ابنها، إلا أن أحد الحراس شاهدها من أعلى البرج، وشعرت هى بحركة ما فى اتجاهها فبادرت بالفرار، وفى ابريل ١٩٦٢ ألقى القبض عليها وقضت ثلاثة أيام فى زنزانة المباحث العامة قبل أن يحقق معها، ثم يضطر وكيل النيابة للإفراج عنها لعدم وجود أية أدلة ضدها وبعد خروج معتقلى معسكر المحاريق سألها أحد قيادات الحزب إذا كانت توافق على عقد اجتماعات اللجنة المركزية فى بيتها، رحبت بالطبع وأمنت الاجتماع، ثم شهد بيتها فى ٨ يناير ١٩٦٥ احتفالية تأسيس الحزب التى حضرها أكثر من ٣٠ رفيقا.. وبعد ذلك وعندما بدأ الكلام يتردد حول حل الحزب سألها الرفيق نفسه الذى كان قد طلب منها عقد اجتماع اللجنة المركزية فى بيتها، سألها عما إذا كان ممكناً عقد اجتماع آخر للمؤتمر الذى سيناقش حل الحزب، رفضت على الفور وأجابت فى حدة :

ـ البيت الذى شهد وحدة الشيوعيين ووحدة الحزب لايمكن أن يكون البيت الذى يناقش فيه حل الحزب.

(٢٤)

في ٤ يوليو ١٩٦١ بدأ إضراب في معسكر اعتقال المحاريق واستمر ١٧ يوماً (المدة نفسها التي استغرقها إضراب المعتقلات في سجن القناطر للنساء بعد خمسة شهور)، وإذا لم يكن إضراب النساء قد أعد له جيداً وحقق نتائج متواضعة للغاية بالقياس إلى طول فترة الإضراب، فإن إضراب المحاريق أعد له جيداً حيث أبلغ موعده للخارج وبدأ الأهالي حملة مرافقة إعلامية وسياسية مع اليوم الأول، لذلك أسفر عن نتائج جيدة، وإذا استمرت المقارنة فإن إضراب القناطر شارك فيه كل المعتقلات على اختلاف المنظمات التي ينتمين إليها، بينما رفض رفاق حدتو الاشتراك في إضراب المحاريق.

يشير السيد يوسف في «مذكرات معتقل سياسي» ـ وهو ينتمي لحدتو ـ إلى أنه سبق ذلك الإضراب ضغوطاً فظيعة لإجبار المعتقلين على الاستنكار، فإلى جانب ما كان يتعرض له من ينهي سنوات سجنه، ويرحل إلى القاهرة لتعرض عليه المباحث إما أن يكتب استنكارا لأفكاره السياسية ويفرج عنه، أو يرفض فيعاد مرة أخرى لمعسكر الاعتقال، إلى جانب ذلك قام حسن المصيلحي في أواخر نوفمبر ١٩٦٠ بإجراء تجربة

جديدة بترحيل ٨٠ معتقلاً من المحاريق إلى الفيوم تمهيداً للإفراج عنهم كما قيل لهم، وفى الفيوم وجدوا كل شىء مجهزاً لراحتهم: سراير نظيفة وأبواب العنابر مفتوحة طوال اليوم وطعام أكثر من جيد والسماح بالصحف والمجلات والاستماع إلى الراديو.. استمر ذلك لمدة أسبوع كامل وصل بعده المصيلحى ومساعدوه ليساوم المعتقلين الذين استدعاهم واحدا وراء الآخر، ويطلب من كل منهم أن يوقع على ورقة صغيرة يعترف فيها بأنه كان مخطئاً فى أفكاره السياسية ويتعهد بعدم العمل بالسياسة بعد ذلك . من يرفض، كانت تسحب منه كل الامتيازات المعيشية السابقة ثم يسمح للأهالى بالزيارة للضغط عليهم، الأطفال يبكون أمام آبائهم والزوجات يصرخن فى أزواجهن ويهددون بالانحراف أو طلب الطلاق.. كانت النتيجة سقوط ٣٥ معتقلا واستسلامهم، بينما رفض ٤٥ وعادوا بالفعل إلى الواحات، إلا أن ثلاثة منهم تمزقوا نفسيا وانهاروا وراحوا يهلوسون فى العنابر والزنازين.

وفى فبراير ١٩٦١ حاول المصيلحى ممارسة الطريقة نفسها فى معتقل المحاريق، واستدعى المعتقلين وطلب منهم كتابة استنكار ليفرج عنهم ويعودون معه إلى القاهرة! لكنه ووجه بهجوم عنيف من المعتقلين.. وحسبما كتب طاهر

عـبـدالحكيم فى «الأقـدام العـارية»، فـإن المعـتـقلين الذين استدعاهم المصيلحي للمساومة لم يعطوه الفرصة أصلاً بل بادروه بالهجوم على سياسات التصفية وطالبوه بتغيير المعـاملة داخل المعـتـقل، وتصـاعد الموقف حتى وصل إلى الهتاف ضده ووصفه بالقاتل والسفاح والجزار.. فغادر المعتقل دون أن يحقق شيئا.

ويتفق السيد يوسف وفخرى لبيب على أن من بين أسباب الإضراب الرئيسية مواجهة سياسة التصفية والاستنكار، على الرغم من أن أولهما ينتمى لحدتو التى رفضت الاشتراك فى الإضراب، والثانى ينتمى لحزب ٨ يناير والمسئول الحزبى للمعتقل، والحقيقة أن موقف حدتو من ذلك الإضراب يتسق تماما مع مواقفها تجاه النظام باعتباره نظاما يتجه للاشتراكية!.

وحسبما ذكر السيد يوسف فإن مطالب الإضراب هى: «الإفراج.. وإلى أن يتم يجب تحسين المعاملة وتحقيق ظروف حياتية أفضل بإلغاء السخرة وتحويل العمل فى المزرعة إلى عمل اختيارى، والسماح بزيارات الأهالى وتلقى خطاباتهم وطرود الأدوية والملابس والمأكولات، والسماح للمعتقلين بارتداء الملابس الملكية الخارجية والداخلية والتحسين الشامل

للطعام، وزيادة التعامل مع الكانتين إلى عشرة جنيهات للفرد الواحد وإدانة سياسة الاستنكار وتشكيل لجنة سياسية للتحقيق فى جرائم القتل والتعذيب.. إلخ...

فى الخارج لعب الأهالى دوراً داعماً بإرسال البرقيات والتوجه لدور الصحف والاتصال بالشخصيات العامة وحشد العائلات للضغط، وبعد ١٧ يوما من الإضراب الذى شارك فيه ٢٥٠ معتقلا على خمس دفعات، جاء مندوب من رئاسة الجمهورية، وعقب مفاوضات شاقة تم تسجيل الموافقة على كل المطالب تقريبا فى محضر رسمى وحقق المضربون انتصاراً تاريخياً بحق. أثناء المفاوضات كشف لهم مندوب الرئاسة عن أنهم سيسمعون قريبا جدا أخباراً هامة، وتصوروا أنها الألاعيب المعتادة من المسئولين إلا أن المندوب صدق فعلا، فبعد يومين من انتهاء الإضراب، وفى ٢٣ يوليو صدرت «قوانين يوليو الاشتراكية» التى كانت إيذانا بتغييرات عاصفة لصالح الأغلبية.

كذلك كشف الإضراب عن شخصية تراجيدية تحدث عنها فخرى لبيب طويلا، كما ذكرها آخرون عرضا، وهو النقيب أبوالعلا أبوالعلا الذى كان أركان حرب للمحافظة وتولى التحقيق ممثلاً للنيابة العسكرية فى الإضراب، وسمح

بتسجيل كل مطالب المضربين فى محاضر رسمية، وهو أمر بالغ الأهمية يرقى لأن يكون قرار اتهام ضد إدارة المعتقل، وكان من بين ماكتبه وأرسله للقاهرة مع ملخص للتحقيق تعليقه: «أن المعتقلين المضربين وطنيون قتل الكثيرون منهم».. هذا التعليق والتحقيقات التى أجراها أثناء الإضراب وسماحه بتسجيل كل شيء أدى إلى اعتباره متعاطفاً مع المعتقلين.

لذلك عندما وصل محافظ الواحات إلى مقر المحافظة، كانت أول مهمة له إعدام أوراق التحقيق، وطلب من أبوالعلا تنفيذ ذلك الأمر، وشعر الأخير أنه يخالف ضميره إذا نفذ الأمر، فملأ دلواً بأوراق مهملة أحرقها، بينما قام بتهريب التحقيق إلى القاهرة ثم إلى فايد، ونقله مرة ثانية للقاهرة، ومالبثت المخابرات العامة أن اعتقلته، حيث جرى تعذيبه لثلاثة شهور قبل إرساله للسجن الحربى ليتضاعف تعذيبه، ويقدم للمحاكمة بتهمة تشكيل تنظيم شيوعى أخوانى (!!) وأشرف شمس بدران وزير الحربية آنذاك بنفسه على تعذيبه، إلا أن المحكمة العسكرية برأته، ومع ذلك فُصل من الجيش وغادر السجن الحربى فى نوفمبر ١٩٦٣، ثم أمضى عامين معزولاً ومفصولاً وممنوعاً من العمل وبلا معاش أو دخل من أى نوع، وأخيرا سمح له بالعمل موظفاً فى هيئة النقل العام بمرتب ٤٠

جنيها فى الشهر بعد أن تقدمت زوجته بشكاوى لجمال عبدالناصر. تدور الأيام، وعندما يتأسس حزب التجمع ينضم إليه ويقوم بدور فى تأسيسه، لكن التعذيب الذى تعرض له والضغوط والكوارث المختلفة التى أصابته أدت فى النهاية إلى أن يسقط مريضاً، ولم يلبث أن رحل فى يونيو ١٩٧٨ قبل أن يبلغ السادسة والأربعين.

حكاية النقيب أبوالعلا أبوالعلا تعيد للأذهان على الفور - مثلا - ماجرى مع أحمد البدينى المحامى الذى ترافع عن الشيوعيين وقام بواجبه كمحام، وكانت النتيجة إلقاء القبض عليه واعتقاله فى القلعة ثم إرساله إلى معسكر المحاريق كما سبق أن ذكرت..

(٢٥)

عندما احتضن شعبان حافظ ـ ٧٥ سنة ـ رفيقه وصديقه القريب جداً إلى قلبه مصطفى طيبة يودعه، بعد أن أنهى الأخير حكماً بعشر سنوات قضى أغلبها فى الواحات، شعر شعبان بالألم الحاد المفاجىء يطبق على صدره، لكنه تماسك ووقف يلوح له، بينما كان الأخير يركب لورى المصلحة إلى القاهرة، حيث يتم الإفراج عنه، وما أن اختفى مصطفى طيبة حتى سقط شعبان حافظ من الانفعال والتأثر.

كان شعبان حافظ أسطورة تمشى على الأرض، فقد كان أحد قياديى أول حزب شيوعى مصرى (حزب ١٩٢٣) واعتقل عدة مرات وصدرت ضده أحكام عديدة كان أخرها أثناء حملة إسماعيل صدقى عام ١٩٣٠، فهرب إلى فلسطين على ظهر فرس ومنها هرب إلى موسكو، وهناك التحق بجامعة كادحى الشرق (ثمة مصادر أخرى تشير إلى أنه التحق بمدرسة الكادر للحزب الشيوعى الروسى) ثم عاد إلى مصر فيما بعد، والتحق بإحدى المنظمات الشيوعية حتى تم اعتقاله فى تجريدة يناير ١٩٥٩، وفى معسكر المحاريق تعرض لأزمة قلبية إلا أنه لم يعالج بالطبع بعد أن رفضت المباحث نقله إلى المستشفى.

حسبما يتحدث الكثيرون، فإن شعبان حافظ مات كما يليق

بمناضل لم يتخل عن قناعاته على مدى أعوامه الخمسة والسبعين، أما مأمور السجن فقد تصرف تصرفا غير معتاد، أمر بنقل جثمانه في طائرة إلى أهله فى الاسكندرية، ووافق على أن يطوف زملاؤه بنعشه بعد أن لفوه فى بطانية حمراء فى جنازة رمزية، وقبل أن تتحرك السيارة التى حملت نعشه، أطلق حرس الشرف الذى اصطف فى الفناء ثلاث رصاصات فى الهواء تحية لشعبان حافظ، بينما اصطف المأمور والضباط وأدوا التحية العسكرية له.

والمفارقة أن مصطفى طيبة عاد بعد بضعة أيام، فقد صدر أمر بإعادة اعتقاله فى أعقاب تنفيذه لحكم دام عشر سنوات، كما سبق أن ذكرت.

لكن شعبان حافظ تحول إلى رمز وأطلق اسمه على الجامعة التى أسسها الشوعيون فى معسكر المحاريق وهى إحدى أهم مآثر شيوعيي المعتقل، فى مواجهة محاولات تصفيتهم ودفنهم فى رمال الواحات الحارقة، وأيضا فى مواجهة الإغراءات التى لم يتوقف التلويح بها من أجل الاستنكار والحصول على الإفراج بعد أن يخسر المعتقل نفسه.

ويروى الصديق الراحل على الشوباشى فى كتابه «مدرسة الثوار» تفاصيل مهمة إلى جانب ما رواه صنع الله ابراهيم

والسيد يوسف وفخرى لبيب وحسن المناويشى.. فالدراسة فى الجامعة كانت تبدأ فى الثامنة صباحاً ثلاثة أيام فى الأسبوع، والفصول كانت طبعا عبارة عن زنازين زودها النجار الماهر محمد حسن جاد بسبورات صنعها من بقايا الأخشاب التى تبقت بعد بناء عنابر المعتقل، بينما تم تصنيع الطباشير من الجير المتوافر، وحتى يتقن المعلمون مهمتهم، قررت لجنة الحياة العامة صرف سيجارة بلمونت كاملة لكل مدرس!.

ضمت الجامعة فصولاً لتعليم الإنجليزية والفرنسية للمستويات المختلفة، وبسبب عدم وجود كتب لتعليم اللغتين، كان المدرس يعتمد على قصيدة شعرية يحفظها أو قصة قصيرة أو أحد النصوص السياسية السهلة، وإلى جانب ذلك خصصت فصول للمستوى الرفيع للغتين، وفصل للرياضيات درس فيه د. عبدالعظيم أنيس أستاذ الرياضة البحتة بكلية العلوم جامعة القاهرة، كما ألقى د. فائق فريد محاضرات فى علم كان مايزال فى مراحله الجنينية فى العالم وهو السيبرناطيقا.

وفى الوقت نفسه أنشئت مدرسة للسجانة، ووفقا لقانون مصلحة السجون الصادر فى الخمسينيات، فإن الجنود وضباط الصف كانوا لايرقون إلا بعد حصولهم على الابتدائية، وكان أغلبهم أميون، ومن هنا اكتسبت المدرسة

أهميتها بالنسبة لهم، ولذلك توثقت العلاقة بينهم وبين الشيوعيين.

وعلى هامش الجامعة تم تنظيم محاضرات عامة فى الاقتصاد السياسى والفلسفة، ومحاضرات لكل تنظيم على حدة (!!)، وندوات للصراع السياسى، إلا أن الزنازين التى كانت تتسع لنحو ٢٠ أو ١٥ طالبا، لاتكفى بطبيعة الحال للمحاضرات العامة التى يحضرها عدد كبير، لذلك تم تخصيص «طرقة» بعض العنابر لها.

من جانب آخر، بلغ عدد الكتب التى احتفظ بها الشيوعيون بعد أن دخلت إليهم بطريقة أو بأخرى، نحو عشرة آلاف كتاب فى مخابىء خاصة تحت الأرض، الكثيرون كتبوا وترجموا أعمالاً عديدة كان يتولى نسخها متخصصون ثم يرسم أغلفتها الفنانون، وفى أحد الأعياد التى يتغيب فيها المأمور والضباط عادة، عرضت الكتب فى معرض خاص للكتاب أقيم فى أحد العنابر، ومن بين ما أنتج داخل المعتقل روايتان لإبراهيم عبدالحليم ومسرحية لصلاح حافظ وأخرى لألفريد فرج وترجمات عديدة خصوصا لمحمد مستجير (التقيت به فى سويسرا وأخبرنى أنه ترجم كتاب بليخانوف.. «تطور النظرة الواحدة للتاريخ» فى أسبوع واحد داخل المعتقل)، فضلا عن مجموعات قصصية ودواوين شعرية لكتاب

آخرين.

كذلك تشكلت فرقة مسرحية قدمت أعمالاً محلية وعالمية، وبعد الانفراجة التى تحققت واستصلاح المزرعة، فكر المهندس فوزى حبشى فى بناء مسرح فى الفناء بدلا من التمثيل فى الممر الضيق الممتد بين الزنازين بطول العنبر، وبالفعل أعد مع الفنان محمد حمام ـ الذى كان مايزال أيامها طالبا بقسم العمارة بكلية الفنون الجميلة - الرسومات الإنشائية ووافقت إدارة المعتقل عليها.

والحقيقة أن فكرة تشييد ذلك المسرح فى قلب الصحراء فكرة مجنونة تماما وتليق بأولئك المجانين الشيوعيين!!.

كتب فوزى حبشى فى كتابه السابق الإشارة إليه:

«جال بخاطرى أن بناء المسرح لابد أن يتم بالشكل الرومانى الذى يتكون من مصاطب مستديرة متدرجة الارتفاع على شكل نصف دائرى تحيط ببقعة للعرض على طرفيها حجرات للممثلين، ذلك أن المصاطب وحدها تسمح بالمشاهدة، كما أن بقعة الأرض لاتستلزم إقامة منصة بكل توابعها».

التحدى الحقيقى كان توفير الطوب اللازم للبناء والذى قدره المهندس فوزى حبشى بمئات الآلاف، ولم يكن هناك حل إلا تصنيع الطوب من المواد الموجودة فى الأرض، غير أن ذلك الحل لم يكن سهلا، إذ يتطلب أولاً عجن المادة المتوافرة

فى الأرض بعد إضافة قليل من التبن ثم تشكيله من خلال القوالب الخشبية وتجفيفها فى الشمس، أما القوالب فقد صنعها أيضا «عم برق» محمد حسن جاد، ورفع شعار مليون طوبة، وساهم فى إنجاز العمل كل المنظمات والمستقلين، وأصدر الفنان حسن فؤاد مجلة حائط خاصة سماها مجلة المسرح وكانت تقدم تقريراً يومياً عن سير العمل.

استغرق بناء المسرح قرابة أربعة شهور من العمل المتواصل ليقف المبنى أخيراً شامخاً فى الطرف الشمالى الشرقى من الفناء، وبعد طلائه بالجير، قام الفنان صبحى الشارونى بتثبيت نحت بارز لحمامة سلام ضخمة على الحائط الغربى البالغ ارتفاعه عشرة أمتار وعرضه عشرين متراً.

على خشبة ذلك المسرح قدمت الكثير من المسرحيات، من بينها «حلاق بغداد» التى كتبها ألفريد فرج داخل المعتقل، و«عيلة الدوغرى» لنعمان عاشور و«العتمة» لشوقى عبدالحكيم، وإحدى مسرحيات سارتر التى مثّل فيها دور نيكراسوف الممثل الشاب نبيل الهلالى!، كان يحضر العروض إلى جانب مأمور السجن وضباطه عدد كبير من موظفى المنطقة المغتربين، ومن بين من تألق من الممثلين الراحل على الشريف الذى كان أداءه لدور كبرى بنات عيلة الدوغرى فى مسرحية نعمان عاشور بداية قوية كممثل جيد سرعان ما لمع بعد خروجه من المعتقل!.

إلى جانب المسرح صدرت مجلة «الثقافة الجديدة» الشهرية في ١٢٠ صفحة، ويرأس تحريرها خمس رؤساء تحرير يمثلون المنظمات والتيارات المختلفة، وتم الاتفاق في البداية على ألا تتناول المجلة سوى القضايا الثقافية فقط، وكتب فيها عشرات الكتاب: ألفريد فرج وأمير اسكندر واسماعيل المهدوى وزكى مراد وفؤاد مرسى وعبدالعظيم أنيس وإسماعيل صبرى عبدالله وابراهيم فتحى وسامى خشبة، وغيرهم..

للأسف الشديد صادرت المباحث العامة أعداد المجلة التى حاول المعتقلون تهريبها عندما أفرج عن إحدى المجموعات فى مارس ١٩٦٤، وتضمنت تلك الأعداد الكثير من المقالات والدراسات عن الآداب المختلفة، سواء العربية أو الأوربية والأمريكية والكثير أيضا من الانتاج القصصى والشعرى.

كذلك نظمت مسابقات في القصة القصيرة، فاز فى احداها بالجائزة الأولى الكاتب الشاب عبدالحكيم قاسم وحصل على علبة سجائر كاملة! بينما فازت القصة الثانية بعشر سجائر والثالث بخمس! شارك فى المسابقات سواء بنصوصهم أو كمحكمين شعراء وقصاصون مثل صنع الله إبراهيم وفؤاد حداد وكمال القلش ومحمد صدقى وزكى مراد ومحمد خليل قاسم (كتب أغلب فصول رائعته «الشمندورة»

داخل المعتقل) ومحسن الخياط ومجدى نجيب ومحمد مهران السيد ومعين بسيسو وفؤاد حجازى، وعندما بدأ نجم صنع الله يلمع ككاتب قصة، عرض عليه زميله محمود المانسترلى أن يكتب قصة حياته فى حلقات مقابل ثلاث سجائر لكل حلقة، وهو مقابل رهيب وسخى جدا، ومع ذلك توقف صنع الله بعد الحلقة الأولى دون سبب مقنع ورغم الإغراء المادى!.

أما المصورون والنحاتون فقد خصص لهم مرسم عمل فيه (الملك) وليم إسحاق وعدد من الفنانين الكبار مثل حسن فؤاد وإكرام محارب وداود عزيز وعبدالوهاب الجريتلى.

وأخيرا.. على الرغم من وجود الإخوان المسلمين وإقامتهم فى المعتقل فترات طويلة، إلا أنهم لم يفكروا فى بناء مسجد هناك، أما من قام ببناء ذلك المسجد فهم الشيوعيون، وضع التصميم كل من حسن فؤاد وزهدى العدوى وداود عزيز وعبدالوهاب الجريتلى، ولم تكن هناك صعوبة فى البناء، بعد أن كانوا قد تعلموا جيدا واكتسبوا خبرة ضرب الطوب والبناء فى أعقاب تشييد المسرح.

(٢٦)

لا يعنى ماسبق أن الواحات كانت نزهة مبهجة فى حديقة غناء . إن ما انتزعه الشيوعيون من حقوق ، كان من الممكن سلبها منهم فى أية لحظة، والتكدير ماثل وممكن دائما . لقد كانوا عزل فى قلب الصحراء . مجرد أسرى فى قبضة النظام الذى كان فى ذروة صعوده ، ويحقق على أرض الواقع الفعلى أكثر مما تمنوه . فعلى المستوى الدولى صعد نجم مصر فى صفوف المعسكر الاشتراكى وحركة التحرر الوطنى . من جانبه كان الاتحاد السوفييتى يعامل عبدالناصر بوصفه قائدا لثورة حليفة له ، فى ظل تنظيرات اعتمدها الحزب الشيوعى السوفييتى حول الامكانات التى تنطوى عليها حركة التحرر الوطنى فى العالم ، ومن بينها أنه من الممكن أنه تتطور النظم الحديثة المتحررة من الاستعمار تطورا لا رأسماليا ، وتنتقل على الفور من مستعمرات كولونيالية الى بلدان تسير فى طريق الاشتراكية .. ولم تكن مصر وحدها المهيأة لذلك ، كوبا مثلا أو اندونيسيا فى ظل سوكارنو والكونغو فى ظل لومومبا . وعلى الصعيد الداخلى كان عبدالناصر قد أعلن بوضوح فى الميثاق عن اختياره للاشتراكية العلمية، وانخرط نظامه فى سلسلة من الاجراءات والقوانين اقل ما توصف به، أنها لمصلحة الأغلبية وضد

مصالح الأغنياء والطبقات الرجعية . أما الديمقراطية فينظر اليها باعتبارها «خديعة غريبة» والمهم هو ما اطلق عليه «الديمقراطية الاجتماعية»!!

أما الشيوعيون فقد تعرضوا لمنهج متكامل من التصفية المستمرة والمنتظمة التى مارسها النظام خمس سنوات متواصلة . كانوا جميعهم فى السجون تقريبا ، وتفرغت كل المنظمات لسوق عكاظ الذى نصب فى الواحات بتشجيع من النظام فيما يبدو، وبقوا على تشرذمهم وحلقيتهم وتناحرهم .

علىّ أن أعترف أن وجودهم بالخارج انحسر بعد اعتقالهم ، خصوصا وأنه طال خمس سنوات متواصلة، وبدا وكأن كل الجسور والأدوات والهيئات التى كانت المنظمات قد قامت ببنائها منذ الاربعينات فى النقابات والمصانع وفى صفوف الطلاب والاحياء ، ناهيك عن الفلاحين اقتلعتها دعاية عبدالناصر الجبارة (لاسيما وأن تلك الدعاية لم تكن دائما بلا طحن ، بل كثيرا ماكانت معارك حقيقية ضد الامبريالية) . وباستثناء نفر قليل من النخبة وبعض المنظمات والصحف فى الخارج، لا أحد كان يعلم بما يجرى للشيوعيين . أما من خرجوا خلال تلك السنوات ، فبعضهم تعرض للتأديب والتهذيب الشديد مثل أحمد البدينى المحامى ومحمود السعدنى ولطفى الخولى ولويس عوض ، والبعض الآخر تحوّل

لعملاء مباشرين، والبعض الثالث استنكر كتابيا وتعهد بعدم ممارسة العمل السياسى .

وهكذا لم يسجن الشيوعيون فقط ، بل تعرضوا لما هو أخطر : للعزل والتصفية. وأضيف بسرعة أنهم كانوا أبطالا ونبلاء فى مواجهة التعذيب وطول فترة الاعتقال فى قلب الصحراء ، على النحو الذى يجده القارىء فى الصفحات السابقة . ولعلى أذكر القارىء فقط بأن التعذيب أدى الى اصابة ستة بالجنون العقلى ومع ذلك لم يفرج عنهم، بل تعمد جهاز التعذيب الابقاء عليهم بين زملاءهم.

ومن المثير للدهشة فعلا أن يستمر الاعتقال خمس سنوات متصلة، ومع ذلك لا تطرح خلاله قضية الوحدة بين المنظمتين الرئيسيتين حدتو وحزب ٨ يناير، بل على العكس جرت انشقاقات جديدة مثل الأفق . ومن المثير للدهشة أيضا أنه لم يحدث أن نوقشت الخلافات السياسية والفكرية بينهم بهدف الوصول لمواقف مشتركة ، بل على العكس حرص كل طرف على تأكيد اختلافه وتميزه بكل فخر !

أؤكد مرة ثانية اننى أقدر تماما طول فترة الاعتقال والمنفى الاجبارى والعزلة والتعذيب وسوء التغذية والحرمان بكل صنوفه، وعدم وجود أى بصيص من أمل والمستقبل المظلم الذى لم تكن تلوح له أى بارقة وضغوط بعض الأسر .

والحال .. أن البرنامج المنظم الذى أعد بعناية لتصفية الشيوعيين تصفية جسدية وعقلية نجح الى حد كبير . والحقيقة انه لم يكن سهلا الافلات من مثل ذلك البرنامج المحكم الذى تضافر من أجل نجاحه كاريزما عبدالناصر واجراءاته الفعلية فى الواقع فضلا عن الأوضاع الدولية السابق الاشارة اليها .

□□□

وعلى كثرة ماجرى من حوادث داخل معسكر اعتقال الواحات، وقد أشرت الى بعضها فى الصفحات السابقة، يظل هروب ابراهيم هوارى ومحمد عويضة أحد أهم تلك الحوادث وأكثرها غموضا ، وهى حادثة الهروب الوحيدة على الاطلاق، فكيف ترد الفكرة اصلا على ذهن أى عاقل فى منطقة تقع فى قلب الصحراء المترامية، وأقرب نقطة عمران لها تبعد نحو ٣٠٠ كيلومتر وسط بحر من الرمال (هناك نقطة عمران أخرى هى واحة الخارجة التى تبعد كيلومترات قليلة إلا أن سكانها معروفين بالاسم ولايستطيع ان يختفى فيها أحدا) .

الدكتور ابراهيم هرارى يهودى مصرى كان منتميا لحزب العمال والفلاحين الشيوعى الذى ضم عددا كبيرا من اليهود بالقياس للمنظمات الأخري، وهو محام وحاصل على الدكتوراه فى القانون ويعمل فى مكتبه ٤٠ محام . لديه

اهتمام خاص بعلم المصريات ، وزار كثيرا من الآثار المصرية ، ومن بينها الواحات وطريق الأربعين وعلى دراية بالمنطقة قبل اعتقاله بالطبع حسبما أورد د. شريف حتاتة في سيرته «النوافذ المفتوحة» .

ماجرى باختصار هو اكتشاف نزلاء المعتقل فى عصر أحد الأيام (كان ذلك فى أوائل عام ١٩٦٤) اختفاء زميلين لهم هما ابراهيم هراري ومحمد عويضة . فى تلك الفترة كان المعتقل هادئا ، فالزنازين تفتح طوال اليوم للذهاب الى المزرعة أو ممارسة أى نشاط ، والمناقشات حول قرب الافراج تتوالى ، خصوصا بعد أن كان جمال عبدالناصر قد صرح للصحفى الفرنسى اريك رولو فى يوليو ١٩٦٣ بأنه سوف يفرج عن المعتقلين الشيوعيين قريبا . أما هرارى فكان قد اعتاد على ارتداء ملابس مهلهلة، وتخصص ـ الى جانب القاء القمامة بعيدا ـ في نقل الخبز من الفرن الى الزنازين ليستفيد فائدتين : الأولى أن يحصل على أجود الأرغفة ، والثانية أن يعالج الرطوبة من خلال حمله للخبز الساخن! اعتاد أيضا على التجول بصحبة عامل نسيج شاب من الاسكندرية اسمه محمد عويضة حول المعتقل ويتناولان الطعام معا ويسيران معا . وكان دائم الاهتمام بلياقته البدنية، ففى كل عصر يتوجه الى فناء صغير خلف المسرح ليمارس رياضة رفع

الاثقال بواسطة صفائح خالية صب فيها صلصالا بالاضافة الى «الدسك» الموجود أصلا بالسجن . كان هرارى حالة خاصة . فهو لم يدخل الحياة العامة ويأتيه الطرد من الخارج فيستأثر به وحده ، وربما منح عويضة شيئا يسيرا منه ، وكان حريصا على ألا يتبادل سوى الكلمات القليلة جدا ولايشارك فى أى نشاط .

الحقيقة أن هرارى رسم خطته ونفذها بأقصى درجة من الحذق والدقة على مدى عدة شهور . كان يقوم ببرنامجه اليومى بدقة شديدة ، حيث يحمل الخبز من الفرن ويمضى الى المزرعة ، ويكون آخر العائدين من المزرعة ، يسير متمهلا وتحت ابطه دائما لفافة من القماش تضم حاجياته ، فهو لم يكن يأتمن أحداً عليها ويحملها معه أينما ذهب . وبطريقة أو بأخرى توافر لديه قطعة قماش من التيل الابيض ، وطلب من زميل له - ترزى - تفصيل بنطلون أبيض وأغدق عليه من سجائر الـ «وينجز» ودبر أيضا نظارة شمسية وكاسكته بيضاء فى تكتم شديد .

كان هروبه فى تلك الفترة بالتحديد غير مبرر لأن حجم المخاطرة بالفرار يعنى المخاطرة بالحياة ذاتها ، كما أن كل الدلائل كانت تؤكد أن الافراج وشيك عن الجميع . أما اصطحابه لعويضة ، فذلك لأن ملامح هرارى كانت أجنبية

ويتحدث العربية بلكنة ويحتاج لوجه مصرى معه .

المؤكد أنه تلقى مساعدات من الخارج لتسهيل هروبه ، لكن الروايات تتعدد ، فحسن المناويشى مثلا يقول انه لمح سيارة سوداء عندما كان عائدا من زيارة قصيرة لأحد أصدقائه من جنود الجنزير (وهم العساكر المكلفون بحراسة المعتقلين أثناء عملهم فى الصحراء)، ولمح تلك السيارة على الطريق المسفلت قرب نهاية المزرعة . وترددت أساطير حول فراره، فهناك من قال انه استخدم عدة سيارات فى الهروب الى الاسكندرية ومن الاسكندرية ركب البحر الى فرنسا . ويشير على الشوباشى فى كتابه سالف الذكر إلى أنه تردد أن بعثة فرنسية للآثار سهلت هروبه اثناء عملها فى التنقيب فى تلك المنطقة، بينما يؤكد شريف حتاتة أن المساعدة الخارجية كانت كبيرة .. ربما كانت طائرة هليوكبتر أو سيارة مجهزة ، خصوصا وأنه اختفى على الفور فى الصحراء المكشوفة للعيان . والواضح أيضا - طبقا لشريف حتاتة أن المساعدة امتدت لعويضة لأنه علم أن أسرة الأخير كانت تتلقى مساعدات مالية، ثم ان عويضة نفسه اختفى فى الفوضى التى أعقبت الافراج بعد عدة شهور حتى صدر عفو شامل من عبدالناصر فيما بعد.

وعقب اكتشاف اختفاء هرارى وعويضة، وبعد البحث والتنقيب عنهما فى كل مكان ، فإن الجميع كانوا يعلمون أنه

فور ابلاغ ادارة المعتقل، سوف يتم تكدير الجميع واعادة فرض القيود والضرب والإهانة.. أى باختصار تتحول حياتهم الى جحيم . لذلك اتفق أعضاء لجنة التنسيق ان يتم أولا تأمين كل الممنوعات من أوراق وأقلام وترانزستورات وغيرها فى مخابىء خاص ليكونوا مستعدين للتكدير ، ثم يقوموا بابلاغ ادارة المعتقل، وهو ماحدث بالفعل .

وعلى عكس ماكان متوقعا فى حالات الهروب ، صمتت السلطات جميعا كما لاحظ د. شريف حتاتة ، فلم يحقق مع مأمور السجن أو ضباطه ، وجرى ابتلاع الحادث والتعتيم عليه ، واكتفت ادارة المعتقل بعقوبة شكلية على المعتقلين وهى التكدير باغلاق الزنازين ثلاثة أيام . وحتى هذه العقوبة لم تنفذ حرفيا ، فيما يكاد يكون تواطؤا ومشاركة فى تهريب هرارى ، ويضيف حتاتة أن هرارى ظهر بعد ذلك فعلا فى باريس واحتل منصبا كبيرا فى احدى المؤسسات هناك فور وصوله ، لعله من الأفضل أن أنقل ما كتبه د. حتاتة حرفيا :

«سمعت بعد فترة أن ابراهيم هرارى ظهر فى باريس . وأنه فور وصوله احتل منصبا فى احدى المؤسسات الكبيرة . بعد أن افرج عنى زرت باريس عدة مرات . خطر فى بالى أن أبحث عنه . لكننى تذكرت نظراته الباردة فتبخرت الفكرة من ذهنى . لم أتذكر موضوعه الا عندما أخذت أكتب عن دور اليهود فى تكوين التنظيمات الماركسية . كنت أحس فيه

بالعدو الذى لا يمت الينا بصلة . رجل فيه أنانية مفرطة يخاف على نفسه من نسمة هواء ، فمن أين جاءته الجرأة ليقوم بهذه المغامرة الخطيرة؟!» ،

الى هذا الحد بلغت التأويلات المختلفة لذلك الهروب الغامض والوحيد الناجح، لكنه ظل غامضا حتى هذه اللحظة، وتردد أثناء اعدادي للنسخة النهائية من هذا الكتاب أن محمد عويضة كتب «ورقة» حول ذلك الهروب أخيرا في الاسكندرية حيث يقيم . وطلبتها من عدد كبير من أصدقائى وخصوصا السكندريين ، الا أن آحدا لم يجبني ولذلك لا أعلم ما إذا كان عويضة فى ورقته كشف المستور ام تحدث حول أى موضوع آخر .

قبل نشر هذا الكتاب بفترة قصيرة وصلتنى بالفعل نسخة من كتاب عم محمد عويضة تفضل بارسالها لى، وتبين لي أنه كتب كتاباً وليس مجرد ورقة ، والأكثر إثارة للدهشة أن عم عويضة وابراهيم هرارى هربا بأبسط طريقة ممكنة وبمساعدة من بعض المشتغلين فى المنطقة .. أي دون تدخل خارجي وكل ما يمكن قوله هنا هو المطالبة بنشر كتاب عم عويضة فهو احدى الشهادات الهامة والنادرة .

□□□

وقبل أن انتقل الى مأساة الحل ، اختتم هذا الفصل بقصة اغتيال لويس اسحق .. قبل تصفية المعتقلات بشهور

قليلة جدا ، لم يكن قد تبقى سوى ١٠٢ ممن صدرت ضدهم أحكام ، بينما غادرت الدفعة الثانية الواحات فى أبريل ١٩٦٤ الى السجن الحربى تمهيدا للافراج.

بعد اقل من عشر دقائق على ترحيل تلك الدفعة ، افتعل مأمور المعتقل يوسف تمراز معركة مع المعتقلين، وأمر جنوده باطلاق النار . كانت رائحة المؤامرة واضحة للغاية والافتعال باد للعيان، خصوصا وأن تمراز نفسه اختفى بعد الحادث مباشرة . أغلب الظن أن تمراز لم يكن وحده وأنه كان مجرد أداة ، لأن أجزاء من أجهزة الأمن ذاتها كانت تعارض الافراج.

وطبقا لما رواه عيد صالح لفخرى لبيب انه سمع اثنين من المساجين الجنائيين يتحدثان معاً .. تساءل أحدهما :

«لماذا نضرب الشيوعيين؟ إن كانت الادارة تريد أن تضربهم فلتضربهم هي..» .

وأجابه الثانى :

«إنهم كفار كما قال تمراز بك» .

رد الأول :

«مالنا بهم كفار أو غير كفار .. اننا معهم طول عمرنا ولم يسببوا لنا اى أذى». فهل يعنى هذا ان الادارة كانت تفكر فى تدبير الاعتداء من خلال المساجين الجنائيين، وهو أسلوب كلاسيكى كثيرا ما تستخدمه ادارات السجون

والمعتقلات في الاعتداء على السياسيين. وهل تولت هي الامر بنفسها بعد أن فشلت في استخدام الأسلوب الأول؟

يبدو أن ذلك كان صحيحاً، فطبقا لأحد شهور العيان الرئيسيين اسماعيل صبرى عبدالله يروى تلك اللحظات المحفورة في ذاكرته :

«بينما أنا في عنبر واحد بعد الترحيلة، جاءني شبل اسماعيل وأخبرني أن العسكر آمسكوا بالزملاء في عنبر اتنين وقاموا بضربهم . وللحال انطلقت خارجا من العنبر . لقيت مأمور السجن يوسف تمراز واقفا في الحديقة أمام العنبر وحوله ثلاثة أو أربعة من جنود الحرس وليس من السجانة . توجهت اليه وكان معي أحمد الرفاعي . قلت له : ماهذا الذى تفعله؟ فقال : لا يعجبك ما فعله .. اضرب ياعسكرى .. وضربني المأمور بعصا كانت في يده . كان يقصد ضربي في مقتل ، إلا أن الضربة أصابتني في الورك . لم تصب الأعضاء الحساسة كما قصد وترتب عليها ورم في هذا المكان . ولأول مرة في حياتي استخدم القوة الجسدية والبذاءة اللفظية ، فلطمت المأمور على وجهه وأمسكت به من عنقه والقيت به أرضا وأنا أقول له ، يا ابن القحبة يا .... وكان الضرب ينهال عليّ» .

كانت المذبحة وشيكة بعد أن كان المأمور قد أعلن حالة الطوارىء، وبدأ ضرب الرصاص بالفعل ، الا أن نقيبين من

القوة أنقذا الموقف مخالفين أوامر المأمور ، وأسرعا بادخال المعتقلين العنابر وانزال العساكر الواقفين على السور بالمدافع الرشاشة ومنعهم من اطلاق النار. اكرام محارب كان واقفا بجوار لويس اسحق . فقد خرجا من العنبر بعد سماعهما الضجة فى الخارج .. يقول :

«كنت أقف إلى جوار محمد سيد احمد وعبدالعزيز رشوان ولويس اسحق وزميلين أو ثلاثة . كانوا فى تلك الاثناء يعتدون على الزملاء فى الحوش بالشوم . وكان هناك جنديان أو ثلاثة ينصبون مدفعا رشاشا فوق الادارة . وكان هناك ضابط يصرخ فى العسكر : ماذا تفعلون يا أولاد الكلب .. سوف أخرب بيوتكم .. فى تلك الاثناء جاءت طلقتان فى عمود كرة السلة الأسمنتى ، وتناثرت الطلقات فأصابت قطعة منها رقبة محمد سيد أحمد فانقطعت وتدلت ، إلا أن الاصابة كانت سطحية ، وأصيب عبدالعزيز رشوان فى ذراعه وكانت الدماء تسيل منسابة من أصابعه .. أما لويس اسحق فقد طار فى الهواء ، ثم وقع على الأرض عند مدخل العنبر وملأ الدم بنطلونه» .

هذا هو ماجرى طبقا لشهود العيان ، وأظن أن اغتيال الشهيد لويس اسحق كان مدبرا ، وكل الدلائل تؤكد أن أجهزة القمع والتعذيب حاولت عرقلة الافراج الوشيك، بافتعال معركة ثم يقال لعبدالناصر أن الشيوعيين تمردوا وهاجموا ادارة المعتقل وهتفوا ضده الخ الخ .

(٢٧)

«البيت الذى شهد وحدة الشيوعيين ووحدة الحزب لا يمكنْ أن يكون البيت الذى يناقش فيه حل الحزب..» !

هكذا أجابت الرفيقة أوديت - ميرثا عازر يوسف) أم نسيم) عضو الحزب على طلب أحد الرفاق القياديين فى حزب ٨ يناير بعقد اجتماع اللجنة المركزية فى بيتها لمناقشة حل الحزب !

أما أحمد الرفاعى عضو اللجنة المركزية لحدتو فيؤكد أنه لم يجر اتصال على الاطلاق بين معتقل الواحات والخارج حول حلّ الحزب . وكان قد كتب تقريرا عام ١٩٦٢ أشار فيه الى «احتمال قيام حزب واحد للاشتراكية العلمية» .. وفى تلك الاثناء - كما عبر لرفعت السعيد فى محضر نقاش أجراه معه - «تقدم ابراهيم عبدالحليم وعادل حسين وعلى نجيب بتقرير يطالبون فيه بحل الحزب والانضمام لعبدالناصر، ويضيف : «ان هذا مختلف تماما عن فكرتى» . ويضيف أيضا «وحتى بعد الافراج لم يكن هناك ضغط بالمعنى المفهوم . كانت هناك عروض ومفاوضات لتكوين حزب طليعى واحد وكان منير حافظ (واحد من رجالات النظام وشغل عدة مناصب اعلامية رسمية) ينقل مقترحات الى زكى مراد ومحمود العالم ومجموعة من رجال عبدالناصر تؤيد توحيد

الشيوعيين مع مجموعة عبدالناصر فى تنظيم واحد» ويبدو أن الراحل الكبير لم يلتفت كثيرا للضغوط التى وصلت الى حد التهديد بالعودة الى المعتقل من جانب «مراسيل النظام» كما أن محمود أمين العالم يقرر فى الجزء الخامس من «شهادات ورؤى» أنه قبل الافراج كانت توجد مراسلات عن طريق زكى مراد مع الخارج ودعوة لدخول التنظيم الطليعى».

وبينما أكد فؤاد مرسى لفخرى لبيب أنه لم يحدث أن طرحت هذه الفكرة داخل الواحات ولم تناقش الا بعد الخروج ، فإن البعض من رفاق ٨ يناير يشيرون الى أن هناك اتصالات ورسائل من الخارج ناقشت على هذا النحو أو ذاك مسألة الحل !

ومع ذلك ، فيبدو أن القوام الأساسى للتيارين الرئيسيين (رفاق حدتو ورفاق الحزب ، كانوا على وجه الاجمال، وعلى الأخص اللجان القاعدية والكوادر الوسيطة ضد الحل، ومن طرحوا تلك الفكرة طرحوها على استحياء ، ورفضت وجهة نظرهم بحسم .

وهنا أود أن أتوقف عند عدد من الأمور. الأمر الأول يتعلق بالدور الذى قامت به كتيبة الاستطلاع والانتشار السريع» ممن افرج عنهم قبل زملائهم وهرولوا بأقصى قدر من السرعة نحو الالتحاق بقطار نظام عبدالناصر بعد أن

فاتهم الموعد بالفعل من ناحية، والدعم اللوجستى الذى قدمه لهم رجال أخرون من رجال عبدالناصر ذوى المسحة اليسارية ، من ناحية أخرى ، وفى مقدمتهم محمد حسنين هيكل وأحمد فؤاد وخالد محيى الدين وأحمد حمروش ولطفى الخولى وعبدالرزاق حسن وابراهيم سعد الدين ومحمد الخفيف وميشيل كامل .. كل أولئك وربما غيرهم ممن غاب ذكرهم بسبب السهو والخطأ شاركوا بقدر وافر فى تمهيد الأرض لمواراة نعش الحركة الشيوعية الثرى ودخول الشيوعيين الحظيرة.

ففى منتصف عام ١٩٦٠ على وجه التقريب ، قرر عبدالناصر الافراج عن عدد من المعتقلين، وكان أغلبهم من المستقلين عن المنظمات الشيوعية ، وان كانوا ماركسيين على وجه العموم . من بينهم مثلا لطفى الخولى الذى حصل على صفحة فى الاهرام - بعد الافراج عنه - لإدارة الحوار بين الماركسيين وغيرهم من القوى التقدمية (ومن أغرب وأعجب ماعبر عنه لطفى الخولى على الاطلاق فى هذا الصدد ما ذكره على سبيل الجد وليس الهذر قائلا «كان التفكير ان الأهرام لابد وأن تجمع كل القوى الوطنية كجبهة وطنية تقدمية . ومن هنا يلزم أن تكون معنا كل العقول والرموز التى تمثل هذه الجبهة، خاصة وأن الرموز والقوى الاشتراكية غير

موجودة»!!! علامات التعجب الثلاث من عندى .. فلا النظام ولا هيكل ولا الأهرام يسمحون باستخدام الأهرام ، والأصح استخدام الأهرام وهيكل والنظام لهم .. وكل ما جرى هو السماح للماركسيين الرسميين بصفحة تحت السيطرة والحراب المباشرة لهيكل ومهمتها تجميل وجه النظام من جانب، وللتنفيس من جانب آخر!

أود أن أضيف هنا اننى لا أوجه اتهامات أخلاقية للماركسيين الرسميين الذين خاضوا معركة الانضمام للحظيرة وأكرر أن جمال عبدالناصر ونظامه والمجتمع الجديد الذى فرضه بالقمع المباشر من ناحية، والتغيرات ذات الطابع التقدمى» داخليا وخارجياً من ناحية أخرى، هي التى أدت إلي ماجرى من كوارث أعقبت التمهيد للدخول للحظيرة.

فلم يكن هدفهم مثلا الحصول على مكاسب مادية من أى نوع ، بل هى قناعة فكرية وسياسية بضرورة تدعيم كل ماهو ايجابى والبحث عن موطىء قدم لليسار الرسمى .

فيما بعد ، وحتى بعد الافراج ثم حل المنظمات ، ستظل كتيبة الاستطلاع والانتشار السريع مؤثرة فى المشهد البائس الذى تشكلت ملامحه بعد الافراج ، وسوف تتدخل بحكم العلاقات التاريخية سواء بينها وبين الشيوعيين المنظمين أو بينها وبين نظام يوليو ، بتمهيد الأرض الى هذا الحد أو ذاك ،

يشير لطفى الخولى مثلا فى حوار مع فخرى لبيب إلى أن صفحة الرأى فى الأهرام حاورت الكثيرين من الليبراليين والديمقراطيين وحتى المعادين للماركسية ، كما ساهمت فى التحضير للميثاق الوطنى الذى صدر عام ١٩٦٢ ، وفرضت - على حد قوله - قضية المثقفين كمدخل للقضية الاجتماعية والسياسية . ويمضى لطفى الخولى الى أبعد من ذلك مؤكدا أنها أعطت «لغة جديدة وليست فقط مضمونا جديدا ، وهى أيضا اللغة الاشتراكية، أعنى الثورية والنضال والصراع الطبقى والبورجوازية والتكتيك» .. والواقع أن كل ذلك كان خاليا من المضمون ، وكل مافى الأمر أن هناك قفصا تم اعداده جيدا وفى خضوع تام لقبضة هيكل يصدح داخل جدرانه الماركسيون الرسميون بما شاء لهم من ألحان فى الفضاء الواسع ، كما يتم استخدامهم عند اللزوم للضغط .. وعندما كتب عبدالرزاق حسن مثلا مقالا بعد تأميم بعض شركات الرأسمالى المعروف عبود باشا ، قال فيه أنه آن الآوان لتحديد الملكية واغلاق البورصة ، اعترض هيكل وقال له:

«احنا جايبينك علشان تؤيد والاّ تعارض..»!

ويضيف د. عبدالرزاق مايكشف عن أن هذا الدور على الرغم من محدوديته وفائدته للنظام ، إلا أنه كان كثيرا

مـايواجـه بعـداء من جـانب آجـهـزة الدولة . فـعندمـا تـشكل الاتحاد الاشتراكى طالب الماركسيون الرسميون بضرورة رفع العزل السياسى المفروض عليهم حتى يشاركوا فيه ، وبعد رفع العزل ، استبعدوا من الترشيح للوحدات واللجان المختلفة، وابلغ هيكل جمال عبدالناصر شخصيا الذى تدخل بنفسه بل «انفعل ورمى مابيده من أوراق» لعدم تنفيذ أوامره ! (فيما بعد سيستقيل حسن المصيلحى المسئول الأول عن مكتب مكافحة الشيوعية فى مصر احتجاجا على الافراج عن الشيوعيين!!) .

فى هذا السياق لابد أن أكرر ما سبق أن أشرت اليه حول انتشار «التنظيرة» الجديدة التى قدمها السوفييت عن التطور اللا رأسمالى وامكانية قيادة البورجوازية الصغيرة المعادية للاستعمار أوطانها نحو الاشتراكية مباشرة، وبالتالى ضرورة العمل معها من اجل انجاز الاشتراكية، وهى التنظيرة التى أسهمت ايضا فى «أدلجة» حل المنظمات، فمادام عبدالناصر يبنى الاشتراكية ، فإن علينا أن نخلع ملابس ونركض نحو القفص!

أما التنظيم الطليعى واشتراك الشيوعيين فيه ، فقد بدأ قبل الافراج باكثر من عام . وطبقا للميثاق الصادر عام ١٩٦٢ كان ينبغى البدء فى تشكيل جهاز سياسى يقوم بدور

الطليعة لقيادة الاتحاد الاشتراكي . وبالفعل - طبقا لما ذكره أحمد حمروش في كتابه «مجتمع جمال عبدالناصر» .. «ويفكر عبدالناصر فى تطبيق ماورد الميثاق حول الجهاز السياسى .. ويبدأ في التنفيذ بعد أسابيع من جلسات مباحثات الوحدة، ويعقد جمال عبدالناصر اجتماعا فى يونيو ١٩٦٣ يدعو اليه على صبرى محمد حسنين هيكل وأحمد فؤاد ويحضر سامى شرف سكرتيرا للجلسة» ويضيف أن عبدالناصر طلب أن يتصل «كل واحد من الحاضرين بمجموعة من الذين يثق فيهم وأن يشكل منهم خلايا لا يتجاوز عدد أفراد كل خلية عشرة أفراد .. وقال لأحمد فؤاد أنه يريد تنظيما منضبطا مثل التنظيمات الشيوعية، وانه لايوجد خلاف شديد مع الماركسية فى الوجهات الاقتصادية والاجتماعية» ويضيف ايضا «وأحمد فؤاد اتصل بى وبدأت فى تشكيل فرع كل أعضائه من التقدميين الثوريين .. وشكلنا لجنة قيادة من أحمد فؤاد ود. عبدالمعبود الجبيلى وأنا .. كما انضم اليها عدد من الشيوعيين الذين خرجوا من المعتقلات» .. وسوف أعود مرة أخرى لتناول مصيدة التنظيم الطليعى !

□□□

الأمر الثانى هو ماجرى فى أعقاب الافراج عن آخر المعتقلين الشيوعيين فى ٢٠ مايو ١٩٦٤ ، بمناسبة زيارة

سكرتير الحزب الشيوعي السوفيتي نيكيتا خروشوف لمصر للاشتراك فى احتفالات بناء السد العالى .

البادى للعيان طبقا للمصادر المختلفة أن القوام الاساسي للشيوعيين الذين خرجوا مثخنين بالجراح كانوا قد قاوموا الأفكار التى طرحت على استحياء حول حل المنظمات . وكانوا على نحو من الانحاء يشبهون أهل الكهف ، فمجتمع جمال عبدالناصر قد تم فرضه فى ظل آلة الدعاية الجبارة، والأهم فى ظل التغيرات الحقيقية لصالح الأغلبية الذين كان من الطبيعى أن ينحازوا لعبد الناصر، بينما هم قد خرجوا بعد خمس سنوات دامية معزولين .. يقول فؤاد مرسى لفخرى لبيب .. كان الجو العام الذى وجدنا فيه هو جو العزلة ، ليس جو اللقاء والتقبل والاندماج أو الترحيب بنا كأناس كانوا طلائع هذا الفكر وهذا العمل والرغبة، على الأقل، فى اعطائهم التقدير المعنوى لهم . كان النظام على العكس يحقق انجازات وله جهاز اعلامي رهيب فيما يتعلق بهذه الانجازات . والناس مشغولة بحياتها التى تتحسن بالفعل ولا تسوء . وهى معجبة بالنظام تمنحه ثقتها . والعمال بالذات وهم الطبقة الأساسية التى تمنح ثقتها للنظام وانجازاته فى التصنيع وميدان التأمينات والأجور» ويضيف «جو العزلة هو الذى صدمنى شخصيا ، وشعورى أن المجتمع يمكن أن يعيش

بدوننا هو الذى شغلنى . الفكر الاشتراكى الحق الماركسى اللينينى .. كيف يوجد فى هذا المجتمع ، هذه هى الفكرة التى شغلتنى» .

وفى الوقت نفسه لم يتوقف النظام لحظة عن الضغط على الشيوعيين بكل الأشكال . وإذا كان المعتقلون قد خرجوا، فإن ماواجهوه بعد خروجهم كان بالغ السوء . الاسر كانت تعيش بلا مورد تقريبا منذ خمس سنوات ، وأغلب مايتم توفيره يوجه للمعتقلين فى الواحات .

وإذا كان فؤاد مرسى يشير مثلاً إلى أن أسرته كانت تعيش على الإحسان من الآخرين، فيمكن تصور ظروف الأسر ذات الأوضاع الاكثر بؤساً مثل أسر العمال.

كان الضغط الأكثر انحطاطاً يتمثل فى وضع العراقيل أولاً أمام عودة المفرج عنهم إلى أعمالهم التى فصلوا منها بسبب اعتقالهم. وبعد موافقة أعلى سلطة فى البلاد – عبدالناصر – على ضرورة حل تلك المشكلة وتشكيل لجان لذلك الغرض، بدأ التسويف والمماطلة، ومن يوافقون على الحاقه بأى عمل، يراعى أولا أن يكون عملاً لا يتناسب مع خبراته ومؤهلاته، كما يراعى أن يكون الأجر دون الكفاف، وثانياً أن يكون بعيداً تماماً عن التأثير فى الآخرين. فعلى سبيل المثال جرى منع عودة إسماعيل صبرى عبدالله وفؤاد مرسى وعبدالرزاق حسن وهم خبراء كبار وأساتذة جامعيين

مرموقين إلى أعمالهم، وعندما حاولوا على مدى قرابة عام بعد خروج الأولين تحديداً - العودة وفشلوا، طالبوا على الأقل بالسماح لهم بالسفر إلى الخارج فجامعات العالم سوف تتخاطفهم، ورفض طلبهم، ثم بعد مماطلات ومساومات تم حل المشكلة وفق الشروط سالفة الذكر، على الأقل فى المراحل الأولى، ففيما بعد تولى فؤاد مرسى رئاسة مجلس إدارة شركة كبرى للسيارات فيما أظن وإسماعيل صبرى عبدالله دار المعارف أضخم دار نشر فى الشرق الأوسط آنذاك ومحمود أمين العالم رئاسة مجلس إدارة دار الكاتب للطباعة والنشر أو ما شابه .. إلخ.. (غير أن ذلك كله كان بعد أن تم عجم عودهم). وإذا أضفنا إلى كل ذلك ما كان يجرى مع العمال على وجه الخصوص ووضع المزيد من العراقيل والمماطلات والتسويف من أجل تعطيل التحاقهم بأى عمل لأدركنا إلى أى حد. كانت تلك الضغوط ثقيلة الوطأة، وأن النظام ظل حتى آخر لحظة يستخدم المنهج الاستعمارى البائس: «فرّق تسد»! يذكر مكرم الله مرقص مثلاً - وهو مثل دائم التكرار إن والد زوجته العامل بالسكة الحديد هو الذى أعال أسرته قبل وبعد الافراج، ويضيف أن زميليه عبدالسلام صقر وعبدالستار محمد كانا يسكنان مع أسرتيهما فى حجرة واحدة وكان لديهما جلباب واحد يتبادلان ارتدائه عند الخروج.

□□□

وعلى مدى ما يقرب من عام بين الافراج فى أواخر مايو ١٩٦٤ وحتى حل حدتو ثم حزب ٨ يناير فى مارس وابريل ١٩٦٥ على التوالى، جرت تحت الجسر مياه لم تتوقف. من ناحية كان رفاق حدتو يعتبرون أنفسهم حلفاء عبدالناصر وجنوده، وأقصى أمانيهم أن يسمح لهم عبدالناصر بدخول تنظيمه الطليعى كحلفاء له. وفى الوقت نفسه كانت الأرض قد سحبت من تحت أقدامهم، والشعارات التى طالما رفعوها تجاوزها الزعيم على أرض الواقع، كما كانوا معزولين بعد أن تقطعت كل الأواصر والعلاقات التى شيدوها فى صفوف العمال والطلاب ولجان الأحياء والمنظمات والهيئات على مدى عدة عقود (كان عبدالناصر قد ألغى وغيرّ كل شىء: النقابات والصحافة واتحادات الطلاب والنشاط الثقافى والفنى المستقل الخ الخ الخ واستبدل كل ذلك بطواقم جديدة تنتمى لأجهزة الأمن فى الأساس، وجرت أوسع عمليات التخريب التى طالت الروح للأسف، من ناحية أخرى.

وهكذا لم تكن الأوضاع الشخصية وحدها للمفرج عنهم بعد السنوات الدامية بالغة البؤس وقد وصلت إلى حد الجوع فعلياً وليس على سبيل المجاز، بل كان المجتمع ذاته الذى خرجوا إليه يرفضهم، أو على أحسن الأحوال لا يتذكرهم!

ولعل الأكثر عبثية أن تلك الممارسات كانت ترتكب مع من كانوا يعتبرون أنفسهم حلفاء عبدالناصر أى رفاق حدتو، الذين تحملوا

التعذيب والقمع والتحطيم والاعتقال والتشريد بل وتحملوا استشهاد رفاقهم تحت وطأة التعذيب، وظلوا حتى خروجهم وبعد خروجهم يدافعون عن عبدالناصر ونظامه ومواقفه واجراءاته. وهم هنا ليسوا مازوخيين في حقيقة الأمر كما يزعم بعض الكتبة وصبيتهم، فإيمانهم بـ عبدالناصر كان نابعاً من يقينهم بأن النظام يتجه بالفعل إلى الاشتراكية، وأن هناك أجنحة فى السلطة ترفرف وحدها بزعامة عبدالناصر تضم اشتراكيين، وأن الواجب هو دعم والدفاع عن الأجنحة الاشتراكية ضد الأجنحة الرجعية، لكنهم فى الوقت نفسه كانوا قد نسوا - أو تناسوا - ومنذ زمن طويل أن الدفاع عن حق التنظيم المستقل هو السبيل الوحيد للدفاع عن وجودهم ذاته، وأن التحالف مع عبدالناصر ليس شيكاً على بياض بل وفق برنامج محدد. غير أن عبدالناصر كان قد أجهز عليهم بنفيهم نفياً إجبارياً لخمس سنوات، ولم يعد لديهم فى الواقع الفعلي أى تأثير أمام كاريزما جبارة للزعيم الوطنى ولآلة دعايته الفتاكة وأجهزة قمعه التى لا تقل فتكاً بطبيعة الحال!

□□□

هؤلاء وأولئك، أى رفاق حدتو ورفاق الحزب أخطأوا بالقدر نفسه فى توقيع شهادة الدفن الرسمية. هؤلاء وأولئك أيضا أول من مارس النقد الذاتى تجاه هذا التوقيع واعترفوا اعترافا لا تنقصه الشجاعة بخطأهم، وعلى الأخص رفاق حدتو الذين كانوا أول من

أعاد بناء الحزب عام ١٩٧٥، أي بعد ما يقرب من عقد من السنين. في هذه النقطة تحديداً لا أحد يمكن أن يزايد عليهم، ولن تكاد تجد واحداً منهم يدافع عن قرار الحل، إلا أن المنظمات كانت محلولة فعلاً، وثمة ما يشبه الكابوس، وقرار الحل ليس إلا قراراً لواقع لا سبيل للفكاك منه أو تغييره.

على القارئ أن يضع في اعتباره أولاً أن الشيوعيين استبدلوا لفظ الحل الواضح الصريح بجملة أكثر شياكة وأناقة وهي «إنهاء الوجودا لمستقل»، كما أن المطروح أصلاً كان الاندماج بين حدتو كتنظيم والجهاز الطليعي.

في هذا السياق يأتي الأمر الثالث الذي أود التوقف عنده، وهو ما كنت قد أشرت إليه من قبل حين ذكرت ما أورده حمروش في كتابه «مجتمع جمال عبدالناصر» حول الاجتماع الذي عقد في يونيو ١٩٦٣ لتأسيس التنظيم الطليعي وحضره عبدالناصر وفي معيته محمد حسنين هيكل وعلي صبري وأحمد فؤاد وأحمد حمروش وسكرتارية سامي شرف، ويضيف في سيرته الذاتية «نسيج العمر» أن جمال عبدالناصر طلب بعد ذلك أن «نتصل رسمياً بقيادة التنظيمات الشيوعية لعقد حوار معها من أجل الوحدة في تنظيم واحد.. وقد بدأنا الاتصال فوراً بالتنظيمين الرئيسيين.. ومثلّ حدتو أحمد الرفاعي وزكي مراد وفؤاد حبشي». وعلى وجه السرعة أعدت خريطة كاملة بأعضاء حدتو وتسكينهم

مع أعضاء فرع حمروش وفى أماكنهم التى يعملون بها فى القاهرة والاسكندرية والأقاليم. كذلك «جرت عدة لقاءات مع فؤاد مرسى لم تنته إلى قرار واضح رغم موافقته على التعامل معنا من حيث المبدأ» ثم يقرر بوضوح لا لبس فيه: «وعندما حمل أحمد فؤاد الخريطة التى تحمل أسماء فرعنا مضافاً إليهم أعضاء حدتو أخذت الحاضرين (أى عبدالناصر وهيكل وسامى شرف) الدهشة من سرعة التنفيذ. ووضع الاقتراح الذى تقدم به جمال عبدالناصر شخصياً مع الخريطة التى أعددناها والاقتراحات التى حملها أحمد فؤاد على الرف نهائياً»!! علامات التعجب من عندى بطبيعة الحال.

وقد أكد لى الأستاذ أحمد حمروش فى مقابلة قصيرة جرت فى صيف ٢٠٠٥ أن شعراوى جمعة (وزير الداخلية وأحد المسئولين السياسيين فى الجهاز الطليعى آنذاك)، اتصل بحمروش بناء على كلام عبدالناصر ليطلب من عدد من ممثلى حدتو الانضمام للتنظيم الطليعى، وأنه سافر بالفعل إلى الاسكندرية لتسكين أعضاء حدتو السابقين فى لجان التنظيم. وهكذا فإن الأستاذ حمروش قام فى الواقع بجهود متواصلة، سواء قبل أو بعد الافراج لإدخال الشيوعيين الحظيرة!!

غير أنه لا اجتماع يونيو ١٩٦٢، ولا الاجتماع الذى عقد بعد ذلك بعام تقريباً بعد الافراج، قد أسفر عن شىء إيجابى إلا

الايحاء الذى انطلى على الجميع (الحقيقة أنهم كانوا يريدون أن ينطلى ذلك الايحاء عليهم) وهو أن الأمر جدى. وإذا أضفت إلى ذلك بعض الوقائع المتناثرة لتأكد القارىء أنه لا شىء جدياً كان يجرى. فهناك مثلاً من تم مفاتحتهم فى الانضمام ووافقوا، ثم انتظروا أن يتصل بهم أحد حسب الاتفاق، لكن لم يعاود أحد الاتصال بهم، أما محمود أمين العالم فيتمتع بوضع خاص، لأنه توجه فى اليوم التالى للافراج عنه بصحبة أحد الأصدقاء بناء على طلب سامى شرف لمقابلة الأخير والاتفاق على الانضمام للتنظيم الطليعى فى لجنة كان مسئولها سامى شرف بنفسه واعضاؤها حسن فؤاد وطلعت المرصفى وحسام عيسى.

وفى الوقت نفسه، وعلى مدى العام الذى أعقب الافراج، وفى ظل كل تلك الظروف السابق ذكرها، كانت محاولات اقرار الحل واتخاذ قرار سريع بشأنه تجرى على قدم وساق. من جانب يذكر كثير من رفاق القواعد واللجان الوسيطة أنهم فوجئوا بقرار الحل وأنه تم استبعادهم من الاجتماعات التى أصدرت قرارات الحل. ومن جانب آخر كان هناك قرار من حدتو بأن من ينضم للتنظيم الطليعى تتوقف عضويته فى المنظمة «اثباتاً لحسن النية والمزيد من تدعيم النظام» لذلك كانت الأرض ممهدة تماماً.

وعندما عقدت حدتو الكونفرنس الأول بعد الافراج لمناقشة الحل فى بيت يوسف صديق بالهرم لم تتوصل إلى شىء. أما

الكونفرنس الثاني في مارس ١٩٦٥، فقد كان أغرب سرادق عزاء كوميدي يمكن تصوره في التاريخ، حيث قرر أن تقتصر المنظمة على المسئول السياسي الذي ينتخبه هذا الاجتماع تجسيداً لفكر حدتو عن الحزب الواحد وارادتها التي لم تتحقق بعد وهي أن يضم هذا الحزب كل اعضائها» ثم أنهى العضوية والالتزام الحزبي لباقي الأعضاء وجرى تسريحهم من وقت صدور القرار. أما المسئول السياسي الذي انتخب فهو كمال عبدالحليم الذي بادر في اليوم التالي مباشرة (١٤ مارس ١٩٦٥) إلى مكتب تلغراف التحرير فأرسل البرقية التالية:

مستعجل السيد الرئيس جمال عبدالناصر قائد الثورة

ورئيس الجمهورية. مصر

إن أجمل ما نقدمه لك في هذه المناسبة التاريخية أن مندوبي الحزب الشيوعي المصري «حدتو» في اجتماعهم الذي عقدوه اليوم «هناك بعض المصادر تؤكد أن الاجتماع عقد في اليوم السابق!!» قد قرروا فيه انهاء تنظيمهم المستقل إيماناً منهم بما تدعون إليه من وحدة القوى الاشتراكية في تنظيم سياسي واحد للثورة، وبأن هذا الحزب الواحد للثورة هو البديل للتنظيم المستقل وهم على الرغم من أنهم معزولون عن العمل السياسي وليس لهم حق الانتخاب يرسلون إليك أصواتهم ينتخبونك بالاجماع رئيساً للجمهورية وقائداً للثورة وقائداً لحزبها السياسي الواحد المناضل.

عنهم كمال عبدالحليم

وكما يرى القارىء: اجتماع كوميدى بكل المقاييس. غاب عنه عدد من قادة حدتو وأعضاء لجنتها المركزية ممن كانوا يواصلون نضالهم (!!) فى التنظيم الطليعى، كما استبعد منه عدد آخر، والباقون كان من بينهم عدد محدود جداً رفضوا الحل. ويكمن الموقف الكوميدى بالتحديد فى قيام كمال عبدالحليم فى يوم الاجتماع نفسه - أو فى اليوم التالى فلا فرق - بإنهاء الوجود المستقل طبقاً للسلطات المخولة له فى قرار الحل وارسال برقية لجمال عبدالناصر ينتخبه فيها التنظيم المنحل!! وتتواصل الكوميديا عندما يذكر د. أحمد القصير فى «شهادات ورؤى» أنه بعد انتهاء جلسة المؤتمر الذى أعلن إسقاط العضوية «عقد أربعة أشخاص من الذين حضروه ووقعوا على بيانه اجتماعاً فى اليوم نفسه لتأسيس التيار الثورى تأكيداً للفكرة الواردة فى البيان الصادر عن المؤتمر المشار إليه. وجرى الاجتماع فى كافيتريا الشاى الهندى بشارع طلعت حرب. ولم يتم الاعلان عن تأسيس حزب جديد. لكن النشاط الذى بدأ كان شديد التنظيم سواء بالنسبة للتدرج التنظيمى الهرمى أو فى توزيع المسئوليات فى مختلف المحافظات لاعادة النشاط الحزبى، وحاولت عملية إعادة النشاط الحزبى ضم الزملاء القدامى من جانب، وتجنيد زملاء جدد من جانب آخر. كما شملت هذه العملية مناطق عديدة أذكر

منها القاهرة والاسكندرية وبورسعيد والدقهلية ودمياط والشرقية وأسوان» حتى هنا فلا بأس أن يكون الكلام خيالياً بعض الشيء، أما فاصل الكوميديا الفارس فيكمن في أن مقدمة الأربعة الذين عقدوا اجتماع دار الشاى الهندى كمال عبدالحليم - نعم كمال عبدالحليم نفسه الذى أرسل البرقية إياها - وأنهى الوجود المستقل بقرار منه ! أى أنه حل حدتو باليمين وأسس التيار الثورى باليسار! ويضيف د. القصير أن الأربعة المؤسسين كانوا فضلاً عن كمال عبدالحليم والقصير كل من محمد عباس فهمي وطاهر البدرى.

والحقيقة أن التيار الثورى كان اختراعاً مدهشاً بكل المقاييس، ويتسق تماماً مع حالة التخبط والعجز والضياع، على الرغم من أن كثيراً من أعضاء تلك المجموعة قاموا بنشاط إلى هذا الحد أو ذاك، فوقفوا خلف مرشح يسارى للبرلمان هو قبارى عبدالله فى دائرة قصر النيل، كما تعرضوا لفترات اعتقال متفرقة. يمكن بالطبع فهم حرصهم على عدم الاعلان عن تأسيس حزب لدواع أمنية فى تلك الفترة البالغة التوتر، إلا أنه كان مع ذلك .. «اختراع مدهش»!!

قبل أن يمر الشهر التالى كان رفاق حزب ٨ يناير قد حلّوا منظمتهم مستخدمين الجملة الأكثر أناقة وشياكة «انهاء الشكل المستقل للحزب الشيوعى المصرى وتكليف كافة اعضائه «بالتقدم

- كأفراد - لطلب عضوية الاتحاد الاشتراكى العربى والنضال من أجل تكوين حزب اشتراكى واحد يضم كل القوى الثورية فى بلادنا»..

كان الأمر بكامله ورطة وكابوساً وضياعاً يعكس الأزمة التى بدت بلا مخرج. الوجود المستقل لكلا المنظمتين كان وهماً من الناحية الفعلية، وفى الوقت نفسه كان متعيناً دفن الميت بأى شكل حتى لو كان الوهم أن هناك تنظيماً طليعياً سيدخل الجميع إليه للدفاع عن منجزات الثورة.

بعد عدة أيام وجهت الأمانة العامة للرقابة والنشر بالاتحاد الاشتراكى العربى رسالة للسيد عبدالرؤوف سامى شرف سكرتير السيد الرئيس للمعلومات فى ١٩٦٥/٥/١٨ - سرى جدا» وعنوانها «تحليل البيان الأخير للحزب الشيوعى المصرى».. تناولت الرسالة فى حقيقة الأمر البيانين معاً أى بيان حدتو وبيان حزب ٨ يناير، لتبصير المسئولين جميعاً بالمؤامرة التى يحيكها الشيوعيون الذين يشعرون فى بيانهم «بالحرج والضعف بالنسبة لأخطائهم الكثيرة وماضيهم المشين الذى لا يخلو من غدر وخيانات» كما يهاجم البيان مجرد اشارتهم فى بيانى انهاء الوجود المستقل لاختلافاتهم مع بعض القضايا الفكرية» الواردة فى الميثاق . والأكثر إثارة أن رسالة الأمانة العامة لا تعتبر «انهاء الوجود المستقل» حلاً للحزب أو حدتو، خصوصاً أن أولئك الشيوعيين

الملاعيين تجرأوا وأبدوا تحفظات «بعضها صريح وبعضها غير واضح» كما أنهم يسعون فقط للاستفادة من امكانيات الاتحاد الاشتراكي، وهو ما يستدعي أن ننتبه لمحاولتهم الخبيثة، ودعوتهم ليست إلا «وسيلة مكشوفة لتخدير العناصر الاشتراكية المخلصة للثورة والميثاق، والاستعداد للانقلاب ضدها» ويضيف البيان التحليلي» ومما يدل على تكتلهم وتدبيرهم المفضوح للسيطرة على الحزب الاشتراكي الواحد من الداخل فى البيان أن «انهاء الشكل التنظيمي للحزب لا يعنى التقاعد أو السلبية أو هجران النشاط السياسي في البلاد» وهم الآن يحاولون تكوين نقط ارتكاز داخل التنظيم السياسي ورؤوس جسور في القواعد الجماهيرية.

وقع الرسالة السيد محمد أبو الفضل بدران عضو الأمانة العامة للرقابة والنشر، ووزع منها ٢٣ نسخة «سرى جداً». خمسة من تلك النسخ أرسلت لمديرى مكاتب نواب رئيس الجمهورية وبقية النسخ لرئيس الوزراء وعدد من الوزراء إلى جانب مدير مكتب السيد رئيس المخابرات العامة وأعضاء الأمانة العامة بالاتحاد الاشتراكي. أي أنها كانت سرية جداً كما يرى القارىء! ومنذ السطور الأولى ونبرة الاحتقار والازدراء الفظ غالبة على سطور التحليل. فتعليقاً على اشارة بعض الصحف لقرارى إنهاء الوجود المستقل يقول التحليل أن الشيوعيين حاولوا «خلع أهمية على تنظيماتهم التي لم تكن في يوم من الأيام معترفاً بها من الحكومة،

كما لم تكن موضع احترام أو اعتراف الدوائر الشيوعية الدولية».

اكتفى بهذه النتف القليلة، ولعلها أوضح بذاتها من أى تعليق.

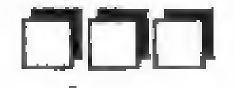
أظن أن الأمر كله لم يكن جدياً، ولم يكن الشيوعيون يملكون أية أوراق للعب، واختار جمال عبدالناصر عدداً منهم وثق فيه واحتاج لكفاءته وسرّح الباقين!

لن استطرد كثيراً، فبعد أقل من عامين كشف النظام الجبار عن هشاشة لا نظير لها حين تعرضنا لأقسى هزيمة فى تاريخنا الحديث فى يونيو ١٩٦٧، وهى هشاشة أصابت النظام بكامله وليس القوات المسلحة وحدها. ربما فى تلك اللحظة تحديداً استيقظ الكثيرون وأدركوا إلى أى حد كان حل المنظمات والالتحاق بذيل النظام والتخلى عن الوجود المستقل ليست مجرد أخطاء بل هى كوارث، ولا سبيل إلا الدفاع عن حق الوجود المستقل، وهى الفريضة التى ظلت غائبة عن الشيوعيين وعبدالناصر معاً!!

أكرر أننى هنا لست قاضياً ولا حكماً، فشيوعيو الحلقة الثانية جزء فاعل وأساسى فى الحياة السياسية والفكرية المصرية، ولابد من الاستفادة من تجربتهم الثرية.

مدينة ٦ أكتوبر

ابريل ٢٠٠٥ – نوفمبر ٢٠٠٦



هــــذا الــكـتــاب

في صيف عام ١٩٤٧، توحدت المنظمتان الشيوعيتان السريتان : الحركة المصرية للتحرر الوطني وأيسكرا، في تنظيم جديد هو الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني (حدتو) . لعب هذا التنظيم دوراً أساسياً ، ليس فقط بين المنظمات الشيوعية العديدة ، بل في الحياة السياسية المصرية ، وشارك بقوة في انقلاب الضباط الأحرار عام ١٩٥٢، وفي كل ما تلى ذلك من أحداث ووقائع مثل مقاومة العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ ، عندما تعامل عبدالناصر مع حدتو باعتبارها منظمة مستقلة أسهم كوادرها من داخل بورسعيد - بعد احتلالها - في دحر العدوان، وقاتلوا المعتدين وجهاً لوجه .

وعلى نحوٍ يتداخل فيه السرد التاريخي والفني والمقابلة الشخصية وإعادة قراءة تراث شيوعيي الحلقة الثانية، يتابع الكتاب الوقائع والأحداث داخل المنظمات السرية المختلفة ، ثم سنوات التعذيب المروع منذ فجر الأول من يناير ١٩٥٩، وحتى صيف ١٩٦٤، حين أفرج عن الشيوعيين بعد اعتقال دام خمس سنوات متواصلة ، وبعد شهور من الضغط والتهديد تم حل حدتو ، وهي الخطيئة التي لم يغفرها أبناء حدتو لأنفسهم مطلقاً .

المؤلف



□ محمود الوردانى

□ من مواليد القاهرة - حى شبرا .

□ يكتب الرواية والقصة القصيرة واشتغل بالصحافة ومازال يشتغل بها .

□ له عدد كبير من المجموعات القصصية والروائية التى ترجم بعضها للإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية مثل «السير فى الحديقة ليلاً» و«نوبة رجوع» و«النجوم العالية» .. و«رائحة البرتقال» و«فى الظل والشمس» و«طعم الحريق» و«الروض العاطر» و«أوان القطاف» و«موسيقى المول» . وله أيضا كتاب «ثمن الحرية» على هامش التاريخ السياسى والإجتماعى الحديث و«مائة عام من الحكى» مختارات ودراسة وغيرها .

رقم الإيداع
٢٠٠٧/١٤٥٨٤
I.S.B.N
977- 07- 1354 -X